

الجامع لأحكام القرآن

والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

محمّد رضوان جريسوي خالدة العواد

محمد معتز كريم الدين

الجزء الثاني عشر

مؤسسة الرسالة

جميع الحقوق محفوظة للنّاشِر

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



مؤسسة الرسالة
طى المصيبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت - لبنان
للطباعة والنشر والتوزيع تليفاكس: ٣٩٠٣١٩ - ٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب.: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah

PUBLISHERS

BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل.
وقال ابن عباس وقتادة: مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة؛ وهما قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا قُرْءَانًا سِطْرًا فِي الْأَجْبَالِ﴾ [إلى آخرهما] ^(١).

قوله تعالى: ﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ تقدم القول فيها ^(٢). ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: وهذا القرآن الذي أنزل إليك. «مِنْ رَبِّكَ» هو ^(٣) «الْحَقُّ»، لا كما يقول المشركون: إنك تأتي به من تلقاء نفسك، فاعتصم به، واعمل بما فيه. قال مقاتل: نزلت حين قال المشركون: إنَّ محمداً أتى بالقرآن من تلقاء نفسه ^(٤).

«والذي» في موضع رفع عطفاً على «آيَاتُ»، أو على الابتداء، و«الحق» خبره؛ ويجوز أن يكون موضعه جراً على تقدير: وآيات الذي أنزل إليك، وارتفاع «الحق» على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره: ذلك الحق؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ١٤٦-١٤٧]. يعني: ذلك الحق ^(٥).

(١) النكت والعيون ٩١/٣، وما بين حاصرتين منه، وينظر زاد المسير ٢٩٩/٤.

(٢) ٢٣٧/١ وما بعدها.

(٣) قوله: هو، ليس في (م).

(٤) تفسير البغوي ٥/٣.

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣٤٩/٢، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٣٩٦/١.

قال الفراء^(١): وإن شئت جعلت «الذي» خفضاً نعتاً للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال: أتانا هذا الكتاب عن أبي حفص والفاروق [وأنت تريد عمر بن الخطاب]؛ ومنه قول الشاعر:

إلى المَلِكِ الْقَرْمِ وابنِ الْهُمَامِ وَلَيْتَ الْكِتَابِ فِي الْمُرْدَحَمِ^(٢)
يريد: إلى المَلِكِ الْقَرْمِ ابنِ الْهُمَامِ لَيْتَ الْكِتَابِ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآية. لما بين تعالى أن القرآن
حق، بين أن من أنزله قادرٌ على الكمال؛ فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته.
وقد تقدّم هذا المعنى.

وفي قوله: «بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا» قولان: أحدهما: أنها مرفوعةٌ بغيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا،
قاله قتادة وإياس بن معاوية وغيرهما. الثاني: لها عَمَدٌ، ولكننا لا نراها^(٣). قال ابن
عباس: لها عَمَدٌ على جبل^(٤) قاف؛ ويمكن أن يقال على هذا القول: العَمَدُ قُدرته
التي يُمَسِّكُ بها السماوات والأرض، وهي غيرُ مرئية لنا، ذكره الزجاج^(٥).

(١) في معاني القرآن ٥٨/٢ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) سلف هذا البيت ٨٥/٢ ، وقوله: الْقَرْمُ: السَّيِّد.

(٣) أخرج هذين القولين الطبري ٤٠٩/١٣ - ٤١١ ، وقال القول الأول أولى الأقوال بالصحة.

(٤) قوله: جبل، من (م)، وقاف: جبل محيط بالدنيا، كما في معاجم اللغة. والأثر أورده ابن الجوزي في
زاد المسير ٣٠١/٤. وهو بنحو القول الثاني السالف. قال الرازي في تفسيره ٢٣٢/١٨: وهذا التأويل
في غاية السقوط.

(٥) في معاني القرآن ١٣٦/٣ .

وقال ابن عباس أيضاً: هي توحيد المؤمن. أُغْمِدَت السماء حين كادت تَنْفَطِرَ من كفر الكافر، ذكره الغزنوي^(١). والعَمَدُ جمعُ عمود؛ قال النابغة:

وَحَيْسِ الْجِنَّ إِنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَذْمُرَ بِالصُّفَاحِ وَالْعَمَدِ^(٢)

﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدم الكلام فيه^(٣). ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، أي: ذلّلهما لمنافع خلقه ومصالح عباده، وكلُّ مخلوقٍ مُذَلَّلٌ للخالق. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معلوم، وهو فناء الدنيا وقيام الساعة التي عندها تُكْوَرُ الشمس، ويخسف القمر، وتتكبد النجوم، وتشتت الكواكب^(٤).

وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي ينتهيان إليها لا يجاوزانها^(٥).

وقيل: معنى الأجل المسمى أن القمر يقطع فلكه في شهر، والشمس في سنة^(٦). ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، أي: يصرفه على ما يريد. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾، أي: يبينها، أي: من قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة^(٧)؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ يَفْقَهُوْنَ تَوْفِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَتَهَرًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْأَيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ لما بين آيات السماوات بين آيات الأرض،

(١) صاحب كتاب عيون المعاني، كما ذكر المصنف ٢/ ٢٧٤، وتنتظر ترجمته ثمة.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٣٣. وقوله: حَيْسِ، أي: ذلّل. والصُّفَاح: حجارة رقائق عراض، واحدها: صَفَاحَة. اللسان (خيس) و(صفح).

(٣) ٢٣٨/٩ - ٢٤٠.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤١١ - ٤١٢.

(٥) تفسير البغوي ٦/ ٣.

(٦) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢٣٣، ومجمع البيان ١٣/ ١٣٨.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٦.

أي: بَسَطَ الْأَرْضَ طَوْلًا وَعَرْضًا. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، أي: جبلاً ثوابت؛ واحداً راسية؛ لِأَنَّ الْأَرْضَ تَرْسُو بِهَا، أي: تثبت، والإرساء الثبوت^(١)؛ قَالَ عَشْرَةٌ^(٢):
فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِّذَلِكَ حُرَّةً تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطْلُعُ
وقال جميل^(٣):

أَحِبُّهُ^(٤) وَالَّذِي أَرْسَى قَوَاعِدَهُ حُبًّا إِذَا ظَهَرَتْ آيَاتُهُ بَطَنًا
وقال ابن عباس وعطاء: أَوَّلُ جَبَلٍ وُضِعَ عَلَى الْأَرْضِ أَبُو قُبَيْسٍ^(٥).

مسألة^(٦): فِي هَذِهِ الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْأَرْضَ كَالْكُرَةِ، وَرَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْأَرْضَ تَهْوِي أَبَدًا بِمَا عَلَيْهَا^(٧)؛ وَزَعَمَ ابْنُ الرَّائِدِيِّ^(٨) أَنَّ تَحْتَ الْأَرْضِ جَسَماً صَعَاداً كَالرِّيحِ الصَّعَادَةِ؛ وَهِيَ مُنْحَدِرَةٌ فَاعْتَدَلَ الْهَآوِي وَالصَّعَادِي فِي الْجِزْمِ وَالْقُوَّةِ فَتَوَافَقَا.

وَزَعَمَ آخَرُونَ أَنَّ الْأَرْضَ مُرَكَّبَةٌ مِنْ جَسْمَيْنِ، أَحَدُهُمَا مُنْحَدِرٌ، وَالْآخَرُ مُصْعَدٌ،

(١) تفسير الطبري ١٣/٤١٣ - ٤١٤ ، والنكت والعيون ٣/٩٢ .

(٢) فِي دِيْوَانِهِ ص ٤٩ ، وَسَلَفَ ٢/٦٥ .

(٣) كَذَا نَسَبَهُ الْمَآوِرِيُّ فِي النَّكَتِ وَالْعِيُونِ ٣/٩٢ ، وَنَقَلَ الْمُصَنِّفُ عَنْهُ ، وَلَمْ يَقِفْ عَلَيْهِ فِي دِيْوَانِهِ ، وَنَسَبَ فِي الْأُزْمَنَةِ وَالْأَمَكَةِ لِلْمَرْزُوقِيِّ ٢/٣٢٦ ، وَمَعْجَمُ الْبُلْدَانِ ٤/٣٧٤ لِأَعْرَابِيٍّ .

(٤) فِي النَّسَخِ: أَحِبُّهَا ، وَالْمُثَبِّتُ مِنَ الْمَصَادِرِ السَّابِقَةِ ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: «أَحِبُّهُ» يَعُودُ عَلَى مَا فِي الْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ:

سَلَّمَ عَلَى قَطْنٍ إِنْ كُنْتَ نَازِلَهُ سَلَامٌ مَنْ كَانَ يَهْوِي مَرَّةً قَطْنًا
وَقَطْنٌ: جَبَلٌ كَثِيرُ النَّخْلِ وَالْمِيَاهِ لِبَنِي عَبَسَ .

(٥) النَّكَتُ وَالْعِيُونُ ٣/٩٣ ، وَتَفْسِيرُ الْبَغَوِيِّ ٣/٦ . وَأَبُو قُبَيْسٍ: جَبَلٌ مُشْرِفٌ عَلَى مَسْجِدِ مَكَّةَ . مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ ٤/٣٠٨ .

(٦) كَلَامُ الْمُصَنِّفِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا يُلْتَمَسُ إِلَيْهِ . وَوَقَعَ فِي (ظ): قَلْتُ ، بَدَلُ: مَسْأَلَةٍ .

(٧) فِي (د) وَ(ز) وَ(م): تَهْوِي أَبْوَابُهَا عَلَيْهَا . وَالْمُثَبِّتُ مِنْ (ظ) .

(٨) أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ إِسْحَاقَ أَبُو الْحُسَيْنِ الزَّنْدِيقِيُّ الشَّهِيرُ ، كَانَ أَوَّلًا مِنْ مُتَكَلِّمِي الْمَعْتَزَلَةِ ، ثُمَّ تَزَنَّقَ ، وَاشْتَهَرَ بِالْإِلْحَادِ ، صَنَفَ كِتَابًا كَثِيرًا يَطْعَنُ فِيهَا عَلَى الْإِسْلَامِ . مَاتَ سَنَةَ (٢٩٨هـ) لِسَانَ الْمِيزَانِ ١/٣٢٣ .

فاعتدلا ، فلذلك وقفت. والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القولُ بوقوفِ الأرض وسكونها ومدّها، وأنَّ حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيُّها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنهَرَّا﴾ أي: مياهاً جاريةً في الأرض، فيها منافعُ الخلق.

﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني ^(١) صنفين. قال أبو عبيدة ^(٢): الزوج واحدٌ، ويكون اثنين. الفراء ^(٣): يعني بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى. وهذا خلاف النص.

وقيل: معنى «زَوْجَيْنِ» نوعان، كالحُلُو والحامض، والرَّطْبِ واليابس، والأبيض والأسود، والصغير والكبير ^(٤).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾، أي: دلالاتٍ وعلاماتٍ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وُجُنَّتْ مِّنْ أَعْتَابٍ وَزَرْعٌ وَمِغِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُقْضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ﴾ في الكلام حذفٌ، المعنى:

وفي الأرض قطع متجاوراتٌ وغير متجاورات، كما قال: ﴿سَرِيلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، والمعنى: وتقيكم البردَ، ثم حذف لعلم السامع. والمتجاورات: المدنُ وما كان عامراً، وغير متجاورات: الصحارى وما كان غير عامر ^(٥).

(١) في (د) و(م): بمعنى.

(٢) في مجاز القرآن ١/٣٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٥٨/٢.

(٤) زاد المسير ٣٠٢/٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤٦٩/٣.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مُتَجَوِّرَاتٌ﴾، أي: قُرَى متدانيات، ترابُّها واحدٌ، وماؤها واحد، وفيها زروعٌ وجنات، ثم تتفاوت في الثمار والتمر؛ فيكون البعض حُلُوءاً، والبعض حامضاً، والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصَّغَر والكِبَر واللون والطَّعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نَسَقٍ واحد، وفي هذا أدلُّ دليلٍ على وحدانيته وعِظَم صَمَدِيَّتِهِ، والإرشادُ لمن ضلَّ عن معرفته، فإنه نَبَّه سبحانه بقوله: «تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ» على أنَّ ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدورٌ بقدرته؛ وهذا أدلُّ دليلٍ على بطلان القول بالطَّبيع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطَّبيعة لَمَا وقع الاختلاف.

وقيل: وجهُ الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البِقاع، فَمِنْ تربة عَذْبَةٍ، ومن تربة سَيِّخَةٍ مع تجاورهما^(١)، وهذا أيضاً من دلالات كمال قدرته، جلَّ وعزَّ؛ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلوًّا كبيراً^(٢).

الثالثة: ذهبت الكفرة - لعنهم الله - إلى أنَّ كلَّ حادثٍ يَحْدُثُ بنفسه لا من صانع، وادَّعوا ذلك في الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقرُّوا بحدوثها، وأنكروا مُحْدِثَهَا، وأنكروا الأعراض. وقالت فرقة بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلاً.

والدليلُ على أنَّ الحادثَ لا بدَّ له مِنْ مُحْدِثٍ أنه يَحْدُثُ في وقت، وَيَحْدُثُ ما هو من جنسه في وقت آخر، فلو كان حدوثه في وقته لا اختصاصه به؛ لوجب أن يَحْدُثَ في وقته كلُّ ما هو من جنسه، وإذا بطل اختصاصه بوقته؛ صحَّ أن اختصاصه به لأجل مُخَصَّصٍ خَصَّصَهُ به، ولولا تخصيصه إيَّاه به لم يكن حدوثه في وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده، واستيفاء هذا في علم الكلام.

(١) في النسخ الخطية: تجاورها، والمثبت من (م).

(٢) ينظر تفسير الرازي ٦/١٩ - ٧، وزاد المسير ٤/٣٠٣ - ٣٠٤.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّتْ مِّنْ أَغْتَبٍ﴾ قرأ الحسن: «وَجَنَّتْ»^(١) بكسر التاء على تقدير^(٢): وجعل فيها جنات، فهو محمولٌ على قوله: «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّ». ويجوز أن تكونَ مجرورةً على الحمل على «كلّ». التقدير: ومن كلّ الثمرات، ومن جَنَّتْ^(٣). الباقون: «جَنَّتْ» بالرفع على تقدير: وبينهما جنات^(٤).

﴿وَزَرْعٌ وَيَخِيلٌ صُنُونٌ وَعَيْرُ صُنُونٍ﴾ بالرفع: ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفاً على الجَنَّتْ، أي: على تقدير: وفي الأرض زَرْعٌ ونخيل. وخَفَضَهَا الباقون نَسَقاً على الأعناب^(٥)، فيكون الزرع والنخيل من الجَنَّتْ، ويجوز أن يكونَ معطوفاً على «كُلِّ» حسب ما تقدّم في «جَنَّتْ».

وقرأ مجاهد والسلمي وغيرهما: «صُنُونٌ»^(٦) بضم الصاد، الباقون بالكسر، وهما لغتان، وهما جمع صُنُو، وهي النَّخْلَات والنَّخْلَتَان، يجمعهنَّ أصلٌ واحدٌ، وتشعّب منه رؤوسٌ فصير نخيلاً، نظيرها قِنُون، واحداً قِنُو^(٧).

وروى أبو إسحاق عن البراء قال: الصُّنُون: المُجْتَمِع، وغيرُ الصُّنُون: المُتَفَرِّق^(٨)، النحاس^(٩): وكذلك هو في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر: صُنُون.

(١) القراءات الشاذة ص ٦٦ .

(٢) في (ظ): وتقدير، وفي (م): على التقدير.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣٥٠/٢ .

(٤) أو بالعطف على «قطع».

(٥) السبعة ص ٣٥٦ ، والتيسير ص ١٣١ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣٥٠/٢ ، والحجة لأبي علي الفارسي ٦/٥ .

(٦) القراءات الشاذة ص ٦٦ ، والمحتسب ٣٥١/١ .

(٧) ينظر تفسير الطبري ٤٢١/١٣ ، وتهذيب اللغة ٢٤٣/١٢ .

(٨) أخرجه الطبري ٤٢١/١٣ . وأبو إسحاق: هو عمرو بن عبد الله السبيعي.

(٩) في معاني القرآن ٤٧٠/٣ . وما قبله منه.

والصُّنُو: المِثْل؛ ومنه قولُ النبي ﷺ: «عَمُ الرَّجُلُ صِنُو أَبِيهِ»^(١). ولا فرق فيها بين التثنية والجمع، إلا بالإعراب^(٢)، فتعربُ نون الجمع، وتكسر نون التثنية؛ قال الشاعر:

العلم والحلمُ خَلَّتَا كَرَمَ للمرءِ زَيْنٌ إذا هُمَا اجْتَمَعَا
صِنُوَانِ لَا يُسْتَتَمُ حُسْنُهُمَا إِلَّا بِجَمْعٍ لَذَا^(٣) وَذَاكَ مَعَا
الخامسة: قوله تعالى: ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ كصالح بنِ آدمَ وَحَبِيثِهِم، أبوهم واحد؛ قاله البخاري^(٤).

وقرأ عاصمٌ وابنُ عامر: «يُسْقَى» بالياء، أي: يُسقى ذلك كله. وقرأ الباقر بالتاء^(٥)، لقوله: «جَنَاتٌ»، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد^(٦)؛ قال أبو عمرو: والتأنيث أحسن؛ لقوله: ﴿وَيُقْضَلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ ولم يقل: بعضه^(٧).
وقرأ حمزةٌ والكسائي وغيرهما: «وَيُقْضَلُ»^(٨) بالياء ردًا على قوله: «يُدَبَّرُ الْأَمْرُ»، و«يُقْضَلُ»، و«يُغْشَى». الباقر بالنون على معنى: ونحن نُفْضَلُ^(٩).

وروى جابر بنُ عبد الله قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول لعليٍّ عليه السلام: «الناسُ من شجرٍ

(١) أخرجه أحمد (٨٢٨٤)، ومسلم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة عليه السلام، وفيه قصة مُنَعِ ابنِ جَمِيل وخالد بن الوليد والعبَّاس عليه السلام الصدقة، وهي عند البخاري (١٤٦٨) دون قوله: «عم الرجل صنو أبيه».

(٢) في (د) و(ز) و(م): ولا بالإعراب. وينظر تفسير الطبري ٤٢١/١٣.

(٣) في (د) و(ز) و(م): بجمع ذا، وهو كذلك في النكت والعيون ٩٣/٣ (والبيتان فيه) والمثبت من (ظ)، والبيتان أيضاً في عيون الأخبار ١٢١/٢، وتاريخ دمشق ٦/٧، ونسبهما ابن عساكر لسابق بن عبد الله اليزيدي.

(٤) في (م): قاله النحاس والبخاري. وعلَّقه البخاري عن مجاهد في أول تفسير سورة الرعد.

(٥) السبعة ص ٣٥٦، والتيسير ص ١٣١.

(٦) في (م): وأبو عبيدة، ويَعْدُهُ في (ز): قال أبو عبيدة: قال أبو عمرو...

(٧) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣٥١/٢.

(٨) وقرأ بها خلف من العشرة. النشر ٢٩٧/٢.

(٩) السبعة ص ٣٥٦، والتيسير ص ١٣١. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣٥١/٢، وتفسير الرازي ٨/١٩.

شَتَّى ، وأنا وأنت من شجرة واحدة» ، ثم قرأ النبي ﷺ : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّزٌ﴾ حتى بلغ قوله : «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ»^(١).

و«الأكل» الثمر، قال ابن عباس: يعني: الحلو والحامض، والفارسي والدقل^(٢).

وزُوي مرفوعاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وَنُفِضَ لُبَّ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ ، قال: «الفارسي والدقل، والحلو والحامض»^(٣). ذكره الثعلبي.

قال الحسن: المراد بهذه الآية المثل؛ ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التي تُسقى بماء واحد^(٤)، ومنه قول الشاعر:

بَنُو آدَمَ كَالنَّبَاتِ وَنَبْتُ الْأَرْضِ أَلْوَانٌ^(٥)
فَمِنْهُ^(٦) شَجَرُ الصَّنَدِ لَوَالِ كَافُورٍ وَالْبَانَ
وَمِنْهُ^(٧) شَجَرٌ يَنْضَحُ طُولُ الدَّهْرِ قَطْرَانُ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٢/ ٢٤١ ، وقال: حديث صحيح ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: لا والله، هارون بن حاتم (أحد رجال الإسناد) هالك.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٣٠ . وقوله: الفارسي: يعني: تمرأ فارسيأ، وهو نوع جيد. والدقل: أردأ التمر. المصباح المنير (فرس) ودقل).

(٣) أخرجه الترمذي (٣١١٨) وقال: حديث حسن غريب! قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٦٥٨ : هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ [في إسناده] سيف بن محمد الثوري متفق على كذبه. قال أحمد: كان يضع الحديث. اهـ. وأخرجه من طريق أخرى الطبري ١٣/ ٤٣١ . قال العقيلي في الضعفاء ٢/ ١٣١ : وهذا الحديث إنما يعرف بسيف بن محمد.

(٤) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٩٤ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): الناس كالنبت والنبت ألوان. والمثبت من (ظ) وهو الموافق للمصادر. والآيات في التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص ٢٧٥ ، والتدوين في أخبار قزوين ١/ ٧٠ وقائلها منصور الفقيه.

(٦) في (د) و(ز) و(م): منها، وفي (ظ): فمئها، والمثبت من المصادر.

(٧) في النسخ: ومنها، والمثبت من المصادر.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن

الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ إِذْ أَذَا كُنَّا تُرْبًا لَّئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ﴾، أي: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين؛ فأعجب منه تكذيبهم^(١) بالبعث؛ والله تعالى لا يتعجب، ولا يجوز عليه التعجب؛ لأنه تغيّر النفس بما تخفى أسبابه، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه ﷺ والمؤمنون^(٢).

وقيل: المعنى: أي: إن عجب يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأني خالق السماوات والأرض والثمار المختلفة من الأرض الواحدة؛ فقولهم عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة في معنى الابتداء^(٣).

وقيل: الآية في منكري الصانع، أي: إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بد له من مُغيّر؛ فهو محلّ التعجب. ونظّم الآية يدلّ على الأوّل والثاني؛ لقوله: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرْبًا﴾ أي: أنبعث إذا كنا تراباً؟!

﴿أَوَلَمْ نَكُنْ لَّيْفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقرئ: «إنا»^(٤). و﴿الْأَغْلَالُ﴾ جمع غلّ؛ وهو طوق تُشدّ به اليد إلى العنق، أي: يُغلّون يوم القيامة؛ بدليل قوله: ﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يَسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١-٧٢]. وقيل: الأغلال: أعمالهم السيئة التي هي لازمة لهم^(٥).

(١) في (ظ): فاعجب من تكذيبهم.

(٢) النكت والعيون ٩٤/٣ - ٩٥.

(٣) ينظر تفسير زاد المسير ٣٠٤/٤، وتفسير الرازي ٨/١٩ - ٩.

(٤) قرأ بها نافع والكسائي. السبعة ص ٣٥٧، والتيسير ص ١٣٢.

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ١٣٩/٣، والوسيط للواحدى ٥/٣، والمحرر الوجيز ٢٩٦/٣.

قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ تَأْتَى بِآيَةٍ فَلَا تَزَالُ تَقُولُ كَذِبًا أَفَرَأَيْتُ لَكَ آيَةً إِذَا تَنَادَى بَيْنَ الْعِزَّةِ أَنْ تَكُونَ إِلَٰهًا أَوْ تَكُونَ إِلَٰهًا مَعَهُمْ أَوْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُدْرِكُ الْإِنْفُسَ إِذَا تَنَادَتْ بَيْنَهُمْ لِشَيْءٍ أُرْسِلُوا فِيهِ فَقُلْتُ أَفَرَأَيْتُ لَكُمْ شَيْئًا تَتَدَبَّرُونَهُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْغَيْبُ بِفَنَاءٍ لَكُمْ وَلَهُمْ أَعْلَامُ الْيَوْمِ الَّذِي هُمْ يُوعَدُونَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: لِفِرْط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب. قيل: هو قولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمِطْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية^(١)، وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة.

وقيل: «قَبْلَ الْحَسَنَةِ»، أي: قبل الإيمان الذي يُرجى به الأمان والحسنات^(٢). و﴿الْمَثَلَاتُ﴾: العقوبات، الواحدة مَثَلَةٌ. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: [«الْمَثَلَاتُ، بضم الميم والثاء»^(٣)، وهذا جمع: مَثَلَةٌ، ورُوي عنه أنه قرأ] «الْمَثَلَاتُ» بضم الميم وإسكان الثاء^(٤)، وهذا أيضاً جمعٌ مَثَلَةٌ، ويجوز: «الْمَثَلَاتُ»؛ تُبدل من الضمة فتحة لِثَقُلِهَا، وقيل: يُؤتى بالفتحة عوضاً من الهاء. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: «الْمَثَلَاتُ» بفتح الميم وإسكان الثاء^(٥)؛ فهذا جمعٌ مَثَلَةٌ، ثم حَذَفَ الضمة لِثَقُلِهَا؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله^(٦).

وعلى قراءة الجماعة واحدة: مَثَلَةٌ، مثل: صَدُوقَةٌ وَصَدُوقَاتٌ^(٧).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٣/ ٤٣٦.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ٩٥.

(٣) ذكرها عنه أبو حيان في البحر ٥/ ٣٦٠، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦٦ لعيسى بن عمر، وذكرها ابن جني ١/ ٣٥٤ دون نسبة.

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦٦ وابن جني في المحتسب ١/ ٣٥٣ ليحيى بن وثاب.

(٥) نسبها في القراءات الشاذة ص ٦٦ ليحيى بن وثاب، وفي المحتسب ١/ ٣٥٣ لعيسى الثقفي وطلحة بن سليمان وللأعمش عن يحيى بن وثاب.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٤٧٢ - ٤٧٣، وما بين حاصرتين منه. وجمع: مَثَلَةٌ على: مَثَلَاتٍ؛ على غير قياس، ينظر المحتسب ١/ ٣٥٤.

(٧) في (د) و(ز) و(م): نحو صدقة وصدقة، والمثبت من (ظ)، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٦.

وتميمٌ تضم الثاء والميم جميعاً، واحدها على لغتهم مثله، بضم الميم وجزم الثاء؛ مثل: غُرْفَةٌ وَغُرْفَاتٌ؛ والفعلُ منه: مَثَلْتُ به أمثُلُ مثلاً، بفتح الميم وسكون الثاء^(١).

﴿وَإِنَّ رَيْكَ لَدُوٌّ مَفْقَرَةٌ﴾، أي: لدو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا وعن المذنبين إذا تابوا. وقال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَيْكَ لَدُوٌّ مَفْقَرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾^(٢). ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا أصرّوا على الكفر.

وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيّب قال: لما نزلت: ﴿وَإِنَّ رَيْكَ لَدُوٌّ مَفْقَرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنا أحدٌ عيش، ولولا عقابه ووعيده وعذابه لا تكمل كلُّ أحد»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ أي: هَلَا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾. لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ أي: مُعْلِم. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبيٌّ يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادي الله، أي: عليك الإنذار، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم^(٤).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتْلُمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ ۚ أَلَمْ تَعْلَمْ ۙ﴾
فيه تسع^(٥) مسائل:

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٤٣٥/١٣.

(٢) أورده النحاس في إعراب القرآن ٣٥٢/٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٢٩٦/٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤٧٣/٣، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢٢٢٤/٧ (١٢١٤٥)، والواحدي في الوسيط ٦/٣، وهو مرسل.

(٤) ينظر تفسير الطبري ٤٤٠/١٣.

(٥) في (د) و(ز): ثمانية، وفي (م): ثمان، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لعدد المسائل المذكورة.

الأولى: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَلْمُ مَا تَحِلُّ كُلُّ أُنْثَى﴾ أي: من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدّم في سورة الأنعام^(١) أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده لا شريك له؛ وذكرنا هناك حديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس» الحديث، وفيه: «ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله»^(٢).

واختلف العلماء في تأويل قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ فقال قتادة المعنى: ما تُسقط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة، وكذلك قال ابن عباس.

وقال مجاهد: إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصاناً في ولدها؛ فإن زادت على التسعة كان تماماً لِمَا نقص. وعنه: الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداد منه^(٣).

وقيل: الغيض^(٤) والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها.

وقيل: الغيض: انقطاع دم الحيض [في الحمل]. «وَمَا تَزْدَادُ»: بدم النفاس بعد الوضع^(٥).

الثانية: في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض؛ وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه. وقال عطاء والشَّعْبِيُّ وغيرُهما: لا تحيض. وبه قال أبو حنيفة^(٦).

(١) ٤٠١/٨.

(٢) صحيح البخاري (٤٦٩٧)، وسلف ٤٠١/٨.

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ٤٤٥/١٣ - ٤٥١.

(٤) في (ظ): النقص.

(٥) النكت والعيون ٩٦/٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) ينظر الأوسط لابن المنذر ٢٣٨/٢ - ٢٤٠، والمحزر الوجيز ٢٩٩/٣.

ودليلنا^(١) الآية؛ قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيضُ الجبالي. وكذلك روي عن عكرمة ومجاهد^(٢). وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة^(٣)؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم يُنكر منهم أحدٌ عليها، فصار كالإجماع؛ قاله ابن القصار. وذكر أن رجلين تنازعا ولداً، فترافعا إلى عمر رضي الله عنه، فعرضه على القافة، فالحقه القائفُ بهما، فعلاه عمر بالذرة، وسأل نِسوةً من قريش فقال: انظُرْنَ ما شأنُ هذا الولد؟ فقلن: إنَّ الأوّلَ خلا بها وخلاها، فحاضت على الحمل، فظنّنت أن عِدَّتَها انقضت، فدخل بها الثاني، فانتعش الولد بماء الثاني. فقال عمر: الله أكبر! وألحقه بالأول^(٤)، ولم يقل: إنَّ الحاملَ لا تحيض، ولا قال ذلك أحدٌ من الصحابة؛ فدلَّ على أنه إجماعٌ، والله أعلم.

احتجَّ المخالف بأن قال: لو كانت الحاملُ تحيض، وكان ما تراه من الدم^(٥) حيضاً لما صحَّ استبراء الأمة بحيض^(٦)؛ وهو إجماعٌ^(٧). وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض^(٨).

(١) في (د) و(ز) و(م): ودليله.

(٢) خبر مجاهد تقدم في المسألة الأولى، وخبر عكرمة أخرجه الطبري ٤٤٨/١٣، وينظر عن ابن عباس ما أخرجه الطبري ٤٤٤/١٣، وابن أبي حاتم ٢٢٢٦/٧ (١٢١٦١)، وينظر أيضاً أحكام القرآن للجصاص ١٨٠/٣ - ١٨٢.

(٣) أخرجه ابن المنذر في الأوسط ٢٣٩/٢ - ٢٤٠، وهو في المدونة ٥٥/١، وأخرج الدارمي (٩٢٤) عن يحيى بن سعيد قال: أمر لا يختلف فيه عندنا عن عائشة: المرأة الحبلَى إذا رأت الدم أنها لا تصلي حتى تطهر.

(٤) أخرجه بنحوه مالك في الموطأ ٧٤٠ - ٧٤١، وعبد الرزاق (١٣٤٥٠) و(١٣٤٥١).

(٥) في (م): ما تراه المرأة من الدم.

(٦) في (ظ): بحيضة، وهو أشبه. وينظر ما سلف ٢٠١/٦.

(٧) المحرر الوجيز ٢٩٩/٣، وينظر أحكام القرآن للجصاص ١٨١/٣، والأوسط ٢٤٠/٢. وذكر ابن المنذر عن بعض أصحاب هذا القول قوله: إن في إجماعهم على أن الأمة إذا حاضت حلَّ وطؤها، مع إجماعهم على أن الحامل لا يحل وطؤها حتى تضع، دليل بين على أن الحامل مُحالٌ وجود الحيض فيها.

(٨) المحرر الوجيز ٢٩٩/٣. وقد ثبت علمياً أن الحامل لا تحيض، وأما الدم الذي يخرج أثناء الحمل =

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الحاملَ قد تضع حملَها لأقلَّ من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أنَّ أقلَّ الحملِ ستَّة أشهر، ورُوي أنَّ عبدَ الملك^(١) بن مروان وُلد لسته أشهر.

الرابعة: وهذه الستَّة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة؛ ولذلك قد رُوي في المذهب عن بعض أصحاب مالك - وأظنه في كتاب ابن حارث^(٢) - أنه إنْ نقص من^(٣) الأشهر الستة ثلاثة أيام، فإنَّ الولدَ يلحق لعله نقص الشهور وزيادتها؛ حكاه ابن عطية^(٤).

الخامسة: واختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جريج عن جميلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكونُ الحملُ أكثرَ من سنتين قَدَر ما يتحوَّل ظلُّ المِغزَل؛ ذكره الدارقطني^(٥). وقال^(٦): جميلة بنتُ سعد أختُ عُبيد بن سعد^(٧).

= فإنه راجع إلى أسباب مرضية مختلفة، تطول مدة خروجه أو تقصر على حسب أسبابه، وليس هو بدم حيض.

(١) في (د) و(ز) و(م): وإن عبد الملك، بدل: وروي أن عبد الملك، والمثبت موافق لما في المحرر الوجيز ٢٩٩/٣، والكلام منه.

(٢) لعله محمد بن حارث بن إسماعيل الخشني، أبو عبد الله، تفقه بالقيروان، كان حافظاً للفقه عالمًا بالفتيا، ألف كتابه في الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك، وكتاب الفتيا، وكتاب فقهاء المالكية، وغير ذلك، توفي سنة (٣٦١هـ). ترتيب المدارك ٥٣١/٤.

(٣) في (م): عن.

(٤) في المحرر الوجيز ٢٩٩/٣.

(٥) في سننه (٣٨٧٥)، وأخرجه بنحوه سعيد بن منصور في سننه (٢٠٧٧)، قال ابن حزم في المحلَّى ٢١٦/١٠: جميلة بنت سعد مجهولة، لا يُدرى من هي، فبطل هذا القول. اهـ. قوله: ظل المِغزَل: هو مثَل لقلته؛ لأن ظله حالة الدوران أسرع من جميع الظلال، وهو على حذف مضاف تقديره: ولو بقدر ظل المِغزَل. ينظر البحر الرائق ١٧٧/٤.

(٦) في النسخ: وقالت، والمثبت هو الصواب، وقاله الدارقطني إثر الحديث السالف.

(٧) الدُّيْلِي، طائفي، أبو امرأة ابن جريج، سمع عبد الله بن عمر، قال فيه ابن معين: مشهور. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤٠٧/٥.

وعن الليث بن سعد: إِنَّ أَكْثَرَهُ ثَلَاثُ سَنِينَ. وعن الشافعي: أَرْبَعُ سَنِينَ؛ وَرَوَى
عن مالك في إحدى روايته، والمشهورُ عنه خَمْسُ سَنِينَ، وَرَوَى عنه: لَا حَدَّ لَهُ وَلَوْ
زَادَ عَلَى الْعَشْرَةِ الْأَعْوَامِ، وَهِيَ الرِّوَايَةُ الثَّلَاثَةُ عَنْهُ. وعن الزهري: سِتٌّ وَسَبْعٌ^(١).

قال أبو عمر^(٢): [فمالك يجعله خمس سنين] وَمِنْ أَصْحَابِهِ^(٣) مَنْ يَجْعَلُهُ إِلَى
سَبْعٍ. والشافعي مُدَّتُهُ^(٤) [عنده] الْغَايَةُ فِيهَا^(٥) أَرْبَعُ سَنِينَ. والكوفيون يقولون: سِتَّانِ لَا
غَيْرَ. ومحمد بن عبد الحكم يقول: سَنَةٌ لَا أَكْثَرَ. وداود يقول: تِسْعَ أَشْهُرٍ، لَا يَكُونُ
عنده حَمْلٌ أَكْثَرَ مِنْهَا.

قال أبو عمر: وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ لَا أَصْلَ لَهَا إِلَّا الْاجْتِهَادَ، وَالرَّدُّ إِلَى مَا عُرِفَ مِنْ أَمْرِ
النِّسَاءِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

رَوَى^(٦) الدَّارَقُطْنِيُّ^(٧) عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: قُلْتُ لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ: إِنِّي حُدِّثْتُ
عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: لَا تَزِيدُ الْمَرْأَةَ فِي حَمْلِهَا عَلَى سَتَيْنِ قَدَرِ ظِلِّ الْمِغْرَلِ، فَقَالَ:
سُبْحَانَ اللَّهِ! مَنْ يَقُولُ هَذَا؟! هَذِهِ جَارِئَتُنَا امْرَأَةُ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ امْرَأَةُ صِدْقٍ،
وَزَوْجُهَا رَجُلٌ صَدِيقٌ، حَمَلَتْ ثَلَاثَةَ أَبْطَنٍ فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، تَحْمِلُ كُلَّ بَطْنٍ أَرْبَعَ
سَنِينَ.

وَذَكَرَ عَنِ الْمُبَارَكِ بْنِ مُجَاهِدٍ قَالَ: مَشْهُورٌ عِنْدُنَا كَانَتْ امْرَأَةُ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ
تَحْمِلُ وَتَضَعُ فِي أَرْبَعِ سَنِينَ، وَكَانَتْ تُسَمَّى حَامِلَةَ الْفِيلِ^(٨).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٠٩٧/٣ .

(٢) في الاستذكار ١٧٨/٢٢ - ١٧٩ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في النسخ: ومن الصحابة، والمثبت من الاستذكار.

(٤) في (د) و(ز) و(م): مدة، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في الاستذكار.

(٥) في (د) و(ز) و(م): منها، وفي (ظ): فيه، والمثبت من الاستذكار.

(٦) قبلها في (ظ): قلت.

(٧) في سنته (٣٨٧٧).

(٨) سنن الدارقطني (٣٨٧٨).

وَرَوَى أَيْضاً قَالَ: بَيْنَمَا مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ يَوْمًا جَالِسٌ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا يَحْيَى! ادْعُ لَامْرَأَةً حُبَلَى مِنْذُ أَرْبَعِ سِنِينَ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي كَرْبٍ شَدِيدٍ، فَغَضِبَ مَالِكٌ وَأَطْبَقَ الْمُصْحَفَ، ثُمَّ قَالَ: مَا يَرَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ إِلَّا أَنَا أَنْبِيَاءُ! ثُمَّ قَرَأَ، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ هَذِهِ الْمَرْأَةُ إِنْ كَانَ فِي بَطْنِهَا رِيحٌ فَأَخْرِجْهَا عَنْهَا السَّاعَةَ، وَإِنْ كَانَ فِي بَطْنِهَا جَارِيَةٌ فَأَبْدِلْهَا بِهَا غَلَامًا، فَإِنَّكَ تَمْنَحُو مَا تَشَاءُ وَتُثَبِّتُ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ، ثُمَّ رَفَعَ مَالِكٌ يَدَهُ، وَرَفَعَ النَّاسُ أَيْدِيَهُمْ، وَجَاءَ الرَّسُولُ إِلَى الرَّجُلِ فَقَالَ: أَدْرِكَ أَمْرَاتِكَ فَذَهَبَ الرَّجُلُ؛ فَمَا حَظَّ مَالِكُ يَدَهُ حَتَّى طَلَعَ الرَّجُلُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ عَلَى رَقَبَتِهِ غَلَامٌ جَعْدٌ قَطَطٌ، ابْنُ أَرْبَعِ سِنِينَ، قَدْ اسْتَوَتْ أَسْنَانُهُ، مَا قُطِعَتْ سِرَارُهُ^(١).

وَرَوَى أَيْضاً: أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنِّي غِيبْتُ عَنْ أَمْرَاتِي سَتَيْنِ، فَجِئْتُ وَهِيَ حُبَلَى! فَشَاوَرَ عُمَرَ النَّاسَ فِي رَجْمِهَا، فَقَالَ مُعَاذُ ابْنِ جَبَلٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ كَانَ لَكَ عَلَيْهَا سَبِيلٌ فَلَيْسَ لَكَ عَلَى مَا فِي بَطْنِهَا سَبِيلٌ، فَاتْرَكْهَا حَتَّى تَضَعْ. فَتَرَكَهَا، فَوَلَدَتْ^(٢) غَلَامًا قَدْ خَرَجَتْ ثَنِيَّتَاهُ، فَعَرَفَ الرَّجُلُ الشَّيْبَةَ [فِيهِ]، فَقَالَ: ابْنِي وَرَبُّ الْكَعْبَةِ! فَقَالَ عُمَرُ: عَجَزَتِ النِّسَاءُ أَنْ يَلْدُنَ مِثْلَ مُعَاذٍ، لَوْلَا مُعَاذٌ لَهْلَكَ عُمَرُ^(٣).

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: وَضَعْتَنِي أُمِّي وَقَدْ حَمَلَتْ بِي فِي بَطْنِهَا سَتَيْنِ، فَوَلَدْتَنِي وَقَدْ خَرَجَتْ سِنِّي^(٤).

(١) سنن الدارقطني (٣٨٧٩)، وقوله: جَعْدٌ قَطَطٌ؛ الجعدُ من الشعر خلاف السبط، والسَّبُطُ: المنبسط المسترسل، والقَطَطُ: الشديد الجعودة. اللسان (جعد، ققط).

(٢) في (د) و(ز) و(م): فَوَضَعْتُ، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لسنن الدارقطني.

(٣) سنن الدارقطني (٣٨٧٦)، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٨٨/١٠، وسعيد بن منصور (٢٠٧٦). وذكر ابن حزم في المحلى ٣١٦/١٠ أن هذا الخبر باطل؛ لأنه عن أبي سفيان، وهو ضعيف، عن أشياخ لهم، وهم مجهولون.

(٤) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٢٩٩.

ويُذكر عن مالك أنه حُمِلَ به في بطن أمه ستين، وقيل: ثلاث سنين^(١).

ويقال: إنَّ محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطراباً شديداً، فشقَّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه^(٢).

وقال حماد بن سلمة: إنما سُمي هرْمُ بن حَيَّان هرماً؛ لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين^(٣).

وذكر العَرَنَوِيُّ أَنَّ الضَّحَّاكَ وُلِدَ لستين، وقد طلعت سِنُهُ فُسِّمِي ضَحَّاكاً^(٤).

عَبَادُ بْنُ الْعَوَّامِ: ولدت جارةً لنا^(٥) لأربع سنين غلاماً شعره إلى مَنْكِبَيْهِ، فمرَّ به طيرٌ، فقال: كش^(٦).

السادسة: قال ابن خُوَيْرِزِمَنَدَاد: أَقْلُ الْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ وَأَكْثَرُهُ، وَأَقْلُ الْحَمْلِ وَأَكْثَرُهُ، مَاخُوذٌ مِنْ طَرِيقِ الْجَهْدِ؛ لِأَنَّ عِلْمَ ذَلِكَ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُحْكَمَ

(١) أخرج البيهقي ٤٤٣/٧ عن الواقدي عن مالك قال: قد يكون الحمل سنين وأعرف مَنْ حملت به أمه أكثر من ستين، يعني نفسه. وأخرج عن الواقدي أيضاً أن أم مالك حملت به في البطن ثلاث سنين.

(٢) أورده الذهبي في السير ٣١٨/٦، وذكره ابن قتيبة في المعارف ص ٥٩٥ بنحوه.

(٣) أورده ابن قتيبة في المعارف ص ٥٩٥. وهرم بن حيان هو العبدى، ويقال: الأزدي، أحد العابدين، وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان ببلاد فارس. السير ٤٨/٤.

(٤) ذكره السرخسي في المبسوط ٤٥/٦، إلا أنه قال: لأربع سنين، بدل: ستين.

(٥) في (ظ): ولدت جارية له.

(٦) قال ابن حزم في المحلى ٣١٦/١٠: لا يجوز أن يكون حملٌ أكثر من تسعة أشهر، ولا أقل من ستة أشهر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ فمن ادَّعى أن حملاً وفصلاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً فقد قال الباطل والمحال، وردَّ كلام الله عزَّ وجلَّ جهاراً. اهـ.

وقد ثبت علمياً أن الدورة الطمثية قد تنقطع لسبب فيزيولوجي، كما هو الحال عند المرضعة، أو لسبب مرضي، كما هو الحال عند وجود ضعف في الإباضة، أو وجود خلل في الهرمونات، مما يؤدي إلى عدم حدوث الدورة الطمثية لأشهر، أو لسنين أحياناً، ثم تنشط الإباضة فجأة، ويحدث الحمل، فيُظن أن المدة السالفة كلها هي مدة الحمل، وليس كذلك، فالحمل الحقيقي لن يزيد عن وقته (وهو تسعة أشهر) أكثر من شهر، وإلا لمات الجنين في بطن أمه.

في شيء منه إلا بقدر ما أظهره لنا، ووجد ظاهراً في النساء؛ نادراً أو معتاداً؛ ولما وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكّمنا بذلك، والنفاس والحيض لما لم نجد فيه أمراً مُستقراً رجعنا فيه إلى ما يوجد في النادر منهنّ.

السابعة: قال ابن العربي^(١): نقل بعض المتساهلين من^(٢) المالكيين أنّ أكثر الحمل تسعة أشهر! وهذا ما لم ينطق به قط إلا هالكياً، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أنّ مدبر الحمل في الرّحم الكواكب السبعة؛ تأخذه شهراً شهراً، ويكون الشهر الرابع منها للشمس؛ ولذلك يتحرّك ويضطرب، وإذا تكامل التّداوّل في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر الثامن إلى رُحل، فيبقّله^(٣) ببرّده، فياليتني تمكّنت من مناظرتهم أو مقاتلتهم^(٤)! ما بال المرّجع بعد تمام الدّور يكون إلى رُحل دون غيره؟ ألله أخبركم بهذا أم على الله تفترون؟! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها^(٥)، لم لا يجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثاً؟! ما هذا التحكّم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة!

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني من النقصان والزيادة. ويقال: «بمقدار»: قدّر خروج الولد من بطن أمّه، وقدّر مكّنه في بطنها إلى خروجه. وقال قتادة: في الرزق والأجل^(٦). والمقدار: القدر. وعموم الآية يتناول كلّ ذلك، والله سبحانه أعلم.

(١) في أحكام القرآن ١٠٩٧/٣ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): عن، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): فيلقيه، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن ومعنى يبقّله: يخرج. ينظر اللسان (بقل).

(٤) في (د) و(ز): مقاتلتهم، والمثبت من (ظ) و(م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): إلى شيء منها، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٦) النكت والعيون ٩٧/٣ ، وأخرجه الطبري ٤٥٢/١٣ بنحوه.

التاسعة^(١): هذه الآية تَمَدِّحُ الله سبحانه وتعالى بها بأنه: ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ﴾ أي: هو عالمٌ بما غاب عن الخلق، وبما شَهِدوه. فالغيبُ مصدرٌ بمعنى الغائب. والشهادةُ مصدرٌ بمعنى الشاهد، فنَبَّه سبحانه على انفرادهِ بعلم الغيب، والإحاطةِ بالباطن الذي يَخْفَى على الخَلْق، فلا يجوزُ أن يشاركه في ذلك أحدٌ. فأما أهلُ الطبِّ الذين يستدلُّون بالآمارات والعلامات، فإن قطعوا بذلك فهو كفر^(٢)، وإن قالوا: إنها تجربة، تُركوا وما هم عليه، ولم يَقْدَحْ ذلك في الممدوح^(٣)؛ فإنَّ العادةَ يجوز انكسارُها، والعلمُ لا يجوزُ تَبَدُّله.

و﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي كلُّ شيءٍ دونه. ﴿الْمُتَعَالِ﴾ عما يقول المشركون، المستعلي على كلِّ شيءٍ بقدرته وقَهْرِهِ؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفى^(٤)، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِأَنْتَاهِ وَسَارِبٌ بِأَنْتَاهِ﴾ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ إشارَةُ القول: ما حَدَّثَ به المرءُ نفسه، والجهرُ ما حَدَّثَ به غيره؛ والمرادُ بذلك أن الله سبحانه يَعْلَمُ ما أَسَرَّه الإنسان من خيرٍ وشرٍّ، كما يَعْلَمُ ما جَهَرَ به من خيرٍ وشرٍّ.

و«مِنْكُمْ» يحتمل أن يكونَ وصفاً لـ «سواء»، التقدير: سِرٌّ مِنْ أَسَرَ وَجَهَرَ مِنْ جَهَرَ سَوَاءٌ مِنْكُمْ. ويجوزُ أن يتعلّق بـ «سواء» على معنى: يستوي منكم، كقولك: مررتُ بزيد. ويجوزُ أن يكونَ على تقدير: سِرٌّ مِنْ أَسَرَ مِنْكُمْ وَجَهَرَ مِنْ جَهَرَ مِنْكُمْ.

(١) في (د) و(م): قلت، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) وقعت العبارة في أحكام القرآن لابن العربي ١٠٩٦/٣ (والكلام منه): وأهل الطب يقولون: إذا ظهر النفخ في ثدي الحامل الأيمن فالحمل ذكر، وإن ظهر في الثدي الأيسر فالحمل أنثى، وإذا كان الثقل للمرأة في الجانب الأيمن فالحمل ذكر، وإن وجدت الثقل في الجانب الأيسر فالولد أنثى، فإن قطعوا بذلك فهو كفر. وينظر ما سلف ٤٠٣/٨.

(٣) في أحكام القرآن: التمدح.

(٤) الأسنى ص ٢٠٨ و ٢١٠ وما بعدها.

ويجوزُ أن يكونَ التقدير: ذو سواءٍ منكم مَنْ أسَرَ القولَ وَمَنْ جَهَرَ به، كما تقول: عدلٌ زيدٌ وعمرو، أي: ذوا عدلٍ. وقيل: «سواء»، أي: مُستوي، فلا يحتاج إلى تقدير حذفٍ مضاف^(١).

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: يستوي في علم الله السرُّ والجهر، والظاهرُ في الطُّرقاتِ والمُستخفي في الظُّلمات^(٢).

وقال الأخفش وقُطْرُب^(٣): المستخفي بالليل: الظاهر؛ ومنه خَفِيتُ الشيء وأخْفَيْته، أي: أظهرته، واختفيت^(٤) الشيء، أي: استخرجته، ومنه قيل لِلنَّبَّاشِ: المخفي^(٥). وقال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَذَقَّ مِنْ عَشْيٍ مُجَلَّبٍ^(٦)
والسَّارِبُ: المتواري، أي: الداخلُ سرِّياً؛ ومنه قولهم: انْسَرَبَ الوحش: إذا دخل في كِنَاسِهِ^(٧). وقال ابن عباس: «مُسْتَخْفٍ»: مستتر، «وَسَارِبٌ»: ظاهر^(٨).

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ١٤١/٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣٥٣/٢، ومشكل إعراب القرآن ٣٩٧/١ والإملاء (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣٧٣/٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ١٤٢/٣.

(٣) قول الأخفش في معاني القرآن له ٥٩٥/٢، وقول قطرب ذكره الزجاج في معاني القرآن ١٤٢/٣، وأبو الطيب اللغوي في الأضداد ٢٤٧/١، وذكر هذا القول عنهما الرازي ١٧/١٩ - ١٨.

(٤) في (د) و(ز) و(م): أخفيت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في تفسير الرازي ١٧/١٩، واللسان (خفي)، ومثلها: استخفيت، ذكرها الجوهري في الصحاح (خفي). وينظر الأضداد لأبي الطيب ٢٤٧/١، وتهذيب اللغة ٥٩٧/٧.

(٥) الأضداد لابن الأنباري ص ٧٦، والصحاح (خفي).

(٦) ديوان امرئ القيس ص ٥١. وجاء في شرحه للأصمعي: الوَذَقُ: المطر، وخَصَصَ مطر العَشْيِ لأنه أغزر. والمجَلَّبُ: الذي تُسَمَّعُ له جَلْبَةٌ لشدة وَقْعِهِ، أي: وَذَقَّ مِنْ عَشْيٍ فيه جَلْبَةٌ للمطر. والمعنى: أن الفرس لشدة جَزْيِهِ أخرج الفِثْرَةَ من حِجْرَتِهَا ظَنَنَّهُ مطراً، فخشين أن يُسِيلَ الأرض فيغرقهن.

(٧) في (م): الوحشي، ومثله في معاني القرآن للزجاج ١٤٢/٣، والصحاح (سرب)، والمثبت موافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤٧٦/٣، وتهذيب اللغة ٤١٤/١٢، وتفسير الرازي ١٧/١٩. والكِناس: هو مستتر الظبي في الشجر. القاموس (كنس).

(٨) أخرجه الطبري ٤٥٣/١٣ - ٤٥٤.

مجاهد: مُسْتَحْفٍ [بالليل، أي: مستتر] بالمعاصي، «وَسَارِبٌ»: ظاهر^(١).

وقيل: معنى «سَارِبٌ»: ذاهبٌ؛ قال الكسائي: سَرَبَ يَسْرُبُ سَرَبًا وَسُرُوبًا: إذا ذهب^(٢)؛ وقال الشاعر:

وَكُلُّ أَنَاسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ^(٣)

أي: ذاهبٌ. وقال أبو رجاء: السَّارِبُ: الذَّاهِبُ على وجهه في الأرض^(٤)؛ قال الشاعر:

أَنْسَى سَرَبَتٍ وَكُنْتُ غَيْرَ سَرُوبٍ^(٥)

وقال الثَّعْبِيُّ: «سَارِبٌ بِالنَّهَارِ»، أي: متصرف^(٦) في حوائجه بسرعة، من قولهم: انْسَرَبَ الماء. وحكى الأصمعي: خَلَّ سَرَبَهُ، أي: طريقه^(٧).

قوله تعالى: ﴿لَمْ تُعَفِّتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ تُعَفِّتْ﴾، أي: لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار؛ فإذا

(١) معاني القرآن للنحاس ٤٧٦/٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤٧٧/٣ .

(٣) قائله الأخنس بن شهاب التغلبي، كما في إصلاح المنطق ص ٢٢٥ ، وشرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص ٣٧٨ ، والصحاح (سرب)، وشرح اختيارات المفضل للتبريزي ٩٣٨/٢ . قال السيرافي: يعني بالفحل هنا السيد، يقول: كل أناس غيرنا لم يتركوا رئيسهم وسيدهم أن يفارقهم ويبعد عنهم خشية عليه من القتل، ونحن لعزنا لا يجترئ أحد على سيدنا وإن كان وحده بعيداً عنا.

(٤) أخرجه الطبري ٤٥٤/١٣ .

(٥) وعجزه: وتقرَّب الأحلام غير قريب، والبيت لقيس بن الخَظِيم كما في تفسير الطبري ٤٥٣/١٣ ، والأضداد لابن الأنباري ص ٧٧ ، وبلا نسبة في الصحاح (سرب)، وسلف ١٠١/١ .

(٦) في (د) و(م): منصرف، والمثبت من (ز) و(ظ) وتفسير الغريب لابن قتيبة ص ٢٢٤ .

(٧) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤٧٧/٣ .

صعدت ملائكة الليل أعقبته ملائكة النهار.

وقال: «مُعَقَّبَاتٌ» والملائكة ذُكْران؛ لأنه جمع مُعَقِّبَةٌ؛ يقال: مَلَكَ مُعَقِّبٌ، وملائكة مُعَقِّبَةٌ، ثم مُعَقَّبَاتٌ جمع الجمع^(١).

وقرأ بعضهم: «له مَعَاقِبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ». ومعاقيب جمع مُعَقِّبٌ^(٢)؛ وقيل: للملائكة: معقبة؛ على لفظ الملائكة. وقيل: أنت لكثرة ذلك منهم؛ نحو نَسَابَةٍ وَعَلَامَةٍ وراوِيَةٍ؛ قاله الجوهري وغيره^(٣).

والتعقيب^(٤): العودُ بعد البدء؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَىٰ مُدْرِكًا لَّكَ بِمُعَقِّبٍ﴾ [النمل: ١٠]، أي: لم يرجع، وفي الحديث: «مُعَقَّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ - أو: فاعلهن -» فذكر التسييح والتحميد والتكبير^(٥)؛ قال أبو الهيثم^(٦): سُمِّنَ «مُعَقَّبَاتٌ»؛ لأنها عادت مرَّةً بعد مرَّةً، وكلُّ^(٧) مَنْ عَمِلَ عَمَلًا ثُمَّ عادَ إِلَيْهِ فَقَدْ عَقَّبَ.

والمُعَقَّبَاتُ مِنَ الْإِبِلِ: اللواتي يَقْمُنَ عند أعجازِ الإبل الْمُعْتَرِكَاتِ على الحوض، فإذا انصرفت ناقةٌ دخلت مكانها أخرى^(٨).

وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، أي: المستخفي بالليل والسايرِ بالنهار. ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ اختلف في هذا الحفظ؛ فقيل: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ توكيلُ الملائكة بهم

(١) معاني القرآن للفراء ٦٠/٢ ، وتفسير الطبري ٤٥٦/١٣ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤٨٠/٣ ، وهي في القراءات الشاذة ص ٦٦ عن زياد بن أبي سفيان، وفي المحتب ٣٥٥/١ عن عبيد الله بن زياد. قال ابن جني: ينبغي أن يكون هذا تكسير معقِبٍ أو معقِّبَةٍ، إلا أنه لَمَّا حذف إحدى القافين عوض منها الياء.

(٣) الصحاح (عقب)، ومعاني القرآن للأخفش ٥٩٦/٢ .

(٤) في النسخ: والتعقب، والمثبت من تفسير الطبري ٤٧٣/١٣ ، والكلام منه، وتفسير البغوي ٩/٣ .

(٥) أخرجه مسلم (٥٩٦) من حديث كعب بن عُجرة ؓ.

(٦) هو الرازي، مشهور بكنيته، وسلفت ترجمته ١٣٦/٥ ، وكلامه في تهذيب اللغة ٢٧٢/١ - ٢٧٣ .

(٧) في (د) و(ز) و(م): فعل.

(٨) الصحاح (عقب).

لِحِفْظِهِمْ مِنَ الْوَحْشِ وَالْهُوَامِ وَالْأَشْيَاءِ الْمُضَرَّةِ، لُطْفًا مِنْهُ بِهِ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(١)؛ قَالَ أَبُو مِجَلَزٍ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ مُرَادٍ إِلَى عَلِيٍّ فَقَالَ: احْتَرَسْتُ؛ فَإِنَّ نَاسًا مِنْ مُرَادٍ يَرِيدُونَ قَتْلَكَ، فَقَالَ: إِنَّ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مَلَكَينَ يَحْفَظَانِهِ مِمَّا لَمْ^(٢) يُقَدَّرْ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَدَرِ اللَّهِ، وَإِنَّ الْأَجَلَ حِصْنٌ حَصِينَةٌ. وَعَلَى هَذَا: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» أَي: بِأَمْرِ اللَّهِ وَيُؤَدِّنُهُ، فـ «مِنْ» بِمَعْنَى الْبَاءِ؛ وَحُرُوفُ الصِّفَاتِ يَقُومُ بَعْضُهَا مَقَامَ بَعْضٍ^(٣).

وَقِيلَ: «مِنْ» بِمَعْنَى «عَنْ»، أَي: يَحْفَظُونَهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ. وَهَذَا قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ؛ أَي: حِفْظُهُمْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ. وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ^(٤)؛ تَقُولُ: كَسَوْتُهُ عَنْ عُرْيٍ وَمِنْ عُرْيٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ [قُرَيْش: ٤]، أَي: عَنْ جُوعٍ^(٥).

وَقِيلَ: يَحْفَظُونَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ حَتَّى لَا تَحِلَّ بِهِ عِقَابُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ مِنَ النِّعَةِ وَالْعَافِيَةِ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ، فَإِذَا أَصْرُوا حَانَ الْأَجَلُ الْمَضْرُوبُ، وَنَزَلَتْ بِهِمُ النَّقْمَةُ، وَتَزَوَّلَ عَنْهُمْ الْحَفَظَةُ الْمَعْقِبَاتُ.

وَقِيلَ: يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْجِنِّ؛ قَالَ كَعْبٌ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بِكُمْ مَلَائِكَةً يَذُبُّونَ عَنْكُمْ فِي مَطْعَمِكُمْ وَمَشْرَبِكُمْ وَعَوْرَاتِكُمْ لَتَخَطَّفَتْكُمْ [الْجِنُّ]^(٦) فَإِذَا^(٧) الْجِنُّ وَمَلَائِكَةُ

(١) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي تَفْسِيرِهِ ٣٣٢/١، وَالطَّبْرِيُّ ٤٥٨/١٣ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

(٢) فِي (د) وَ(ز) وَ(م): مَا لَمْ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ظ) وَتَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ ٤٦٦/١٣ وَفِيهِ تَخْرِيجُ الْخَبَرِ.

(٣) زَادَ الْمَسِيرَ ٣١١/٤، وَذَكَرَ هَذَا الْقَوْلَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي مَجَازِ الْقُرْآنِ ٣٢٤/١، وَالْبُنَوِيُّ ٩/٣، وَأَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ٣٣٢/١، وَالطَّبْرِيُّ ٤٦٤/١٣ عَنْ قَتَادَةَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا كَمَا فِي تَفْسِيرِهِ ٣٢٦/١.

(٤) مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ٤٨٠/٣، وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ ٤٧٤/١٣ هَذَا الْقَوْلَ عَنْ بَعْضِ نَحْوِيِّيِ الْبَصْرَةِ، وَيَنْظُرُ مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلزَّجَّاجِ ١٤٢/٣.

(٥) تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ ٤٧٤/١٣.

(٦) تَفْسِيرِ الْبُنَوِيِّ ٩/٣، وَمَا بَيْنَ حَاصِرَتَيْنِ مِنْهُ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ٤٦٦/٣.

(٧) قَوْلُهُ: فَإِذَا لَيْسَ فِي (م).

العذاب من أمر الله، وخصَّهم بأن قال: «مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»؛ لأنهم غيرُ مُعَايِنِينَ، كما قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، أي: ليس مما تشاهدونه أنتم.

وقال الفرَّاء^(١): في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: له معقبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه. وهو مروى عن مجاهد وابن جبير والنَّخعي^(٢). وعلى أن ملائكة العذاب والجن من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير.

وقال ابن جريج: إنَّ المعنى: يحفظون عليه عمله^(٣)، فحذف المضاف. وقال قتادة: يكتبون أقواله وأفعاله.

ويجوز إذا كانت المعقبات الملائكة أن تكون الهاء في «له» لله عزَّ وجلَّ، كما ذكرنا. ويجوز أن تكون للمستخفي، فهذا قول.

وقيل: ﴿لَمْ مُعَقِّبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني به النبي ﷺ^(٤)؛ أي: إنَّ الملائكة تحفظه من أعدائه، وقد جرى ذكر الرسول في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَإِذَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾، أي: سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به في أنه لا يضرُّ النبي ﷺ، بل له معقبات يحفظونه عليه الصلاة والسلام. ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: يحفظون الهادي من بين يديه ومن خلفه.

وقول رابع: أنَّ المراد بالآية: السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئاً؛ قاله ابن عباس

(١) في معاني القرآن ٦٠/٢.

(٢) في (د) و(ز) و(م): وابن جريج والنخعي، والمثبت من (ظ)، ينظر تخريج قولهم في تفسير الطبري ٤٦٣/١٣.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣١٢/٤ بلفظ: يحفظون عليه الحسنات والسيئات، وأخرجه بنحوه الطبري ٤٥٩/٣ - ٤٦٠ و ٤٦٧، وينظر المحرر الوجيز ٣٠٢/٣.

(٤) ذكره الطبري ٤٧٠/١٣، وابن عطية ٣٠١/٣ عن عبد الرحمن بن زيد، ونسبه ابن الجوزي ٣١٠/٤ لابن عباس رضي الله عنهما.

وَعِزَّة. وكذلك قال الضَّحَّاك: هو السلطان المتحرِّسُ من أمر الله، المَشْرُكُ^(١). وقد قيل: إِنَّ في الكلام على هذا التأويلِ نفيًا محذوفًا تقديره: لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره الماوردي^(٢).

قال المَهْدَوِيُّ: وَمَنْ جَعَلَ المَعْقَبَاتِ الحرسَ؛ فالمعنى: يحفظونه من أمر الله على ظَنِّهِ وَرَغْمِهِ.

وقيل: سواءٌ مَنْ أَسْرَ القولَ وَمَنْ جَهَرَ به، فله حِرَّاسٌ وأَعْوَانٌ يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي، ويحفظونه من أَنْ يَنْجَعَ فيه وعِظٌ؛ قال القُشَيْرِيُّ: وهذا لا يمنع الربَّ من الإمهالِ إلى أَنْ يَحَقِّقَ العذابَ؛ وهو إذا غَيَّرَ هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرارِ، فيصير ذلك سبباً للعقوبة؛ فكأنَّه الذي يُحِلُّ العقوبةَ بنفسه، فقوله: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»، أي: من امْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ.

وقال عبد الرحمن بنُ زيد: المَعْقَبَاتُ: ما يتعاقبُ من أمر الله تعالى وقضائه في عبادته؛ قال الماوردي^(٣): وَمَنْ قال بهذا القول؛ ففي تأويل قوله: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» وجهان:

أحدهما: يحفظونه من الموت ما لم يأت أجلُّ؛ قاله الضحَّاك.

الثاني: يحفظونه من الجِنِّ والهوامِّ المؤذية، ما لم يأت قَدَرٌ. قاله أبو أمامة وكعب الأُخبار^(٤). فإذا جاء المقدورُ خَلَّوْا عنه.

والصَّحِيحُ أَنَّ المَعْقَبَاتِ الملائكةُ، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج؛ ورُوي عن ابن عباس، واختاره النَّحاس^(٥)، واحتجَّ بقول النبي ﷺ: «يتعاقبون فيكم

(١) أخرج قولهم الطبري ٣/٤٦٠ - ٤٦١.

(٢) في النكت والعيون ٣/٩٨.

(٣) في النكت والعيون ٣/٩٨، وما قبله منه.

(٤) خبر أبي أمامة أخرجه الطبري بنحوه ١٣/٤٦٦، وخبر كعب سلف قريباً.

(٥) في معاني القرآن ٣/٤٧٩، وأخرج قول الأئمة المذكورين الطبري ١٣/٤٥٦ - ٤٦٠ و ٤٦٣ - ٤٦٤.

ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث، رواه الأئمة^(١).

وروى ابنُ عيينة^(٢) عن عمرو، عن ابن عباس أنه قرأ: «له معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه من أمر الله يحفظونه». فهذا قد بين المعنى^(٣).

وقال كِنَانَةُ الْعَدَوِيُّ^(٤): دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أخبرني عن العبد، كم معه من مَلَك؟ قال: «مَلَكٌ عن يمينك يكتب الحسنات، وآخرُ عن الشمال يكتب السيئات، والذي على اليمين أمير^(٥) على الذي على الشمال، فإذا عُملَتْ حسنةٌ كُتِبَتْ عشراً، وإذا عُملَتْ سيئةٌ، قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أأكتب؟ قال: لا، لعله يستغفرُ الله تعالى أو يتوب^(٦). فإذا قال ثلاثاً، قال: نعم، اكتب أراحنا الله تعالى منه، فبئس القرينُ هو، ما أقلُّ مُراقبته لله عزَّ وجلَّ وأقلُّ استحياءه منَّا، يقول الله تعالى: ﴿مَا بَلَّغْتُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. ومَلَكَانِ من بين يديك ومن خَلْفِكَ يقولُ الله تعالى: ﴿لَكُمْ مُعَقَّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾. [ومَلَكٌ قابضٌ على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تَجَبَّرْتَ على الله قَصَمَكَ]. ومَلَكَانِ على شَفَتَيْكَ، وليس يحفظان عليك إلا الصَّلَاةَ على محمد وآله. ومَلَكٌ قائمٌ على فيك لا يدعُ أنْ تدخلَ الحيَّةَ في فيك، ومَلَكَانِ على عينيك. فهؤلاء عشرةٌ أملاكٌ على كلِّ آدمي يتداولون^(٧)؛

(١) قطعة من حديث أبي هريرة ؓ أخرجه أحمد (٧٤٩١)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، وسلف ١٧٩/٤.

(٢) في (د) و(ز) و(م): وروى الأئمة، والمثبت من (ط) ومعاني القرآن للنحاس ٤٨٠/٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤٨٠/٣. وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (١١٥٩ - تفسير) عن سفيان بالإسناد المذكور، ولفظه: «له معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه يحفظونه من أمر الله».

(٤) ابن نعيم، أبو بكر البصري، تابعي ثقة روى له مسلم. التهذيب ٤٧٦/٣. والخبر أخرجه الطبري ٤٥٧/١٣. وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

(٥) في (د) و(ز): أمين، وهي كذلك في مطبوع تفسير الطبري، وفي تفسير ابن كثير: أمر.

(٦) في (م): أو يتوب إليه، وفي تفسير الطبري وتفسير ابن كثير: ويتوب.

(٧) في تفسير الطبري وتفسير ابن كثير: يتزولون.

ملائكة الليل على ملائكة النهار؛ لأنَّ ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكاً على كلِّ آدميٍّ، وإبليس مع ابنِ آدمَ بالنهار، وولده بالليل^(١). ذكره الثعلبي.

قال الحسن: المعقبات أربعة أملاك [اثنان بالنهار واثنان بالليل] يجتمعون عند صلاة الفجر^(٢).

واختيار الطبري^(٣): أنَّ المعقبات المواقب بين أيدي الأمراء وخلفهم، والهاء في «له» لـ «من»^(٤)، على ما تقدّم^(٥).

وقال العلماء رضوان الله عليهم: إنَّ الله سبحانه جعل أوامره على وجهين؛ أحدهما قضى حلوله ووقوعه بصاحبه، فذلك لا يدفعه أحدٌ ولا يغيره. والآخر قضى مجيئه، ولم يقضِ حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما يقوم حتى يقع تغير^(٦)؛ إما منهم، أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غير الله بالمنهزمين يوم أُحد بسبب تغير الرماة [ما] بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة. فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، كما قال ﷺ وقد سئل: أَنَهْلِكَ

(١) قال ابن كثير: حديث غريب جداً. قلنا: وفي إسناده إبراهيم بن عبد السلام بن صالح وعلي بن جرير، ولم نقف لهما على ترجمة.

(٢) النكت والعيون ٩٨/٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في تفسيره ٤٦١/١٣ - ٤٦٢.

(٤) يعني في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ﴾ وهذا هو اختيار الطبري في تفسيره، ووقع في النسخ: لهن، بدل: لمن. والصواب ما أثبتناه.

(٥) ص ٢٩ من هذا الجزء.

(٦) قبلها في النسخ: منهم، والمثبت من المحرر الوجيز ٣٠٢/٣، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الْخَبَثُ»^(١). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا﴾، أي: هلاكاً وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾.

وقيل: إذا أراد بهم بلاء من أمراضٍ وأسقام، فلا مَرَدَّ لبلائه^(٢).

وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدهم عن حتفة بكفه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي: من ملجأ؛ وهو معنى قول السدّي. وقيل: من ناصِرٍ يمنعهم من عذابه؛ وقال الشاعر:

ما في السماء سوى الرحمن من والٍ^(٣)

ووالٍ وولِّي كقادر وقدير.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾^(٤) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خِفَتِهِ. وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ^(٥)

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾، أي: بالمطر. «والسحاب» جمع، والواحدة سحابة، وسُحِبٌ وسَحَابٌ في الجمع أيضاً^(٤).

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خِفَتِهِ. وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ قد مضى في «البقرة»^(٥) القول في الرعد والبرق والصواعق، فلا معنى للإعادة.

(١) قطعة من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها، وقد سلف ١٤٦/٩.

(٢) النكت والعيون ٩٩/٣.

(٣) ذكره مع ما قبله الماوردي في النكت والعيون ١٠٠/٣.

(٤) الصحاح (سحب).

(٥) ٣٢٧/١ وما بعدها.

والمراد بالآية بيان كمال قدرته، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز، أي: يريكم البرق في السماء خوفاً للمسافر؛ فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق؛ قال الله تعالى: ﴿أَذَىٰ مِّنْ مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢]. وطمعاً للحاضر أن يكون عقبه مطرٌ وخضب؛ قال معناه قتادة ومجاهد وغيرهما^(١).

وقال الحسن: خوفاً من صواعق البرق، وطمعاً في غيثه المزيل للقط^(٢).
﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ قال مجاهد: أي: [الثقال] بالماء^(٣). ﴿وَيَسْجِجُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ مَن قال: إِنَّ الرَّعْدَ صَوْتُ السَّحَابِ، فيجوز أن يُسَبَّح الرعد بتقدير^(٤) خلق الحياة فيه، ودليل صحة هذا القول قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ فلو كان الرعد ملكاً لدخل في جملة الملائكة.

وَمَن قال: إنه ملك قال: معنى «مِنْ خِيفَتِهِ»: من خيفة الله؛ قاله الطبري^(٥) وغيره. قال ابن عباس: إِنَّ المَلَائِكَةَ خَائِفُونَ مِنَ اللَّهِ ليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم مَن على يمينه وَمَن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب^(٦).
وعنه قال: الرعد ملك يسوق السحاب، وإنَّ بحار^(٧) الماء لفي نُفْرة إبهاميه، وإنه مُوَكَّلٌ بالسحاب يصرفه حيث يؤمر، وإنه يسبِّح الله؛ فإذا سبَّح الرعد لم يبق ملك في

(١) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق في التفسير ٣٣٣/١، والطبري ٤٧٥/١٣، وذكره النحاس في معاني القرآن ٤٨١/٣ عن قتادة ومجاهد والحسن.

(٢) النكت والعيون ١٠٠/٣.

(٣) النكت والعيون ١٠٠/٣، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ٤٧٦/١٣، وهو في تفسير مجاهد ٣٢٦/١.

(٤) في (د) و(ز) و(م): بدليل، والمثبت من (ظ).

(٥) في تفسيره ٤٧٨/١٣.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ١٠/٣.

(٧) في (م): بخار.

السَّمَاءِ إِلَّا رَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّسْبِيحِ، فعندها ينزل القَطَرُ^(١).

وعنه أيضاً: كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان الذي سَبَّحَتْ له^(٢).

وروى مالك، عن عامر بن عبد الله، عن أبيه: أنه كان إذا سمع صوت الرعد [لَهِيَ من حديثه و] قال: سبحان الذي يَسْبُحُ الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول: إِنَّ هَذَا وَعِيدٌ لَأَهْلِ الْأَرْضِ شَدِيدٌ^(٣).

وقيل: إنه مَلَكٌ جالِسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف مَلَكٌ، وعن يساره مثلُ ذلك، فإذا أقبل على يمينه وسَبَّحَ؛ سَبَّحَ الجميعُ من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وسَبَّحَ؛ سَبَّحَ الجميعُ من خوف الله.

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر الماوردي عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب ومجاهد: نزلت في يهوديٍّ قال للنبي ﷺ: أَخْبِرْنِي! مِنْ أَيِّ شَيْءٍ رَبُّكَ؟ أَمِنْ لَوْلُؤِ أُمِّ مِنْ يَاقُوتٍ؟ فَجَاءَتْ صَاعِقَةٌ، فَأَحْرَقَتْهُ^(٤).

وقيل: نزلت في بعض كفّار العرب؛ قال الحسن: كان رجلٌ من طواغيت العرب، بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ نَفَرًا يَدْعُونَهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي عَنْ رَبِّ مُحَمَّدٍ مَا هُوَ، وَمِمَّ هُوَ، أَمِنْ ذَهَبٌ أَمْ مِنْ فِضَّةٍ^(٥) أَمْ مِنْ حَدِيدٍ أَمْ نَحَاسٍ؟ فَاسْتَعْظَمَ الْقَوْمُ مُقَالَاتَهُ، فَقَالَ: أُجِيبُ مُحَمَّدًا إِلَى رَبِّ لَا أَعْرِفُهُ! فَبَعَثَ

(١) ذكره البغوي ١١/٣، من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس. وينظر تفسير الطبري ٣٥٧/١ - ٣٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٢٢)، والطبري ٤٧٧/١٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤٨٣/٣، وما سلف بين حاصرتين منه. ومن طريق مالك أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٢٣). ووقع في الموطأ ٩٩٢/٢: مالك، عن عامر بن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع... قال ابن عبد البر في الاستذكار ٣٨٠/٢٧: هكذا رواه يحيى، لم يجاوز به عامراً، ورواه غيره من رواة الموطأ فقالوا فيه: مالك، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه.

(٤) النكت والعيون ١٠١/٣، وأخرجه عن علي ﷺ ومجاهد الطبري ٤٧٩/١٣ - ٤٨٠.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ومم هو أمن فضة، والمثبت من (ط) والمصادر على ما يأتي.

النبي ﷺ إليه مراراً وهو يقول مثل هذا، فبينما التفر ينازعونه ويدعونهم إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وأبرقت ورمث بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس، فرجعوا إلى النبي ﷺ، فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: احترق صاحبكم، فقالوا: من أين علمتم؟ قالوا: أوحى الله إلى النبي ﷺ: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾. ذكره الثعلبي عن الحسن^(١)، والقشيري بمعناه عن أنس، وسيأتي^(٢).

وقيل: نزلت الآية في أريد بن ربيعة أخي لبيد بن ربيعة، وفي عامر بن الطفيل؛ قال ابن عباس: أقبل عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة العامريان يريدان النبي ﷺ وهو في المسجد جالس في نفر من أصحابه، فدخل المسجد، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور، وكان من أجمل الناس، فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: هذا يا رسول الله عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك، فقال: «دعه فإن يرد الله به خيراً يهده» فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ فقال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين» قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «ليس ذاك إليّ، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء». قال: أفتجعلني على الوبر وأنت على المدر؟ قال: «لا». قال: فما تجعل لي؟ قال: «أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها في سبيل الله». قال: أو ليس لي أعنة الخيل اليوم؟ قم معي أكلّمك. فقام معه رسول الله ﷺ، وكان عامر أوماً إلى أريد: إذا رأيتني أكلمه فدّر من خلفه واضربه بالسيف؛ فجعل يخاصم النبي ﷺ ويراجعه، فاخترط أريد من سيفه شبراً، ثم حبسه الله؛ فلم يقدّر على سلّه، وبسّ يده على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاح فأحرقت، وولّى عامر هارباً وقال: يا محمد! دعوت ربك على أريد حتى قتلت^(٣)، والله

(١) وذكره عن الحسن أيضاً البغوي ١١/٣.

(٢) ص ٣٩ من هذا الجزء.

(٣) في (ظ): حتى قتله الله.

لأملأنها عليك خيلاً جُرُداً، وفتياناً مُردّاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلَةٍ»^(١) يعني الأوسَ والخزرجَ؛ فنزل عامرُ بيت امرأَةٍ سُلُولِيَةٍ، وأصبح وهو يقول: والله لئن أَضَحَرَ^(٢) لي محمدٌ وصاحبُه - يريد مَلِكَ الموت - لَأَنفِذَنَّهُمَا^(٣) برمحي. فأرسل الله مَلَكاً فلطمه بجناحه فأذراه في التراب؛ وخرجت على ركبته غُدَّةٌ عظيمةٌ في الوقت، فعاد إلى بيت السُلُولِيَةِ وهو يقول: غُدَّةٌ كغدة البعير، وموتٌ في بيت سُلُولِيَةٍ! ثم ركب على فرسه، فمات على ظهره^(٤). ورثى لبيد بن ربيعة أخاه أُرَيْدَ فقال:

يا عينُ هَلَّا بَكَيْتِ أُرَيْدَ إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدٍ
أَخْشَى عَلَى أُرَيْدَ الْخُتُوفَ وَلَا أَزْهَبُ نَوْءَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ
فَجَعَنِي الرِّغْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْ فَارِسَ يَوْمَ الْكَرِيهَةِ النَّجْدِ^(٥)
وفيه قال:

إِنَّ الرِّزْيَةَ لَا رَزْيَةَ مِثْلَهَا فَقَدَانُ كُلِّ أَخٍ كضوءِ الْكَوْكَبِ
يَا أُرَيْدَ الْخَيْرِ الْكَرِيمِ جُدُودُهُ أَفَرَدْتَنِي أَمْشِي بِقَرْنٍ أَغْضَبِ^(٦)

(١) في تفسير البغوي ١٠/٣ (والكلام منه): وابنا قيلة وكذلك وقع في بعض المصادر التي ذكرت الخبر مثل الكامل للمبرد ١٣٩٣/٣، ومجمع الأمثال للميداني ٥٧/٢، وينظر ما سلف ٦٨/١٠.

(٢) أي: خرج إلى الصحراء. الصحاح (صحر).

(٣) في النسخ عدا (ظ): لأنفذتهما، وكذلك هو في مطبوع تفسير البغوي، والمثبت من (ظ) ومجمع الأمثال.

(٤) ذكره البغوي ٩/٣ - ١٠ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٣/٤٦٧-٤٧٠ عن ابن زيد مطولاً، وأخرجه بنحوه ١٣/٤٨١ - ٤٨٢ عن ابن جريج.

(٥) الأبيات في شرح ديوان لبيد ص ١٥٨ - ١٦٠، والكامل ٣/١٣٩٤ على اختلاف في الترتيب. قال الطوسي شارح الديوان: قوله: كبد، هو القيام على الأمر الشديد. والتَّجْدُ: البطل ذو نجدة. وقال في شرح البيت الثاني: كنت أخشى عليه كل سبب من أسباب المنية، ولم أكن أفرق عليه صاعقة. وسلف البيت الأخير ٣٢٨/١.

(٦) شرح ديوان لبيد ص ١٥٤ - ١٥٧، والكامل ٣/١٣٩٤، وقد تقدم فيهما البيت الثاني على الأول. قال الطوسي شارح الديوان: الأغضب: المكسور أحد قرنيّه، وهذا مثل، أي: ذهب حدي.

وَأَسْلَمَ لِيَدِ بَعْدَ ذَلِكَ ﷺ.

مسألة: روى أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأخذ الصاعقة ذاكراً لله عزَّ وجلَّ»^(١).

وقال أبو هريرة ﷺ: كان النبي ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول: «سبحان مَنْ يُسَبِّحُ الرعد بحمده والملائكة من خيفته»^(٢). قال ابن عباس: مَنْ سمع صوت الرعد فقال: سبحان مَنْ يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته^(٣) وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعليَّ دية^(٤).

وذكر الخطيب من حديث سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جدّه قال: كنا مع عمر في سفر، فأصابنا رعد وبرد، فقال لنا كعب: مَنْ قال حين يسمع الرعد: سبحان مَنْ يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً، عُوفي مما يكون في ذلك الرعد، ففعلنا فعوفينا، ثم لقيت عمر بن الخطاب ﷺ، فإذا بردة قد أصابت أنفه فأثرت به، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما هذا؟ قال: بردة أصابت أنفي فأثرت، فقلت: إن كعباً حين سمع الرعد قال لنا: مَنْ قال حين يسمع الرعد: سبحان مَنْ يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثاً عُوفي مما يكون في ذلك الرعد، ففعلنا فعوفينا. فقال عمر: أفلا قلتم لنا حتى نقولها؟ وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة»^(٥).

(١) النكت والعيون ١٠١/٣، وأبان هو ابن أبي عياش، قال الحافظ في التقریب: متروك. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٠٢٣) من طريق معمر عن سمع عطاء يقول، وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم ٢٦١٨/٨ (١٤٧١٦) عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر.

(٢) أخرج الطبري ٤٧٧/١٣.

(٣) من قوله: قال ابن عباس إلى هذا الموضع من (ظ).

(٤) أخرجه سعيد بن منصور (١١٦٥)، وفي إسناده سلام الطويل، قال أحمد: منكر الحديث. وقال يحيى: ضعيف لا يكتب حديثه. وقال النسائي: متروك. الميزان ١٧٥/٢.

(٥) ٣٢٩/١، وسلف ثم تخريج الخبر.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعني جدال اليهودي حين سأل عن الله تعالى: من أي شيء هو؟ قاله مجاهد. وقال ابن جريج: جدال أربد فيما هم به من قتل النبي ﷺ^(١). ويجوز أن يكون: «وهم يُجَادِلُونَ في الله» حالاً، ويجوز أن يكون منقطعاً.

وروى أنس: أن رسول الله ﷺ بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل، فقال لرسوله^(٢): أخبرني عن إلهك هذا! أهو من ذهب، أم من فضة، أم من نحاس؟ فاستعظم ذلك، فرجع إليه فأعلمه، فقال: «ارجع إليه فادعه». فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله ﷺ وقد نزل: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾^(٣).
﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن الأعرابي: «المحال»: المكر، والمكر من الله عز وجل: التدبير بالحق^(٤).

النحاس^(٥): المكر من الله: إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر.
وروى ابن اليزيدي عن أبي زيد: «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» أي: النعمة^(٦).
وقال الأزهرى: «المحال» أي: القوة والشدة. والمحل: الشدة؛ الميم أصلية، وماحلت فلاناً محالاً، أي: قاوتته حتى يتبين أننا أشد^(٧).

(١) أخرج القولين الطبري ١٣/٤٧٩، ٤٨١.

(٢) في (م): لرسول الله.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٩٥)، والبخاري (٢٢٢١ - زوائد)، وأبو يعلى (٣٣٤١)، والطبري ١٣/٤٨٠، والعقيلي في الضعفاء ٣/٢٣٢، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٧٥.

(٤) ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن ص ٢٨٠.

(٥) في معاني القرآن ٣/٤٨٥.

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/١٥٧ والرازي ٢٨/١٩ عن الحسن. وابن اليزيدي هو أحمد بن محمد بن يحيى بن المبارك أبو جعفر، كان متقناً في العلوم، راوية للشعر والأخبار، شاعراً، قال ابن عساكر: كان من ندماء المأمون، وقدم معه دمشق، وتوجه منها غازياً للروم. إنباه الرواة ٢/١٢٦.

(٧) ينظر تهذيب اللغة ٥/٩٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/١٤٣.

وقال أبو عبيدة^(١): «المِحَالُ»: العقوبة والمكر^(٢).

قال ابن عَرَفَة: «المِحَالُ»: الجدال؛ يقال: ماحَلَ عن أمره، أي: جادل^(٣).

وقال القُتَيْبِيُّ^(٤): أي: شديد الكيد [والمكر]، وأصله من الحيلة. جَعَلَ مِيمَهُ كميم المكان؛ وأصله من الكون، ثم يقال: تمكَّنت. وقال الأزهري^(٥): غَلِطَ ابنُ قُتَيْبَةَ أَنَّ الميمَ فيه زائدة، بل هي أصليَّة، وإذا رأيتَ الحرفَ على مثالِ فِعالٍ أوْله مِيمٌ مكسورةٌ فهي أصليَّة، مثل: مِهَادٌ وَمَلَاكٌ وَمِرَّاسٌ، وغير ذلك من الحروف. ومِفْعَلٌ إذا كان من بنات الثلاثة، فإنه يجيء بإظهار الواو [والياء] مثل: مِزَوْدٌ وَمِخْوَلٌ وَمِخْوَرٌ [ومِزِيلٌ ومِغِيرٌ]، وغيرها من الحروف.

وقال: وقرأ الأعرج: «وهو شديد المَحَال» بفتح الميم^(٦). وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحَوْلُ^(٧).

ذَكَرَ هذا كُلُّهُ أبو عبيد الهَرَوِيُّ^(٨) - إلا ما ذكرناه أولاً عن ابن الأعرابي - وأقاربُ الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها: شديد العداوة؛ قاله ابن عباس. وثانيها: شديد الحَوْل؛ قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها: شديد الأخذ؛ قاله علي بن أبي طالب. ورابعها: شديد الحقد؛ قاله الحسن^(٩). وخامسها: شديد القوة؛ قاله مجاهد.

(١) في (د) و(م): أبو عبيد، والقول في مجاز القرآن له ٣٢٥/١.

(٢) في النسخ: والمكروه، والمثبت من مجاز القرآن، وكذا ذكره عنه الطبري ٤٨٣/١٣.

(٣) ذكره الرازي ٢٨/١٩، وابن منظور في اللسان (محل).

(٤) في تفسير غريب القرآن ص ٢٢٦، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) في تهذيب اللغة ٩٥/٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) القراءات الشاذة ص ٦٦، والمحتسب ٣٥٦/١.

(٧) أخرجه الطبري ٤٨٤/١٣، وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٩٦/٥، والكلام منه.

(٨) هو أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الشافعي اللغوي، صاحب الغريبين.

(٩) في النسخ: قاله ابن عباس، والمثبت من النكت والعيون ١٠٢/٣، والكلام منه. وقال ابن الجوزي

٣١٦/٤: قاله الحسن البصري فيما سمعناه عنه مسنداً من طرق، وقد رواه عنه جماعة من المفسرين منهم ابن الأنباري والنقاش، ولا يجوز هذا في صفات الله. قال النقاش: هذا قول منكر. وينظر تفسير الرازي ٢٨/١٩.

وسادسها: شديد الغضب؛ قاله وهب بن مُنيّة. وسابعها: شديد الهلاك بالمَحَل، وهو القَحْط؛ قاله الحسن أيضاً. وثامنها: شديد الحيلة؛ قاله قَتَادَة^(١).

وقال أبو عبيدة مَعَمَر: المِحَال والمَمَاحِلَة: المُمَاكِرَة والمُغَالِبَة^(٢)، وأنشد للأعشى:

فَرُعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ كَثِيرُ النَّدَى شَدِيدُ الْمِحَالِ^(٣)
وقال آخر:

وَلَبَّسَ بَيْنَ أَقْوَامٍ فُكُلًا أَعَدَّ لَهُ الشَّعَاظِبَ وَالْمِحَالَا^(٤)
وقال عبد المطلب:

لَا هُمْ إِنْ الْعَبَدَ يَمُومُوا نَعُ رَحْلَهُ فَا مَنَعَ جِلَالِكَ
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ عَذْوًا مِحَالِكَ^(٥)

قوله تعالى: ﴿لَمْ دَعُوهُ لَمَقًّا وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ
كَفْتٍ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ دَعُوهُ لَمَقًّا﴾ أي: لله دعوة الصدق^(٦). قال ابن عباس وقَتَادَة

(١) النكت والعيون ١٠٢/٣، وأخرج أغلب هذه الأقوال الطبري ٤٨٣/١٣ - ٤٨٤.

(٢) ينظر تفسير البغوي ١١/٣، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن له ٣٢٥/١: «شديد المحال» أي: العقوبة والمكر والنكال، وقد سلف بعضه.

(٣) مجاز القرآن ٣٢٥/١، وهو في ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص ٥٧، وهو فيهما برواية: غزير الندى. ووقع في النسخ الخطية: عظيم المحال، وهي رواية الطبري للبيت ٤٨٣/١٣.

(٤) مجاز القرآن ٣٢٦/١، وقائله ذو الرمة، وهو في ديوانه ١٥٤٤/٣ برواية: السفارة والمحالا. قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: اللبس: الاختلاط. والسفارة: الصلح بين القوم. ويروى: الشغازب، أي: الكيد والخصومة. والمحال: الجدل.

(٥) سيرة ابن هشام ٥١/١، والحيوان للجاحظ ١٩٨/٧ - ١٩٩، وسلف البيت الأول ٨٣/٢. ووقع في (د) و(م): المرء، بدل: العبد، وهو موافق لما في كتاب الحيوان. قوله: جلالك بكسر الحاء: القوم المقيمون المتجاورون، يريد بهم سكان الحرم. النهاية (حل).

(٦) تفسير البغوي ١٢/٣.

وغيرهما: لا إله إلا الله^(١).

وقال الحسن: إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوة الحق^(٢).

وقيل: إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق؛ قاله بعض المتأخرين. وقيل: دعوة الحق: دعاؤه عند الخوف؛ فإنه لا يُدعى فيه إلا إياه، كما قال: ﴿مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٣٧]؛ قال الماوردي^(٣): وهو أشبهُ بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأصنام والأوثان ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أي: لا يُجيبون لهم دعاءً، ولا يسمعون لهم نداءً ﴿إِلَّا كَبْتِطِ كَتَبَتْهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِلَاقِئِهِ﴾ ضرب الله عزَّ وجلَّ الماءَ مثلاً لإيأسهم^(٤) من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يُدركه مثلاً بالقابض الماء باليد؛ قال:

فأصبحت مما^(٥) كان بيني وبينها من الودِّ مثل القابض الماء باليد^(٦)
وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الذي يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد - يريد تناوله ولا يقدر عليه - بلسانه، ويشير إليه بيده، فلا يأتيه أبداً؛ لأن الماء لا يستجيب، وما الماءُ ببالغٍ إليه؛ قاله مجاهد.

الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو

(١) أخرجه عنهما الطبري ١٣/٤٨٥ - ٤٨٦.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/١١، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/٣١٧.

(٣) في النكت والعيون ٣/١٠٣.

(٤) في النسخ: ليأسهم، والمثبت من النكت والعيون. قال صاحب كتاب العين ٧/٣٣١: يشت منه يأساً، وآيسْتُ فلاناً إيأساً. وتقول: أيأسته فاستيأس، والمصدر منه: إيأس.

(٥) في (م): فيما.

(٦) النكت والعيون ٣/١٠٣، ونسبه فيه الماوردي لأبي الهذيل، وهو دون نسبة في مجاز القرآن ١/٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/٤٨٨. ونسبه صاحب الأغاني ٧/١٣٩ لأبي دهبيل الجمحي برواية: سوى ذكرها كالقابض، بدل: من الود مثل القابض.

ببالغه؛ لكذب ظنّه، وفساد توهمه؛ قاله ابن عباس.

الثالث: أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل^(١) في كفه شيء منه.

وزعم الفراء أن المراد بالماء هاهنا البئر؛ لأنها معدن للماء، وأن المثل: كمن مدّ يده إلى البئر بغير رشاء^(٢)، وشاهد قول الشاعر:

فإن الماء ماء أبي وجدي وبيري ذو حفرّت وذو طويّت^(٣)

قال عليّ^(٤): هو كالعطشان على شفة البئر، فلا يبلغ قعر البئر، ولا الماء يرتفع إليه^(٥).

ومعنى «إلا كباسط»: إلا كاستجابة باسط كفه إلى الماء، فالمصدر مضاف إلى الباسط، ثم حذف المضاف، وفاعل المصدر المضاف مراد في المعنى وهو الماء، والمعنى: إلا كإجابة باسط كفه إلى الماء^(٥)، واللام في قوله: «لِيَبْلُغَ فاه» متعلّقة بالباسط.

وقوله: «وما هو ببالغ» كناية عن الماء، أي: وما الماء ببالغ فاه. ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم، أي: ما الفم ببالغ الماء^(٦).

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال؛ لأنها شرك. وقيل: إلا في ضلال، أي: يضلّ عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه

(١) في (د) و(ز): فلا يجعل، وفي (م): فلا يجمد، والمثبت من (ظ) والنكت والعيون.

(٢) أي: حبل. القاموس (رشا).

(٣) النكت والعيون ١٠٤/٢، والبيت لسنان بن الفحل الطائي كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٥٩١/٢، وأمالى ابن الشجري ٥٥/٣، والخزانة ٣٥/٦. قال البغدادي: ذو اسم موصول، وهو هنا بمعنى التي.

(٤) أخرجه نحوه الطبري ٤٨٨/١٣.

(٥) أي: إلا كإجابة الماء من بسط كفه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه. الكشف ٣٥٤/٢، والإملاء (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣٧٨/٣، والدر المصون ٣٤/٧.

(٦) المحرر الوجيز ٣٠٥/٣.

شيئاً^(١)، كما قال: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧]
وقال ابن عباس: أي: أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن وقتادة
وغيرهما: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرهاً بالسيف^(٣). وعن قتادة أيضاً:
يسجد الكافر كارهاً حين لا ينفعه الإيمان. وقال الزجاج: سجود الكافر كرهاً: ما فيه
من الخضوع وأثر الصنعة^(٤).

وقال ابن زيد: «طَوْعاً»: مَنْ دخل في الإسلام رغبةً، و«كَرْهًا»: مَنْ دخل فيه
رَهْبَةً بالسيف^(٥).

وقيل: «طَوْعاً» مَنْ طالت مدته إسلامه فأَلِفَ السجود^(٦)، و«كَرْهًا» مَنْ يُكره نفسه
لله تعالى، فالآية في المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى «والأرض»^(٧): وبعضُ مَنْ في
الأرض.

قال القُشَيْرِيُّ: وفي الآية مَسْلُكَان: أحدهما: أنها عامّة والمرادُ بها التخصيص،
فالمؤمن يسجد طوعاً، وبعضُ الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين، فالآية

(١) في (د) و(ز) و(م): سيلاً.

(٢) ذكره البغوي ١٢/٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٣١٨/٤.

(٣) أخرجه الطبري ٤٩١/١٣ عن قتادة، وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٥٨/١٣ عن الحسن.

(٤) بنحوه في معاني القرآن له ١٤٤/٣.

(٥) النكت والعيون ١٠٤/٣، وأخرجه الطبري ٤٩١/١٣.

(٦) النكت والعيون ١٠٤/٣.

(٧) في (ظ): وعلى هذا يكون معنى ومن في الأرض.

محمولة على هؤلاء؛ ذكره الفراء^(١). وقيل: على هذا القول: الآية في المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعاً لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقة، ولكنهم يتحملون المشقة إخلاصاً وإيماناً، إلى أن يألفوا الحق ويمرنوا عليه.

والمسلك الثاني - وهو الصحيح -: إجراء الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان: أحدهما: أن المؤمن يسجد طوعاً، وأما الكافر فمأموراً بالسجود مؤاخذاً به. والثاني - وهو الحق - أن المؤمن يسجد ببدنه طوعاً، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق^(٢) سجد^(٣) دلالة وحاجة إلى الصانع، وهذا كقوله: ﴿وَلَنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة.

﴿وَوَلِّلْنَاهُمُ الْغُفُورَ وَالْكَافِرَ﴾ أي: ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنها تنفي^(٤) في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية، وذلك تصريح الله إياها على ما يشاء، وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنْفَخُوا فِيهِ لُفْلُفًا عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] قاله ابن عباس وغيره^(٥).

وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع؛ وظل الكافر يسجد كرهاً^(٦) وهو كاره.

(١) في معاني القرآن ٦١/٢ .

(٢) بعدها في (ظ): مربوب مكوّن، أي: بتكوين الرب إياه، ويبقى بإبقائه، فسجود كل مخلوق.

(٣) في (د) و(ز) و(م): يسجد.

(٤) في (د) و(ز) و(م): تبين.

(٥) ينظر تفسير الطبري ٤٩٢/١٣ . ومعنى «يتفياً ظلاله»: تدور ظلاله وترجع من جانب إلى جانب. شرح غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٤٣ .

(٦) كذا في النسخ، ووقع بدلاً منها في تفسير الطبري ٤٩٢/١٣ ، والوسيط للواحدي ١١/٣ ، وتفسير البغوي ١٢/٣ : طوعاً. وذكره بلفظ: كرها، الرازي ٣٠/١٩ ، والسيوطي في الدر المنثور ٥٢/٤-٥٣ وعزه للطبري وابن المنذر.

وقال ابن الأنباري^(١): يُجعل للظلال عقولٌ تسجد بها وتخضع بها، كما جعل للجبال أفهامٌ حتى خاطبت وخوطبت. قال القشيري: في هذا نظر؛ لأنَّ الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقلٌ بشرط تقدير الحياة، وأمَّا الظلالُ فآثارٌ وأعراضٌ، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجودُ بمعنى الميل؛ فسجودُ الظلال: ميلُها من جانب إلى جانب؛ يقال: سجدت النخلة، أي: مالت.

و«الأصال» جمع أصْل، والأصل جمع أصيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب^(٢)، ثم أصائل جمعُ جَمْع الجمع^(٣)؛ قال أبو ذؤيب الهذلي: لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلُهُ وَأَقْعُدُ فِي أَفْيَانِهِ^(٤) بِالْأَصَائِلِ^(٥) و«ظلالُهم» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ»، ويجوز أن يكون ارتفع بالابتداء، والخبرُ محذوف، التقدير: وظلالُهم سُجَّدٌ بالغدو والأصال. و«الغدو» يجوز أن يكون مصدرًا، ويجوز أن يكون جمعُ غداة، يقوِّي كونه جمعاً مقابلةً للجمع - الذي هو «الأصال» - به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَأْخُذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول

(١) قوله في تفسير الرازي ١٩/٣٠.

(٢) مجاز القرآن ١/٢٣٩، وتفسير الطبري ١٣/٤٩٨، والنكت والعيون ٣/١٠٤.

(٣) في (د) و(ز) و(م): ثم أصائل جمع الجمع، والمثبت من (ظ)، والروض الأنف ٢/٢٤ - ٢٥ والكلام منه، وقد ردّه السهيلي فقال: وهذا خطأ بين من وجوه؛ منها: أن جمع جمع الجمع لم يوجد قط في الكلام فيكون هذا نظيره...، ثم ذكر في ردّه وجوهاً كثيرة لا يتسع المجال لذكرها هنا.

(٤) في النسخ الخطية: أفئانه، والمثبت من (م) والمصادر.

(٥) ديوان الهذليين ١/١٤١، ومجاز القرآن ١/٢٣٩ و٣٢٣، والخزانة ٥/٤٨٤.

للمشركين: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم أمره أن يقول لهم: هو الله؛ إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك وجَهِلوا مَنْ هو.

﴿قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ هذا يدلُّ على اعترافهم بأن الله هو الخالق، وإلا لم يكن للاحتجاج^(١) بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ معنى، دليله قوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: فإذا اعترفتم فَلِمَ تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضرُّ. وهو إلزام صحيح.

ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق، والمشرك الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مثلاً لِمَا عَبدوه من دون الله، والبصيرُ مثلاً الله تعالى.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي: الشرك والإيمان. وقرأ ابن محيٍصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائي: ﴿يَسْتَوِي﴾ بالياء^(٢) لتَقْدُّم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيقي. الباقر بالتاء، واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يحُلْ بين المؤنث والفعلِ حائل^(٣). و«الظلمات والنور» مثل الإيمان والكفر، ونحن لا نقف على كيفية ذلك.

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج، أي: خَلَقَ غيرُ الله مثلاً خَلْقِهِ فتشابه الخلقُ عليهم، فلا يدرون خَلَقَ الله مِنْ خَلْقِ آلِهَتِهِمْ؟! ﴿قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فلَزِمَ لذلك أن يعبدَه كُلُّ شَيْءٍ. والآية ردُّ على المشركين والقَدَرِيَّة الذين زعموا أنهم خَلَقُوا كما خَلَقَ

(١) في (ظ): إذ لو لم يكونوا مقرين بأن الله هو الخالق لم يكن للاحتجاج. بدل: وإلا لم يكن للاحتجاج...

(٢) السبعة ص ٣٥٨، والتيسير ص ١٣٣ عن أبي بكر - وهو شعبة - وحمزة والكسائي.

(٣) ينظر الحجة للفارسي ١٥/٥.

الله^(١). ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ قبل كل شيء ﴿الْقَهَّارُ﴾: الغالب لكل شيء، الذي يغلب في مراده كل مُريد.

قال القشيري أبو نصر: ولا يَبْعُدُ أن تكون الآية واردةً فيمن لا يعترف بالصانع، أي: سلّمهم عن خالق السماوات والأرض، فإنه يسهّل تقرير الحجة فيه عليهم، ويقرب الأمر من الضرورة؛ فإنَّ عَجَزَ الجماد وعَجَزَ كل مخلوق عن خلق السماوات والأرض معلوم، وإذا تقرّر هذا ويأن أن الصانع هو الله، فكيف يجوز اعتقاد^(٢) الشريك له؟! وبين في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعلٌ هذا عن فعلٍ ذلك، فبم يُعلم أن الفعل من اثنين؟! يتميز فعلٌ هذا عن فعلٍ ذلك، فبم يُعلم أن الفعل من اثنين؟!

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَقٍ إِنَّهُ لَحَقُّ الْحَقِّ وَالْبَاطِلُ فَاذَا زُرِدُ فَإِذَا زُرِدُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝٧ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَا أُفْتَدَوْا بِوَيْءٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيسَ لِلْهَادِ ۝٨ أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَٰئِ الْأَتْبَابِ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ ضرب تعالى مثلين^(٣) للحق والباطل؛ فشبه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل

(١) حز الغلاصم ص ٦٨ - ٦٩ ، وضرب مصنفه مثلاً لقول القدرية حركة اليد فقال: وذلك أن حركة الارتعاش في يد العبد هم موافقون لنا أنها خلّق الله تعالى لأنها واقعة بقدره الله وإرادته، فإذا أراد العبد أن يحرك يده باختياره وإرادته حركة تشبه الارتعاش، قالوا: هذه خلّق للعبد لأنها وقعت بقدرته وإرادته!

(٢) في (د) و(ز) و(م): اعتداد.

(٣) في (د) و(ز) و(م): ضرب مثلاً.

وَيَعْلَقُ^(١) بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح، فكذلك الكفر تُمَحِّقُ آثاره. ومَثَلُ الحقِّ بالجواهر التي تُذاب لِتُتَّخَذَ منها ما يَنْفَعُ النَّاسَ، فيعلوها الرِّبْدُ والحَبْثُ، فأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فيبقى، وَأَمَّا الحَبْثُ فيذهب، فكذلك^(٢) يذهب الكفر ويضمحلّ، على ما نبيّنه. قال مجاهد: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا» قال: بِقَدَرِ مَلْئِهَا. وقال ابن جُرَيْج: بقدر صَغَرِهَا وكَبَرِهَا^(٣). وقرأ الأشهب العُقَيْلي والحسن: «بِقَدَرِهَا» بسكون الدال، والمعنى واحد. وقيل: معناها بما قَدَّرَ لها^(٤).

والأودية جمع الوادي؛ وسَمِّيَ وادياً لخروجه وسَيْلَانِهِ؛ فالوادي على هذا اسمٌ للماء السائل^(٥).

وقال أبو علي: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ» تَوَسَّعَ، أي: سال ماؤها، فحذف، قال: ومعنى «بِقَدَرِهَا»: بقدر مياهاها؛ لأنَّ الأودية ما سالت بقدر أنفسها^(٦).

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي: طَالِعاً عَالِياً مرتفعاً فوق الماء. وتَمَّ الكلام؛ قاله مجاهد^(٧).

ثم قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ وهو المَثَلُ الثاني ﴿أَبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: حلية

(١) في (ظ): فيعلو.

(٢) من قوله: الكفر تُمَحِّقُ آثاره، إلى هذا الموضع من (ظ).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤٨٨/٣ وقول مجاهد في تفسيره ٣٢٧/١، وأخرجه الطبري ٥٠٠/١٣ - ٥٠١. وأخرج أيضاً قول ابن جريج ٥٠٣/١٣ عنه عن ابن عباس.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤٨٨/٣، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦٦.

(٥) تفسير الرازي ٣٦/١٩. وقال الأزهري في تهذيب اللغة ٢٣٢/١٤: قال شمر: ودى أي: سال، ومنه: الوُدِّيُّ فيما أرى لخروجه وسيلانه، ومنه: الوادي.

(٦) ينظر زاد المسير ٣٢١/٤.

(٧) تفسير مجاهد ٣٢٧/١، وهو عند الطبري ٥٠٠/١٣.

الذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَّعَ زَيْدٌ مِثْلَهُ﴾ قال مجاهد: المتاع^(١): الحديد والنحاس والرصاص. وقوله: «زَيْدٌ مِثْلُهُ» أي: يعلو هذه الأشياء زَيْدٌ كما يعلو السيل، وإنما احتَمَلَ السيل الزَيْدَ لأنَّ الماء خالَطَه ترابُ الأرض، فصار ذلك زَيْدًا، كذلك ما يوقَد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يَنْبُثُ في الأرض من المعادن فقد خالَطَه التراب، فإنما يوقد عليه ليزوب فيزيله ترابُ الأرض.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَذَهَبٌ جُفْلَةٌ﴾ قال مجاهد: جُموداً^(٢). وقال أبو عبيدة^(٣): قال أبو عمرو بن العلاء: أَجْفَأَتِ الْقِدْرُ: إذا عَلَتِ حتى يَنْصَبَ زَبْدُهَا، وإذا جَمَدَ في أسفلها^(٤). والجُفَاء: ما أجفأه الوادي، أي: رَمَى به^(٥).

وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤبة يقرأ: «جُفَالًا». قال أبو عبيدة: يقال: أَجْفَلْتُ الْقِدْرُ: إذا قذفت بزبدِها^(٦). وأجفلت الريح السحاب: إذا قطعت [وأذهبت]^(٧).

﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: هو الماء الخالص الصافي^(٨). وقيل: الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص. وهذان^(٩) المَثَلانِ ضَرَبَهُمَا الله للحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، فالباطل وإن علا في

(١) قوله: المتاع، من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير مجاهد ١/٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/٥٠٠.

(٢) تفسير مجاهد ١/٣٢٧، وهو عند الطبري ١٣/٥٠١.

(٣) في مجاز القرآن ١/٣٢٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/٤٨٩.

(٤) قوله: وإذا جمد في أسفلها، وقع بدلاً منه في مجاز القرآن: أو سكنت فلا يبقى منه شيء.

(٥) ينظر القاموس (جفأ).

(٦) النكت والعيون ٣/١٠٧، والقراءة عن رُؤبة في القراءات الشاذة ص ٦٦. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٠٨: قال أبو حاتم: لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/٤٨٩، وما بين حاصرتين منه، ووقع فيه: جفلت، بدل: أجفلت.

(٨) تفسير مجاهد ١/٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/٥٠١.

(٩) في (د) و(ز) و(م): وهو أن، بدل: وهذان.

بعض الأحوال؛ فإنه يضمحل كاضمحلال الزبد والخَبث.

وقيل: المراد مثل ضربه الله للقرآن وما يدخل منه [في] القلوب، فشبّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه، وشبّه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية [من الماء] بحسب سعتها وضيقها. قال ابن عباس: ﴿أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال: قرآنًا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ قال: الأودية قلوب العباد^(١). قال صاحب «سوق العروس»^(٢): إن صحَّ هذا التفسير فالمعنى فيه: أن الله سبحانه مثل القرآن بالماء. ومثل القلوب بالأودية، ومثل المُحكَّم بالصَّافي، ومثل المتشابه بالزبد. وقيل: الزبد مخايل النفس وغوائل الشك^(٣)، ترتفع من خبث^(٤) ما فيها، فتضطرب من سلطان تلُّعها^(٥)، كما أن ماء السيل يجري صافياً، فيرفع ما يجد في الوادي باقياً. وأمَّا حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السيئة والأخلاق الركيكة؛ التي بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء.

وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وحفص:

(١) النكت والعيون ١٠٦/٣، وما سلف بين حاصرتين منه. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٠٨/٣: وهذا قول لا يصح - والله أعلم - عن ابن عباس؛ لأنه ينحو إلى أقوال أصحاب الرموز، ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب لغير علة تدعو لذلك.

(٢) لعله عبد الكريم بن عبد الصمد، أبو معشر الطبري المقرئ، شيخ أهل مكة، صنف كتاب سوق العروس في القراءات المشهورة والغريبة، وكتاب الدرر في التفسير وغيرهما، توفي سنة (٤٧٨هـ). معرفة القراء الكبار ٨٢٧/٢. وثمة كتاب آخر بهذا الاسم لابن الجوزي ذكره ونقل عنه الألوسي في روح المعاني ٦٣/٨.

(٣) في (ظ): الشرك.

(٤) في (د) و(ز) و(م): حيث، والمثبت من (ظ).

(٥) في (د) و(ز): تلُّعها، وفي (ظ): ما فيها، والمثبت من (م). والتَّلُّع جمع تَلَّعَ، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض يحفر فيها كهيفة الخندق، أو هي أرض غليظة مرتفعة يتردد فيها السيل ثم يدفع منها إلى أخرى أسفل منها. معجم متن اللغة (تلع).

﴿يُوقَدُونَ﴾ بالباء^(١). واختارها أبو عبيد؛ لقوله: «يَنْفَعُ النَّاسَ» فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا. الباقي بالتاء؛ لقوله في أول الكلام: ﴿قُلْ أَتَأْتَدُّونَ مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ﴾ الآية^(٢).

وقوله: «في النار» متعلقٌ بمحذوف، وهو في موضع الحال، وذو الحال الهاء التي في «عليه»، التقدير: ومما توقدون عليه ثابتاً في النار أو كائناً. وفي قوله: «في النار» ضميرٌ مرفوعٌ يعود إلى الهاء التي هي اسمُ ذي الحال، ولا يستقيم أن يتعلّق: «في النار» بـ «يوقدون» من حيث لا يستقيم: أوقدْتُ عليه في النار؛ لأن الموقد عليه يكون في النار، فيصير قوله: «في النار» غير مفيد^(٣).

وقوله: «ابتغاء حلية» مفعول له. «زَيْدٌ مِثْلُهُ» ابتداء وخبر، أي: زيدٌ مثل زيد السيل. وقيل: إنَّ خبر «زَيْدٌ» قوله: «في النار». الكسائي: «زَيْدٌ» ابتداء، و«مِثْلُهُ» نعتٌ له، والخبر في الجملة التي قبله، وهو: «مما يُوقَدُونَ»^(٤).

﴿كَذَلِكَ يَقْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: كما بين لكم هذه الأمثال فكذلك يضرُّها بينات. تم الكلام. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أجابوا، استجاب بمعنى أجاب؛ قال:

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبٌ

وقد تقدم^(٥).

(١) السبعة ص ٣٥٨، والتيسير ص ١٣٣ عن حمزة والكسائي وحفص. وذكرها عن ابن محيصن ويحيى ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٠٨.

(٢) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/٢٢، وتفسير الرازي ١٩/٣٦.

(٣) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٠٧ عن مكِّي وغيره، وقال: ذهب أبو علي الفارسي إلى تعلُّقها بـ «يوقدون» وقال: قد يوقد على شيء وليس في النار، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهَنَّمُنْ عَلَى آلِهَتَيْنِ﴾ فذلك البناء الذي أمر به يوقد عليه وليس في النار، لكن يصيبه لهبها. اهـ وقول أبي علي في الحجة له ١٦/٥ - ١٧.

(٤) مشكل إعراب القرآن ١/٣٩٨.

(٥) ١/٣٢١، وقائله كعب بن سعد الغنوي، وصدرة: وداع دعا يا مَنْ يجيب إلى الندى.

أي: أجب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوات. ﴿الْحُسْنَى﴾ لأنها في نهاية الحُسن. وقيل: من الحسنَى: النصرُ في الدنيا، والنعيمُ المقيمُ غداً.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: لم يُجيبوا إلى الإيمان به ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: من الأموال ﴿وَمِثْلَهُ مَعَكُمْ﴾ ملكٌ لهم ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة، نظيره في «آل عمران»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٠]، و﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَكَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١] حَسْبَ ما تقدّم بيانه هناك.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي: لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فرقد السبخي: قال لي إبراهيم النخعي: يا فرقد! أتدري ما سوء الحساب؟ قلت: لا! قال: هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله، لا يفقد منه شيء^(١). ﴿وَمَا أُولَئِكَ﴾ أي: مسكنهم ومقامهم ﴿جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْهَادِ﴾ أي: الفراش الذي مهدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿أَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ هذا مثلُ ضربه الله للمؤمن والكافر، وروي أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب عليه السلام، وأبي جهل لعنه الله^(٢). والمراد بالعمى: عمى القلب، والجاهل بالدين أعمى القلب ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوْلَا الْأَنْبِيَاءِ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْتَ﴾ ﴿١٥﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ هذا من صفة ذوي الألباب، أي:

(١) أخرجه الطبري ١٣/٥٠٦ و ٥٠٩، وفيه: لا يغفر، بدل: لا يفقد. وفرقد السبخي هو ابن يعقوب، أبو يعقوب البصري، توفي سنة (١٣١هـ). التهذيب ٣/٣٨٤.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/١٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله. والعهد اسم للجنس، أي: بجميع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبده، ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتجئ جميع المعاصي^(١).

وقوله: ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ أَلَيْتَهُ﴾ يَحْتَمِلُ أن يريد به جنس الموائيق، أي: إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه؛ قال قتادة: تقدّم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية^(٢). ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، وهو الذي أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم^(٣). وقال القفال: هو ما رغب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات.

الثانية: روى أبو داود وغيره^(٤) عن عوف بن مالك قال: كنّا عند رسول الله ﷺ سبعة أو ثمانية أو تسعة، فقال: «ألا تُبايعون رسول الله ﷺ؟» وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك [حتى قالها ثلاثاً؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل: يا رسول الله! إنّنا قد بايعناك] فعلى ماذا تُبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتُصلّوا الصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا - وأسرّ كلمة خفية - قال: ولا تسألوا الناس شيئاً». قال: فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه، فما يسأل أحداً أن يناوله إيّاه.

قال ابن العربي^(٥): من أعظم الموائيق في الذكر ألا يُسأل سواه؛ فقد كان أبو حمزة الخراساني من كبار العبّاد^(٦)، سمع أنّ ناساً بايعوا رسول الله ﷺ ألا يسألوا

(١) المحرر الوجيز ٣/٣٠٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/٣٠٩، وأخرجه مطولاً الطبري ١٣/٥٠٧ - ٥٠٨.

(٣) تفسير البغوي ٣/١٤، والمحرر الوجيز ٣/٣٠٩ بنحوه.

(٤) سنن أبي داود (١٦٤٢)، وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو عند مسلم (١٠٤٣).

(٥) في أحكام القرآن ٣/١٠٩٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) قال ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٦/١٥٤، ١٥٦: من مشايخ الصوفية المعروفين، ينسب إلى دمشق، ويحتمل أن يكون سكنها وإلا فهو من أهل خراسان المعروفين، وصحب مشايخ بغداد، وهو من أقران الجنيد. وقيل: إن صاحب القصة (التي ستأتي) أبو حمزة البغدادي، وقيل: الدمشقي. اهـ والقصة بنحوها في الحلية ١٠/١٧٧ - ١٧٨، وتاريخ بغداد ١/٣٩١ - ٣٩٢، وتبليّس إبليس ص ٢٩٣.

أحداً شيئاً، الحديث. فقال أبو حمزة: ربّ إنَّ هؤلاء عاهدوا نبيّك إذ رأوه، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحداً شيئاً. قال: فخرج حاجاً من الشام يريد مكة، فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي^(١) عن أصحابه لعذر، ثم اتّبعهم، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق، فلما حلّ في قعره قال: أستغيث؛ لعل أحداً يسمعني [فيخرجني]. ثم قال: إن الذي عاهدته يراني ويسمعني، والله لا تكلمتُ بحرف للبشر. ثم لم يلبث إلا يسيراً إذ مرَّ بذلك البئر نفر، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا: إنه لينبغي سدُّ هذا البئر، ثم قطعوا خشباً ونصبوها على فم البئر وغطّوها بالتراب، فلما رأى ذلك أبو حمزة قال: هذه مهلكة، ثم أراد أن يستغيث بهم، ثم قال: والله لا أخرج منها أبداً، ثم رجع إلى نفسه فقال: أليس قد عاهدتُ من يراك^(٢)؟ فسكّت وتوكل، ثم استند في قعر البئر مفكراً في أمره، فإذا بالتراب يقع عليه والخشب يرفع عنه، وسمع في أثناء ذلك من يقول: هات يدك! قال: فأعطيته يدي فأقلّني في مرة واحدة إلى فم البئر، فخرجت فلم أرَ أحداً^(٣)؛ فسمعت هاتفاً يقول: كيف رأيت ثمرة التوكل؟ وأنشد:

نَهَانِي حَيَاثِي مِنْكَ أَنْ أَكْشِفَ الْهَوَى	وَأَغْنِيَنِي ^(٤) بِالْعِلْمِ مِنْكَ عَنِ الْكَشْفِ
تَلَطَّفْتُ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتُ شَاهِدِي	إِلَى غَائِبِي وَاللُّطْفُ يُدْرِكُ بِاللُّطْفِ
تَرَايَيْتُ لِي بِالْعِلْمِ حَتَّى كَأَنَّمَا	تُخَبِّرُنِي بِالْغَيْبِ أَنَّكَ فِي كَفٍّ ^(٥)
أَرَانِي ^(٦) وَبِي مِنْ هَيْبَتِي لَكَ وَخَشَّةٌ	فَتُوَسِّنِي بِاللُّطْفِ مِنْكَ وَبِالْعَطْفِ

(١) في (ظ): انقطع.

(٢) في أحكام القرآن: أليس الذي عاهدت يرى ذلك كله.

(٣) كذا في أحكام القرآن، وفي باقي المصادر أن الذي أخرجه هو سُبُع، وسيأتي ذكر ذلك.

(٤) في (د) و(ز) و(م) وتلييس إبليس: فأغنييني، والمثبت من (ظ) وباقي المصادر.

(٥) في تاريخ بغداد: بالكف، وفي تاريخ ابن عساكر وتلييس إبليس: في الكف، وفي الحلية: في كفي.

(٦) في المصادر عدا أحكام القرآن: أراك.

وَتُحْيِي مُحِبًّا أَنْتَ فِي الْحَبِّ حَتْفُهُ وَذَا عَجَبٌ كَيْفَ^(١) الْحَيَاءُ مَعَ الْحَتْفِ
قال ابن العربي^(٢): هذا رجلٌ عاهد الله؛ فوجد الوفاء على التمام والكمال،
فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا.

قال أبو الفرج الجوزي^(٣): سكوتُ هذا الرجل في هذا المقام على التوكل بزعمه
إعانة على نفسه، وذلك لا يَحِلُّ، ولو فَهِمَ معنى التوكل لَعَلِمَ أنه لا يُنافي استغاثته في
تلك الحالة، كما لم يخرج رسول الله ﷺ من التوكل بإخفائه الخروج من مكة،
واستجاره دليلاً، واستكتمه ذلك الأمر، واستتاره في الغار، وقوله لسُرَاقَةَ: «أخْفِ
عَنَّا»^(٤). فالتوكل الممدوح لا يُنال بفعل محظور؛ وسكوتُ هذا الواقع في البئر
محظورٌ عليه، وبيانُ ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمي آلة يدفع عنه بها الضرر، وآلة
يجتلب بها النفع، فإذا عَطَّلَهُمَا^(٥) مدَّعيًا للتوكل كان ذلك جهلاً بالتوكل، وردًا لحكمة
الواضع^(٦)؛ لأنَّ التوكل إنما هو اعتمادُ القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته
قطعُ الأسباب؛ ولو أنَّ إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار؛ قاله سفيان
الثوري^(٧) وغيره، لأنه قد دلَّ على طريق السلامة، فإذا تقاعدَ عنها أعان على نفسه.

وقال أبو الفرج^(٨): ولا الْفِتَاتِ إِلَى قول أبي حمزة: فجاء أسدٌ فأخرجني! فإنه إن
صحَّ ذلك فقد يقع مثله اتفاقاً، وقد يكونُ لطفاً من الله تعالى بالعبد الجاهل، ولا يُنكر

(١) في المصادر عدا أحكام القرآن: كون.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١١٠٠.

(٣) في صفة الصفوة ١/ ٢٦ - ٢٨، وينحوه في تلييس إبليس ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٥٩١)، والبخاري (٣٦٠٩) مطولاً من حديث سُرَاقَةَ.

(٥) في (د) و(ز) و(م): عطَّلها.

(٦) في النسخ: التواضع، والمثبت من صفة الصفوة.

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٦٦.

(٨) في صفة الصفوة ١/ ٢٨.

أن يكون الله تعالى لَطَفَ بِهِ، إِنَّمَا يُنَكِّرُ فعلُهُ الذي هو كَسْبُهُ، وهو إعانتُهُ على نفسه التي هي وديعةٌ لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ظاهرُهُ^(١) في صِلَةِ الأرحام؛ وهو قولُ قتادة وأكثَرِ المفسرين^(٢)، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: في قطع الرَّحِم. وقيل: في جميع المعاصي ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ سوء الحساب: الاستقصاء فيه والمناقشة، وَمَنْ نُوقِشَ الحساب عُدْب. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: معنى «يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ»: الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم.

الحسن: هو صِلَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ويحتمل رابعاً: أَنْ يَصِلُوا الإيمانَ بالعمل الصالح ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ فيما أمرهم بوضله ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ في تركه^(٣).

والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: «الَّذِينَ» مستأنف؛ لَأَنَّ «صَبَرُوا» ماضٍ فلا ينعطف على «يُوقُونَ». وقيل: هو مِنْ وَضَفٍ مَنْ تَقَدَّمَ، ويجوز الوصفُ تارةً

(١) في (د) و(ز) و(م): ظاهر.

(٢) ينظر تفسير البغوي ١٤/٣، وخبر قتادة ذكره الماوردي في النكت والعيون ١٠٨/٣.

(٣) النكت والعيون ١٠٨/٣، وذكره عن ابن عباس الواحد في الوسيط ١٣/٣.

بلفظ الماضي، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأنَّ المعنى: مَنْ يفعلُ كذا فله كذا، ولمَّا كان «الذين» يتضمَّن الشرط، والماضي في الشرط كالمستقبل، جاز ذلك؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾، ثم عطف عليه فقال: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.

قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله^(١). وقال عطاء: صبروا على الرِّزَايا والمصائب، والحوادث والنوائب^(٢). وقال أبو عمران الجوني: صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: أدَّوْها بفروضها وخشوعها في مَوَاقِيتِها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول في هذا في «البقرة»^(٣) وغيرها.

﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالعمل الصالح السيئ من الأعمال؛ قاله ابن عباس^(٤). ابنُ زيد: يدفعون الشرَّ بالخير. سعيد بن جبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضَّحَّاك: يدفعون الفُحْشَ بالسَّلام. جُوبير: يدفعون الظلم بالعفو. ابنُ شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة^(٥). القُتَيْبِيُّ^(٦): يدفعون سَفَهَ الجاهل بالحلم، فالسَّفَهُ السيئة، والحلمُ الحسنة. وقيل: إذا همُّوا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشُّرْكَ بشهادة أن لا إله إلا الله^(٧).

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٥١٠/٣.

(٢) ذكره البغوي ١٦/٣.

(٣) ٢٧٣/١، وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ٥٠٩/١٢.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ١٤/٣، والبغوي ١٦/٣.

(٥) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت العيون ١٠٩/٣، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ٥١٠/١٣.

(٦) في تفسير غريب القرآن ص ٢٢٧.

(٧) ذكر القول الأخير ابن عطية في المحرر الوجيز ٣٠٩/٣.

فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم، ونظيره: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «وَأَتْبَعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِ حَسَنٍ»^(١).

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقَبَى الدَّارِ﴾ أي: عاقبة الآخرة، وهي الجنة بدل النار، والدار غداً داران: الجنة للمطيع، والنار للعاصي؛ فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة. وقيل: عني بالدار دار الدنيا، أي: لهم جزاء ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: لهم جنات عدن، ف «جَنَّاتٌ عَدْنٍ» بدل من «عُقَبَى»^(٢)، ويجوز أن يكون تفسيراً لـ «عُقَبَى الدَّارِ» أي: لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عُقَبَى الدَّارِ» حَدَثٌ، و«جَنَّاتٌ عَدْنٍ» عين، والحدث إنما يفسر بحدث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جَنَّاتٌ عَدْنٍ» خبر ابتداء محذوف^(٣).

و«جَنَّاتٌ عَدْنٍ» وسط الجنة وقصبتها، وسقفها عرش الرحمن^(٤)؛ قاله القشيري أبو نصر عبد الرحيم^(٥). وفي «صحيح البخاري»: «إذا سألت الله فاسأله الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة»^(٦) فيحتمل أن تكون «جنات عدن» كذلك إن صحَّ بذلك^(٧) خبر. وقال عبد الله بن عمرو:

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٨٨)، والترمذي (١٩٨٧) من حديث معاذ رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (٢١٣٥٤) والترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ١٤٧/٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣٥٦/٢.

(٣) ينظر الإملاء للعكبري (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/٣٨٢ - ٣٨٣، والدر المصون ٤٤/٧، وقال السمين: ويجوز أن يكون «جنات عدن» مبتدأ خبره: «يدخلونها».

(٤) ينظر ما سلف ٢٩٩/١٠ - ٣٠٠.

(٥) في (د) و(ز): عبد الكريم، وفي (م): عبد الملك.

(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٤١٩)، والبخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) في (د) و(ف) و(م): فذلك.

إِنَّ فِي الْجَنَّةِ قَصْراً يُقَالُ لَهُ: عَدْنٌ، حوله البُرُوجُ والمروج؛ فيه خمسةُ آلافِ بابٍ^(١)، على كلِّ بابٍ خمسةُ آلافِ خَيْرَةٍ^(٢)، لا يدخله إلا نبيٌّ أو صديقٌ أو شهيد.

و«عدن» مأخوذٌ من عَدَنَ بالمكان: إذا أقام فيه؛ على ما يأتي بيانه في سورة الكهف إن شاء الله تعالى^(٣).

﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على «أُولَئِكَ»، المعنى: أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار^(٤). ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في «يَدْخُلُونَهَا»، وحسن العطف لما حال الضمير المنصوب بينهما^(٥). ويجوز أن يكون المعنى: يدخلونها ويدخلها من صلح من آبائهم، أي: من كان صالحاً، لا يدخلونها بالأنساب. ويجوز أن يكون موضع «مَنْ» نصباً على تقدير: يدخلونها مع من صلح من آبائهم^(٦)، أي: فإن^(٧) لم يعمل مثل أعمالهم يلحقه الله بهم كرامة لهم.

وقال ابن عباس: هذا الصلاحُ الإيمانُ بالله والرسول، ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التَّبَعِيَّة. قال القُشَيْرِيُّ: وفي هذا نظر؛ لأنه لا بدَّ من الإيمان، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان. فالأظهر أن هذا الصلاحَ في جملة الأعمال، والمعنى: أنَّ النعمةَ غداً تتَّم عليهم بأنَّ

(١) في (د) و(ز) و(م): فيه ألف باب، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في مصنف ابن أبي شيبة ٣٠٧/٥، وتفسير الطبري ٥٦٣/١١ و ٥١٢/١٣.

(٢) أي: ذات خير، والجمع: خيرات، ويعني النساء. وسيرد الخبر في تفسير الآية (٥٠) من سورة ص.

(٣) عند تفسير الآية (٣١) منها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣٥٧/٢.

(٥) البيان لابن الأنباري ٥١/٢، والإملاء للعكبري (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣٨٣/٣.

(٦) معاني القرآن للزجاج ١٤٧/٣، ومشكل إعراب القرآن ٣٩٨/١، والبيان ٥١/٢، والإملاء ٣٨٣/٣.

(٧) في (د) و(ز) و(م): وإن، بدل: أي فإن.

جعلهم مجتمعين مع قراباتهم في الجنة، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه، بل برحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ أي: بالتحف والهدايا من عند الله تكملة لهم. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يقولون: سلام عليكم، فأضمر القول، أي: قد سلمتم من الآفات والمحن. وقيل: هو دعاء لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أي: سلمكم الله، فهو خبرٌ معناه الدعاء، ويتضمن الاعتراف بالعبودية.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي: بصبركم، ف «ما» مع الفعل بمعنى المصدر، والباء في «بما» متعلقة بمعنى «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»، ويجوز أن تتعلق بمحذوف، أي: هذه الكرامة بصبركم، أي: على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: على الفقر في الدنيا؛ قاله أبو عمران الجوني. وقيل: على الجهاد في سبيل الله^(١)؛ كما روي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «المجاهدون الذين تُسَدُّ بهم الثغور، وتُنْقَى بهم المكارة، فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لها قضاء، فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»^(٢).

وقال محمد بن إبراهيم: كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان^(٣)؛

(١) في النكت والعيون ١٠٩/٣.

(٢) أخرجه مطولاً أحمد (٦٥٧٠)، وعبد بن حميد في المنتخب (٣٥٢)، والبخاري (٣٦٦٥ - كشف)، وابن حبان (٧٤٢١)، وأبو نعيم في الحلية ٣٤٧/١. وقد وقع في جميع المصادر: الفقراء المهاجرون، بدل: المجاهدون.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٦٧١٦)، والطبري ٥١٣/١٣. ومحمد بن إبراهيم: هو التيمي المدني الحافظ من علماء المدينة مع سالم ونافع، وكان جده الحارث بن خالد بن صخر القرشي من أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين، توفي سنة (١١٩هـ). السير ٢٩٤/٥.

وذكره البيهقي^(١) عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يأتي الشهداء، فإذا أتى فُرْصَةً الشَّعْب يقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار». ثم كان أبو بكر بعد النبي ﷺ يفعلُه، وكان عمرُ بعد أبي بكر يفعلُه، وكان عثمانُ بعد عمرَ يفعلُه.

وقال الحسن البصري رحمه الله: بما صبرتم عن فُضُول الدنيا. وقيل: بما صبرتم على ملازمة الطاعة، ومُفارقة المعصية؛ قال معناه الفُضَيْل بن عِيَّاض. ابن زيد: بما صبرتم عمَّا تحبُّونه إذا فقدتموه. ويحتمل سابعاً: بما صبرتم عن اتباع الشهوات^(٢).

وعن عبد الله بن سَلَام وعلي بن الحسين ﷺ أنهما قالَا^(٣): إذا كان يومُ القيامة ينادي منادٍ: ليقيم أهل الصبر، فيقوم ناسٌ من الناس، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، قالوا: قبل الحساب؟ قالوا: نعم. فيقولون: مَنْ أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبرُكم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها عن معاصي الله، وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا. قال علي بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وقال ابن سَلَام: فتقول لهم الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾^(٤).

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه، فالعقبى على هذا اسم، و«الدار» هي الدنيا. وقال أبو عمران الجوني: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»: الجنة عن النار^(٥). وعنه: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»: الجنة عن الدنيا^(٦).

(١) في دلائل النبوة ٣/٣٠٦.

(٢) النكت والعيون ٣/١٠٩.

(٣) في النسخ: أنه قال، والمثبت هو الجادة.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/١٣٩ - ١٤٠ عن علي بن الحسين مطولاً، ولم نقف عليه عن عبد الله بن سلام.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/٥١٤.

(٦) النكت والعيون ٣/١٠٩.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ﴾ (٢٥) ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ بعهدِهِ، والواصلين^(١) لأمْرِه، وذَكَرَ مَا لَهُمْ، ذَكَرَ عَكْسَهُمْ. فنَقَضُ^(٢) الميثاق: ترك أمره. وقيل: إهمال عقولهم؛ فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي: من الأرحام، والإيمان بجميع الأنبياء ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بالكفر وارتكاب المعاصي ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الطَّردُ والإبعادُ من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: سوء المُنْقَلَب، وهو جهنم. وقال سعد بن أبي وقاص: والله الذي لا إله إلا هو، إنهم الحرورية^(٣).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ لَمَّا ذَكَرَ عَاقِبَةَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَاقِبَةَ الْمُشْرِكِ، بَيَّنَّ أَنَّهُ - تعالى - الذي يبسط الرزق وَيَقْدِرُ فِي الدُّنْيَا؛ لَأَنَّهَا دَارُ امْتِحَانٍ، فَبَسْطَ الرِّزْقَ عَلَى الْكَافِرِينَ لَا يَدُلُّ عَلَى كِرَامَتِهِمْ، وَالتَّقْتِيرُ عَلَى بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَدُلُّ عَلَى إِهَانَتِهِمْ.

﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يَضِيقُ، ومنه: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] أي: ضِيق. وقيل: «يقدر»: يعطي بِقَدَرِ الكفاية.

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني مشركي مكة^(٤)؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجَهِلُوا ما عند الله. وهو معطوفٌ على ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

وفي الآية تقديمٌ وتأخير؛ التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه،

(١) في (د) و(ز) و(م): والمواصلين، والمثبت من (ظ).

(٢) في (د) و(ز): بنقض، وفي (م): نقض، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه مطولاً البخاري (٤٧٢٨)، والطبري ٣١٤/١٣ دون ذكر القسم.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ١٤/٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، وفرحوا بالحياة الدنيا.

﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في جنبها ﴿إِلَّا مَتَعٌ﴾ أي: متاعٌ من الأمتعة، كالقَصْعَةِ والسُّكَّرِجَةِ^(١). وقال مجاهد: شيءٌ قليلٌ ذاهِبٌ^(٢). مِنْ مَتَعِ النَّهَارِ: إذا ارتفع، فلا بدَّ له من زوال^(٣). ابن عباس: زَادَ كَزَادَ الرَّاعِي^(٤). وقيل: متاع الحياة الدنيا: ما يُسْتَمْتَعُ بها منها. وقيل: ما يُتَزَوَّدُ منها إلى الآخرة من التقوى والعمل الصالح^(٥). ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْغَنَّةُ وَلَهُمْ سَوْءُ الدَّارِ﴾ ثم ابتدأ: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع ويضيق؟.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ بيّن في مواضع أن اقتراح الآيات على الرسل جهلٌ، بعد أن رأوا آيةً واحدةً تدلُّ على الصدق، والقائل عبد الله بن أبي أمية^(٦) وأصحابه حين طالبوا النبي ﷺ بالآيات. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: كما أضلّكم بعد ما أنزل من الآيات وحرّمكم الاستدلالَ بها يُضِلُّكم عند نزول غيرها. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: مَنْ رَجَعَ. والهاء في «إليه» للحق، أو

(١) إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهي فارسية. اللسان (سكرج).

(٢) أخرجه الطبري ٤١٦/١٣ - ٤١٧، وهو في تفسير مجاهد ٣٢٨/١.

(٣) ينظر تهذيب اللغة ٢/٢٩٥.

(٤) أخرجه الطبري ٤١٧/١٣.

(٥) ذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/١١٠.

(٦) أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ، وابن عمته عائكة، كان شديداً على المسلمين، وهو الذي قال: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَقٌّ تَفْجَرُ لَنَا مِنْ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] ثم أسلم وشهد الفتح وحنيناً والطائف. الإصابة ١١/٦. وينظر سيرة ابن هشام ٣٠٩/١.

للإسلام، أو لله عز وجل؛ على تقدير: ويهدي إلى دينه وطاعته مَنْ رَجَعَ إليه بقلبه. وقيل: هي للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ «الذين» في موضع نصب؛ لأنه مفعول؛ أي: يهدي الله الذين آمنوا. وقيل: بدل من قوله: «مَنْ أَنَابَ» فهو في محل نصب أيضاً^(١).

﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: تسكن وتستأنس بتوحيد الله، ف«تطمئنُّ» حال^(٢)، أي: وهم تطمئنُّ قلوبهم على الدوام بذكر الله بألستهم؛ قاله قتادة^(٣). وقال مجاهد وغيره^(٤): بالقرآن. وقال سفيان بن عيينة: بأمره. مقاتل: بوعده. ابن عباس: بالحلف باسمه^(٥)، أو تطمئنُّ بذكر فضله وإنعامه، كما تؤجل بذكر عذله وانتقامه وقضائه. وقيل: «بذكر الله» أي: يذكرون الله ويتأملون آياته، فيعرفون كمال قدرته عن^(٦) بصيرة.

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: قلوب المؤمنين. قال ابن عباس: هذا في الحلف؛ فإذا حلف خضعه بالله سكن قلبه^(٧).

وقيل: «بذكر الله» أي: بطاعة الله. وقيل: بثواب الله. وقيل: بوعده الله^(٨). وقال مجاهد: هم أصحاب النبي ﷺ^(٩).

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/١٤٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٣٥٧. ويجوز الرفع على الابتداء. ينظر الدر المصون ٧/٤٦.

(٢) في (د) و(ز) و(م): قال، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه بنحو الطبري ١٣/٥١٨، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/١١٠.

(٤) في (د) و(ز): وقال مجاهد وفتادة وغيره، وفي (م): وقال مجاهد وفتادة وغيرهما، والمثبت من (ظ)، وقول مجاهد ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/١١٠.

(٥) ذكره البغوي ٣/١٧.

(٦) في (ظ): على.

(٧) ذكره البغوي ٣/١٧، وقد سلف قريباً.

(٨) النكت والعيون ٣/١١٠.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/٥١٩، وهو في تفسير مجاهد ١/٣٢٨.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ۖ﴾ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ ابتداء وخبر. وقيل: معناه: لهم طوبى، فـ «طوبى» رفع بالابتداء، ويجوز أن يكون موضعه نصباً على تقدير: جعل لهم طوبى، ويُعطف عليه «وَحُسْنُ مَآبٍ» على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب^(١).

وذكر عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن يحيى بن أبي كثير، عن عمرو بن زيد^(٢) البكالي، عن عُثْبَةَ بْنِ عَبْدِ السَّلَمِيِّ قَالَ: جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ فسأله عن الجنة وذكر الحوض، فقال: فيها فاكهة؟ قال: «نعم، شجرة تدعى طوبى». قال: يا رسول الله! أي شجرة أرضنا تُشبه؟ قال: «لا تُشبه شيئاً من شجر أرضك، أتيت الشام؟ هناك شجرة تدعى الجوزة تَنْبُتُ على ساقٍ ويفترش أعلاها». قال: يا رسول الله! فما عِظْمُ أصلها! قال: لو ارْتَحَلْتَ جَذْعَةً من إبل أهلك ما أَحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتُهَا هَرَمًا» وذكر الحديث^(٣)، وقد ذكرناه بكماله في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»^(٤)، والحمد لله.

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر، عن الأشعث بن^(٥) عبد الله، عن شهر بن

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ١٤٨/٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣٥٧/٢، والبيان لابن الأنباري ٥١/٢.

وقرأ: «وحسن مآب» بالنصب ابن محيصن. القراءات الشاذة ص ٦٧.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): عمرو بن يزيد، وفي (م): عمرو بن أبي يزيد، والمثبت هو الصواب، ويقال له: عامر، كما سيرد.

(٣) لم نقف عليه عند عبد الرزاق، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٧١٦)، والطبراني في الكبير ٣١٣/١٧، وابن عبد البر في التمهيد ٣/٣٢٠ - ٣٢١ من طريق عبد الرزاق به. وأخرجه أحمد (١٧٦٤٢) من طريق معمر به، إلا أنه قال: عامر بن زيد، وكذلك ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٣٢٠/٦، وابن حبان في الثقات ١٩١/٥.

(٤) ص ٤٥١ - ٤٥٢.

(٥) في (د) و(ز) و(م): عن، والمثبت من (ظ) والمصادر على ما يأتي.

حَوْشَب، عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يُقال لها: طوبى، يقول الله تعالى: تَفْتَقِي لعبدي عَمَّا شاء، فَتَفْتَقُ له عن فرسٍ بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، وَتَفْتَقُ عن الراحلة بِرَحْلِهَا وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النَّجائب والثياب^(١).

وذكر ابنُ وهبٍ من حديث شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي أَمَامَةَ البَاهِلِيِّ قال: «طُوبَى» شجرة في الجنة ليس منها دارٌ إلا وفيها غصنٌ منها، ولا طيرٌ حَسَنٌ إلا هو فيها، ولا ثمرةٌ إلا هي فيها^(٢).

وقد قيل: إِنَّ أَضْلَهَا في قصر النبي ﷺ في الجنة، ثم تنقسم فروعها على [جميع] منازل أهل الجنة، كما انتشر منه العلمُ والإيمانُ على جميع أهل الدنيا^(٣).
وقال ابن عباس: «طُوبَى لَهُمْ»: فرحٌ^(٤) وقرّة عينٍ. وعنه أيضاً: أن «طوبى» اسمُ الجنة بالحِشْبِيَّة. وقاله سعيد بن جُبَيْر^(٥).

الربيع بن أنس: هو البستان بلغة الهند^(٦)؛ قال القُشَيْرِيُّ: إن صح هذا فهو وفاقٌ بين اللغتين.

وقال قَتَادَةُ: «طُوبَى لَهُمْ»: حُسْنَى لَهُمْ^(٧). عِكْرَمَةُ: نُعْمَى لَهُمْ^(٨). إبراهيم

(١) الزهد لابن المبارك (٢٦٥ - زوائد نعيم)، ومن طريق ابن المبارك أخرجه الطبري ٥٢٤/١٣، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٣٣٦/١ عن معمر به.

(٢) لم نقف عليه، وأخرج نحوه ابن المبارك في الزهد (٢٦٨ - زوائد نعيم)، وابن أبي شيبة ١٣٦/١٣، والطبري ٥٢٥/١٣ عن مغيث بن سُمَيٍّ.

(٣) التعريف والإعلام للسهيلى ص ٨٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) بعدها في (د) و(ز) و(م): لهم، والمثبت من (ظ)، وتفسير الطبري ٥٢١/١٣.

(٥) أخرجه الطبري ٥٢٢/١٣ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكره البغوي ١٨/٣، وأخرجه الطبري ٥٢٢/١٣ من قول سعيد بن مسجوح.

(٧) أخرجه الطبري ٥٢١/١٣.

(٨) زاد المسير ٣٢٨/٤، وهو في تفسير الطبري ٥٢٠/١٣، ومعاني القرآن للنحاس ٢٩٣/٣، والنكت والعيون ١١١/٣ بلفظ: نِعَمَ ما لهم.

النَّحَعِي: خير لهم. وعنه أيضاً: كرامة من الله لهم. الضَّحَاك: غِبْطَةٌ لهم^(١).
 النحاس^(٢): وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطَّيِّب، أي: العيش
 الطَّيِّبُ لهم، وهذه الأشياء ترجعُ إلى الشيء الطَّيِّب.
 وقال الزجاج: طُوبَى فُعْلَى من الطَّيِّب^(٣). وهي الحالة المُسْتَطَابَةُ لهم، والأصل:
 طُيْبِي، فصارت الياء واواً لسكونها وضمُّ ما قبلها، كما قالوا: موسى وموقن.
 قلت: والصحيح أنها شجرة؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه، وهو صحيح على
 ما ذكره السُّهَيْلِي^(٤). ذكره أبو عمر في «التمهيد»^(٥)، ومنه نقلناه، وذكره أيضاً الثعلبي
 في تفسيره.
 وذكر أيضاً المَهْدَوِيُّ والقَشِيرِيُّ عن معاوية بن قُرة، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ
 قال: «طوبى شجرة في الجنة غَرَسَهَا الله بيده، ونفخ فيها من روحه، تُنبت الحُلِيِّ
 والحُلَل، وإنَّ أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة»^(٦)، ومن أراد زيادةً على هذه الأخبار
 فليُطالع الثعلبي.
 وقال ابن عباس: «طُوبَى» شجرة في الجنة أصلها في دار عليّ، وفي دار كلِّ
 مؤمنٍ منها غُضن^(٧).

(١) زاد المسير ٣٢٨/٤، وأخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/٥٢٠ - ٥٢٢.

(٢) في معاني القرآن ٣/٤٩٤.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/١٤٨، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن الجوزي في زاد المسير ٣٢٨/٤،
 وما سيأتي بعده ذكره ابن الجوزي عن ابن الأنباري. وذكر قول الزجاج وابن الأنباري أيضاً الواحد في
 الوسيط ٣/١٦.

(٤) في التعريف والإعلام ص ٨٤.

(٥) ٣/٣٢٠.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/٥٢٨.

(٧) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/١٧٣ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وعزاه
 للثعلبي.

وقال أبو جعفر محمد بن علي: سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَنَاقِبٍ﴾ قال: «شجرة أصلها في داري، وفروعها في الجنة». ثم سئل عنها مرة أخرى فقال: «شجرة أصلها في دار علي، وفروعها في الجنة»، ف قيل له: يا رسول الله، سئلت عنها فقلت: «أصلها في داري وفروعها في الجنة» ثم سئلت عنها فقلت: «أصلها في دار علي وفروعها في الجنة» فقال النبي ﷺ: «إنَّ داري ودار علي غداً في الجنة واحدة في مكان واحد»^(١).

وعنه ﷺ: «هي شجرة أصلها في داري، وما من دارٍ من دوركم إلا تدلِّي فيها عُصْنٌ منها»^(٢) ﴿وَحُسْنُ مَنَاقِبٍ﴾ أي: مرجع^(٣)؛ آب: إذا رجع. وقيل: تقدير الكلام: الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَنَاقِبُ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك؛ قاله الحسن^(٤). وقيل: شبه الإنعام على من أرسل إليه محمد عليه الصلاة والسلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبله. ﴿لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾. قال مقاتل وابن جريج: نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا أن يكتبوا كتاب الصلح، فقال النبي ﷺ لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة - يعنون مسيلمة الكذاب - اكتب: باسمك اللهم. وهكذا

(١) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/١٧٣ وهو ضعيف لإرساله.

(٢) ينظر مجمع البيان ١٣/١٧٢.

(٣) قوله: أي مرجع، من (ظ).

(٤) ذكره الرازي ٥١/١٩.

كان أهل الجاهلية يكتبون، فقال النبي ﷺ لعلي: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فقال أصحاب النبي ﷺ: دعنا نقاتلهم، فقال: «لا، ولكن اكتب ما يريدون» فنزلت^(١).

وقال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: «اسجدوا للرحمن» قالوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ فنزلت: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: الذي أنكرتم ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(٢) ولا معبود سواه، هو واحد بذاته وإن اختلفت أسماء صفاته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت ووثقت ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾ أي: مرجعي غداً، واليوم أيضاً عليه توكلت ووثقت، رضاء بقضائه، وتسليماً لأمره.

وقيل: سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو في الجحر ويقول: «يا الله، يا رحمن» فقال: كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة، وهو يدعو إلهين! فنزلت هذه الآية، ونزل: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾^(٣) [الإسراء: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَلَمْ يَأْتِ الْبَنِينَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ هذا متصل بقوله: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ

(١) أخرجه عن قتادة ومجاهد الطبري ١٣/٥٣٠ - ٥٣١، وذكره عنهما البغوي ٣/١٩، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٢٧٧ عن أهل التفسير. وحديث صلح الحديبية ليس فيه ذكر لنزول هذه الآية، وقد أخرجه مطولاً أحمد (١٨٩١٠) و(١٨٩٢٨)، والبخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم. وينظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أحمد (٣١٨٧)، وحديث أنس عند أحمد (١٣٨٢٧)، ومسلم (١٧٨٤).

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٢٧٧، وتفسير البغوي ٣/١٩.

(٣) ذكره البغوي ٣/١٩، وابن الجوزي ٤/٣٢٩.

ءَايَةً مِّن رَّبِّكَ. ﴿١﴾. وذلك أَنَّ نَفَرًا مِّن مَّشْرِكِي مَكَّةَ فِيهِمْ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ الْمَخْزُومِيَّانِ جَلَسُوا خَلْفَ الْكَعْبَةِ، ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَاهُم، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ سِرَّكَ أَنَّ نَتَّبِعَكَ فَسَيَّرَ لَنَا جِبَالَ مَكَّةَ بِالْقُرْآنِ، فَأَذْهَبَهَا عَنَّا حَتَّى تَنْفَسِحَ؛ فَإِنِهَا أَرْضٌ ضَيِّقَةٌ، وَاجْعَلْ لَنَا فِيهَا عَيُونًا وَأَنْهَارًا حَتَّى نَغْرَسَ وَنَزْرَعَ، فَلَسْتُ - كَمَا زَعَمْتَ - بِأَهْوَنَ عَلَى رَبِّكَ مِنْ دَاوُدَ حَيْثُ سَخَّرَ لَهُ الْجِبَالَ تُسَبِّحُ مَعَهُ ^(١)، وَسَخَّرَ لَنَا الرِّيحَ فَنَرَكِبُهَا إِلَى الشَّامِ نَقْضِي عَلَيْهَا مِيرَتَنَا وَحَوَائِجَنَا، ثُمَّ نَرْجِعُ مِنْ يَوْمِنَا؛ فَقَدْ كَانَ سَلِيمَانُ سَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ كَمَا زَعَمْتَ، فَلَسْتُ بِأَهْوَنَ عَلَى رَبِّكَ مِنْ سَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ، وَأَخِي ^(٢) لَنَا قُصِيًّا جَدُّكَ - أَوْ مَنْ شِئْتَ أَنْتَ مِنْ مَوْتَانَا - نَسْأَلُهُ: أَحَقُّ مَا تَقُولُ أَنْتَ أَمْ بَاطِلٌ؟ فَإِنَّ عِيسَى كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَلَسْتُ بِأَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ، فَانْزِلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية؛ قَالَ مَعْنَاهُ الزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَامِ ^(٣). وَمَجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضُّحَّاكُ ^(٤).

والجواب محذوفٌ تقديره: لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ، لَكِنْ حَذَفَ إِيجَازًا، لَمَّا فِي ظَاهِرِ الْكَلَامِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ ^(٥)، كَمَا قَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا ^(٦)
يعني: لَهَانَ عَلَيَّ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ قَتَادَةَ؛ قَالَ: لَوْ فَعَلَ هَذَا قُرْآنٌ قَبْلَ قُرْآنِكُمْ لَفَعَلَهُ قُرْآنُكُمْ ^(٧).

(١) فِي (د) وَ(ز) وَ(م): حِينَ سَخَّرَ لَهُ الْجِبَالَ تَسِيرَ مَعَهُ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ظ)، وَتَفْسِيرُ الْبَغَوِيِّ ١٩/٣، وَالْكَلَامُ مِنْهُ.

(٢) فِي تَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ: أَوْ سَخَّرَ لَنَا الرِّيحَ فَنَرَكِبُهَا... أَوْ أَحْيَى.

(٣) أَخْرَجَهُ عَنِ الزَّبِيرِ أَبُو يَعْلَى (٦٧٩)، وَالوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ النَّزُولِ ص ٢٧٨.

(٤) أَخْرَجَ قَوْلَهُمُ الطَّبْرِيُّ ١٣/٥٣٢ وَ ٥٣٤، وَهُوَ فِي تَفْسِيرِ مَجَاهِدٍ ١/٣٢٨، وَعَنْ قَتَادَةَ أَخْرَجَهُ أَيْضًا عَبْدُ الرَّزَّاقِ ١/٣٣٦.

(٥) النُّكْتُ وَالْعَيُونُ ٣/١١٢.

(٦) دِيوَانُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ ص ١٠٧.

(٧) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٣/٥٣٤، وَذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ ٣/٢٠، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ ٤/٣٣٠، وَلَفْظُهُ عِنْدَهُمْ: لَوْ فَعَلَ هَذَا يَقْرَأَنَّ قَبْلَ قُرْآنِكُمْ لَفَعَلَ يَقْرَأَنَّكُمْ.

وقيل: الجوابُ متقدّم، وفي الكلام تقدّم وتأخير، أي: وهم يكفرون بالرحمن ولو^(١) أنزلنا هذا^(٢) القرآنَ وفعلنا بهم ما اقترحوا.

الفراء: يجوز أن يكون الجوابُ: لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن^(٣).
الزجاج^(٤): ﴿وَلَوْ أَن قُرْآنًا﴾ إلى قوله: ﴿الْمَوْتُ﴾ لما آمنوا، والجوابُ المضمر هنا ما أظهر في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكُ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: هو المالكُ لجميع الأمور، الفاعلُ لما يشاء منها، فليس ما تلمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قال الفراء: قال الكلبي: «يئس» بمعنى يعلم، لغة النَّحْع^(٥). وحكاه القشيري عن ابن عباس، أي: أفلم يعلموا، وقاله الجوهري في «الصحاح»^(٦).

وقيل: هي لغة هَوَازِن^(٧)، أي: أفلم يعلم؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن^(٨).

وقال أبو عبيدة: أفلم يعلموا ويتبينوا، وأنشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النُّصْرِي:

(١) في النسخ: لو، والمثبت هو الصواب. ينظر معاني القرآن للفراء ٦٣/٢، وتفسير الطبري ٥٣١/١٣، وتفسير البغوي ٢٠/٣، والمحور الوجيز ٣١٣/٣، وزاد المسير ٣٣١/٤.

(٢) قوله: هذا، من (ظ).

(٣) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٦٣/٢.

(٤) في معاني القرآن له ١٤٨/٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٦٤/٢، وقد ذكره من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وأخرجه الطبري ٥٣٨/١٣ من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) مادة (يئس).

(٧) تفسير الطبري ٥٣٦/١٣.

(٨) النكت والعيون ١١٣/٣، وسلف تخريجه عن ابن عباس.

أَقُولُ لَهُمْ بِالشُّغْبِ إِذْ يَنْسِرُونَنِي أَلَمْ تَنَاسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمٌ^(١)
يَسْرُونَنِي مِنَ الْمَيْسِرِ^(٢)، وقد تقدّم في «البقرة»، ويروى: يأسرونني من الأسر^(٣).
وقال رَبَّاحُ بْنُ عَدِيٍّ:

أَلَمْ يَنْسِرِ الْأَقْوَامُ أَنِّي أَنَا^(٤) ابْنُهُ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيًا^(٥)
في كتاب «الردّ»: أَنِّي أَنَا ابْنُهُ، وكذا ذكره الغزنوي^(٦)، أي: أَلَمْ يَعْلَمْ.
والمعنى على هذا: أَفَلَمْ يَعْلَمْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا مِنْ
غَيْرِ أَنْ يَشَاهِدُوا الْآيَاتِ.

وقيل: هو من اليأس المعروف، أي: أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ إِيْمَانِ هَؤُلَاءِ
الْكَفَّارِ؛ لَعَلَّهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ أَرَادَ هِدَايَتَهُمْ لَهْدَاهُمْ^(٧)؟ لَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ تَمَنَّوْا نَزُولَ
الْآيَاتِ طَمَعًا فِي إِيْمَانِ الْكَفَّارِ.

وقرأ عليّ وابن عباس: «أَفَلَمْ يَتَّبِعِينَ الَّذِينَ آمَنُوا»^(٨) من البيان. قال القُشَيْرِيُّ:
وقيل لابن عباس: المکتوبُ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِ﴾ قال: أَظُنُّ الْكَاتِبَ كَتَبَهَا وَهُوَ نَاعِسٌ^(٩)،

(١) مجاز القرآن ٣٣٢/١ برواية: يأسرونني (وسيدكرها المصنف)، وقد نسب لسُحَيْمِ بْنِ وَثِيلٍ، وكذلك
نسبه لسُحَيْمِ الطَّبْرِيِّ ٥٣٥/١٣، وابن منظور في اللسان (يش)، وقال ابن منظور: وذكر بعض العلماء
أنه لولده جابر بن سُحَيْمٍ. اهـ ولم نقف على مَنْ نسب لمالك بن عوف.

(٢) قال ابن منظور في اللسان يش: كان وقع عليه سباه، فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قِسْمَةِ فِدَائِهِ،
وينظر تفسير الطبري ٥٣٥/١٣.

(٣) ينظر تفسير الطبري ٥٣٥/١٣، واللسان (يش). وقد سلف البيت ٤٣٦/٣ برواية: يسرونني.

(٤) قوله: أَنَا، من (ظ) والمصادر.

(٥) النكت والعيون ١١٣/٣، وذكره أبو الليث ١٩٤/٢ من أجوبة ابن عباس على سؤالات نافع بن الأزرق
منسوبة لمالك بن عوف، وهو بلا نسبة في تفسير الطبري ٥٣٦/١٣، وأساس البلاغة (يش).

(٦) من قوله: في كتاب الرد، إلى هذا الموضع ليس في (ظ).

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤٩٩/٣ ونسب القول للكسائي، وينظر معاني القرآن للفراء ٦٣/١ - ٦٤.

(٨) القراءات الشاذة ص ٦٧، والمحتسب ٣٥٧/١.

(٩) أخرجه الطبري ٥٣٧/١٣ من طريق عكرمة عن ابن عباس.

أي: زاد بعض الحروف حتى صار ﴿يَأْتِينَ﴾.

قال أبو بكر الأنباري: روى عكرمة عن ابن عباس^(١) أنه قرأ: «أفلم يتبين الذين آمنوا» وبها احتج من زعم أنه الصواب في التلاوة، وهو باطل عن ابن عباس؛ لأن مجاهداً وسعيد بن جبيرة حكيا الحرف عن ابن عباس على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايته عن مجاهد وسعيد بن جبيرة عن ابن عباس. ثم إن معناه: أفلم يتبين، فإن كان مراد الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها، وتأتي بتأويلها. وإن أراد الله المعنى الآخر - الذي اليأس فيه ليس من طريق العلم - فقد سقط مما أوردوا، وأما سقوطه يُبطل القرآن، ويلزم^(٢) أصحابه البهتان.

﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ «أَنْ» مخففة من الثقيلة، أي: أنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً وهو يرُدُّ على القدرية وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي: داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوهم؛ ويقال: قرعه أمر: إذا أصابه، والجمع: قوارع؛ والأصل في القرع: الضرب؛ قال:

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ نَشَبٍ قَرَعُ الْقَوَاقِيزِ أَفْوَاهُ الْأَبَارِقِ^(٣)
أي: لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة؛ من صاعقة كما أصاب أريد^(٤)،

(١) وقع في (د) و(ز) و(م): ابن أبي نجيج، بدل: ابن عباس، والمثبت من (ظ)، وينظر التعليق السابق.

(٢) في (د) و(ز) و(م): ولزوم.

(٣) البيت للأقشير الأسدي كما في الأغاني ٢٧٦/١١، واللسان (ققز)، وبلا نسبة في إصلاح المنطق ص ٣٧٢، والمقتضب ٢١/١، والإنصاف ٢٣٣/١. قوله: تلادي، التلاد: المال الذي له أصل عند صاحبه مما جمع أبوه وغيره له، والنشَب: المال، والقواقيز: آنية من آنية الشراب. يقول: أفنى مالي كثرة شربي وإنفاقي فيه. ويجوز في أفواه الأباريق الرفع على أنه فاعل للمصدر «قرع» والقواقيز مفعولة، والنصب على أنه مفعول والقواقيز فاعلة. ينظر شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص ٥٤١.

(٤) سلفت قصته ص ٣٦-٣٧ من هذا الجزء.

أو من قتلٍ أو أسيرٍ أو جَذِبٍ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء، كما نزل بالمستهزئين، وهم رؤساء المشركين.

وقال عكرمة عن ابن عباس: القارعة: النكبة^(١).

وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة: القارعة: الطلائعُ والسرايا التي كان يُنفِذُها رسول الله ﷺ لهم^(٢).

﴿أَوْ تَحُلْ﴾ أي: القارعة ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قاله الحسن^(٣). وقال ابن عباس: أو تَحُلْ أنت قريباً من دارهم^(٤).

وقيل: نزلت الآية بالمدينة؛ أي: لا تزال تصيبهم القوارعُ، فتنزل بساحتهم، أو بالقرب منهم، كغفري المدينة ومكة، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ في فتح مكة؛ قاله مجاهد وقتادة^(٥).

وقيل: نزلت بمكة، أي: تصيبهم القوارع، أو تخرج^(٦) عنهم إلى المدينة يا محمد، فتحلُّ قريباً من دارهم، أو تحلُّ بهم محاصراً لهم؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف، ولقلاع خيبر، أو يأتي^(٧) وعدُّ الله بالإذن لك في قتالهم وقهرهم. وقال الحسن: وعدُّ الله: يوم القيامة^(٨).

(١) معاني القرآن للنحاس ٤٩٩/٣.

(٢) النكت والعيون ١١٣/٣ عن عكرمة، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ٥٤١/١٣.

(٣) في (د) و(ز) و(م): قاله قتادة والحسن، والمثبت من (ظ)، وأخرجه الطبري ٥٤٣/١٣ من طريق قتادة عن الحسن.

(٤) أخرجه الطبري ٥٤٠/١٣، وأخرجه أيضاً عن عكرمة ومجاهد وابن أبي نجيح وسعيد بن جبير وقتادة.

(٥) أخرج عنهما الطبري ٥٤٠/١٣ - ٥٤٣.

(٦) في (م): وتخرج.

(٧) في (د) و(ز) و(م): ويأتي.

(٨) أخرجه الطبري ٥٤٤/١٣.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسِلَ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۖ﴾ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسِلَ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ تقدم معنى الاستهزاء في «البقرة» ١/٣١٤، ومعنى الإملاء في «آل عمران» ١/١٠١. أي: سخر بهم، وأزري عليهم، فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم، فلما حق القضاء أخذتهم بالعقوبة. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذاك أصنع بمشركي قومك.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ليس هذا القيام القيام الذي هو ضد القعود، بل هو بمعنى: التولي لأمر الخلق، كما يقال: قام فلان بشغل كذا. فالله (٢) قائم على كل نفس بما كسبت، أي: يُقَدِّرُهَا على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها، فالمعنى: أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف، والمعنى: أفمن هو حافظ لا يغفل؟ كمن يغفل؟

وقيل: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ» أي: عالم؛ قاله الأعمش (٣). قال الشاعر:
فلولا رجال من قريش أعزّة سرقتم ثياب البيت والله قائم (٤)

(١) في البقرة ١/٣١٤، وفي آل عمران ٥/٤٣٢.

(٢) في (م): فإنه.

(٣) في (ظ): الأخفش، وذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/١١٤ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٣/١١٤ دون نسبة، وهو في الشعر والشعراء ٢/٦٤٦، وأمالى اليزيدي ص ٩٦ عن خداس بن زهير برواية: والبيت قائم. وفي الشعر والشعراء: من علي، بدل: من قريش؛ قال ابن قتيبة: يقال لبني كنانة بنو علي.

أي: عالم؛ فالله عالمٌ بكسب كل نفس.

وقيل: المراد بذلك الملائكة الموكّلون ببني آدم؛ عن الضحاك^(١).

﴿وَجَعَلُوا﴾ حال، أي: وقد^(٢) جعلوا، أو عطفٌ على «اسْتَهْزَؤْا» أي: استهزؤوا وجعلوا، أي: سَمَّوْا ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني أصناماً جعلوها آلهة ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: «سَمُّوهُمْ» أي: بيّنوا أسماءهم؛ على جهة التهديد^(٣)، أي: إنما يسمّون: اللات والعزى ومناة وهبل.

﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ﴾ بما لا يعلم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ «أم» استفهامٌ توبيخ، أي: أنتبثونه، وهو على التحقيق عطفٌ على استفهامٍ متقدّم في المعنى؛ لأن قوله: «سَمُّوهُمْ» معناه: ألهم أسماء الخالقين ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ﴾ بما لا يعلم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؟.

وقيل: المعنى قل لهم: أنتبثون الله بباطنٍ لا يعلمه، أم بظاهرٍ^(٤) يعلمه؟ فإن قالوا: بباطنٍ لا يعلمه؛ أحوالوا^(٥)، وإن قالوا: بظاهرٍ يعلمه؛ فقل لهم: سَمُّوهُمْ، فإذا سَمَّوْهُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً.

وقيل: ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ أي: أفمن هو قائم، أم تَتَّبِعُونَ الله بما لا يعلم، أي: أنتم تدعون لله شريكاً، والله لا يعلم لنفسه شريكاً، أفنتبثونه بشريكٍ له في الأرض وهو لا يعلمه! وإنما خَصَّ الأرضَ بنفي الشريك عنها وإن لم يكن له شريكٌ في غير الأرض؛ لأنهم ادَّعوا له شركاء في الأرض.

(١) النكت والعيون ١١٤/٣.

(٢) في (د) و(ز): قد، وفي (م): أو قد، والمثبت من (ظ).

(٣) ينظر النكت والعيون ١١٤/٣، وتفسير الرازي ٥٦/١٩، قال الرازي: فكأنه تعالى قال: سَمُّوهُمْ بالآلهة، على سبيل التهديد، والمعنى: سواء سَمَّيْتُمُوهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها.

(٤) بعدها في (م): من القول.

(٥) أحوال: أتى بالمحال وتكلم به. معجم متن اللغة (حول).

ومعنى: ﴿أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ﴾ أي: أم يَظُنُّ من القول؛ عن مجاهد^(١). وقيل: أم بظاهر من القول^(٢) الذي أنزل الله على أنبيائه. وقال قتادة: معناه: أم^(٣) بباطل من القول؛ ومنه قول الشاعر:

أَعْيَّرْتَنَا أَلْبَانَهَا وَلُحُومَهَا وَذَلِكَ عَارِ يَا ابْنَ رَيْطَةَ ظَاهِرُ^(٤)

أي: باطل. وقال الضحَّاك: بكذب من القول. ويحتمل خامساً: أن يكون الظاهر من القول حجةً يُظهرونها بقولهم، ويكون معنى الكلام: أُنْخِرُونَهُ بِذَلِكَ مُشَاهِدِينَ، أم تقولون محتجِّين^(٥).

﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ أي: دع هذا! بل زَيْنَ للذين كفروا مَكْرُهُمْ؛ قيل: استدراك على هذا الوجه، أي: ليس لله شريك، لكن زَيْنَ للذين كفروا مَكْرُهُمْ.

وقرأ ابن عباس ومجاهد: «بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ»^(٦) مُسَمَّى الفاعل. وعلى قراءة الجماعة، فالذي زَيْنَ للكافرين مَكْرَهُمُ اللهُ تعالى، وقيل: الشيطان. ويجوز أن يُسَمَّى الكفر مَكْرًا؛ لأنَّ مَكْرَهُمُ بالرسول كان كَفْرًا.

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: صدَّهم الله، وهي قراءة حمزة والكسائي^(٧). الباقيون بالفتح، أي: صدُّوا غيرهم، واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿وَصُدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٥]، وقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصُدُّوا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

(١) أخرجه الطبري ٥٤٩/١٣، وهو في تفسير مجاهد ٣٢٩/١.

(٢) من قوله: أي أم يَظُنُّ، إلى هذا الموضع من (ظ).

(٣) قوله: أم، من (ظ)، والخبر أخرجه الطبري ٥٤٩/١٣، وذكره الماوردي في النكت والعيون ١١٤/٣.

(٤) قاله سُبْرَةُ بن عمرو الفَقْعَسِي، كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢٣٨/١، والخزانة ٥٠٤/٩ وهو في النكت والعيون ١١٤/٣ بلا نسبة. ويخاطب الشاعر ضمرة بن ضمرة النهشلي وقد عيَّره كثرة إبله، كما ذكر المرزوقي.

(٥) النكت والعيون ١١٥/٣.

(٦) القراءات الشاذة ص ٦٧.

(٧) وقرأ بها أيضاً من السبعة عاصم. السبعة ص ٣٥٩، والتيسير ص ١٣٣.

[الفتح: ٢٥]. وقراءة الضم أيضاً حسنة في «زَيْن» و«صُدُوا»؛ لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في مذهب أهل السنة، ففيه إثبات القدر، وهو اختيار أبي عبيد.

وقرأ يحيى بن وثاب وعلقمة: «وَصِدُوا» بكسر الصاد^(١)، وكذلك: «هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا» [يوسف: ٦٥]، بكسر الراء وهي^(٢) أيضاً على ما لم يُسم فاعله، وأصلهما: صُدُوا ورُدَّتْ، فلما أدغمت الدال الأولى في الثانية نُقِلَتْ حركتها إلى^(٣) ما قبلها فانكسر^(٤).

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بخذلانه. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: موقف، وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم؛ لقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾، فكذلك قوله: ﴿وَصُدُوا﴾.

ومعظم القراء يقفون على الدال من غير الياء، وكذلك ﴿وَالِ﴾ [الآية: ١١] و﴿وَاقٍ﴾ [الآية: ٣٤-٣٧]^(٥)؛ لأنك تقول في الرجل: هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ، فتحذف الياء لسكونها والتقاءها مع التنوين.

وَقُرئ: «فَمَا لَهُ مِنْ هَادِي» و«وَالِي» و«وَاقِي» بالياء؛ وهو على لغة من يقول: هذا داعي ووالي وواقي، بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوصل لالتقاءها مع التنوين، وقد أمنا هذا في الوقف، فرُدَّت الياء، فصار: هادي ووالي وواقي^(٦). وقال الخليل^(٧) في نداء قاضٍ: يا قاضي، بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النداء، كما لا تنوين في نحو: الداعي والمُتعالِي.

(١) القراءات الشاذة ص ٦٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣٥٨/٢ كلاهما عن يحيى بن وثاب وحده.

(٢) قوله: وهي، من (ز) و(ظ) و(ف)، والقراءة في المحتسب ١/٣٤٥.

(٣) في (د) و(ز) و(ف) و(م): على.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣٥٨/٢.

(٥) وهي قراءة السبعة ما عدا ابن كثير، فقد قرأ بها بالتنوين في الوصل، فإذا وقف وقف بالياء. السبعة ص ٣٦٠، والتيسير ص ١٣٣.

(٦) الكشف عن وجوه القراءات ٢/٢١. وقال مكِّي: والحذف والإثبات لغتان للعرب، والحذف أكثر.

(٧) قوله في الكتاب ٤/١٨٤.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: للمشركين الصّادّين، بالقتل والسّبي والإسار^(١)، وغير ذلك من الأسقام والمصائب ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي: أشدُّ؛ من قولك: شقّ عليّ كذا يشقّ. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ رَاقِبٍ﴾ أي: مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع. و«من» زائدة.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَارٌ كَقَوَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقِبَ الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥)

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ اختلف النحاة في رفع «مثل»، فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء والخبر محذوف، والتقدير: وفيما يتلى عليكم مثل الجنة^(٢). وقال الخليل: ارتفع بالابتداء، وخبره: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: صفة الجنة التي وُعدَ المتقون تجري من تحتها الأنهار^(٣)، كقولك: قولي يقوم زيد، فقولي مبتدأ، ويقوم زيد خبره، والمثل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] أي: الصفة العليا. وأنكره أبو عليّ وقال: لم يُسمع مثل بمعنى الصفة، إنما معناه الشّبه، ألا تراه يجري مجراه في مواضعه ومتصرفاته، كقولهم: مررت برجل مثلك؛ كما تقول: مررت برجل شبيهك. قال: ويُفسد أيضاً من جهة المعنى؛ لأن مثلاً إذا كان معناه صفة، كان تقدير الكلام: صفة الجنة التي فيها أنهار، وذلك غير مستقيم؛ لأنّ الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها.

وقال الزجاج^(٤): ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا مَا غَابَ عَنَّا بِمَا نَرَاهُ، والمعنى: مَثَلُ

(١) في (ظ): والأسر.

(٢) الكتاب ١/١٤٣، ومعاني القرآن للزجاج ٣/١٤٩، والكشف عن وجوه القراءات ١/٣٩٨، وعنه نقل المصنف. واختاره أبو عليّ الفارسي كما في مجمع البيان ١٣/١٨٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/٥٠١، وذكر الزجاج في معاني القرآن ٣/١٤٩ هذا القول دون نسبة إثر قول سيبويه، ثم قال: ويكلا القولين حسن جميل.

(٤) في معاني القرآن ٣/١٥٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/٥٠١، وما سبرد بين حاصرتين منهما.

الجنة [التي وُعد المتقون] جَنَّةٌ تجري من تحتها الأنهار. وأنكره أبو عليّ فقال: لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشَّبه، وفي كلا الوجهين لا يصحُّ ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصحَّ؛ لأنك إذا قلت: صفةُ الجنةِ جَنَّةٌ، فجعلتَ «جَنَّةً»^(١) خبراً لم يَسْتَقِم ذلك؛ لأنَّ الجنة لا تكون الصفة^(٢)، وكذلك أيضاً: شَبَّه الجنة جنة، ألا ترى أنَّ الشَّبه عبارةٌ عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حَدَث، والجنةُ غيرُ حَدَث، فلا يكون الأول الثاني^(٣).

وقال الفراء: المَثَل مُقَحَّم للتأكيد، والمعنى: الجنة التي وُعد المتقون تجري من تحتها الأنهار، والعرب تفعل ذلك كثيراً بالمَثَل والمِثْل^(٤)، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أي: ليس كهو شيء^(٥).

وقيل: التقدير: صفةُ الجنة التي وُعد المتقون صفةُ جَنَّةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ. وقيل: معناه: شَبَّه الجنة التي وُعد المتقون في الحُسْن والنعمة والخلود كشَبَّه النار في العذاب والشدة والخلود؛ قاله مقاتل.

﴿أَكَلُهَا دَائِمٌ﴾ لا ينقطع، وفي الخبر: «إذا أخذت ثمرةً عادت مكانها أخرى»، وقد بيَّناه في «التذكرة»^(٦). ﴿وِظْلُهَا﴾ أي: وظلُّها كذلك، فحذف، أي: ثمرها لا ينقطع وظلُّها لا يزول، وهذا ردُّ على الجَهْمِيَّة في زعمهم أن نعيم الجنة يزول

(١) في (م): الجنة.

(٢) في (ظ): صفة.

(٣) ينظر البحر المحيط ٣٩٦/٥، والدر المصون ٥٩/٧.

(٤) قوله: والمثل، من (د) و(ز) و(ف)، وهو موافق لما في البحر ٣٩٦/٥، والكلام فيه.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ليس هو كشيء، والمثبت من (ظ) و(ف) والبحر. وذكر الكلام بنحوه عن الفراء مكي في مشكل إعراب القرآن ٣٩٨/١ - ٣٩٩. قال أبو حيان: وإقحام الأسماء لا يجوز.

(٦) ص ٤٥٢، وأخرجه ابن أبي شيبة ٩٧/١٣، والطبري ٤٠٦/١ - ٤٠٧، وأبو نعيم في صفة الجنة (٣١٥) من طريق أبي عبيدة عن مسروق. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٨٩) و(١٤٩٠)، وهناد في الزهد (١٠٣)، والطبري ٤٠٩/١ عن أبي عبيدة، وهو عامر بن عبد الله بن مسعود ؓ.

ويفنى^(١). ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي: عاقبة أمر المكذبين وأخرتهم النار يدخلونها.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: بعض من أوتي الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سلام وسلمان، والذين جاؤوا من الحبشة، فاللفظ عام والمراد الخصوص. وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ يفرحون بنور القرآن. وقاله مجاهد وابن زيد^(٢). وعن مجاهد أيضاً: أنهم مؤمنو أهل الكتاب^(٣). وقيل: هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم^(٤).

وقال أكثر العلماء: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في أول ما أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه؛ ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، فقالت قريش: ما بال محمد يدعو إلى إله واحد، فأصبح اليوم يدعو إلى^(٥) إلهين؛ الله والرحمن؟! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة - يعنون مسيلاً الكذاب - فنزلت: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ

(١) تفسير البغوي ٢١/٣.

(٢) النكت والعيون ١١٦/٣ عن قتادة وابن زيد، وأخرج قول قتادة الطبري ٥٥٦/١٣.

(٣) النكت والعيون ١١٦/٣.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ١١٦/٣ عن ابن عيسى. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣١٦/٣: ويضعف هذا التأويل بأنهم به أكثر من فرحهم، ويضعف أيضاً بأن اليهود والنصارى ينكرون بعضه، وقد فرق الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه، وبين الذين آتيناهم الكتاب.

(٥) قوله: إلى، من (ظ).

﴿كَفَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرُحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾^(١).

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني مشركي مكة، وَمَنْ لم يؤمن من اليهود والنصارى؛ قال قتادة والحسن ومجاهد: الأحزاب: اليهود والنصارى^(٢) والمجوس. وقيل: هم العرب الْمُتَحَرِّبُونَ على النبي ﷺ. وقيل: ومن أعداء المسلمين مَنْ ينكر بعض ما في القرآن؛ لأنَّ فيهم مَنْ كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم مَنْ كان يعترف بأن الله خالقُ السماوات والأرض.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفاً على «أَعْبُدْ». وقرأ أبو خليل^(٣) بالرفع على الاستئناف، أي: أفرِّدُه بالعبادة وحده لا شريك له، وأتبرأ عن المشركين وَمَنْ قال: المسيح ابنُ الله وعزيرُ ابنِ الله، وَمَنْ اعتقد التشبيه كاليهود ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ أي: إلى عبادته أَدْعُوا الناس ﴿وَلِإِيهِ مَصَابٍ﴾ أي: أرجع في أموري كُلِّها.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلَمٍ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب، كذلك أنزلناه حكماً عربياً، وإنما وَصَفَه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ،

(١) الوسيط ١٨/٣، وتفسير البغوي ١٩/٣ و ٢٢، وينظر ما سلف ٣١٨/٩.

(٢) قوله: قال قتادة والحسن ومجاهد الأحزاب اليهود والنصارى، من (ظ)، وذكر قولهم الطبرسي في مجمع البيان ١٨٢/١٣ - ١٨٣.

(٣) في (د) و(م): أبو خالد، وفي (ظ): أبو جليل، والمثبت من (ز) و(ف) والكشاف ٣٦٢/٢ وفيه ذكر القراءة. وأبو خليل هو عتبة بن حماد الحكمي الدمشقي، روى القراءة عن نافع وله عنه نسخة. طبقات القراء ٤٩٨/١. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦٧، وتحرف فيه: خليل، إلى خليل.

وهو عربي، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضاً. وقيل: نَظُمُ الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرُّسُل بلغاتهم، كذلك أنزلنا إليك القرآن حُكْمًا عربيًّا^(١)، أي: بلسان العرب. ويريد بالحكم: ما فيه من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكمكم.

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء المشركين في عبادة ما دون الله، وفي التوجه^(٢) إلى غير الكعبة ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: ناصر ينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يمنعك من عذابه، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد الأمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قيل: إن اليهود عابوا على النبي ﷺ الأزواج، وعيَّره^(٣) بذلك وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همّة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله هذه الآية^(٤)، وذكرهم أمر داود وسليمان فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي: جعلناهم بشراً يقضون ما أحلَّ الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص في الوحي.

الثانية: هذه الآية تدلُّ على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنتهي عن التبتُّل، وهو ترك النكاح، وهذه سنة المرسلين كما نصّت عليه هذه الآية، والسنة واردة بمعناها؛ قال ﷺ: «تزوَّجوا، فإنِّي مُكَاثِرٌ»^(٥) بكم الأمم الحديث. وقد تقدّم في «آل

(١) تفسير البغوي ٢٢/٣.

(٢) في (م): التوجيه.

(٣) في (ظ): وعيروه.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٢٧٩ عن الكلبي.

(٥) في (ظ): مباه.

عمران^(١)، وقال: «مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ نِصْفَ الدِّينِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي النِّصْفِ الثاني^(٢). ومعنى ذلك أَنَّ النِّكَاحَ يُعِفُّ عَنِ الزَّنى، وَالْعَفَافُ أَحَدُ^(٣) الْخَصْلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ضَمِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمَا الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ اثْنَتَيْنِ وَلَجَّ الْجَنَّةَ، مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ» خَرَّجَهُ «الموطأ» وغيره^(٤).

وفي «صحيح» البخاري^(٥) عن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تَفَالُوهَا فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ. فقال أحدهم: أمَّا أنا، فإنِّي أَصْلِي اللَّيْلَ أَبَدًا، وقال الآخر: أنا أَصُومُ الدَّهْرَ، فلا أَفْطِرُ. وقال الآخر: أنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أَتَزَوَّجُ، فجاء رسول الله ﷺ^(٦) فقال: «أنتم الذين قلتُم كذا وكذا، أمَّا والله إني لأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَصْلِي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سِتِّي فَلَيْسَ مِنِّي». خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ بِمَعْنَاهُ^(٨)، وهذا أَتَيْنُ.

وفي «صحيح» مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: أراد عثمان أن يَتَبَلَّ، فنهاه

(١) ١١٠/٥ - ١١١ من حديث عائشة ومعاقل بن يسار رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٤٣) و(٨٧٨٩)، والبيهقي في الشعب (٥٤٨٦)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٦٨/٢، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٠٠٥) عن أنس رضي الله عنه. وأخرجه الحاكم ١٦١/٢ بلفظ: «مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ امْرَأَةً صَالِحَةً فَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى شَطْرِ دِينِهِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي الشَّطْرِ الثاني». وينظر التلخيص الحبير ١١٧/٣، وفيض القدير ١٣٧/٦.

(٣) في (ظ): إحدى.

(٤) الموطأ ٩٨٧/٢ - ٩٨٨ عن عطاء بن يسار عن النبي ﷺ مرسلاً، وأخرجه أحمد (٢٣٠٦٥) عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ مطولاً. ويشهد له حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عند أحمد (٢٢٨٢٣)، والبخاري (٦٤٧٤)، ولفظه عند البخاري: «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ».

(٥) برقم (٥٠٦٣). وسلف ١١٦/٨.

(٦) في (ظ): أمَّا أنا، وفي (ف) و(م): إني، والمثبت من (د) و(ز) وصحيح البخاري.

(٧) بعدها في (ف) و(م): إليهم.

(٨) صحيح مسلم (١٤٠١).

النبي ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاخْتَصَيْنَا^(١). وقد تقدّم في «آل عمران»^(٢) الحضّ على طلب الولد، والرّد على مَنْ جَهِل ذلك.

وقد رُوِيَ عن عمرَ بن الخطاب ؓ أنه كان يقول: إني لأَتَزَوَّجُ المرأةَ وما لي فيها من حاجة، وأَطْوُهَا وما أَشْتَهِيهَا، فقليل له: وما يَحْمِلُكَ على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: حُبِّي أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنِّي مَنْ يُكَاثِرُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ النَّبِيِّينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «عليكم بالأبكار، فَإِنَّهِنَّ أَغْذَبُ»^(٣) أَفْوَاهًا، وَأَحْسَنُ أَخْلَاقًا، وَأَنْتَقُ أَرْحَامًا، وَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤). يعني بقوله: «أنتق أرحاماً» أَقْبَلُ للولد، ويقال للمرأة الكثيرة الولد: نَاتِقٌ؛ لأنها ترمي بالأولاد رميًّا^(٥).

وخرَجَ أبو داود^(٦) عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ، وَإِنَّهَا لَا تَلِدُ، أَفَأَتَزَوَّجُهَا؟ قَالَ: «لَا». ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَفَنَاهَا، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ». صَحَّحَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْحَقِّ^(٧) وَحَسْبُكَ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِكَايِدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات مما^(٨) تقدّم ذكره في هذه السورة، فأنزل الله ذلك فيهم، وظاهرُ

(١) صحيح مسلم (١٤٠٢): (٨) وسلف ١١٠/٥ و ١١٧/٨، وعثمان المذكور: هو ابنُ مَطْعُون.

(٢) ١١٠/٥.

(٣) في (ظ): أطيب.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج ابن أبي شيبة ٢١٦/٤ نحوه عن عمر موقوفاً وإسناده ضعيف لانقطاعه. وأخرجه مرفوعاً ابن ماجه (١٨٦١) من طريق عبد الرحمن بن سالم بن عتبة بن عويم بن ساعدة الأنصاري، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ. وهو حديث ضعيف لاضطراب إسناده، وجهالة عبد الرحمن ابن سالم كما ذكر الحافظ في الإصابة ٣٧٨/٦ - ٣٧٩، وينظر مصباح الزجاجة ١/٣٢٦ - ٣٢٧.

(٥) تهذيب اللغة ٦١/٩.

(٦) في سننه (٢٠٥٠)، وسلف ١١١/٥.

(٧) في الأحكام الصغرى ٦٠٦/٢.

(٨) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: ما.

الكلام حَظَرٌ ومعناه النفي؛ لأنه لا يُحَظَرُ على أحدٍ ما لا يقدر عليه.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل أمرٍ قضاه الله كتابٌ عند الله؛ قاله الحسن^(١).
وقيل: فيه تقديم وتأخير، المعنى: لكل كتابٍ أجلٌ؛ قاله الفراء والضحاك^(٢)، أي:
لكل أمرٍ كتبه الله أجلٌ مؤقت، ووقتٌ معلوم، نظيره: ﴿لِكُلِّ نَبْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾
[الأنعام: ٦٧]. بيّن أنّ المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكل أجلٍ
كتاب^(٣). وقيل: المعنى: لكل مدة كتابٌ مكتوبٌ وأمرٌ مقدّر لا تقف عليه الملائكة.

وذكر الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة
قال: لما ارتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طور سيناء، رأى الجبار في أصبعه
خاتماً، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قال: شيءٌ من حُلِيِّ الرجال، قال:
فهل عليه شيءٌ من أسمائي مكتوبٌ أو كلامي؟ قال: لا، قال: فاكتب عليه ﴿لِكُلِّ
أَجَلٍ كِتَابٌ﴾^(٤).

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ أي: يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن
يؤقعه بأهله ويأتي به، «ويُثَبِّتُ» ما يشاء، أي: يؤخّره إلى وقته، يقال: محوُ الكتاب
مَحْوًا، أي: أذهبت أثره. «ويُثَبِّتُ» أي: ويثبتته، كقوله: ﴿وَاللَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا
وَاللَّكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، أي: والذاكرات لله.

(١) ذكر الماوردي في النكت والعيون ١٧/٣ هذا القول عن الطبري، وذكر عن الحسن قوله: لكل أجل من
آجال الخلق كتابٌ عند الله.

(٢) أخرجه عن الضحاك الطبري ١٣/٥٥٨ - ٥٥٩، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/٥٥٩، وقول
الفراء في معاني القرآن له ٢/٦٥.

(٣) ينظر تفسير الرازي ١٩/٦٤. وقال الرازي: فالآيات التي سألوها لها وقتٌ معيّن حَكَمَ الله به، وكتبه
في اللوح المحفوظ، فلا يتغير عن ذلك الحكم بسبب تحكّماتهم الفاسدة.

(٤) لم تقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/١١٨ له، وشهر بن
حوشب قال عنه الحافظ في التريب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿وَرُئِيتُ﴾ بالتخفيف، وشَدَّدَ الباقون^(١)، وهي قراءة ابن عباس^(٢)، واختيارُ أبي حاتم وأبي عبيد^(٣) لكثرة مَنْ قرأ بها، ولقوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال ابن عمر: سمعت النبي ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويثبت، إلَّا السعادة والشقاوة والموت»^(٤).

وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلَّا سَتًّا^(٥): الخلق والخلق، والأجل والرزق، والسعادة والشقاوة^(٦). وعنه: هما كتابان؛ [كتاب] سوى أم الكتاب يمحو الله منه^(٧) ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب الذي لا يتغير منه شيء. قال القسيري: وقيل: السعادة والشقاوة، والخلق والخلق والرزق، لا تتغير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء. وفي هذا القول نوع تحكُّم.

قلت: مثلُ هذا لا يُدرَك بالرأي والاجتهاد، وإنما يُؤخذ توقيفاً، فإن صحَّ فالقول به يجب، ويُوقف عنده، وإلَّا فتكون الآية عامَّةً في جميع الأشياء، وهو الأظهر، والله أعلم؛ وهذا يُروى معناه عن عمر بن الخطاب ؓ وابن مسعود وأبي وائل وكعب

(١) السبعة ص ٣٥٩، والتيسير ص ١٣٤.

(٢) ذكرها عنه النحاس في معاني القرآن ٥٠٢/٣.

(٣) ذكر اختيار أبي عبيد النحاس في معاني القرآن ٥٠٣/٣، ومكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢٣/٢، وقال النحاس: على أن أبا حاتم قد أوماً إلى أن معنهما واحد.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٤٦٨) وفيه: «...إلا الشُّقْوة والسعادة والحياة والموت» بزيادة: «الحياة». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤٣/٧: فيه محمد بن جابر اليمامي، وهو ضعيف من غير تعمُّدٍ كذب.

(٥) في (م): إلَّا أشياء.

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٣٣٨/٢، وعبد الله بن أحمد في السنة (٧٣١)، والطبري ٥٥٩/١٣ بلفظ: «...إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت».

(٧) في النسخ: منهما، والمثبت من تفسير البغوي ٢٣/٣، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ٥٦٢/١٣، والحاكم ٣٤٩/٢، وذكره الواحدي في الوسيط ٢٠/٣، وابن الجوزي ٣٣٩/٤.

الأخبار وغيرهم، وهو قول الكلبي.

وعن أبي عثمان النهدي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب، فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب^(١).

وقال ابن مسعود: اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء، فامحني من الأشقياء واكتبني في السعداء، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب^(٢).

وكان أبو وائل يُكثر أن يدعو: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحُ واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب^(٣).

وقال كعب لعمر بن الخطاب: لولا آية في كتاب الله، لأنباتك بما هو كائن إلى يوم القيامة: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٤).

وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: اللهم إن كان في بطنها جارية، فأبدلها غلاماً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب. وقد تقدّم^(٥).

وفي^(٦) الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَجَمَهُ»^(٧). ومثله عن أنس بن مالك، أن

(١) أخرجه الدولابي في الكنى ١/١٥٥، والطبري ١٣/٥٦٤.

(٢) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة ١٠/٣٣١ - ٣٣٢، ومقطعاً الطبري ١٣/٤٦٤ و ٤٦٥.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٣/٣٣٨، والطبري ١٣/٥٦٣.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/٥٦٥، والنعارة فيه ظاهرة.

(٥) ص ٢١ من هذا الجزء.

(٦) في (د) و(م) في.

(٧) صحيح البخاري (٥٩٨٥)، ولم نقف عليه عند مسلم، وسلف ١٠/٢٠٢.

رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ»، فذكره بلفظه سواء^(١)، وفيه تأويلان:

أحدهما: معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرّر، فكانه لم يمت.

والآخر: يُؤخّر أجله المكتوب في اللوح المحفوظ، والذي في علم الله ثابت لا تبديل^(٢) له، كما قال: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

وقيل لابن عباس لما رَوَى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمُدَّ اللَّهُ فِي عَمْرِهِ وَأَجَلِهِ، وَيَبْسُطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»: كيف يُزاد في العمر والأجل؟ فقال: قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدِي﴾ [الأنعام: ٢]، فالأجل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثاني - يعني المسمى عنده - من حين وفاته إلى يوم يلقاه في البرزخ، لا يعلمه إلا الله، فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه، زاده الله في أجل عمره الأول من أجل البرزخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه، نقضه الله من أجل عمره في الدنيا^(٣) ما شاء، فيزيده في أجل البرزخ، فإذا تحتم الأجل في علمه السابق، امتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾^(٤) [النحل: ٦١]. فتوافق الخبر والآية. وهذه زيادة في نفس العمر وذات الأجل على ظاهر اللفظ، في اختيار خبر الأمة، والله أعلم.

وقال مجاهد: يُحكّم الله أمر السنة في رمضان، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلّا الحياة والموت، والشقاء والسعادة^(٥)؛ وقد مضى القول فيه.

(١) صحيح البخاري (٥٩٨٦)، وصحيح مسلم (٢٥٥٧): (٢١)، وهو عند أحمد (١٣٥٨٥).

(٢) في النسخ عدا (ظ): لا تبدل، والمثبت من (ظ)، والمفهم ٥٢٨/٦، والكلام منه.

(٣) في (ظ): نقص الله من أجله في الدنيا.

(٤) أخرج المرفوع منه البزار (١٨٨٠ - كشف)، وفي أوله: «في التوراة مكتوب من أحب...». والطبراني في الكبير (١١٨٢٢)، ولم نقف على باقي الخبر، وذكر معناه ابن حجر في الفتح ٣٠٢/٤ عن الحكيم الترمذي وقال: أغرب الحكيم الترمذي فقال: المراد بذلك قلة البقاء في البرزخ.

(٥) أخرجه الطبري ٥٦١/١٣ - ٥٦٢ بنحوه، وفيه: يقضى في ليلة القدر...

وقال الضَّحَّاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحَقْفَةِ ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، وَيُثَبِّت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس^(١).

وقال الكلبي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبي ﷺ^(٢). ثم سئل الكلبي عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس، طَرَحَ منه كلَّ شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب^(٣)، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب^(٤).

وقال قَتَادَة وابن زيد وسعيد بن جبير: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض^(٥)، فيَنسُخُه ويُبَدِّلُه، ويُثَبِّت ما يشاء فلا ينسخه، وجملته الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب. ونحوه ذكره النحاس والمهدوي عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحدثنا بَكْر بن سهل، قال: حدثنا أبو صالح، عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يقول: يُبَدِّلُ الله من القرآن ما يشاء فيَنسُخُه، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما يشاء فلا يبدِّله، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: جملة ذلك عنده في أم الكتاب؛ الناسخ والمنسوخ^(٦).

(١) النكت والعيون ١١٨/٣، وزاد المسير ٣٣٨/٤.

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥٠٢/٣. وأخرجه الطبري ٥٦٦/١٣ أيضاً عن أبي صالح قوله، وذكره عنه الحافظ في الفتح ٣٠٩/١١ بنحوه وقال: وهذا لو ثبت كان نصاً في ذلك، ولكنه من رواية الكلبي، وهو ضعيف جداً.

(٣) أخرجه ابن سعد ٥٧٤/٣، والطبري ٥٦٥/١٣ - ٥٦٦، وابن عدي ٢١٣١/٦ من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً، وهذا إسناد ضعيف جداً.

(٤) أخرجه الطبري ٥٦٦/١٣.

(٥) في (د) و(ز) و(م): من الفرائض والنوافل، والمثبت من (ظ) و(ف) وتفسير البغوي، والكلام منه، وأخرجه عن قتادة وابن زيد الطبري ٥٦٧/١٣.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥٠٢/٣ - ٥٠٣، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤)، والطبري ٥٦٦/١٣ عن أبي صالح به.

وقال سعيد بن جبير أيضاً: يغفر ما يشاء من^(١) ذنوب عباده، ويترك ما يشاء، فلا يغفره.

وقال عكرمة: يمحو ما يشاء - يعني بالتوبة - جميع الذنوب، ويثبت بدل الذنوب حسنات [كما قال الله تعالى]: ﴿لَا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] الآية^(٢).

وقال الحسن: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مَن جاء أجله، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ مَن لم يأت أجله^(٣). وعنه أيضاً^(٤): يمحو الآباء، ويثبت الأبناء. وعنه أيضاً: يُنسي الحَفَظَةَ من الذنوب ولا يُنسي.

وقال السدي: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: القمر، ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ يعني: الشمس، بيانه قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال الربيع بن أنس: هذا في الأرواح حالة النوم يقبضها؛ مَن أراد^(٥) موته فجأة أمسكه^(٦)، ومَن أراد بقاءه أثبتته وردّه إلى صاحبه، بيانه قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية [الزمر: ٤٢].

وقال علي بن أبي طالب: يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴿يس: ٣١﴾، ويثبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ

(١) قبلها في (م): يعني.

(٢) ذكر قول سعيد بن جبير وعكرمة البغوي ٢٣/٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه الطبري ٥٦٨/١٣.

(٤) في النسخ عدا (ظ): وقال الحسن، والمثبت من (ظ)؛ إلا أنها وقعت فيها بعد قول عكرمة ووقع قول الحسن فيها آخرأ، فيكون هذا القول وما بعده - على ما في نسخة (ظ) - منسوباً لعكرمة.

(٥) في النسخ عدا (ظ): يقبضها عند النوم ثم إذا أراد، والمثبت من (ظ). ووقع في تفسير البغوي ٢٣/٣: هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد...

(٦) في تفسير البغوي: محاه فأمسكه، بدل: فجأة أمسكه.

قَرْنَا **لَاخِرِينَ** ﴿٣٩﴾ [المؤمنون: ٣١]، فيمحو قَرْنَا، وَيُثَبِّت قَرْنَا^(١).

وقيل: هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله، فهذا^(٢) الذي يمحو. والذي يُثَبِّت: الرجلُ يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب، فيمحوه الله من ديوان السيئات، وَيُثَبِّتُهُ في ديوان الحسنات؛ ذكره الثعلبي والماوردي عن ابن عباس^(٣).

وقيل: يمحو الله ما يشاء - يعني الدنيا - وَيُثَبِّت الآخرة.

وقال قيس بن عباد في اليوم العاشر من رجب: هو اليوم الذي يمحو الله فيه ما يشاء، ويثبت ما يشاء؛ وقد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان^(٤).

وقال ابن عباس: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمس مئة عام، من دُرَّة بيضاء لها دَفَّتَانِ من ياقوتة حمراء، [والدَفَّتَانِ لوحان]، لله فيه كل يوم ثلاث مئة وستون نظرة، يُثَبِّت ما يشاء، ويمحو ما يشاء^(٥).

وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَفْتَحُ الذِّكْرَ فِي ثَلَاثَ سَاعَاتٍ يَبْقَيْنَ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَنْظُرُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ، وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ»^(٦).

(١) لم نقف عليه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): فهو، والمثبت من (ظ).

(٣) النكت والعيون ١١٨/٣، وأخرجه الطبري ٥٦٤/١٣ - ٥٦٥.

(٤) ص ٩٠ من هذا الجزء، وخبر قيس بن عباد أخرجه الطبري ٥٧١/١٣ من طريق رجل، عن أبيه، عن قيس به. وهذا إسناد ضعيف إلى قيس، ثم هو مقطوع عليه.

(٥) أخرجه الطبري ٥٧٠/١٣، وما سلف بين حاصرتين منه، وفيه: لحظة، بدل: نظرة.

(٦) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص ٣٢، والبخاري (٣٥١٦ - كشف) والطبري ٥٧٠/١٣، والعقيلي في الضعفاء (٥٥٢)، والدارقطني في المؤلف والمختلف ١١٥١/٣ - ١١٥٢، وابن الجوزي في العلل (٢١) وقال: هذا الحديث من عمل زيادة بن محمد، لم يتابعه عليه أحد، قال البخاري: هو منكر الحديث. وقال ابن حبان: هو منكر الحديث جداً، يروي المناكير عن المشاهير فاستحق الترك.

والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله، وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء، وقد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً، وهو الثابت، ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب، وهو المحو، والله أعلم.

العَزَّوَيُّ: وعندي أن ما في اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة، فيَحْتَمِلُ التبديل؛ لأن إحاطة الخلق بجميع عِلْمِ الله مُحَالٌ، وما في علمه من تقدير الأشياء لا يُبَدَّل.

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، أي: أصل ما كتب من الآجال وغيرها.

وقيل: أم الكتاب: اللوح المحفوظ الذي لا يُبَدَّل ولا يُغَيَّر^(١). وقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأخر.

وسُئِلَ ابن عباس عن أم الكتاب فقال: [قال كعب:] عِلْمُ الله ما هو خَالِقٌ، وما خَلَقَهُ عَامِلُونَ، فقال لعلمه: كن كتاباً [فكان كتاباً]^(٢)، ولا تبديل في علم الله. وعنه: إنه الذُّكْر^(٣)، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وهذا يرجع معناه إلى الأوّل؛ وهو معنى قول كعب. قال كعب الأحمار: أم الكتاب: عِلْمُ الله تعالى بما خَلَقَ وبما هو خالق^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ٥١ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٥٢

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ «ما» زائدة، والتقدير: وَإِنْ نُرِيَنَّكَ بَعْضَ

(١) تفسير البغوي ٢٣/٣.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٣٣٨/١، وما بين حاصرتين منه، وهو في تفسير الطبري بنحو ٥٣٢/١٣.

(٣) أخرجه الطبري ٥٧٢/١٣ - ٥٧٣.

(٤) ذكره عن كعب بهذا اللفظ الماوردي في النكت والعيون ١١٨/٣.

الذي نَعُدُّهُمْ، أي: من العذاب؛ لقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٣٤]، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١]، أي: إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿أَوْ تَوَفِّيْنَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ فليس عليك إلا البلاء، أي: التبليغ ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي: الجزاء والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أهل مكة، ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي: نقصدها. ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختلف فيه؛ فقال ابن عباس ومجاهد: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ موت علمائها وصلحائها^(١). قال القشيري: وعلى هذا فالأطراف الأشراف^(٢)، وقد قال ابن الأعرابي: الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم. ولكن هذا القول بعيد؛ لأن مقصود الآية: أَنَّا أَرَيْنَاهُم النقصان في أمورهم، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز، إلا أن يُجمل قول ابن عباس على موت أحرار اليهود والنصارى.

وقال مجاهد أيضاً وقتادة والحسن: هو ما يغلب عليه المسلمون ممّا في أيدي المشركين. وروى ذلك عن ابن عباس^(٣). وعنه أيضاً: هو خراب الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها^(٤). وعن مجاهد: نقصانها: خرابها وموت أهلها^(٥).

وذكر وكيع بن الجراح، عن طلحة بن عمرو^(٦)، عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: ذهب فقهاءها وخيار أهلها^(٧).

(١) أخرجه عن ابن عباس الطبري ٥٧٩/١٣، والحاكم ٣٥٠/٢ من طريق طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس، وطلحة بن عمرو، قال عنه الحافظ في التقریب: متروك. وسيأتي تخريجه عن مجاهد.

(٢) وذكر هذا المعنى الأزهرى في تهذيب اللغة ٣٢٠/١٣.

(٣) أخرجه عن ابن عباس والحسن الطبري ٥٧٤/١٣ - ٥٧٥، وذكره عن قتادة الماوردي في النكت والعيون ١١٩/٣، ولفظ خبر ابن عباس عن الطبري: أو لم يروا أنّا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥٠٥/٣، وأخرجه الطبري ٥٧٦/١٣.

(٥) جامع بيان العلم (١٠٣٣)، وأخرجه الطبري ٥٧٦/١٣ - ٥٧٧، وهو في تفسير مجاهد ٣٣٠/١.

(٦) في (ظ): عمر، وفي باقي النسخ: عمير، والمثبت هو الصواب.

(٧) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٠٣٠)، وقد سلف من طريق طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس.

قال أبو عمر بن عبد البر^(١): قولُ عطاءٍ في تأويل الآية حسنٌ جداً، تلقَّاه أهل العلم بالقبول.

قلت: وحكاها المهدويُّ عن مجاهد وابن عمر، وهذا نصُّ القول الأوَّل نفسه^(٢)؛ روى سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: الموت^(٣)؛ موتُ الفقهاء والعلماء^(٤). ومعروفٌ في اللغة أَنَّ الطَّرْفَ: الكريمُ من كلِّ شيء^(٥)، وهذا خلافُ ما ارتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس.

وقال عكرمة والشَّعْبِيُّ: هو النقصان وقبضُ الأنفس؛ قال أحدهما: ولو كانت الأرض تَنْقُصُ لضاق عليك حَشُّك. وقال الآخر: لضاق عليك حَشٌّ تَبَرَّرَ فيه^(٦).

قيل: المراد به هلاكُ مَنْ هَلَكَ من الأمم قبل قريش، وهلاكُ أرضهم بعدهم، والمعنى: أو لم تر قريشٌ هلاكُ مَنْ قَبْلَهُمْ، وخرابُ أرضهم بعدهم؟! أفلا يخافون أن يَحُلَّ بهم مثلُ ذلك. ورؤيَ ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد وابن جُرَيْج. وعن ابن عباس أيضاً: أنه نقصُ بركات الأرض وثمارها وأهلها^(٧).

وقيل: تَنْقُصُهَا بِجَوْرِ وَلَآتِهَا^(٨).

قلت: وهذا صحيحٌ معنًى، فإن الجَوْرَ والظُّلْمَ يُخَرِّبُ البلادَ بقتل أهلها

(١) في جامع بيان العلم إثر الخبر (١٠٣٤).

(٢) في (ظ): وهذا هو القول الأول بعينه.

(٣) قوله: الموت، من (ظ) وهو الموافق لما في المصادر على ما يأتي.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥٠٥/٣، وأخرجه عبد الرزاق ٣٣٩/١، وأخرجه من طريق آخر بنحوه الطبري ٥٧٩/١٣.

(٥) ذكر النحاس في إعراب القرآن ٣٦٠/٢ هذا المعنى عن عبد الله بن عبد العزيز.

(٦) جامع بيان العلم (١٠٣٢)، وأخرج قول الشعبي الطبري ٥٧٧/١٣ من طريق طلحة القنَّاد عن سمع الشعبي. وأخرج الطبري ٥٧٨/١٣ أيضاً قول عكرمة بنحوه. والحش: الكثيف. معجم متن اللغة (حش).

(٧) أخرجه الطبري ٥٧٧/١٣.

(٨) النكت والميون ١١٩/٣.

وانجلائهم^(١) عنها، وتُرفع من الأرض البركة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي: ليس يتعقب حكمه أحد بنقض^(٢) ولا تغيير. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: الانتقام من الكافرين، سريع الثواب للمؤمن. وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى رؤية قلب، ولا عقد بئان؛ حسب ما تقدم في «البقرة» بيانه^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿٤١﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل مشركي مكة، مكروا بالرسول وكادوا لهم وكفروا بهم. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضر إلا بإذنه^(٤). وقيل: فله خير المكر، أي: يجازيهم به^(٥). ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر، فيجازي عليه.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ كذا قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. والباقون: ﴿الْكَافَرُ﴾ على الجمع^(٦). وقيل: عني به أبو جهل^(٧). ﴿لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾ أي: عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً، أو^(٨) لمن الثواب والعقاب في الدار الآخرة، وهذا تهديد ووعد.

(١) في (ظ): وجلائهم.

(٢) في النسخ عدا (ظ): بنقص، والمثبت من (ظ) ومعاني القرآن للنحاس ٥٠٦/٣ والكلام منه.

(٣) ٣٥٩/٣ - ٣٦١.

(٤) الوجيز للواحدي (على هامش مراح ليبد) ٣٣٤/١، وزاد المسير ٣٤١/٤.

(٥) ذكر الرازي ٦٨/١٩ هذا القول بلفظ: فله جزاء المكر، وذلك لأنهم لما مكروا بالمؤمنين بين تعالى أنه يجازيهم على مكرهم. ووقع في (ظ): خير الماكرين.

(٦) السبعة ص ٣٥٩، والتيسير ص ١٣٤.

(٧) في (ظ): أبا جهل، وذكر الواحدي في الوسيط ٢١/٣ هذا القول عن ابن عباس.

(٨) في (د): و، وفي (ظ): أي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قال قتادة: هم مشركو العرب^(١)، أي: لست بنبي ولا رسول، وإنما أنت متقول، أي: لما لم يأتهم بما اقترحوا؛ قالوا ذلك. ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿كَفَى بِاللَّهِ﴾ أي: كفى الله ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بصدقي وكذبيكم.

﴿وَمَنْ عِنْدُ عِلْمٍ الْكِتَابِ﴾ وهذا احتجاج على مشركي العرب؛ لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب - مَنْ آمَنَ منهم - في التفسير. وقيل: كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم، وهم مؤمنو أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري، والنجاشي وأصحابه؛ قاله قتادة وسعيد بن جبير^(٢).

وروى الترمذي عن ابن أخي عبد الله بن سلام قال: لما أريد^(٣) عثمان، جاء عبد الله بن سلام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نصرتك. قال: أخرج إلى الناس فاطردهم عني، فإنك خارج خير لي منك^(٤) داخل. فخرج عبد الله بن سلام إلى الناس فقال: أيها الناس، إنه كان اسمي في الجاهلية فلان^(٥)، فسماني رسول الله ﷺ عبد الله، ونزلت في آيات من كتاب الله؛ نزلت في: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرَتْ لَكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ونزلت في: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُ عِلْمٍ الْكِتَابِ﴾ الحديث^(٦).

(١) أخرجه الطبري ٥٨٣/١٣.

(٢) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٣٣٩/١، والطبري ٥٨٣/١٣ - ٥٨٤. أما سعيد بن جبير فقد روي عنه عكس هذا القول على ما يأتي.

(٣) بعدها في (م): قتل.

(٤) في النسخ: من، والمثبت من سنن الترمذي.

(٥) في (ف): سفيان، وفي (ظ): فلانا، والمثبت من باقي النسخ وسنن الترمذي. قال المباركفوري في تحفة الأحوذ ١٣٨/٩: الظاهر أن يكون فلاناً...، وأما الرفع فعلى أن في «كان» ضمير الشأن، و«اسمي» مبتدأ، وفلان خبره، والجملة خبر كان.

(٦) سنن الترمذي (٣٢٥٦). وابن أخي عبد الله بن سلام مجهول كما قال الحافظ في التقریب.

وقد كتبناه بكماله في كتاب «التذكرة»^(١). وقال فيه أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.

وكان اسمه في الجاهلية حُصَيْن، فسَمَّاهُ النبي ﷺ عبدَ الله^(٢).

وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبَّير: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو عبد الله بن سَلَام؟ قال: وكيف يكون^(٣) عبدَ الله بنَ سَلَامٍ وهذه السورة مكية، وابنُ سَلَامٍ ما أسلم إلا بالمدينة؟! ذكره الثعلبي.

وقال القُشَيْرِيُّ: وقال ابنُ جُبَيْر: السورة مَكِّيَّة، وابن سَلَامٍ أسلم بالمدينة بعد هذه السورة، فلا يجوز أن تُحمل هذه الآية على ابن سَلَامٍ، فَمَنْ عنده علم الكتاب جبريلُ، وهو قول ابن عباس^(٤).

وقال الحسن ومجاهد والضَّحَّاك: هو الله تعالى، وكانوا يقرؤون: «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ»، وَيُنْكِرُونَ على مَنْ يقول: هو عبد الله بنُ سَلَامٍ وَسَلْمَانُ؛ لأنهم يَرَوْنَ أنَّ السورة مَكِّيَّة، وهؤلاء أسلموا بالمدينة^(٥).

وروي عن النبي ﷺ أنه قرأ: «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ»، وإن كان في الرواية ضعفٌ، وروى ذلك سليمان بنُ أَرْقَمٍ، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، عن النبي ﷺ^(٦).

(١) ص ٥٣٤.

(٢) الاستيعاب (على هامش الإصابة) ٢٢٨/٦.

(٣) في النسخ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: هو عبد الله بن سلام قلت: وكيف يكون... وهو خطأ، والمثبت من مصادر التخریج، فقد أخرجه سعيد بن منصور (١١٧٧ - تفسير)، والطبري ٥٨٦/١٣، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٤٧٩/٢. وأبو بشر هو جعفر بن إياس.

(٤) قول سعيد بن جبیر أنَّ مَنْ عنده عِلْمُ الْكِتَابِ هو جبريل، ذكره الماوردي في النكت والعيون ١١٩/٣، وأخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ ٤٧٨/٢ عن ابن عباس قال: سورة الرعد نزلت بمكة، فهي مكية.

(٥) النكت والعيون ١١٩/٣، وذكر القراءة عنهم ابن جني في المحتسب ٣٥٨/١.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥٠٨/٣، وأخرجه أبو يعلى (٥٥٧٤) بهذا الإسناد، وسليمان بن أرقم ضعيف =

وروى محبوبٌ، عن إسماعيلَ بن محمدٍ اليمانيّ أنه قرأ كذلك: «وَمِنْ عِنْدِهِ» بكسر الميم والعين والذال «عِلِمَ الكتاب» بضمّ العين ورفَعَ الكتاب^(١).

قال عبد الله بن عطاء: قلت لأبي جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبدُ الله بنُ سَلَام، فقال: إنما ذلك عليّ بن أبي طالب عليه السلام^(٢)، وكذلك قال محمد ابن الحنفية. وقيل: جميعُ المؤمنين، والله أعلم.

قال القاضي أبو بكر بن العربي^(٣): أَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهُ عَلِيٌّ، فَعَوَّلَ عَلَى أَحَدٍ وَجْهَيْنِ: إِمَّا لِأَنَّهُ عَنْدهُ أَعْلَمُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ أَعْلَمُ مِنْهُ. أَوْ لِقَوْلِ^(٤) النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا»، وَهُوَ حَدِيثٌ بَاطِلٌ^(٥)؛ النَّبِيُّ ﷺ مَدِينَةُ عِلْمٍ، وَأَصْحَابُهُ أَبْوَابُهَا؛ فَمِنْهُمْ الْبَابُ الْمَنْفَسِحُ، وَمِنْهُمْ الْمَتَوَسِّطُ، عَلَى قَدَرٍ مَنَازِلَهُمْ فِي الْعُلُومِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهُمْ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ، فَصَدَقَ؛ لِأَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ يَغْلُمُ الْكِتَابَ وَيُدْرِكُ وَجْهَ إعْجَازِهِ يَشْهَدُ^(٦) لِلنَّبِيِّ ﷺ بِصَدَقِهِ.

= كما ذكر الحافظ في التقریب. وأخرجه الطبري ٥٨٦/٣ - ٥٨٧ من طريق هارون الأعور عن الزهري به، قال الطبري: هذا خبر ليس له أصل عند الثقات من أصحاب الزهري. وذكر هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦٧، وابن جني في المحتسب ٣٥٨/١، كما سلف.

(١) معاني القرآن للنحاس ٥٠٩/٣، وهي في القراءات الشاذة ص ٦٧، والمحتسب ٣٥٨/١ عن علي بن محمد وابن السميع.

(٢) ذكر قول أبي جعفر الطبرسي في مجمع البيان ١٩٣/١٣، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ١١٠١/٣ دون نسبة.

(٣) في أحكام القرآن ١١٠٢/٣. والقول الأخير وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ عدا (ظ): ولقول، والمثبت من (ظ) وأحكام القرآن.

(٥) وقال الحاكم ١٢٦/٣ بعد أن أخرجه من حديث ابن عباس: هذا حديث صحيح الإسناد. فتعقبه الذهبي بقوله: بل موضوع. وقال أيضاً ١٢٧/٣: العجب من الحاكم وجرأته في تصحيحه هذا وأمثاله من البواطيل. وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٤٥٦/٢ بعد أن ذكر طرقة: والحديث لا أصل له.

(٦) في النسخ: ويشهد، والمثبت من أحكام القرآن.

قلت: فالكتاب على هذا هو القرآن.

وأما مَنْ قال: هو عبد الله بن سَلام، فعَوَّل على حديث الترمذي، وليس يمتنع أن تنزل في عبد الله بن سَلام سبباً وتتناول^(١) جميع المؤمنين لفظاً، ويعضّده من النُّظام أن قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني [به] قريشاً، فالذين عندهم علمُ الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى، الذين هم إلى معرفة النبوة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان.

قال النحاس^(٢): وقول مَنْ قال: هو عبد الله بن سَلام وغيره، يُحتمل أيضاً؛ لأن البراهين إذا صحّت وعرفها مَنْ قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن؛ كان أمراً مؤكّداً، والله أعلم بحقيقة ذلك.

تمّ تفسير سورة الرعد، والحمد لله.

(١) في النسخ عدا (ظ): أن ينزل في عبد الله بن سلام شيئاً ويتناول، وفي (ظ): أن ينزل شيء في عبد الله ابن سلام ويتناول، والمثبت من أحكام القرآن.

(٢) في معاني القرآن ٥٠٩/٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللّٰهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا

تفسير سورة إبراهيم

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها مدنية^(١). وقيل: ثلاث؛ نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿الرَّ كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الرَّ كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ تقدّم معناه^(٢).

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ أي: بالكتاب، وهو القرآن، أي: بدعائك إليه. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وهذا على التمثيل؛ لأنّ الكفر بمنزلة الظلمة، والإسلام بمنزلة النور^(٣). وقيل: من البدعة إلى السنة، ومن الشك إلى اليقين. والمعنى متقارب.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتوقيفه إياهم ولطفه بهم، والباء في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلّقة بـ «تُخرج»^(٤)، وأضيف الفعل إلى النبي ﷺ؛ لأنه الداعي والمنذر الهادي.

(١) من (ظ)، وفي غيرها: مدنيتين، والكلام في النكت والعيون ١٢٠/٣.

(٢) ٢٣٧/١.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥١٣/٣.

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ١٥٣/٣.

﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ هو كقولك: خرجتُ إلى زيدٍ العاقلِ الفاضل؛ من غير واو^(١)؛ لأنهما شيء واحد، واللَّهُ هو العزيزُ الذي لا مِثْلَ له ولا شبيهه. وقيل: «العزيز»: الذي لا يَغْلِبُهُ غالب. وقيل: «العزيز»: المَنِيعُ في مُلْكِهِ وسُلْطَانِهِ. «الحميد» أي: المحمودُ بكلِّ لسان، والمُمَجَّدُ في كلِّ مكانٍ على كلِّ حال.

وروى مِثْسَمٌ عن ابن عباس قال: كان قومٌ آمنوا بعبسى ابنِ مريم، وقومٌ كفروا به، فلما بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ آمَنَ به الذين كفروا بعبسى، وكفَرَ الذين آمنوا بعبسى، فنزلت هذه الآية، ذكره الماوردي^(٢).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿أي: ملكاً وعبيداً واختراعاً وخلقاً. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وغيرُهما: «اللَّهُ» بالرفع على الابتداء^(٣)، «الَّذِي» خبره. وقيل: «الَّذِي» صفة، والخبر مُضْمَرٌ^(٤)، أي: اللُّهُ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادرٌ على كلِّ شيء. الباقيون: بالخفض نعتاً للعزيز الحميد، فَقَدَّمَ النَّعْتَ على المنعوت، كقولك: مررتُ بالظريفِ زيد^(٥). وقيل: على

(١) نقل ابن الجوزي في زاد المسير ٣٤٤/٤ عن ابن الأنباري قوله: هذا مثل قول العرب: جلست إلى زيد، إلى العاقلِ الفاضل، وإنما تُعَاد «إلى» بمعنى التعظيم للأمر.

(٢) في النكت والعيون ١٢١/٣، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١١٤)، قال الهيثمي في «المجمع» ٣٢٣/٦، وفيه أبو بلال الأشعري، وهو ضعيف.

(٣) السبعة ص ٣٦٢، والتيسير ص ١٣٤، وقرأ بالرفع أيضاً أبو جعفر، كما في النشر ٢٩٨/٢.

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢٥/٢.

(٥) ينظر تفسير الطبري ٥٨٩/١٣ - ٥٩٠، وردَّ ابن زنجلة هذا القول في «حجة القراءات» ص ٣٧٦ فقال: ولا يجوز أن يقول: نعتٌ للحميد، وإنما هو كقولك: «مررتُ بزيدِ الظريف»، فإن قلت: «بالظريف زيد» عاد بدلاً، ولم يكن نعتاً.

البذل من «الحميد» وليس صفة؛ لأنَّ اسمَ الله صارَ كالعلم فلا يُوصَفُ به^(١)؛ كما لا يُوصَفُ بزيد وعمرو، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأنَّ معناه أنَّه المنفردُ بقدرة الإيجاد. وقال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير، مجازة: إلى صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السماوات وما في الأرض^(٢). وكان يعقوب^(٣) إذا وقف على «الحميد» رَفَعَ، وإذا وصلَ خَفَضَ على النعت. قال ابنُ الأنباري^(٤): من خَفَضَ وَقَفَ على: «وما في الأرض».

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قد تقدَّم معنى الويل في «البقرة»^(٥) وقال الزجاج^(٦): هي كلمة تُقال للعذاب والهَلَكَة. ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: في جهنم.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك. فـ «الذين» في موضع خفضٍ صفةٌ لهم. وقيل: في موضع رفع خبر ابتداءٍ مُضْمَرٌ؛ أي: هم الذين. وقيل: «الذين يَسْتَحِبُّونَ» مبتدأ، وخبره: «أُولَئِكَ»، وكلُّ مَنْ آثَرَ الدنيا وزَهَرَتِهَا، واستحبَّ البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصَدَّ عن سبيل الله - أي: صرفَ الناس عنه، وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره - فهو داخل في هذه الآية؛ وقد قال ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُتُمَةُ الْمُضِلُّونَ»^(٧) وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان! والله المستعان.

(١) لفظة «به» من (ظ).

(٢) تفسير الطبري ٥٨٩/١٣، وأبو عمرو: هو ابن العلاء.

(٣) في رواية رؤيس، وهو من العشرة. النشر ٢/٢٩٨.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٧٣٩/٢.

(٥) ٢/٢١٩ - ٢٢٢.

(٦) في معاني القرآن ١/١٦٠.

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٤٨٥) من حديث أبي الدرداء.

وقيل: «يَسْتَجِبُونَ» أي: يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأنَّ نعمة الله لا تُلْتَمَسُ إلا بطاعته دون معصيته ﴿وَبَيَّنَّا يَوَبَاءَ﴾ أي: يطلبون لها زينةً وميلاً لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسييل تُذَكَّرُ وتُؤَنَّثُ^(١). والعِوَجُ؛ بكسر العين: في الدِّين والأمر والأرض، وفي كلِّ ما لم يكن قائماً. ويفتح العين: في كل ما كان قائماً، كالحائط والرُّمَح ونحوه؛ وقد تقدم في «آل عمران»^(٢) وغيرها. ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ذهابٍ عن الحق، بعيدٍ عنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ﴾ أي: قبلك يا محمد ﴿إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ أي: بلغتهم؛ ليبينوا لهم أمر دينهم^(٣)، ووحد اللسان - وإن أضافه إلى القوم - لأن المراد اللغة، فهي اسمُ جنسٍ يقع على القليل والكثير، ولا حُجَّةٌ للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأنَّ كلَّ من تُرجمَ له ما جاء به النبي ﷺ ترجمةً يفهمها لزِمته الحجة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨]، وقال ﷺ: «أُرْسِلَ كُلُّ نَبِيٍّ إِلَى أُمَّتِهِ بِلِسَانِهَا، وأرسلني الله إلى كلِّ أحمرٍ وأسودٍّ من خلقه»^(٤). وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم لم يؤمن بالذي أُرسلتُ به، إلا كان من أصحاب النار». خرَّجه مسلم، وقد تقدَّم^(٥).

﴿فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ﴾ ردُّ على القَدَرِيَّة في نفوذ المشيئة، وهو

(١) الصحاح (سبل).

(٢) ٢٣٣/٥.

(٣) تفسير الطبري ٥٩٢/١٣، وتفسير السمرقندي ٢/٢٠٠.

(٤) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٩٤٢).

(٥) صحيح مسلم (١٥٣)، وسلف ١٦٠/٢.

مستأنف، وليس بمعطوفٍ على «لِيُبَيِّنَ»؛ لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال. ويجوز النصبُ في «يضلُّ»؛ لأن الإرسال صار سبباً للإضلال؛ فيكون كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَرُثًا﴾ [القصص: ٨]، وإنما صار الإرسال سبباً للإضلال؛ لأنهم كفروا به لما جاءهم، فصار كأنه سببٌ لكفرهم^(١). ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم معناه^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحجَّتنا وبراهيننا، أي: بالمعجزات الدالة على صدقه. قال مجاهد: هي التسع الآيات^(٣).

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ نظيره قوله تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام أول السورة: ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. وقيل: «أَنْ» هنا بمعنى: أي، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْطَلِقُ أَلَمَّا مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا﴾ [ص: ٦]: أي امشوا^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: قلْ لهم قولاً يتذكرون به أيامَ الله تعالى. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: بنعم الله عليهم^(٥). وقاله أبي بن كعب، ورواه مرفوعاً^(٦)، أي: بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التَّيه إلى سائر النعم.

(١) استبعد الزجاج في معاني القرآن ١٥٤/٣ النصب وقال: الرفع هو الوجه، وهو الكلام، وعليه القراءة.

(٢) معنى «العزیز» سلف ٤٠٣/٢ - ٤٠٤، ومعنى «الحكيم» سلف ٤٢٩/١.

(٣) أخرجه الطبري ٥٩٣/١٣ و ٥٩٤.

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ١٥٤/٣ - ١٥٥.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٤١/٢ والطبري ٥٩٦/١٣ و ٥٩٧ من قول مجاهد، و ٥٩٧/١٣ من قول قتادة، ولم نقف على من أخرجه من قول ابن عباس.

(٦) أخرجه من قول أبي بن كعب: عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٢٩)، وأخرجه أيضاً عنه مرفوعاً (٢١١٢٨).

وقد تُسمَّى النِّعم: الأيام، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غُرَّ طِوال^(١)

وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل: بوقائع الله في الأيام السالفة؛ يُقال: فلان عالم بأيام العرب، أي: بوقائعها^(٢). قال ابن زيد: يعني: الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية^(٣) وكذلك روى ابن وهب عن مالك قال: بلاؤه. وقال الطبري: وعِظْهُمْ بما سلف في الأيام الماضية لهم^(٤)، أي: بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة، وقد كانوا عبيداً مستذلين. واكتفى بذكر الأيام عنه؛ لأنها كانت معلومة عندهم.

وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بيننا موسى عليه السلام في قومه يُذكِّرهم بأيام الله، وأيامُ الله بلاؤه ونِعْمَاؤه» وذكر حديث الخضر^(٥). ودلَّ هذا على جواز الوعظ المرقق للقلوب، الموقوي لليقين، الخالي من كل بدعة، والمنزَّه عن كل ضلالة وشبهة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في التذكير بأيام الله ﴿لَايَتٍ﴾ أي: دلالات. ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله. وقال قتادة: هو العبد؛ إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر^(٦). ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر» ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٧). ونحوه عن الشعبي موقوفاً^(٨). وتوارى الحسن

(١) شرح القصائد السبع لابن الأنباري ص ٣٨٨، وعجزه: عَصَيْنَا الْمَلَكُ فِيهَا أَنْ نَدِينَا، وسلف ٢١٦/١.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٢٦/٣.

(٣) تفسير الطبري ٥٩٧/١٣.

(٤) تفسير الطبري ٥٩٤/١٣.

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٨٠) (١٧٢)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٢٠).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ٥٩٨/١٣.

(٧) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٥٩) من حديث أنس بن مالك، لكن في إسناده عتبة بن السكن ويزيد بن أبان الرقاشي، وهما متروكان. ميزان الاعتدال ٢٨/٣ و ٤١٨/٤.

(٨) بلفظ: الشكر نصف الإيمان، والصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤٤٨).

البصري عن الحجاج سبع سنين، فلما بلغه موته قال: اللهم قد أمته فأمته سنته. وسجد شكراً وقرأ: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»^(١).

وإنما خص بالآيات كل صبار شكور؛ لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها، كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وإن كان من ذراً للجميع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَرْسَلْنَا مِنَّا آلَ فِرْعَوْنَ بِسُوءِ مُؤْمُونِكُمْ وَسُوءِ الْفَعَالِ وَيَدْعِيُونَ آبَاءَكُمُ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمُ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ① وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكُمْ لِيَن شَكْرَتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلِيَن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ②﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَرْسَلْنَا مِنَّا آلَ فِرْعَوْنَ بِسُوءِ مُؤْمُونِكُمْ وَسُوءِ الْفَعَالِ وَيَدْعِيُونَ آبَاءَكُمُ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمُ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ تقدّم في «البقرة» مستوفى والحمد لله^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكُمْ﴾ قيل: هو من قول موسى لقومه. وقيل: هو من قول الله، أي: واذكروا يا محمد إذ قال ربك كذا. و«تأذّن» وأذن بمعنى: أعلم؛ مثل: أوعّد وتوعّد^(٣)؛ روي معنى ذلك عن الحسن وغيره. ومنه الأذان؛ لأنه إعلام، قال الشاعر:

فَلَمْ نَشْعُرْ بِضَوْءِ الصُّبْحِ حَتَّى سَمِعْنَا فِي مَجَالِسِنَا الْأَذِينَ^(٤)

وكان ابن مسعود يقرأ: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ»^(٥). والمعنى واحد.

﴿لِيَن شَكْرَتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن وحدثم وأطعتم لأزيدنكم مما يجب الشكر

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» ١٥٩/٢ دون قراءة الآية.

(٢) ٨٠/٢ - ٨٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٢٥، ومعاني القرآن للفراء ٦٩/٢، وتفسير الطبري ٦٠٠/١٣.

(٤) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص ٢٧٦، وفيه: «مساجدنا» بدل: «مجالسنا».

(٥) وهي قراءة شاذة، ينظر البحر المحيط ٤٠٧/٥، وتفسير الطبري ٦٠١/١٣.

عليه، وهي نعمي^(١). وقال الربيع: المعنى^(٢): لئن شكرتُم إنعامي لأزيدنَّكم من فضلي. الحسن: لئن شكرتُم نعمتي لأزيدنَّكم من طاعتي^(٣). ابن عباس: لئن وَّحدتُم وأطعتُم لأزيدنَّكم من الثواب^(٤). والمعنى متقارب في هذه الأقوال، والآية نصٌّ في أنَّ الشكر سببُ المزيد، وقد تقدَّم في «البقرة»^(٥) ما للعلماء في معنى الشكر.

وسُئِلَ بعضُ الصُّلحاء عن الشكر لله، فقال: أَلَّا تتقَوَّى بنعمه على معاصيه^(٦).

وحُكي عن داود عليه السلام أنه قال: أيُّ ربِّ، كيف أشكرك، وشكري لك نعمةٌ مجدِّدةٌ منك عليّ. قال: يا داود، الآن شكرتني^(٧).

قلت: فحقيقةُ الشكر على هذا الاعترافُ بالنعمة للمنعم، وألَّا يصرفها في غير طاعته؛ وأنشد الهادي^(٨) وهو يأكل:

أنا لك رِزْقُه لتقومَ فيه بطاعته وتشكرَ بعضَ حقِّه
فلم تشكُرْ لِنعمتهِ ولكن قويتَ على معاصيه برزقه^(٩)
فغصَّ باللُّقمة، وخنقته العبرة.

(١) الوسيط للواحد ٢٤/٣.

(٢) من قوله: «وَّحدتُم» إلى هذا الموضع من (ظ). وكلام الربيع في زاد المسير ٣٤٧/٤.

(٣) أخرجه الطبري ٦٠٢/١٣.

(٤) الوسيط للواحد ٢٤/٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٣٤٧/٤.

(٥) ١٠٤/٢.

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٥٠)، والخطيب في «تاريخه» ٢٤٤/٧ من كلام الجنيد بن محمد البغدادي رحمته الله.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٢٢٩/٥ إلى ابن أبي حاتم.

(٨) هو الخليفة موسى بن المهدي محمد بن المنصور، وليَّ الخلافة بعد أبيه المهدي، مات سنة ١٧٠هـ، وعمره ثلاث وعشرون سنة، وكانت مدة خلافته سنة وشهر، ووليَّ الخلافة من بعده أخوه الرشيد. السير ٤٤١/٧ - ٤٤٣.

(٩) ذكرهما بنحوهما المبرَّد في الكامل ٦٦٤/٢٠ في ثلاثة أبيات، نسبت في بعض نسخه لمحمود الوراق (كما ذكر محققه).

وقال جعفر الصادق: إذا سمعت النعمة نعمة الشكر؛ فتأهّب للمزيد.

﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي: جحدتُم حقّي، وقيل: نِعَمي^(١)؛ وَعَدَ بالعذاب على الكفر، كما وَعَدَ بالزيادة على الشكر^(٢)، وحذفت الفاء التي في جواب الشرط من «إِنَّ» للشبهة^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَبَى اللَّهُ لِنَعْيٍ حَيِّدٍ﴾ ٨ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ ٩

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَبَى اللَّهُ لِنَعْيٍ حَيِّدٍ﴾ أي: لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغني. «الحميد» أي: المحمود.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ النبا: الخبر، والجمع: الأنباء؛ قال:

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنَمِي^(٤)

ثم قيل: هو من قول موسى. وقيل: من قول الله، أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى. وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور، قصه الله في كتابه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يُحصى عددهم إلا الله،

(١) الوسيط للواحد ٢٤/٣.

(٢) النكت والعيون ١٢٣/٣.

(٣) وقال الشوكاني في فتح القدير ٩٦/٣: اللام في «لئن شكرتم» هي الموطئة للقسم، وقوله: «لأزيدنكم» ساذ مسدّ جوابي الشرط والقسم، وكذا اللام في «ولئن كفرتم»، وقوله: «إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» ساذّ مسدّ الجوابين أيضاً.

(٤) هو صدر بيت لقيس بن زهير، وسلف عند تفسير الآية (٩٠) من سورة يوسف.

ولا يعرف نسبهم إلا الله^(١)؛ والنَّسَابُونَ وإن نَسَبُوا إلى آدم؛ فلا يدعون إحصاء جميع الأمم، وإنما ينسبون البعض، ويُمسكون عن نسب البعض، وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ لَمَّا سمع النَّسَابِينَ ينسبون إلى مَعَدِّ بنِ عدنان، ثم زادوا، فقال: «كَذَبَ النَّسَابُونَ، إن الله يقول: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾»^(٢).

وقد رُوِيَ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ أنه قال: ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل^(٣).

وقال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون^(٤). وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾: كَذَبَ النَّسَابُونَ^(٥). ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحُجج والدَّلالات. ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: جعل أولئك القومُ أيديهم في أفواههم ليعضوها غيظاً مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تَسْفِيهُ أحلامهم، وشتُمُ أصنامهم؛ قاله ابن مسعود^(٦)، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ: ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْآتَاوِيلَ مِنَ الْفَيْتَلِ﴾^(٧) [آل عمران: ١١٩]. وقال ابن عباس: لَمَّا سمعوا كتاب الله؛ عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم^(٨). وقال أبو صالح: كانوا إذا قال لهم نبيهم: أنا رسول الله إليكم، أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم: أن اسكُتْ؛

(١) تفسير الطبري ١٣/٦٠٣، والوسيط ٣/٢٤.

(٢) أخرجه ابن سعد ١/٥٦، وخليفة بن خياط في طبقاته ٣/١ عن ابن عباس، وفيه أنه قرأ قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] بدلاً من قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، وفي إسناده هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك، وأبوه محمد بن السائب متهم بالكذب. ميزان الاعتدال ٣/٥٥٦ - ٥٥٧ و ٤/٣٠٤ - ٣٠٥.

(٣) أخرجه ابن سعد ١/٥٨، وخليفة بن خياط في طبقاته ١/٢.

(٤) أخرجه خليفة بن خياط في طبقاته ١/٣.

(٥) أخرجه ابن سعد ١/٥٦.

(٦) ذكره المصنف عنه بالمعنى، وسيذكر لفظه قريباً.

(٧) الدر المنثور ٤/٧٢.

(٨) أخرجه الطبري ١٣/٦٠٧.

تكذيباً له، ورداً لقوله. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. والضميران للكفار، والقول الأول أصحها إسناداً؛ قال أبو عبيد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله تعالى ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال: عَضُّوا عليها غيظاً^(١). وقال الشاعر:

لو أن سَلَمَى أَبْصَرَتْ تَخَذُّدِي وَدِقَّةً فِي عَظْمِ سَاقِي وَيَدِي
وَبُعْدَ أَهْلِي وَجَفَاءَ عُودِي عَضَّتْ مِنَ الْوَجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ^(٢)

وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران» مجوداً، والحمد لله^(٣).

وقال مجاهد وقتادة: ردُّوا على الرسل قولهم، وكذبوهم بأفواههم. فالضمير الأول للرسل، والثاني للكفار. وقال الحسن وغيره: جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردّاً لقولهم^(٤). فالضمير الأول على هذا للكفار، والثاني للرسل. وقيل: معناه: أؤمؤوا للرسل أن يسكتوا^(٥). وقال مقاتل: أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم^(٦). وقيل: ردُّ الرسل أيدي القوم في أفواههم. وقيل: إن الأيدي هنا النعم، أي: ردُّوا نِعَمَ الرسل بأفواههم، أي: بالنطق والتكذيب، ومجيء الرسل بالشرائع نِعَمٌ، والمعنى: كذبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل. و«في» بمعنى الباء؛ يقال: جلسْتُ في البيت وبالييت^(٧)، وحروف الصفات

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٤١/١، والطبري ٦٠٥/١٣، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩١١٩)، والحاكم ٣٥١/٢ من طريق سفيان الثوري، به. وعبد الله: هو ابن مسعود، رضي الله عنه.

(٢) ينظر النكت والعيون ١٢٤/٣، والكامل ٢٦٣/١.

(٣) ٢٧٨/٥ - ٢٨٠.

(٤) زاد المسير ٣٤٩/٤.

(٥) معاني القرآن للزجاج ١٥٦/٣، والمحرر الوجيز ٣٢٦/٣، والوسيط ٢٥/٣.

(٦) المحرر الوجيز ٣٢٦/٣.

(٧) ينظر معاني القرآن للفراء ٦٩/٢ - ٧٠، ومعاني القرآن للزجاج ١٥٦/٣.

يُقام بعضها مقامَ بعض. وقال أبو عبيدة^(١): هو ضرب مثل، أي: لم يؤمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد ردَّ يده في فيه. وقاله الأخفش أيضاً. وقال القُتَيْبِيُّ^(٢): لم نسمع أحداً من العرب يقول: ردَّ يده في فيه إذا ترك ما أمر به، وإنما المعنى: عَضُّوا على الأيدي حَتَقاً وغيظاً؛ لقول الشاعر:

يَرُدُّونَ فِيهِ عَشْرَ^(٣) الحسودِ دِ حَتَّى يَعْضَّ عَلَيَّ الْأَكْفَا^(٤)

يعني أنهم يغيظون الحسود حتى يعضَّ على أصابعه وكفيه. وقال آخر:

قَدْ أَفْنَى أَنَامِلَهُ أَرْمُهُ فَأَضْحَى يَعْضُّ عَلَيَّ الْوُظَيْفَا^(٥)

﴿وَقَالُوا﴾: يعني الأمم للرسول: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالإرسال على زعمكم، لا أنهم أقرُّوا أنهم أرسلوا^(٦). ﴿وإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ أي: في ريبٍ وريبةٍ ﴿مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿مُريبٍ﴾ أي: موجب للريبة؛ يقال: أربته: إذا فعلت أمراً أوجب ريبةً وشكاً^(٧)، أي: نظنُّ أنكم تطلبون الملك والدنيا.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهامٌ معناه الإنكار، أي: لا شكَّ

(١) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.

(٢) في غريب القرآن ص ٢٣٠ - ٢٣١، وينظر المعاني الكبير له ٢/ ٨٣٤.

(٣) في (م): عَشْرٌ.

(٤) أورد شطره الأول ابن قتيبة في المصدرين السالفين، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤٨.

(٥) قائله صخر الغي كما في ديوان الهذليين ٧٣/ ٢ وأورد البيت ابن قتيبة وابن الجوزي (في المصادر السالفة). قوله: الأزم: شدة العَضِّ بالفم كله، وقيل: بالأنياب. والوُظَيْف: مُسْتَدَقُّ الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوهما. اللسان (أزم) (ووظف).

(٦) الوسيط للواحد ٣/ ٢٥، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٤٩.

(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٩.

في الله، أي: في توحيدِهِ. قاله قتادة. وقيل: في طاعته. وَيَحْتَمِلُ وجهاً ثالثاً: أفي قدرة الله شك؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها^(١)، يدلُّ عليه قوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدُها بعد العدم؛ لينبِّه على قدرته، فلا تجوز العبادة إلا له. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أي: إلى طاعته بالرسل والكتب. ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيدة^(٢): «مِنْ» زائدة. وقال سيبويه: هي للتبويض. ويجوز أن يُذكر البعض والمرادُ منه الجميع. وقيل: «مِنْ» للبدل، وليست بزائدة ولا مُبْعَضَةٌ، أي: لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب^(٣). ﴿وَيُخْرِجَكُم مِّنْ أَجْلِ مِّسْمِيٍّ﴾ يعني الموت، فلا يعذبكم في الدنيا. ﴿قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الهيئة والصورة؛ تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستم ملائكة. ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجّة ظاهرة؛ وكان هذا محالاً منهم؛ فإنَّ الرسل ما دَعَوْا إلا ومعهم المعجزات^(٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الصورة والهيئة كما قلتم. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يتفضّل عليه بالنبوة.

(١) النكت والعيون ١٢٥/٣، وقول قتادة في الوسيط ٢٥/٣، وزاد المسير ٣٤٩/٤ - ٣٥٠.

(٢) في مجاز القرآن ١/٣٣٦.

(٣) النكت والعيون ١٢٥/٣ - ١٢٦.

(٤) النكت والعيون ١٢٦/٣.

وقيل: بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية. وقال سهل بن عبد الله: بتلاوة القرآن وفهم ما فيه^(١).

قلت: وهذا قول حسن، وقد خرَّج الطبري من حديث ابن عمر قال: قلت لأبي ذر: يا عَمُّ أَوْصِنِي. قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ كما سألتني، فقال: «ما من يومٍ ولا ليلةٍ ولا ساعةٍ إلا ولله فيه صدقةٌ يُمْنُ بها على من يشاء من عباده، وما من الله تعالى على عباده بمثل أن يُلهمهم ذِكْرَهُ»^(٢).

﴿وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ أي: بِحُجَّةٍ وَآيَةٍ. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته، وليس ذلك في قدرتنا، أي: لا نستطيع أن نأتي بِحُجَّةٍ كما تطلبون إلا بأمره وقدرته، فلفظه لفظُ الخبر، ومعناه النفي؛ لأنه لا يُحْظَرُ على أحدٍ ما لا يقدِرُ عليه^(٣).
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تقدّم معناه^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ «ما» استفهام في موضع رفع بالابتداء، و«لَنَا» الخبر، وما بعدها في موضع الحال^(٥)؛ التقدير: أيُّ شيءٍ لنا في ترك التوكل على الله. ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا﴾ أي: الطريق الذي يوصل إلى رحمته، ويُنجي من سَخَطِهِ وَنِقَمَتِهِ. ﴿وَلَنُصَبِّرَنَّ﴾ لام قسم؛ مجازة: واللّه لَنُصَبِّرَنَّ ﴿عَلَى مَا عَاقَبْتُمُونَ﴾ به، أي: من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقةً بالله أنه يكفينَا وَيُصَبِّبُنَا. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

(١) النكت والعيون ١٢٦/٣.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٩٨٧)، والبزار في «مسنده» (٣٨٩٠)، وابن حبان في «المجروحين» ٢٤٤/١، في ترجمة حسين بن عطاء راوي الحديث، وقال: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد لمخالفته الأثبتات في الروايات، وذكره أيضاً في الثقات ٢٠٩/٦، وقال: يخطئ ويدلس.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٢٩، وفي مطبوعه «الحظر» بدلاً من «الخبر».

(٤) ٢٩٠/٥ - ٢٩٢.

(٥) مشكل إعراب القرآن ٤٠١/١.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَتُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا﴾ اللام لام قسم، أي: والله لنخرجنكم. ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ﴾ أي: حتى تعودوا، أو: إلا أن تعودوا. قاله الطبري وغيره^(١). قال ابن العربي: وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير؛ فإن «أو» على بابها من التخيير، خير الكفار الرسل بين أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم، وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْسُوكَ يُخْلِفُكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا﴾^(٢) [الإسراء: ٧٦-٧٧]. وقد تقدّم هذا المعنى في «الأعراف»^(٣) وغيرها. ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: إلى ديننا، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَتُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: مقامه بين يدي يوم القيامة، فأضيف المصدر إلى الفاعل^(٤). والمقام مصدر كالقيام؛ يقال: قام قياماً ومقاماً، وأضاف ذلك إليه؛ لاختصاصه به. والمقام بفتح الميم: مكان الإقامة، وبالضم: فعل الإقامة^(٥). و﴿ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي﴾ أي: قيامي عليه، ومراقبتي له؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ يَمَاسُ كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. وقال الأخفش:

(١) تفسير الطبري ١٣/٦١٢.

(٢) أحكام القرآن ٣/١١٠٤ - ١١٠٥.

(٣) ٢٨٤/٩.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/٣٣٠.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/٣٣١، والنكت والعيون ٣/١٢٦، وينظر قول المصنف عند تفسير الآية ٧٣

«ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي» أي: عذابي، «وَخَافَ وَعِيدِ» أي: القرآن وزواجه. وقيل: إنه العذاب. والوعيد الاسم من الوعد.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ أي: واستنصروا، أي: أذن للرسول في الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم. قاله ابن عباس وغيره^(١)، وقد مضى في «البقرة»^(٢). ومنه الحديث: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَسْتَفْتَحُ بِصَعَالِيكَ الْمُهَاجِرِينَ، أي: يستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية^(٣) [الأنفال: ٣٢]. ورؤي عن ابن عباس^(٤). وقيل: قال الرسول: «إنهم كذبوني فافتح بيني وبينهم فتحا». وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذبنا. عن ابن عباس أيضاً^(٥)، نظيره: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ﴿أَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً. هكذا هو عند أهل اللغة، ذكره النحاس^(٦). والعنيد: المعاند للحق والمُجانِبُ له. عن ابن عباس وغيره^(٧)، يُقال: عَنَدَ عَنْ قومه، أي: تباعد عنهم^(٨). وقيل: هو من العَنَد،

(١) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠ أن فرقة قرأت: «واستفتحوا» بكسر التاء، على معنى الأمر للرسول. ثم قال: قرأها ابن عباس ومجاهد وابن مُحيصن.

(٢) ٢٤٨/٢ - ٢٤٩، وسلف هناك أيضاً الحديث الذي سيذكره المصنف بعده.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٧، وزاد المسير ٤/ ٣٥١.

(٤) لم نقف عليه عن ابن عباس.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٨.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٥٢١.

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٦١٥ عن مجاهد، وكذلك نقله عنه البغوي ٣/ ٢٩، وهو في تفسيره ١/ ٣٣٤.

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢٢١.

وهو الناحية^(١). وعاندَ فلانٌ، أي: أخذَ في ناحيةٍ مُعرِضاً؛ قال الشاعر:
 إذا نزلتُ فاجعلوني وَسَطاً إني كبيرٌ لا أُطِيقُ العُنْدَ^(٢)
 وقال الهَرَوِيُّ^(٣): قوله تعالى: ﴿جَارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: جائرٍ عن القصد، وهو العُنُودُ
 والعَنِيدُ والعائِدُ^(٤). وفي حديث ابن عباس وسئل عن المستحاضة، فقال: إنه عِرْقُ
 عائِدٍ^(٥). قال أبو عبيد^(٦): هو الذي عَنَدَ وبَغَى؛ كالإنسان يعائِد، فهذا العِرْقُ في كثرة
 ما يخرج منه بمنزلته. وقال شَمِرُ: العائِدُ: الذي لا يرقأ^(٧). وقال عمر يذكر سيرته:
 أَضْمُ العُنُودِ؛ قال الليث: العُنُودُ من الإبل: الذي لا يُخالطها، إنما هو في ناحيةٍ
 أبداً^(٨)؛ أراد مَنْ هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفَتْ به إليها. وقال مقاتل:
 العنيد: المتكبر^(٩). وقال ابن كَيْسَانَ: هو الشامخ بأنفه. وقيل: العُنُودُ والعَنِيد: الذي
 يتكَبَّرُ على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها؛ تقول العرب: شَرُّ الإبل
 العُنُودُ الذي يخرج عن الطريق^(١٠). وقيل: العنيد: العاصي. وقال قتادة: العنيد:
 الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله^(١١).

(١) ينظر الصحاح (عند).

(٢) الرجز في أدب الكاتب ص ٤٩١، وأمالى ابن الشجري ٤٢٢/١، وخزانة الأدب ٣٢٣/١١ وفيه وفي (د) و(ظ): فاجعلاني بدل: فاجعلوني.

(٣) في غريب الحديث ٢٣٥/٤.

(٤) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢٩٠/١.

(٥) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٢٣٤/٤ - ٢٣٥، وابن المنذر في الأوسط ١٥٩/١، وقد روي من حديث عائشة كما في مسند أحمد (٢٥٣٩١)، وسنن النسائي ١٢٢/١.

(٦) في غريب الحديث ٢٣٥/٤.

(٧) ينظر اللسان (عند).

(٨) تهذيب اللغة ٢/٢٢٢، وغريب الحديث لابن الجوزي ١٣٠/٢.

(٩) تفسير البغوي ٢٩/٣.

(١٠) ينظر تفسير الطبري ٦١٦/١٣.

(١١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٤١/١، والطبري ٦١٦/١٣، وهو في الوسيط للواحدي ٢٦/٣، وتفسير البغوي ٢٩/٣، والمحور الوجيز ٣٣٠/٣.

قلت: والجبار والعنيد في الآية بمعنى واحد، وإن كان اللفظ مختلفاً، وكلُّ متباعدٍ عن الحقِّ جَبَّارٌ وعنيدٌ، أي: متكبرٌ. وقيل: إنَّ المُرادَ به في الآية أبو جهل؛ ذكره المَهْدَوِيُّ^(١). وحكى الماورديُّ في كتاب «أدب الدنيا والدين»^(٢) أنَّ الوليدَ بن يزيد بن عبد الملك تفاعل يوماً في المصحف، فخرج له قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، فمزَّق المصحف، وأنشأ يقول:

أَتُوعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ فها أنا ذاك جَبَّارٌ عَنِيدُ
إِذَا مَا جِئْتَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشْرِ فَقُلْ يَا رَبِّ مَزَّقَنِي الْوَلِيدُ
فلم يلبث إلا أياماً حتى قُتِلَ شَرُّ قِتْلَةٍ، وصُلِبَ رأسه على قصره، ثم على سورِ بلده.

قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: من وراء ذلك الكافر جهنم، أي: من بعد هلاكه. ووراء بمعنى بَعْدُ^(٣)؛ قال النابغة^(٤):

خَلَفْتُ فلم أتركْ لِنَفْسِكَ رِيبةً وليس وراءَ الله للمرءِ مذهبُ
أي: بعد الله، جلَّ جلاله، وكذلك قوله تعالى [في الآية التالية]: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: من بعده، وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة: ٩١] أي: بما سواه. قاله الفراء^(٥). وقال أبو عبيد^(٦): بما بعده. وقيل: «مِنْ وَرَائِهِ» أي: من أمامه، ومنه قول الشاعر:

وَمِنْ وَرَائِكَ يَوْمٌ أَنْتَ بِالْغُهِ لا حاضرٌ مُعْجِزٌ عنه ولا بادي^(٧)

(١) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢٠٣/٢.

(٢) ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٣) النكت والعيون ١٢٨/٣.

(٤) هو الذبياني، والبيت في ديوانه ص ١٧، وسلف ٣٨٨/١٠.

(٥) في معاني القرآن ٦٠/١.

(٦) ينظر تهذيب اللغة ٣٠٤/١٥، ومعاني القرآن للزجاج ١٥٦/٣.

(٧) ذكره في النكت والعيون ١٢٧/٣.

وقال آخر:

أَتَرْجُو بَنُو مِرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي وَقَوْمِي تَمِيمٌ وَالْفَلَائِدُ وَرَائِيَا^(١)
وقال لبيد^(٢):

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِئَتِي لُزُومُ الْعَصَا تُحْنِي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ
يريد أمامي. وفي التنزيل: ﴿كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] أي: أمامهم. وإلى
هذا ذهب أبو عبيدة وأبو عليّ قُطْرِب وغيرهما^(٣). وقال الأخفش: هو كما يقال: هذا
الأمر من وراءك، أي: سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان، أي: في طلبه، وسأصل
إليه^(٤). وقال النحاس^(٥) في قوله: ﴿مَنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: من أمامه، وليس من
الأضداد ولكنه من توارى، أي: استتر. وقال الأزهري^(٦): إِنَّ «وراء» تكون بمعنى
«خلف وأمام»، فهو من الأضداد. وقاله أبو عبيدة أيضاً^(٧). واشتقاقها^(٨) مما توارى
واستتر، فجهم توارى ولا تظهر، فصارت من وراء؛ لأنها لا تُرى. حكاها ابن
الأنباري^(٩)، وهو حسن.

قوله تعالى: ﴿وَشَقَىٰ مِمَّا لَّكَ صَدِيدٌ﴾ أي: من ماءٍ مثل الصديد، كما يُقال للرجل
الشجاع: أسد، أي: مثل الأسد، وهو تمثيلٌ وتشبيه^(١٠). وقيل: هو ما يسيل من

(١) البيت لسوار بن المُضَرَّب، كما في الكامل للمبرّد ٢/٦٢٨، والأضداد لابن السكيت ص ١٧٦،
والأضداد للأصمعي ص ٢٠، والأضداد لابن الأنباري ص ٦٨. ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن
٢/٢٨٠ لمساور بن حنّان.

(٢) ديوانه ص ١٧٠.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٣٧، وسلف هذا المعنى قريباً.

(٤) تفسير البغوي ٣/٢٩.

(٥) في معاني القرآن ٣/٥٢٢.

(٦) في تهذيب اللغة ١٥/٣٠٤.

(٧) في مجاز القرآن ١/٣٣٧.

(٨) في (ظ): واشتقاقه، وفي (م): واشتقاقهما.

(٩) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/١٢٨.

(١٠) المصدر السابق.

أجسام أهل النار من القيح والدم^(١). وقال محمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس: هو غَسَّالَة أهل النار، وذلك ماء يسيل من فروج الزُّنَاة والزواني^(٢). وقيل: هو من ماء كراهته^(٣) تصدُّ عنه، فيكون الصديد مأخوذاً من الصَّدِّ.

وذكر ابن المبارك: أخبرنا صفوان بن عمرو، عن عُبيد الله بن بُسر، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَكِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ﴾ قال: «يُقَرَّبُ إِلَى فِيهِ فيكرهه، فإذا أدنى منه شَوَى وجهه، ووقعت فَرْوَةُ رَأْسِهِ، فإذا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ حتى تَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ، يقول الله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول الله: ﴿وَلَنْ يَسْتَغْفِرُوا بِمَا كَانُوا يَكْمُلُونَ يَشْوَى الْوُجُوهُ يَنَسُ الشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]» خرَّجه الترمذي، وقال: حديث غريب^(٤). وعُبيد الله بن بُسر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبي أمامة لعلَّه أن يكون أخا عبد الله بن بُسر.

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أي: يَتَحَسَّاهُ جُرْعاً لا مرَّةً واحدة؛ لمرارته وحرارته^(٥). ﴿وَلَا يَكَاذُ يَسِفُّهُ﴾ أي: يبتلعه؛ يقال: جرع الماء واجترعه وتجرَّعه بمعنى^(٦). وساغ الشَّرَابُ في الحلق يسوغ سَوْغاً: إذا كان سَلِساً سهلاً، وأساغه الله إِسَاغَةً^(٧). و«يَكَاذُ» صلة، أي: يُسِغُهُ بعد إِبْطَاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَاذُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي:

(١) أخرجه الطبري ١٣/٦١٩ عن الضحاك. وأخرجه أيضاً عن مجاهد، وهو في تفسيره ١/٣٣٤، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/١٥٧، وتفسير أبي الليث ٢/٢٠٣، والمحرر الوجيز ٣/٣٣١.

(٢) زاد المسير ٤/٣٥٣.

(٣) في (د) و(م) والنكت والعيون (والكلام منه): كرهته.

(٤) الزهد لابن المبارك - زوائد نعيم بن حماد - (٣١٤)، وسنن الترمذي (٢٥٨٣)، وأخرجه من طريق ابن المبارك أيضاً أحمد (٢٢٢٨٥)، والنسائي في الكبرى (١١٢٦٣) وغيرهما، ونقل الترمذي بإثر الحديث عن البخاري قوله: لا نعرف عبيد الله بن بُسر إلا في هذا الحديث.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٤/٣٥٣.

(٦) تهذيب اللغة ١/٣٦١.

(٧) ينظر الوسيط للواحدي ٣/٢٧.

فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال: ﴿يُضْهِرُّ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠]. فهذا يدل على الإساعة. وقال ابن عباس: يُجيزه ولا يمرُّ به^(١).

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال ابن عباس: أي: يأتيه أسباب الموت من كل جهة: عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحتة، ومن قدامه وخلفه^(٢)، كقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال إبراهيم التيمي: يأتيه من كل مكان من جسده، حتى من أطراف شعره^(٣)؛ للآلام التي في كل مكان من جسده^(٤). وقال الضحاك: إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان، حتى من إبهام رجله. وقال الأخفش: يعني البلايا التي تصيب الكافر في النار سمّاها موتاً، وهي من أعظم الموت^(٥). وقيل: إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وُكِّلَ به نوع من العذاب؛ لو مات سبعين مرة لكان أهونَ عليه من نوعٍ منها في فردٍ لحظة؛ إما حيةً تنهشه، أو عقربٌ تلسيه^(٦)، أو نارٌ تسفغه، أو قيدٌ برجله، أو غُلٌّ في عنقه، أو سلسلةٌ يُقرَنُ بها، أو تابوتٌ يكون فيه، أو زَقُومٌ، أو حميمٌ، أو غيرُ ذلك من العذاب. وقال محمد بن كعب: إذا دعا الكافر في جهنم بالشراب فرآه، مات موتاتٍ، فإذا دنا منه؛ مات موتاتٍ، فإذا شرب منه؛ مات موتاتٍ، فذلك قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. قال الضحاك: لا يموت فيستريح. وقال ابن جريج: تعلق رُوحه في حنجرتِه فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجعُ إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة^(٧).

(١) تفسير البغوي ٢٩/٣.

(٢) النكت والعيون ١٢٨/٣، وتفسير البغوي ٢٩/٣، وزاد المسير ٣٥٤/٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٤٣٢/١٣، والطبري ٦٢١/١٣، وأبو نعيم في الحلية ٢١٢/٤.

(٤) النكت والعيون ١٢٨/٣.

(٥) زاد المسير ٣٥٤/٤.

(٦) في (ظ): «تلسه»، وكلاهما بمعنى.

(٧) كذا نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٣٥٣/٤ لابن جريج، وأخرجه الطبري ٦٢١/١٣ عن ابن جريج،

ونظيره قوله: ﴿لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَخَيُّ﴾ [الأعلى: ١٣]. وقيل: يخلق الله في جسده آلاماً، كل واحد منها كآلم الموت. وقيل: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾؛ لتطاول شدائد الموت به، وامتداد سكراته عليه؛ ليكون ذلك زيادةً في عذابه.

قلت: ويظهر من هذا أنه يموت، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَمِوْتُهُمْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، وبذلك وردت السنة^(١)؛ فأحوال الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائماً، والله أعلم.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ أي: من أمامه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: شديد متواصل الآلام من غير فتور؛ ومنه قوله: ﴿وَلِيَجْذِبُوا فِيكُمْ غَلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] أي: شدة وقوة. وقال فضيل بن عياض في قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: حبس الأنفاس^(٢).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝ تَرَىٰ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النحويون في رفع «مثل» فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء، والخبر مضمرة؛ التقدير: وفيما يُتلى عليكم أو يُقَصُّ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، ثم ابتداء فقال: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ أي: كمثل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾^(٣). وقال الزجاج^(٤): أي: مثل الذين كفروا فيما يُتلى عليكم أعمالهم كرماد. وهو عند الفراء على إلغاء المثل، التقدير: والذين كفروا بربههم

(١) سلف من حديث أبي سعيد الخدري ٣٧٥/١.

(٢) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٥٢٣/٣.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣٦٦/٢، ومشكل إعراب القرآن ٤٠١/١، والمحرم الوجيز ٣٣١/٣، وزاد المسير ٣٥٥/٤.

(٤) في معاني القرآن ١٥٧/٣.

أعمالهم كرماد. وعنه أيضاً أنه على حذف مضاف؛ التقدير: مثلُ أعمالِ الذين كفروا بربهم كرماد. وذكر الأول عنه المهدوي^(١)، والثاني القشيريُّ والثعلبيُّ^(٢). ويجوز أن يكون مبتدأ، كما يقال: صفةُ فلانٍ أسمر، فـ «مَثْلُ» بمعنى صفة^(٣). ويجوز في الكلام جرُّ «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الَّذِينَ»^(٤)، واتَّصل هذا بقوله: ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

والمعنى: أعمالُهم مُخَبَّطَةٌ غير مقبولة. والرماد: ما بقي بعد احتراق الشيء، فضرَبَ الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أَنَّهُ يَمْحَقُهَا كما تَمْحَقُ الرِّيحُ الشَّيْءَ الرَّمَادَ في يومٍ عاصف. والعَصْفُ: شدة الريح^(٥)، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غيرَ الله تعالى. وفي وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثة أقاويل: أحدها: أَنَّ العُصُوفَ وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصَفُ به؛ لأنَّ الرِّيحَ تكون فيه، فجاز أن يُقال: يومٌ عاصف، كما يقال: يومٌ حارٌّ ويومٌ باردٌ، والبرد والحرُّ فيهما. والثاني: أن يُريدَ: في يومٍ عاصِفِ الرِّيحِ؛ لأنها ذُكِرت في أول الكلام^(٦)، كما قال الشاعر:

إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمْسِ كاسِفٌ^(٧)

يريد: كاسِفِ الشَّمْسِ، فحذف؛ لأنه قد مرَّ ذِكْرُهُ؛ ذكرهما الهرويُّ^(٨). والثالث أنه من نعت الريح، غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه، كما قيل: جُحِرَ ضَبٌّ خَرِبَ. ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ^(٩).

(١) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٣١.

(٢) وهو في معاني القرآن للفراء ٢/٧٢، ونقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/٢٧.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/١٥٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٣٦٦، وتفسير أبي الليث ٢/٢٠٣.

(٤) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/٤٠٢.

(٥) الصراح (عصف).

(٦) في النسخ: الكلمة، والمثبت من زاد المسير ٤/٣٥٤، والكلام فيه بنحوه.

(٧) عجز بيت لمسكين الدارمي، وهو في ديوانه ص ٥٣، وصدده: وتضحك عرفان الدروع جلودنا.

(٨) وذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير ٤/٣٥٤.

(٩) في النكت والعيون ٣/١٢٩، وينظر تفسير الطبري ١٣/٦٢٤، قال النحاس في إعراب القرآن ٢/٣٦٧: =

وقرأ ابنُ أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بكر: «في يومٍ عاصفٍ»^(١). ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعني: الكفار. ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يريد: في الآخرة، أي: من ثواب ما عملوا من البرِّ في الدنيا؛ لإحباطه بالكفر. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: الخسران الكبير، وإنما جعله كبيراً بعيداً؛ لفوات استدراكه بالموت.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا: رؤية القلب^(٢)؛ لأن المعنى: ألم ينته علمك إليه؟. وقرأ حمزة والكسائي^(٣): «خالقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». ومعنى «بِالْحَقِّ»: ليستدلَّ بها على قدرته. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس، أي: هو قادرٌ على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء، فلا تعصوه، فإنكم إن عصيتموه ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضل وأطوع منكم؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبدال. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بمتنع^(٤) متعذر.

قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا﴾ أي: برزوا من قبورهم، يعني يوم القيامة.

= هذا مما لا ينبغي أن يُحمل كتابُ الله جلَّ وعزَّ عليه، وقد ذكر سيبويه أن هذا من العرب غلط، واستدلَّ بأنهم إذا ثَنَوْا قالوا: هذان جحرا ضبَّ خربان لأنه قد استبان بالثنية والتوحيد.

(١) بإضافة «يوم» إلى «عاصف». وينظر المحتسب ١/ ٣٦٠، والمحزر الوجيز ٣/ ٣٣٢.

(٢) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣٩.

(٣) السبعة ص ٣٦٢، والتيسير ص ١٣٤.

(٤) في غير (ظ): منيع، وفي (ظ): ممتنع، والمثبت من زاد المسير ٤/ ٣٥٥.

والبُرُوز: الظُّهور. والبرَّاز: المكان الواسع؛ لظهوره، ومنه امرأة بَرَزَة، أي: تظهر للناس^(١). فمعنى «بَرَزُوا»: ظهوروا من قبورهم. وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال^(٢)، واتَّصل هذا بقوله: ﴿وَحَبَّ كُفَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: وقاربوا لما استفتحوا فأهلكوا، ثم بُعِثوا للحساب، فبرزوا لله جميعاً لا يسترهم عنه ساتر. «لِلَّهِ» لأجل أمر الله إياهم بالبروز. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ يعني الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ يجوز أن يكون تَبَعٌ مصدرًا، التقدير: ذوي تَبَعٍ. ويجوز أن يكون جمعٌ تابع، مثل: حارس وحرس، وخادم وخدم، وراصد ورصد، وباقر وبقر^(٣). ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْجُونَ﴾ أي: دافعون ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ مَثَلٍ﴾ أي: شيئاً، و«مِنْ» صلة؛ يُقال: أغنى عنه: إذا دفع عنه الأذى، وأغنائه: إذا أوصل إليه النفع. ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ أي: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه. وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها. وقيل: لو نَجَّانا الله من العذاب لنجيناكم منه^(٤).

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ هذا ابتداء؛ خبره: «أَجْزَعْنَا» أي: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي: من مهرب وملجأ^(٥). ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، وبمعنى الاسم؛ يقال: خاص فلانٌ عن كذا - أي: فرَّ وراغ - يحيص حيصاً وحُيوصاً وحَيَصَاناً^(٦)، والمعنى: ما لنا وجهٌ نتباعدُ به عن النار.

(١) ينظر اللسان (برز).

(٢) زاد المسير ٣٥٦/٤.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١٥٨/٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣٦٨/٢، وتفسير الطبري ٦٢٦/٣، والوسيط ٢٨/٣، وتفسير البغوي ٣٠/٣، والمحرر الوجيز ٣٣٢/٣.

(٤) النكت والعيون ١٢٩/٣ - ١٣٠.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ينظر اللسان (حيص).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول أهل النار إذا اشتد بهم العذاب: تعالوا نصبر، فيصبرون خمس مئة عام، فلمّا رأوا أنّ ذلك لا ينفعهم قالوا: هلّم فلنجزع، فيجزعون ويصيحون خمس مئة عام، فلمّا رأوا أنّ ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيزٍ﴾»^(١).

وقال محمد بن كعب القرظي: ذُكر لنا أنّ أهل النار يقول بعضهم لبعض: يا هؤلاء، قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون، فهلّم فلنصبر؛ فلعلّ الصبر ينفعنا كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله، فنفعهم الصبر إذ صبروا فأجمعوا رأيهم على الصبر، فصبروا، فطال صبرهم، فجزعوا، فنادوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيزٍ﴾ أي: منجى، فقام إبليس عند ذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ يقول: لست بمغنٍ عنكم شيئاً ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ إلى كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ الحديث بطوله، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة» بكماله^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نارٍ يسمعه الخلائق جميعاً^(٣). ومعنى: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: حصل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار^(٤)، على ما يأتي بيانه في «مريم» عليها السلام^(٥). ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ﴾ يعني: البعث والجنة والنار، وثواب المطيع وعقاب العاصي، فصدقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا نار،

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠.

(٢) التذكرة ص ٤١٨، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٦٢٧.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٣٠، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٣١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٣، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٢٨.

(٥) عند تفسير الآية (٣٤) منها.

ولا ثواب ولا عقاب، فأخلفتكم^(١).

وروى ابن المبارك من حديث عُقْبَةَ بْنِ عامر، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فيقول عيسى: أدلكم على النبي الأمي، فيأتوني، فيأذن الله لي أن أقوم، فيثور مجلسي من أطيب ريح شَمَّها أحد، حتى آتي ربي فيشفعني، ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: ما هو غير إبليس، هو الذي أضلنا، فيأتونه فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فاشفع لنا فإنك أضللتنا، فيثور مجلسه من أتن ريح شَمَّها أحد، ثم يعظم نحيبهم، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية^(٢).

«وَعَدَ الْحَقِّ»: هو إضافة الشيء إلى نفسه^(٣)، كقولهم: مسجد الجامع. قاله الفراء^(٤). وقال البصريون: وعدكم وعد اليوم الحق، أو: وعدكم وعد الوعد الحق فصدقكم، فحذف المصدر لدلالة الحال. ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حُجَّة وبيان، أي: ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزينته لكم في الدنيا، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: أغويتكم فتابعتموني. وقيل: لم أقهركم على ما دعوتكم إليه. ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ هو استثناء منقطع، أي: لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لي باختباركم ﴿فَلَا تُلْؤِمُونِي وَلُؤِمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٥). وقيل: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾

(١) النكت والعيون ١٣٠/٣، وينظر تفسير أبي الليث ٢٠٤/٢، والوسيط ٢٩/٣.

(٢) «المسند» (١١١) لابن المبارك، وفي «الزهد» (٣٧٤) له - زوائد نعيم بن حماد - وأخرجه من طريقه الطبري ١٣/٦٣٠ - ٦٣١، وفي إسناده رشدين بن سعد وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، وهما ضعيفان. تقريب التهذيب.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: «إلى نعته».

(٤) ينظر اللسان (جمع).

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/٦٢٨، وتفسير أبي الليث ٢٠٤/٢ - ٢٠٥، والوسيط ٢٩/٣، وزاد المسير

أي: على قلوبكم وموضع إيمانكم، لكن دعوتكم فاستجبتم لي. وهذا على أنه خَطَبَ العاصيَ المؤمنَ والكافرَ الجاحدَ، وفيه نظر؛ لقوله: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فإنه يدلُّ على أنه خَطَبَ الكفارَ دون العاصين الموحِّدين، والله أعلم.

﴿فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ مَوْأَ أَنفُسِكُمْ﴾: إذ أجبتُموني^(١) من غير حُجَّة. ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم. ﴿وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثي. والصَّارِخُ والمستصرخ: هو الذي يطلب النُصرةَ والمعاونة، والمُصْرِخُ: هو المغيث^(٢). قال سلامة بن جندل: كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَرِغَ كَانَ الصَّارِخُ لَهُ قَرْعَ الظَّنَابِيْبِ^(٣) وقال أمية بن أبي الصَّلت: ولا تَجْزَعُوا إِنِّي لَكُمْ غَيْرُ مُصْرِخٍ وليس لكم عندي غَنَاءٌ ولا نَصْرٌ^(٤)

يقال: صَرَخَ فلانٌ، أي: استغاث، يَصْرِخُ صَرَخاً وصُراخاً وصرخة^(٥). واصطَرَّخَ بمعنى صَرَخَ. والتَّصَرَّخُ: تَكَلَّفَ الصُّراخَ، والمُصْرِخُ: المُغِيثُ، والمستصرخ: المستغيث؛ تقول منه: استصرخني فأصرخته. والصَّريخ: صوت المستصرخ. والصَّريخُ أيضاً: الصارخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد. قاله الجوهري^(٦). وقراءة العامة: «بِمُصْرِخِيٍّ» بفتح الياء^(٧). وقرأ الأعمش وحمزة:

(١) في (م): إذا جتتموني، وهو تصحيف.

(٢) تهذيب اللغة ١٣٦/٧.

(٣) ديوان سلامة ص ١٢٥، والمفضليات ص ١٢٤، والظنابيب جمع ظنوب: وهو حرف الساق اليابس من قُدُم، وقرع لذلك الأمر ظنوبه: نهياً له. اللسان (ظنب).

(٤) ذكره في النكت والعيون ١٣١/٣، ولم نقف عليه في ديوان أمية.

(٥) في معاجم اللغة: صرخ يصرخ صُراخاً وصَريخاً، ولم نقف على المصادر الأخرى التي ذكرها المصنف.

(٦) في الصحاح (صرخ).

(٧) السبعة ص ٣٦٢، والتيسير ص ١٣٤.

«بِمُصْرَخِيٍّ» بكسر الياء^(١). والأصل فيها: بمصرخيني^(٢)، فذهبت النون للإضافة، وأدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة، فمن نصب فلأجل التضعيف، ولأنَّ ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعيَّن فيها الفتح، مثل: هَوَايَ وَعَصَايَ، فإن تحرَّك ما قبلها جازَ الفتح والإسكان، مثل: غَلَامِيَّ وَغَلَامَتِي، ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة^(٣). وقال الفراء^(٤): قراءة حمزة وَهَمَّ منه، وَقَلَّ مَنْ سَلِمَ منهم عن خطأ. وقال الزجاج^(٥): هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجهٌ ضعيف. وقال قُطْرُب: هذه لغة بني يَرْبُوع، يزيدون على ياء الإضافة ياء^(٦). الْقُشَيْرِيُّ: والذي يُغني عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبي ﷺ فلا يجوز أن يُقال فيه هو خطأ أو قبيحٌ أو رديءٌ، بل هو في القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعلَّ هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: كفرْتُ بإشراككم إِيَّايَ مع الله تعالى في الطاعة؛ ف «ما» بمعنى المصدر^(٧). وقال ابنُ جريج: إني كفرْتُ اليوم بما كنتم تدعون في الدنيا من الشُّرك بالله تعالى. قتادة: إني عصيْتُ الله. الثوريُّ: كفرْتُ بطاعتكم إياي في الدنيا. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي هذه الآيات ردُّ على القَدَرِيَّة والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم، انظر إلى قول المتبوعين: «لو هدانا الله لَهَدَيْنَاكُمْ» وقول إبليس: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ»؛ كيف اعترفوا بالحق في صفات الله تعالى وهم في دَرَكَات النار، كما قال في

(١) قراءة حمزة من السبعة، أما قراءة الأعمش فقد نقلها عنه الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٥٩، والنحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٨، ومكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٣.

(٢) في (م): بمصرخين، وهو تحريف وفي (ظ): بمصرخيني.

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٣، والوسيط ٣/ ٢٩.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٧٥ بمعناه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٥٩.

(٦) نقله عنه مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٧.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٤.

موضع آخر: ﴿كُلَّمَا أُنْفِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَلَّمْتُ خَزَنَتَهَا﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [الملك: ٨-١١]. واعتترفهم في ذَرَكَاتٍ لظي بالحق ليس بنافع، وإنما ينفع الاعترافُ صاحبه في الدنيا؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]. و«عسى» من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ أي: في جنَّاتٍ؛ لأن «دخلت» لا يتعدى، كما لا يتعدى نقيضه، وهو خرجت، ولا يُقاس عليه. قاله المهدوي^(١). ولَمَّا أخبر تعالى بحال أهل النار؛ أخبر بحال أهل الجنة أيضاً. وقراءة الجماعة: «أُدْخِلَ» على أنه فَعْلٌ مبني للمفعول. وقرأ الحسن: «وَأُدْخِلُ» على الاستقبال والاستئناف^(٢).

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره. وقيل: بمشيئته وتيسيره. وقال: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» ولم يقل: بإذني؛ تعظيماً وتفخيماً. ﴿يُحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ تقدم في «يونس»^(٣). والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ لَمَّا ذكر تعالى مثل أعمال

(١) قال مكي في مشكل إعراب القرآن ٤٠٥/١: الدليل على أن دخلت لا يتعدى، أن نقيضه لا يتعدى، وهو: خرجت، وكل فعل لا يتعدى نقيضه لا يتعدى هو.

(٢) المحتسب ٣٦١/١.

(٣) ٤٥٩/١٠.

الكفار، وأنها كرمادٍ اشتدَّت به الريح في يومٍ عاصف؛ ذكرَ مثْلَ أقوالِ المؤمنين وغيرها، ثم فسَّرَ ذلك المَثْلَ فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثَّمَرُ، فحذف؛ لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة: المؤمن^(١). وقال مجاهد وابنُ جريج: الكلمة الطيبة: الإيمان^(٢). عطية العوفي والربيع بن أنس: هي المؤمن نفسه^(٣). وقال مجاهد أيضاً وعكرمة: الشَّجرة: النَّخلة^(٤). فيجوز أن يكون المعنى: أصل الكلمة في قلب المؤمن - وهو الإيمان - شبهه بالنخلة في المَنبِت، وشبهه ارتفاع عملِه في السماء بارتفاع فروع النَّخلة، وثواب الله له بالثَّمَر^(٥). وروى من حديث أنسٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ مَثَلَ الإيمانِ كمَثَلِ شجرةٍ ثابتةٍ، الإيمانُ عُرْوُفُهَا، والصلاةُ أصلُهَا، والزكاةُ فروعُهَا، والصيامُ أغصانُهَا، والتَّأخِّي^(٦) في الله نباتُهَا، وحُسْنُ الخُلُقِ ورقُهَا، والكفُّ عن محارمِ الله ثمرُهَا»^(٧). ويجوز أن يكون المعنى: أصل النَّخلة ثابتٌ في الأرض، أي: عروِفُهَا تشرب من الأرض، وتسقيها السماء من فوقها، فهي زاكِيةٌ ناميةٌ.

وخرَّجَ الترمذيُّ من حديث أنس بن مالك قال: أَتَيْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقِنَاجٍ فِيهِ

(١) أخرجه الطبري ١٣/٦٣٥، والطبراني في الدعاء (١٥٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات ١/٢٧٢ - ٢٧٣ (٢٠٦).

(٢) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٣/١٣٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/٦٣٦ عنهما، وذكره الماوردي ٣/١٣٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/٦٣٩، والرامهرمزي في الأمثال ص ١٠٩ عن مجاهد، والطبري ١٣/٦٤١، والرامهرمزي ص ١٠٩ عن عكرمة.

(٥) ينظر الوسيط للواحيدي ٣/٣٠.

(٦) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في «تنزيه الشريعة»، وفي بقية النسخ: «التأذي».

(٧) أورده ابن عراق في «تنزيه الشريعة» ٢/٢٣٣ - ٢٣٤ وعزاه للحاكم، وذكر بأنه من مرسل حميد الطويل عن أنس، ثم قال: لم يُبَيَّن - يعني الحاكم - علته مع إرساله، وهو من طريق محمد السلمي النيسابوري، وأظنه ابن أشرس، وهو متروك متهم، وشيخه حمزة بن شداد الجزري ما عرفته، والله أعلم.

رُطِبَ، فقال: «مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا». قال: «هي: النخلة، ومَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ». قال: «هي الحنظل». وروى عن أنس قوله، وهو أصح^(١). وخرَجَ الدَّارِقُطْنِيُّ عن ابن عمر قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هي؟» فوقَعَ في نفسي أنها النخلة^(٢).

قال السُّهَيْلِيُّ^(٣): ولا يصحُّ فيها ما رُوِيَ عن عليِّ بن أبي طالب أنها جَوْزَةُ الهند؛ لِمَا صَحَّ عن النبي ﷺ من حديث ابن عمر: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرَةِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرْقُهَا، وَهِيَ مَثَلُ الْمُؤْمِنِ، خَبِرُونِي مَا هِيَ؟» ثم قال: «هي النخلة». خرَّجَه مالك في «الموطأ» من رواية ابن القاسم وغيره، إلَّا يحيى؛ فإنه أسقطه من روايته، وخرَّجَه أهل الصحيح^(٤)، وزاد فيه الحارث بن أسامة^(٥) زيادةً تساوي رحلة، عن النبي ﷺ قال: «وهي النخلة، لا تسقط لها أنملة، وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة». فبيِّن معنى الحديث والمماثلة.

قلت: وذكر الغَزَنَوِيُّ عنه عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالنَّخْلَةِ، إِنْ صَاحَبَتْهُ نَفْعَكَ، وَإِنْ جَالَسَتْهُ^(٦) نَفَعَكَ، وَإِنْ شَاوَرْتَهُ نَفَعَكَ، كَالنَّخْلَةِ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا

(١) سنن الترمذي (٣١١٩)، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١١٩٨)، وأبو يعلى (٤١٦٥)، والطبري (٦٣٨/١٣)، وابن حبان (٤٧٥) مرفوعاً. والقناع: الطبق الذي يؤكل عليه. النهاية (قنع). ثم أخرجه الترمذي بإثر الحديث (٣١١٩)، والطبري (٦٣٨/١٣) موقوفاً.

(٢) لم نقف على من خرَّجَه بهذا اللفظ من حديث ابن عمر.

(٣) في التعريف والإعلام ص ٨٥.

(٤) الموطأ ص ٣٣٩، رواية محمد بن الحسن الشيباني، وأخرجه أحمد (٥٢٧٤)، والبخاري (١٣١)، والترمذي (٢٨٦٧) من طريق مالك. وأخرجه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١) من غير طريق مالك.

(٥) كما في بغية الباحث (١٠٦٧)، وفي إسناده محمد بن ربيع، ولم نقف له على ترجمة.

(٦) في (ظ): جافيته.

يُتَنَفَّعُ بِهِ»^(١). وقال: «كُلُوا مِنْ عَمَّتِكُمْ - يعني النخلة - خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ طِينَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٢).

وكذلك أنها برأسها تَبْقَى، وبقلبها تَحْيَا، وثمرها بامتزاج الذكر والأنثى. وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبِّهَتْ بِهِ؛ وذلك أَنَّ كُلَّ شَجَرَةٍ إِذَا قُطِعَ رَأْسُهَا تَشَعَّبَتِ الْغُصُونُ مِنْ جَوَانِبِهَا، والنخلة إِذَا قُطِعَ رَأْسُهَا يَبْسُتْ وَذَهَبَتْ أَصْلًا، ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتقاح؛ لأنها لا تحمل حتى تُلْفَحَ^(٣)؛ قال النبي ﷺ: «خَيْرُ الْمَالِ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ، وَمُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ»^(٤). والإِبَارُ: اللَّقَاحُ^(٥)، وسيأتي في سورة «الحجر»^(٦) بيانه.

ولأنها من فضلة طينة آدم. ويُقال: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا صَوَّرَ آدَمَ مِنَ الطِّينِ فَضَلَّتْ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥٤١)، والرامهرمزي في الأمثال (٣٠) عن ابن عمر مرفوعاً، وفي لفظ الطبراني: «كمثل العطار» وفي لفظ الرامهرمزي: «مثل النخلة أو النحلة» على الشك، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨٣/١: فيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس.

لكن رواه الرامهرمزي (٣١) بإسناد آخر عنه ورجاله ثقات، بلفظ: «كمثل الشجرة...» وأخرجه الطبراني (١٣٥١٤) بإسناد ثالث عنه أيضاً صححه ابن حجر في الفتح ١٤٧/١، ولفظه: «مثل المؤمن مثل النخلة ما أتاك منها نفعتك».

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٥٥)، والعقيلي في الضعفاء ٢٥٦/٤، وابن حبان في المجروحين ٤٤/٣، والرامهرمزي (٣٥)، وابن عدي ٢٤٢٤/٦ من طريق مسرور بن سعيد، عن الأوزاعي، عن عروة بن رويم، عن علي مرفوعاً، وعند الجميع: «أكرموا عمتكم» بدلاً من «كلوا من». قال ابن حبان: مسرور ابن سويد يروي عن الأوزاعي المناكير التي لا يجوز الاحتجاج بها. وقال ابن عدي: هذا حديث عن الأوزاعي منكرو، وعروة بن رويم عن علي ليس بالمتصل، ومسرور بن سعيد غير معروف، لم أسمع بذكره إلا بهذا الحديث. وأخرجه ابن عدي أيضاً ٥٧٨/٢ عن ابن عمر مرفوعاً، وفي إسناده جعفر بن أحمد بن علي. قال ابن عدي (وقد أخرج له حديثاً آخر بعده): لا أشك أن جعفرأ وضعهما.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣٣/٣، وزاد المسير ٣٦٠/٤.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٨٤٥) من حديث سويد بن هبيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو حديث ضعيف.

(٥) والسَّكَّةُ: الطريقة المصطفة من النخل. ومُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ: كثيرة النسل والثَّابِتُ. النهاية (أبر) و(أمر).

(٦) عند تفسير الآية (٢٢) منها.

قطعة طين، فصوّرها بيده، وغرسها في جنة عدن. قال النبي ﷺ: «أكرموا عمّتكم» قالوا: ومن عمّتنا يا رسول الله؟ قال: «النخلة»^(١).

﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قال الربيع: «كُلَّ حِينٍ»: غُدوة وعشية، كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره. وقاله ابن عباس^(٢). وعنه: «تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ» قال: هو شجر جوز الهند، لا تتعطّل من ثمرة، تحمل في كل شهر. شبّه عمل المؤمن لله عزّ وجلّ في كلّ وقتٍ بالنخلة التي تُؤْتِي أَكْلَهَا في أوقاتٍ مختلفة. وقال الضحّاك: كلّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ، شتاءً وصيفاً، يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها^(٣). وقال النحاس^(٤): وهذه الأقوال متقاربةٌ غيرُ متناقضة؛ لأنّ الحين عند جميع أهل اللغة - إلا من شدّد منهم - بمعنى الوقت، يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأصمعيّ بيتَ النَّابغة:

تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّهَا تُطَلِّقُهُ حِيناً وَحِيناً تُرَاجِعُ^(٥)

فهذا يُبَيِّنُ لك أنّ الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابتٌ في قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفعٌ في السماء ارتفاعَ فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلّها، من الرطب والبُسْر والبلح والرّهُو والتّمر والطلح^(٦). وفي روايةٍ عن ابن عباس: إن الشجرة الطيبة^(٧) شجرةٌ في الجنة تُثْمِرُ في كل وقت.

(١) ذكره البغوي ٣/ ٣٣ بهذا اللفظ، وقد تقدم آنفاً بغير هذا اللفظ، وذكرنا علته ثمة.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٥ و ٦٥١ عن الربيع، و ١٣/ ٦٤٣ و ٦٤٤ عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٥ بنحوه.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٥٢٨ - ٥٢٩.

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص ٨٠، وفيه: طوراً وطوراً، بدل: حيناً وحيناً.

(٦) ينظر الوسيط للواحد ٣/ ٣٠.

(٧) كلمة الطيبة ليست في (م).

و«مَثَلًا» مفعول بـ «ضَرَبَ»، و«كَلِمَةً» بدلٌ منه، والكاف في قوله: «كشجرة» في موضع نصبٍ على الحال من «كَلِمَةً»؛ التقدير: كلمة طيبةً مشبَّهةً بشجرة طيبة^(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿تَوَقَّ أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ لَمَّا كَانَتِ الْأَشْجَارُ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، كان في ذلك بيانٌ لحكم الحين؛ ولهذا قلنا: من حلف ألا يكلم فلاناً حيناً، ولا يقول كذا حيناً: إنَّ الحين سنة^(٢). وقد ورد الحينُ في موضعٍ آخر يُرادُ به أكثر من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١] قيل في «التفسير»: أربعون عاماً. وحكى عكرمة أن رجلاً قال: إن فعلتُ كذا وكذا إلى حينٍ فغلامه حُرٌّ، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله، فسألني عنها، فقلت: إنَّ من الحين حيناً لا يدركُ، قوله تعالى: ﴿وَإِن أَدْرَى لَعَلَّهُمْ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَنَعَ إِلَيْنِ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١] فأرى أن تُمسِكَ ما بين صِرام النَّخْلَةِ إلى حَمَلِهَا، فكأنه أعجبه^(٣). وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر اتباعاً لعكرمة وغيره^(٤). وقد مضى ما للعلماء في الحين في «البقرة»^(٥) مستوفى والحمد لله.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: الأشباه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويعتبرون؛ وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيِّثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيِّثَةٍ﴾ الكلمة الخبيثة: كلمة الكفر^(٦).

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٥، وذكر أبو حيان في البحر ٥/ ٤٢١، أنه على هذا الوجه يكون قوله: «كشجرة» نعتاً للكلمة.

(٢) سلف ١/ ٤٧٩، وقد عزا المؤلف هناك إلى ابن خوزيمنداد في أحكامه.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٦٤٩ - ٦٥٠، ولكن ذكر فيه الآية الأتفة الذكر من سورة الإنسان بدلاً من آية الأنبياء. وسيرد بسياق آخر عند تفسير الآية الأخيرة من سور ص.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٠٨.

(٥) ٤٧٧/ ١ - ٤٨٠.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٦، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٠.

وقيل: الكافر نفسه^(١). والشجرة الخبيثة: شجرة الحَنْظَل كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما^(٢)، وعن ابن عباس أيضاً: أنها شجرة لم تُخْلَقْ على الأرض^(٣). وقيل: هي شجرة الثُّوم عن ابن عباس أيضاً^(٤). وقيل: الكَمَاة أو الطُّحَلْبَة. وقيل: الكَشُوث^(٥)، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر:

وَهُمْ كَشُوثٌ فَلَا أَصْلَ وَلَا وَرْقَ^(٦)

﴿أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾: أَقْتَلَعَتْ مِنْ أَصْلِهَا. قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط: هو الجلاء الذي يَجْتَثُّ أَصْلَكُمْ فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَا^(٧) وقال المؤرِّج: أَخَذْتُ جُثَّتَهَا وهي نَفْسُهَا، والجُثَّة: شَخْصُ الْإِنْسَانِ قَاعِداً أو نائماً^(٨). وَجَّتْهُ: قَلَعَهُ، واجتثته: اقتلعه من فوق الأرض^(٩)، أي: ليس لها أصلٌ راسخٌ يشرب بعروقه من الأرض. ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: من أصلٍ في الأرض. وقيل: من ثبات؛ فكَذَلِكَ الْكَافِرُ؛ لَا حُجَّةَ لَهُ وَلَا ثَبَاتَ وَلَا خَيْرَ فِيهِ، وما يصعدُ له قولٌ طَيِّبٌ ولا عملٌ صالح^(١٠).

(١) أخرجه الطبري ١٣/٦٥٨ - ٦٥٩ عن ابن عباس والربيع وعطية العوفي.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٦٥٣ - ٦٥٤، والرامهرمزي في الأمثال ص ١٠٩ عن مجاهد، وسلف حديث أنس في المسألة الأولى في الآية قبلها.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/٦٥٤.

(٤) الوسيط للواحدى ٣/٣٠، وتفسير البغوي ٣/٣٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/٣٦١.

(٥) النكت والعيون ٣/١٣٤، والوسيط ٣/٣٠، وتفسير البغوي ٣/٣٣، وزاد المسير ٤/٣٦٠.

(٦) صدر بيت، وعجزه: وَلَا نَسِيمٌ وَلَا ظِلٌّ وَلَا ثَمَرٌ. وذكره الميداني في مجمع الأمثال ١/٢٨٤، والصفدي في تصحيح التصحيح ص ١٢٣. والجوهري في الصحاح (كشث). وقال فيه الكشوث: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض.

(٧) النكت والعيون ٣/١٣٥ - ١٣٦، والبيت في ديوان لقيط بن يعمر ص ٨٦ وفيه: «رأياً» بدل «يوماً».

(٨) المثبت من (ظ) والصحاح، وفي بقية النسخ: قائماً.

(٩) ينظر الصحاح (جثث).

(١٠) تفسير البغوي ٣/٣٣، وينظر النكت والعيون ٣/١٣٥، وزاد المسير ٤/٣٦١.

وروى معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس^(١) في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن؛ «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ» قال: الشرك، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قال: المشرك، ﴿أَجْتُنْتِ مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: ليس للمشرك أصل يعمل عليه^(٢).

وقيل: يرجع المثل إلى الدعاء إلى الإيمان، والدعاء إلى الشرك؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشيء.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ قال ابن عباس: هو لا إله إلا الله.

وروى النسائي عن البراء قال^(٣): ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر. يقال: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: ربِّي الله، وديني دين محمد ﷺ، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٤).

قلت: وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء^(٥) قوله^(٦):

(١) قوله: «عن ابن عباس» من (ظ) وتفسير الطبري، وليس في باقي النسخ.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٦٣٥ و ٦٥٦ - ٦٥٧ .

(٣) كلمة «قال» مكررة في (ف) و(م).

(٤) أخرجه إلى قوله: نزلت في عذاب القبر، موقوفاً النسائي في المجتبى ٤/١٠١ ، وفي السنن الكبرى (١١٢٠٢) . وأخرجه بتمامه موقوفاً ابن أبي شيبة ٣/٣٧٧ ، والطبري ١٣/٦٥٨ ، والأجري في الشريعة ص ٣٧١ من طريق آخر عن البراء.

(٥) بعدها في (م): «أنه».

(٦) صحيح مسلم (٢٨٧١): (٧٤) بمثل رواية النسائي.

والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم، عن البراء، عن النبي ﷺ^(١). وذكر البخاري^(٢): حدثنا حفص بن عمر، قال: حدثنا شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ آتٍ، ثُمَّ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾». وقد بيَّنَّا هذا الباب في كتاب «التذكرة»^(٣)، وبينَّا هناك من يُفْتَنُ في قبره ويُسأل، فمن أراد الوقوف عليه تأمله هناك.

قال سهل بن عمار: رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: أتاني في قبري مَلَكَانِ فَظَانِ غُلِيظَانِ، فقالا: ما دِينُكَ؟ ومن رَبِّكَ؟ ومن نَبِيِّكَ؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاء وقلت: أَلِمِثْلِي يُقَالُ هَذَا وَقَدْ عَلِمْتُ النَّاسَ جَوَابَكُمْ ثَمَانِينَ سَنَةً! فذهبا وقالا: أَكْتَبْتَ عَنْ حَرِيزِ بْنِ عَثْمَانَ؟ قلتُ: نعم. فقالا: إِنَّهُ كَانَ يَبْغِضُ عَلِيًّا^(٤) فَأَبْغَضَهُ اللَّهُ.

وقيل: معنى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾: يُدِيمُهُمُ اللَّهُ عَلَى الْقَوْلِ الثَّابِتِ، ومنه قول عبد الله ابن رَوَاحَةَ:

يُثَبِّتُ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرَ^(٥)

(١) صحيح مسلم (٢٨٧١): (٧٣)، والمجتبى ٤/ ١٠١ - ١٠٢، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٠٠)، وسنن أبي داود (٤٧٥٠)، وسنن ابن ماجه (٤٢٦٩)، وهو في مسند أحمد (١٨٥٧٥)، وصحيح البخاري بإثر الحديث (١٣٦٩) (ولم يسق لفظه) وسنن الترمذي (٣١٢٠).

(٢) في صحيحه (١٣٦٩)، وتصحف اسم شيخه في النسخ إلى جعفر بن عمر.

(٣) ص ١٢٥.

(٤) وقع في النسخ: عثمان، والمثبت من التذكرة، وشرف أصحاب الحديث ص ١٠٨، وصفة الصفوة ١٨/٣، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٣٦٥، ومن غيرها من كتب التراجم.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٥، والبيت في ديوان عبد الله بن رَوَاحَةَ ص ٤٦، وفي مطبوعه: «ثَبَّتْ» بدل «يُثَبِّتُ» و«نَصَرُوا» بدل «نَصَرَ».

وقيل: يشتهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت. وقال القفال وجماعة: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: في القبر؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يُبعثوا، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: عند الحساب^(١). وحكاها الماوردي عن البراء قال: المراد بالحياة الدنيا: المسألة في القبر، وبالأخرة: المسألة في القيامة^(٢). ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: عن حُجَّتِهِمْ في قبورهم كما ضَلُّوا في الدنيا بكفرهم، فلا يُلقَّنهم كلمة الحق، فإذا سُئِلوا في قبورهم قالوا: لا ندري. فيقولان: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، وعند ذلك يُضْرَبُ بالمقامع على ما ثبت في الأخبار^(٣)، وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة»^(٤). وقيل: يُمهلهم حتى يزدادوا ضلالاً في الدنيا.

﴿وَيَقَعُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من عذاب قوم وإضلال قوم. وقيل: إن سبب نزول هذه الآية ما روي عن النبي ﷺ لَمَّا وَصَفَ مُسْأَلَةَ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وما يكون من جواب الميت، قال عمر: يا رسول الله، أَيْكُونُ مَعِيَ عَقْلِي؟ قال: «نعم» قال: كُفَيْتُ إِذَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ^(٥).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ الْفَرَارَ ۚ﴾ ﴿١٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي: جعلوا بدلَ نعمة الله عليهم الكفر في تكذيبهم محمداً ﷺ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا، والمراد

(١) ونقله أبو الليث في تفسيره ٢٠٦/٢ عن الربيع بن أنس.

(٢) نقله عن الماوردي ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٣٧.

(٣) منها ما أخرجه أحمد (١١٠٠٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وأحمد (١٢٢٧١)، والبخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٤) ص ١١٣ - ١١٥.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (٦٦٠٣) دون ذكر سبب نزول الآية من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

مشركو قريش، وأن الآية نزلت فيهم. عن ابن عباس وعلي وغيرهما^(١). وقيل: نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي ﷺ يوم بدر^(٢). قال أبو الطَّفِيل: سمعت علياً عليه السلام يقول: هُم قريشُ الذين نُحِرُوا يوم بدر^(٣). وقيل: نزلت في الأفجَرَيْن من قريش بني مخزوم وبني أمية، فأما بنو أمية فمُتَّعُوا إلى حين، وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بدر. قاله علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما^(٤). وقول رابع: أنهم مُتَنَصِّرَةُ العرب جَبَلَةُ بن الأَيَّهَم وأصحابه حين لُطِمَ^(٥)، فجعل له عمرُ القصاصَ بمثلها، فلم يرضَ، وأنِفَ، فارتدَّتْ مُتَنَصِّرًا، ولَحِقَ بالروم في جماعةٍ من قومه. عن ابن عباس وقتادة^(٦). ولمَّا صار إلى بلد الروم نَدِمَ فقال:

تَنَصَّرَتِ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارٍ لَطْمَةٍ وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرٌ
تَكَنَّفَنِي مِنْهَا لَجَاجٌ وَنَخْوَةٌ وِبِعْتُ لها العَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوَزِ
فِيَا لَيْتَنِي أَرعى الْمَخَاضَ بِبِلَدَةٍ ولم أنكِرِ الْقَوْلَ الَّذِي قاله عُمَرُ
وقال الحسن: إنها عامةٌ في جميع المشركين^(٧). ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ﴾ أي: أنزلوهم.
قال ابن عباس: هم قادة المشركين يوم بدر^(٨). «أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ» أي: الذين اتبعوهم

(١) أخرجه الطبري ٦٧١/١٣ - ٦٧٢ عن علي عليه السلام.

(٢) أخرجه الطبري ٦٧٢/١٣ عن علي عليه السلام، و ٦٧٣/١٣ عن ابن عباس عليه السلام.

(٣) ذكره بهذا اللفظ البغوي ٣/٣٥، وأخرجه عنه النسائي في الكبرى (١١٢٠٣) والطبري ٦٧١/١٣ بلفظ: هم كفار قريش يوم بدر.

(٤) أخرجه الطبري ٦٦٩/١٣ - ٦٧٠ عن عمر عليه السلام، و ٦٧٠/١٣، والحاكم ٣٥٢/٢ والواحدي في الوسيط ٣/٣١ عن علي عليه السلام، وأورده في زاد المسير ٤/٣٤٤ عن عمر وعلي رضي الله عنهما.

(٥) في (ظ): لطم رجلاً، وهي رواية أخرى في قصته أنه لطم رجلاً وفَرَّ من القصاص، ينظر مختصر تاريخ دمشق ٥/٣٦٨-٣٧٤، والبداية والنهاية ١١/٢٦٣-٢٦٩، ونهاية الأرب للنويري ١٥/٣١١-٣١٥.

(٦) هو في النكت والعيون ٣/١٣٦، عن ابن عباس وحده، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٣٧ مختصراً، وقال: لم يُرد ابن عباس أنها فيه نزلت؛ لأن نزول الآية قبل قصته، وإنما أراد أنها تحصر من فعل جبلة إلى يوم القيامة.

(٧) النكت والعيون ٣/١٣٦، وزاد المسير ٤/٣٤٤.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/٥٣٢، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/١٣٦ لقتادة، وهو أحد الأقوال في شرح قوله: الذين بدلوا نعمة الله كفراً. وأخرجه الطبري ١٣/٦٧٥ و ٦٧٦ وعن أبي مالك وقتادة.

﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ قيل: جهنم. قاله ابن زيد. وقيل: يوم بدر. قاله علي بن أبي طالب ومجاهد. والبوار: الهلاك^(١)؛ ومنه قول الشاعر:

فلم أرَ مثلهم أبطالَ حَرْبٍ غداة الحرب إذ خيفَ البَوَارُ^(٢)

﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾ بَيَّنَّ أَنَّ دار البوار جهنم كما قال ابن زيد، وعلى هذا لا يجوز الوقف على ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾؛ لأنَّ جَهَنَّمَ منصوبةٌ على الترجمة عن «دار البوار»، فلو رفعها رافعٌ بإضمار^(٣)، على معنى: هي جهنم، أو بما عادَ من الضمير في «يَصَلُّونَهَا»؛ لَحَسُنَ الوقف على «دار البوار»^(٤). ﴿وَيُشَكُّ الْقَرَارُ﴾ أي: المستقر.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: أصناماً عبدوها، وقد تقدَّم في «البقرة»^(٥). ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: عن دينه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٦) [الآية: ٩]، ومثله في «لقمان» [الآية: ٦]، و«الزمر» [الآية: ٨]، وَضَمَّهَا الباقون على معنى: لِيُضِلُّوا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِهِ، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضِلُّونَ عن سبيل الله على اللزوم، أي: عاقبتهم إلى الإضلال والضللال، فهذه لام العاقبة^(٧).

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ وعيِّدْ لهم، وهو إشارةٌ إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا؛ إذ هو منقطع. ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مَرَدَّكُمْ ومرجعكم إلى عذاب جهنم.

(١) الصحاح (بور).

(٢) النكت والعيون ١٣٦/٣ - ١٣٧، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٣/٦٧٧ - ٦٧٨.

(٣) في (ظ): بإضمار مبتدأ.

(٤) الإيضاح في الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/٧٤١.

(٥) ٣٤٧/١.

(٦) السبعة ص ٢٦٧، والتيسير ص ١٣٤.

(٧) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٣٨ أنها لام العاقبة على القراءة بفتح الياء، وأنها لام «كي» على القراءة بضمها، وينظر ما سلف في تفسير الآية (٨٨) من «يونس».

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الصَّلَاةَ وَيُفْقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: إنَّ أهل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر، فقلّ لمن آمن وحقق عبوديته أن ﴿يُفْقُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس، أي: قلّ لهم: أقيموا، والأمر معه شرطٌ مُقدّر، تقول: أطع الله يُدخلك الجنة؛ أي: إن أطعته يُدخلك الجنة. هذا قول الفراء^(١). وقال الزجاج^(٢): «يُقيموا» مجزومٌ بمعنى اللام، أي: ليقيموا، فأسقطت اللام؛ لأنَّ الأمر دلّ على الغائب بـ «قل». قال: ويحتملُ أن يُقال: «يُقيموا» جوابُ أمرٍ محذوف؛ أي: قلّ لهم: أقيموا الصلاة يُقيموا الصلاة^(٣).

﴿وَيُفْقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني: الزكاة. عن ابن عباس وغيره^(٤). وقال الجمهور: السّرُّ ما خفي، والعلانية ما ظهر. وقال القاسم بن يحيى: إنَّ السّرَّ التطوع، والعلانية الفرض^(٥). وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوّدًا عند قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا أَلْصَقْتِ فَنِعْمًا هِيَ﴾ [الآية: ٢٧١]^(٦).

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ تقدّم في «البقرة» أيضاً^(٧). و«خِلَالٌ» جمع خُلّة، كقُلّة وقِلال. قال:

فَلَسْتُ بِمَقْلِي الْخِلَالِ وَلَا قَالَ^(٨).

(١) بمعناه في معاني القرآن له ٧٧/٢. ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٣٨ عن سيبويه قوله: هو جواب شرط مقدر يتضمّنه صدر الآية، تقديره: إن تقل لهم أقيموا يقيموا.

(٢) في معاني القرآن له ١٦٢/٢.

(٣) وهو أيضاً قول المبرد في المقتضب ٢/٨٤، ونقله عنه مكّي في مشكل إعراب القرآن ١/٤٠٥ - ٤٠٦.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/٦٨٠.

(٥) النكت والعيون ٣/١٣٧.

(٦) ٣٥٩/٤.

(٧) ٢٥٩/٤ - ٢٦٢.

(٨) عجز بيت لامرئ القيس، وصدّره: صرفتُ الهوى عنهنّ من خشية الردى، وهو في ديوانه ص ٣٥.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أبدعها واختراعها على غير مثال سبق. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من السحاب ﴿مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من الشجر ثمرات ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ تقدّم معناه في «البقرة»^(١). ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ يعني: البحار العذبة؛ لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا، والبحار المالحة؛ لاختلاف المنافع من الجهات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أي: في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، والدُّؤوب: مرور الشيء في العمل على عادةٍ جارية. وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمر الله، والمعنى: يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران. روي معناه عن ابن عباس^(٢). ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله في النهار، كما قال: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم من كل مسؤول سألتموه شيئاً؛ فحذف عن الأخفش^(٣). وقيل: المعنى: وآتاكم من كل ما سألتموه، ومن كل ما لم تسألوه، فحذف، فلم نسأله شمساً ولا قمراً، ولا كثيراً من نعمه التي ابتدأنا بها. وهذا كما قال: ﴿سَرَّيْلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]^(٤)، على ما يأتي.

(١) ٤٩٤/٢ .

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ١٦٣/٢ ، والوسيط للواحدي ٣٢/٣ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٣٦٤/٤ .

(٣) في معاني القرآن له ٦٠٠/٢ .

(٤) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٣٦٤/٤ - ٣٦٥ عن ابن الأنباري.

وقيل: «من» زائدة، أي: آتاكم كل ما سألتُموه^(١).

وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما: «وآتاكم من كل» بالتنوين «ما سألتُموه»^(٢)، وقد رُوِيَ هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة؛ هي على النفي، أي: من كل لم^(٣) تسألوه، كالشمس والقمر وغيرهما^(٤). وقيل: من كل شيء ما سألتُموه، أي: الذي ما سألتُموه^(٥).

﴿وَأَن تَقُودُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله ﴿لَا تُخْصَوْهَا﴾ ولا تطيقوا عدّها، ولا تقوموا بحصرها؛ لكثرتها^(٦)، كالسمع والبصر وتقويم الضُّور، إلى غير ذلك من العافية والرزق، نعم لا تحصى، وهذه النعم من الله، فلم تبدلون نعم الله بالكفر؟! وهلا استعنتم بها على الطاعة؟!.

﴿إِنَّكَ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الإنسان لفظ جنس، وأراد به الخصوص^(٧). قال ابن عباس: أراد أبا جهل^(٨). وقيل: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَصْلَحَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ يعني: مكة. وقد مضى

(١) الوسيط للواحد ٣٢/٣.

(٢) المحنّب ٣٦٣/١، وهي قراءة شاذة.

(٣) قبلها في (م) زيادة «ما».

(٤) زاد المسير ٣٦٥/٤، وأخرجه الطبري ٦٨٥/١٣ عن الضحاك وقتادة.

(٥) ذكره الزجاج في معاني القرآن ١٦٣/٣.

(٦) ينظر تفسير البغوي ٣٦/٣، وزاد المسير ٣٦٥/٤.

(٧) قال الزجاج في معاني القرآن ١٦٤/٣: هذا اسم جنس يقصد به الكافر خاصة.

(٨) زاد المسير ٣٦٥/٤.

في «البقرة»^(١). ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي: اجعلني جانباً عن عبادتها^(٢). وأراد بقوله: «بني» بنيه من صُلْبِهِ^(٣)، وكانوا ثمانية، فما عبدَ أحدٌ منهم صنماً^(٤). وقيل: هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له.

وقرأ الجَحْدَرِيُّ وعيسى «وَأَجْنِبْنِي» بقطع الألف^(٥)، والمعنى واحد؛ يقال: جَنَّبْتُ ذلك الأمر، وأَجْنَبْتُهُ وَجَنَّبْتُهُ إِيَّاهُ، فتَجَانَبَهُ واجْتَنَبَهُ، أي: تركه^(٦). وكان إبراهيم التَّيْمِيُّ يقول في قصصه: مَنْ يَأْمُنُ الْبَلَاءَ بعد الخليل حين يقول: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ كما عبدها أبي وقومي^(٧)!

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِهْتَنَّ أَصْلَحَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ لَمَّا كانت سبباً للإضلال أضاف الفعل إِيَهْنَ مجازاً؛ فَإِنَّ الْأَصْنَامَ جمادات لا تفعل^(٨). ﴿فَنَنْتَعِزُّ﴾ في التوحيد ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني. ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي: أصرَّ على الشُّرْكَ ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قيل: قال هذا قبل أن يُعْرِفَهُ اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ. وقيل: غفورٌ رحيمٌ لمن تاب من معصيته قبل الموت. وقال مقاتل بن حَيَّان: «وَمَنْ عَصَانِي» فيما دون الشرك^(٩).

(١) ٣٨٢/٢.

(٢) زاد المسير ٣٦٥/٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٤٠، والوسيط ٣/٣٣، وتفسير البغوي ٣/٣٦.

(٤) وقد أخرج الطبري ١٣/٦٨٧ عن مجاهد أن الله استجاب لإبراهيم دعوته في ولده، فلم يعبد أحدٌ من ولده صنماً بعد دعوته.

(٥) المحتسب ١/٣٦٣، وهي قراءة شاذة.

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/١٦٤، والمحرر الوجيز ٣/٣٤١، وتفسير البغوي ٣/٣٦، والصحاح (جنب).

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٣/٦٨٧ - ٦٨٨ دون قوله: كما عبدها أبي وقومي.

(٨) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/١٦٤، وتفسير أبي الليث ٢/٢٠٨، والوسيط للواحدي ٣/٣٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/٣٦٥، وجاء في (ظ) و(ف): لا تعقل.

(٩) الأقوال الثلاثة في الوسيط للواحدي ٣/٣٣، وتفسير البغوي ٣/٣٦، وزاد المسير ٤/٣٦٥، والقول الأول لمقاتل بن سليمان، والتعليل الذي أورده بعده لابن الأنباري، والقول الثاني للسدي.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (١٧)

فيه ست مسائل:

الأولى: روى البخاري عن ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد - وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء - فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم فقئ إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يضيئنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حتى بلغ: ﴿يَشْكُرُونَ﴾. وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء؛ عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى^(١) جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه - تريد

(١) المثبت من (ظ)، وصحيح البخاري، وفي غير (ظ): ثم.

نفسها - ثم تسمعت، فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن هاهنا بيت الله؛ بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وذكر الحديث بطوله^(١).

مسألة: لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مضيعة؛ اتكالا على العزيز الرحيم، واقتداء بفعل إبراهيم الخليل، كما تقول غلاة الصوفية في حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله؛ لقولها^(٢) في الحديث: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم. وقد روي أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل، خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فروي أنه ركب البراق هو وهاجر والطفل، فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك ابنه وأمه هنالك، وركب منصرفاً من يومه، فكان ذلك كله بوحى من الله تعالى، فلما ولى دعا بضمن هذه الآية^(٣).

الثانية: لما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخطّ الموضع للبيت المكرّم، والبلد المحرّم، أرسل الملك، فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء.

وفي الصحيح: أن أبا ذرٍّ رضي الله عنه اجتزأ به ثلاثين بين يوم وليلة، قال أبو ذرٍّ: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم، فسميت حتى تكسرت عكن بطني^(٤)، وما أجد على كبدي سخفة

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤). قوله: المنطق: هو ما يُشدُّ به الوسط. يُتَعَفَّى أثرها: يُخَفِّي أثرها. الدوحة: الشجرة الكبيرة. السقاء: القرية الصغيرة. ثم قف إبراهيم: ولى راجعاً إلى الشام. يتلبط: يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض. الإنسان المجهود: الذي أصابه الجهد، وهو الأمر المشق. غوث؛ بفتح أوله للأكثر، وجزء الشرط محذوف، تقديره: فأغثني. تحوضه: تجمله مثل الحوض. عيناً معيناً: ظاهراً جارياً على وجه الأرض. الضيعة: الهلاك. فتح الباري ٦/٤٠٠ - ٤٠٢.

(٢) في النسخ: لقوله، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١١٢، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٤١، وينظر طبقات ابن سعد ١/١٥٠، وأخبار مكة للفاكهي ٥/١٢٠.

(٤) في (د) و(ز) و(م): «عكني»، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لمصادر التخريج القادمة.

جوع. وذكر الحديث^(١).

وروى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ماءٌ زمزمٌ لِمَا شُرِبَ له، إِنْ شَرِبْتَهُ تَسْتَشْفِي به؛ شَفَاكَ اللهُ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِيَسْبِعَكَ؛ أَشْبَعَكَ اللهُ به، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِقَطَعَ ظَمِيمَكَ؛ قَطَعَهُ، وَهِيَ هَزْمَةُ جَبْرِيلَ، وَسُقْيَا اللهُ إِسْمَاعِيلَ»^(٢).

وروى أيضاً^(٣) عن عكرمة قال: كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال: اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاءً من كل داء.

قال ابن العربي^(٤): وهذا موجودٌ فيه إلى يوم القيامة لمن صحَّت نيَّته، وسلَّمَتْ طَوِيَّتُهُ، ولم يكن به مكذباً، ولا يشربه مجرباً، فإنَّ الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجريين.

وقال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي: وحدثني أبي رحمه الله قال: دخلتُ الطَّوَّافَ في ليلةٍ ظلماء، فأخذني من البول ما شغلني، فجعلتُ أعتصر حتى آذاني، وَخِفْتُ إِنْ خَرَجْتُ مِنَ الْمَسْجِدِ أَنْ أَطَأَ بَعْضَ تِلْكَ الْأَقْدَامِ، وَذَلِكَ أَيَّامَ الْحَجِّ، فَذَكَرْتُ هَذَا الْحَدِيثَ، فَدَخَلْتُ زَمَزَمَ فَتَضَلَّعْتُ مِنْهُ، فَذَهَبَ عَنِّي إِلَى الصَّبَاحِ^(٥). وَرُويَ

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢، والحديث أخرجه أحمد (٢١٥٢٥) ومسلم (٢٤٧٣)، والعُكْنُ جمع عُكْنَةٍ: وهي الطَّيُّ في البطن من السَّمَنِ. تَكَسَّرَتْ: انثنت. السُّخْفَةُ - بفتح السين وضُمُّها: رقة الجوع وضعفه. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٢) سنن الدارقطني (٢٧٣٩) وهو من طريق محمد بن حبيب الجارودي، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الله ابن أبي نجيع، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعاً. قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٢٦٨: الجارودي صدوق، إلا أن روايته شاذة، فقد رواه حفاظ أصحاب ابن عيينة: الحميدي وابن أبي عمر وغيرهما، عن ابن عيينة، عن ابن أبي نجيع، عن مجاهد قوله. اهـ. لكن أول الحديث وهو قوله: «ماء زمزم لما شرب له» رُوي من طرق أخرى مرفوعة محتملة للتحسين بمجموعها، تُنظر في مسند أحمد (١٤٨٤٩) قوله: هزمة جبريل، أي: ضربها برجله فنبع الماء. النهاية (هزم).

(٣) في سننه (٢٧٣٨).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٢.

(٥) لم نقف عليه في المطبوع من نواذر الأصول.

عن عبد الله بن عمرو: إنَّ في زمزمَ عيناً من^(١) الجنة من قِبَلِ الركن^(٢).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ «مِنْ» في قوله تعالى: «مِنْ ذُرِّيَّتِي» للتبعيض، أي: أسكنتُ بعضَ ذُرِّيَّتِي، يعني: إسماعيلَ وأُمَّه؛ لأنَّ إسحاقَ كان بالشام^(٣). وقيل: هي صلة، أي: أسكنتُ ذُرِّيَّتِي^(٤).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ يدلُّ على أنَّ البيتَ كان قديماً على ما رُوِيَ قبل الطوفان، وقد مضى هذا المعنى في سورة البقرة^(٥). وأضاف البيتَ إليه؛ لأنَّه لا يملكه غيره، ووصفه بأنه مُحَرَّم، أي: يَحْرُمُ فيه ما يُسْتَبَاح في غيره من جماعٍ واستحلال^(٦). وقيل: مُحَرَّم على الجابرة، وأنَّ تَنْتَهَكَ حرْمَتَهُ، وَيُسْتَخَفَّ بِحَقِّهِ. قاله قتادة وغيره^(٧). وقد مضى القول في هذا في «المائدة»^(٨).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ خَصَّهَا من جملة الدِّين؛ لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد؛ قال ﷺ: «خمس صلوات كتبهنَّ الله على العباد». الحديث^(٩).

واللام في «لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ» لام كي، هذا هو الظاهر فيها^(١٠)، وتكون متعلقةً

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: في.

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٣٣٩ بنحوه، في قصة بله زمزم دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١.

(٤) نقله العكبري في «إملاء ما منَّ به الرحمن» ٣/ ٤٠٩ عن الأخفش، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٦٦.

(٥) ٣٨٦/٢ وما بعده.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٣٨.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢.

(٨) ٢٢٠ - ٢٢٢.

(٩) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٣)، وأبو داود (٤٢٥)، والنسائي ١/ ٢٣٠، وابن ماجه (١٤٠١).

(١٠) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢.

بـ «أَسْكَنْتُ»^(١)، وَيَصِيحُ أَنْ تَكُونَ لَامٍ أَمْرٌ، كَأَنَّهُ رَغِبَ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَأْتَمَنَهُمْ، وَأَنْ^(٢) يَوْفَقَهُمْ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ.

السادسة: تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَنَّ الصَّلَاةَ بِمَكَّةَ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ بِغَيْرِهَا؛ لِأَنَّ مَعْنَى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَي: أَسْكَنْتَهُمْ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمَحْرَمِ لِيُقِيمُوا فِيهِ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَلِ الصَّلَاةُ بِمَكَّةَ أَفْضَلُ أَوْ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَذَهَبَ عَامَّةُ أَهْلِ الْأَثَرِ إِلَى أَنَّ الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِمِئَةِ صَلَاةٍ، وَاحْتَجُّوا بِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي هَذَا بِمِئَةِ صَلَاةٍ».

قَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو عَمْرٍ^(٣): وَأَسْنَدَ هَذَا الْحَدِيثَ حَبِيبُ الْمُعَلِّمِ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَجُودَهُ، وَلَمْ يُخْلَطْ فِي لَفْظِهِ وَلَا فِي مَعْنَاهُ، وَكَانَ ثِقَةً. قَالَ ابْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ مَعِينٍ يَقُولُ: حَبِيبُ الْمُعَلِّمِ ثِقَةٌ. وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: حَبِيبُ الْمُعَلِّمِ ثِقَةٌ مَا أَصَحَّ حَدِيثُهُ! وَسُئِلَ أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ عَنْ حَبِيبِ الْمُعَلِّمِ فَقَالَ: بِصَرِيٍّ ثِقَةٌ.

قُلْتُ: وَقَدْ خَرَجَ حَدِيثُ حَبِيبِ الْمُعَلِّمِ هَذَا عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الْحَافِظُ أَبُو حَاتِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حَبَّانَ^(٤) التَّمِيمِيُّ الْبُسْتِيُّ فِي الْمُسْنَدِ الصَّحِيحِ لَهُ^(٥)، فَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ، وَهُوَ الْحُجَّةُ عِنْدَ التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلَافِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

(١) زاد المسير ٣٦٧/٤.

(٢) قبلها في (ف) و(م) زيادة: أَنْ يَأْتَمَنَهُمْ.

(٣) هو ابن عبد البر، وكلامه في التمهيد ٢٥/٦ - ٢٦.

(٤) في (د) و(م): حَاتِمٌ، وَهُوَ خَطَأٌ.

(٥) صحيح ابن حبان (١٦٢٠)، وهو عند أحمد (١٦١١٧).

قال أبو عمر: وقد رُوِيَ عن ابن عمر، عن النبي ﷺ مثلُ حديث ابن الزُّبَيْر، رواه موسى الجُهَنِي، عن نافع، عن ابن عمر. وموسى الجُهَنِي كوفيٌّ ثقة، أثنى عليه القَطَّان وأحمد ويحيى وجماعتهم، وروى عنه شعبةُ والثَّوْرِيُّ ويحيى بن سعيد.

وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجد الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من مئة ألفٍ فيما سواه». وحكيم بن سيف هذا شيخٌ من أهل الرِّقَّة، قد روى عنه أبو زُرْعَةَ الرازيُّ، وأخذ عنه ابن وَصَّاح، وهو عندهم شيخٌ صدوقٌ لا بأس به، فإن كان حِفْظُ فَهْمَا حَدِيثَانِ، وإلا فالقول قول حبيب المُعَلَّم.

وروى محمد بن وَصَّاح، حدثنا يوسف بن عديٍّ، عن عمر بن عبيد، عن عبد الملك، عن عطاء، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ في غيره من المساجد، إلا المسجد الحرام، فإن الصلاة فيه أفضلُ»^(١).

قال أبو عمر: وهذا كُلُّهُ نصٌّ في موضع الخلاف قاطعٌ له عند من أُلْهِمَ رُشْدُهُ، ولم تَمِلْ به عَصِيَّتُهُ^(٢).

وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف، وعن أَصْبَغَ عن ابن وهب؛ أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبي ﷺ على ما في هذا الباب^(٣).

(١) التمهيد ٢٧/٦ - ٣٠، وحديث ابن عمر الأول أخرجه أحمد (٥١٥٥)، ومسلم (١٣٩٥): (٥٠٩) من طريق موسى الجهني، به دون قوله: «فإنه أفضل منه بمئة صلاة». وحديث جابر أخرجه أحمد (١٤٦٩٤)، وابن ماجه (١٤٠٦) من طرق عن عبيد الله بن عمرو الرقي، به. وحديث ابن عمر الثاني أخرجه أحمد (٤٨٣٨) من طريق عبد الملك، به.

(٢) لم نقف على قول ابن عبد البر هذا في هذه المسألة، إنما قاله في مسألة النية والقصد في الطهارة، ينظر التمهيد ١٠١/٢٢.

(٣) التمهيد ٣٤/٦.

وقد اتَّفَقَ مالكٌ وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبَرِّزُ لهما في كلِّ بلدٍ إلا مكة، فإنها تُصَلَّى في المسجد الحرام^(١).

وكان عمر وعلي وابن مسعود وأبو الدُّرداء وجابر يفضِّلون مكة ومسجدَها، وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم^(٢). وإلى هذا ذهب الشافعي، وهو قول عطاءٍ والمكيين والكوفيين^(٣).

ورُوِيَ مثله عن مالك؛ ذكر ابن وهب في «جامعه» عن مالك أن آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض قال: يا رب، هذه أحبُّ إليك أن تُعبدَ فيها؟ قال: بل مكة^(٤). والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيلُ المدينة، واختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك، فطائفةٌ تقول: مكة، وطائفةٌ تقول: المدينة^(٥).

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ الأفئدة جمع فؤاد: وهي القلوب، وقد يُعَبَّرُ عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر:

وإنَّ فؤاداً قادني بصَّبابَةٍ^(٦) إليك على طولِ المَدَى لَصَبُورُ

وقيل: جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فَقُدِّمَتِ الفاء، وَقُلِّبَتِ الواوُ ياءً كما هي، فكأنَّه قال: واجعلْ وفوداً من الناس تهوي إليهم^(٧)، أي: تنزع؛ يقال: هَوَى نحوه: إذا مال، وهَوَتِ الناقةُ تهوي هَوِيًّا، فهي هاويةٌ: إذا عَدَّتْ عَدْواً شديداً كأنها في هواءٍ بثر^(٨)، وقوله: «تَهْوِي إِلَيْهِمْ» مأخوذة منه.

(١) التمهيد ٣١/٦.

(٢) التمهيد ٣٤/٦.

(٣) الاستذكار ٢٢٦/٧.

(٤) التمهيد ٣١/٦.

(٥) الاستذكار ٢٢٦/٧.

(٦) في (ظ) وزاد المسير ٣٦٧/٣: لصباية.

(٧) النكت والعيون ١٣٨/٣.

(٨) تهذيب اللغة ٤٩١/٦.

قال ابن عباس ومجاهد: لو قال: «أفئدة الناس» لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال: «مِنَ النَّاسِ»، فهم المسلمون^(١).

فقوله: ﴿تَهَوَّىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تَجَنُّ إلىهم، وتَجَنُّ إلى زيارة البيت^(٢). وقرأ مجاهد: «تَهَوَّىٰ إِلَيْهِمْ» أي: تهواهم وتُجِلُّهم^(٣).

﴿وَأَرْزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار. وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه: «فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يُطالِعُ تَرِكَتَهُ، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج بيتي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدة؛ فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرني عليه السلام، وقولي له يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ. فلَمَّا جاء إسماعيلُ كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم مِنْ أَحَدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألني عنكَ فأخبرته، وسألني كيف عيشتُنا، فأخبرته أَنَا في جَهْدٍ وشدة. قال: فهل أوصاكِ بشيء؟ قالت: أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غَيَّرَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقكِ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ، فطَلَّقَهَا وتَزَوَّجَ مِنْهُمُ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فلم يجدْه، ودخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج بيتي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخيرٍ وَسَعَةٍ،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١١٢/١٤، والطبري ٦٩٨/١٣ عن مجاهد بلفظ: لو قال: أفئدة الناس، لازدحمت عليه فارس والروم، ولكنه: «أَفْئِدَةٌ مِّنَ النَّاسِ». وأخرج الطبري ٦٩٨/١٣ عن سعيد بن جبير: لو قال: أفئدة الناس تهوي إليهم، لحجَّت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: «أَفْئِدَةٌ مِّنَ النَّاسِ» فهم المسلمون، وينظر المحرر الوجيز ٣/٣٤٢، والوسيط للواحدي ٣/٣٤، والنكت والعيون ٣/١٣٨.

(٢) النكت والعيون ٣/١٣٨، وتفسير البيهقي ٣/٣٧.

(٣) المحتسب ١/٣٦٤، والمحرر الوجيز ٣/٣٤٢، وزاد المسير ٤/٣٦٨.

وأنتت على الله. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافقاه. وذكر الحديث^(١).

وقال ابن عباس: قول إبراهيم: ﴿فَجَعَلَ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: سأل أن يجعل الله للناس يهوءون السُّكنى بمكة، فيصير بيتاً مُحَرَّماً^(٢). وكلُّ ذلك كان والحمد لله، وأول من سكنه جُرْهُم. ففي البخاري - بعد قوله: وإنَّ الله لا يُضِيعُ أهله -: وكان البيتُ مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتبه السيولُ، فتأخذُ عن يمينه وعن شماله، وكانت كذلك^(٣) حتى مرَّت بهم رُفْقَةٌ من جُرْهُم قافلين^(٤) من طريق كداء، فنزلوا بأسفل مكة، فرأوا طائراً عاثفاً، فقالوا: إنَّ هذا الطائرَ لَيَدُورُ على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيّاً أو جَرِيَّين، فإذا هُم بالماء، فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأمَّ إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزلَ عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألقي ذلك أمَّ إسماعيل وهي تُحِبُّ الأُنس». فنزلوا وأرسلوا إلى أهلِيهم، فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهلٌ أيباتٍ منهم، شَبَّ الغلامُ، وماتت أمُّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوجَ إسماعيلُ يطالعُ تَرَكَته. الحديث^(٥).

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤). وقوله: لا يخلو عليهما أحد... الخ، يعني: ليس أحد يخلو على اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه. ينظر فتح الباري ٦/٤٠٥.

(٢) النكت والعيون ٣/١٣٩.

(٣) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في صحيح البخاري، وفي غير (ظ): وكذلك، بدل: وكانت كذلك.

(٤) في صحيح البخاري: مقبلين، وكلاهما بمعنى.

(٥) صحيح البخاري (٣٣٦٤). قوله: جُرْهُم: هو ابن قحطان بن عامر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح. والطائر العاثف: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه. والجريُّ: الرسول، وقد يُطلق على الوكيل وعلى الأجير. فتح الباري ٦/٤٠٣.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّلِيلُ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا. وقال ابن عباس ومقاتل: تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع. ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قيل: هو من قول إبراهيم. وقيل: هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ قال الله: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أي: على كبر سنِّي وسنِّ امرأتي؛ قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابنُ تسع وتسعين سنة، وإسحاق وهو ابن مئة واثنى عشرة سنة. وقال سعيد بن جبیر: بُشِّرَ إبراهيمُ بإسحاق بعد عشرٍ ومئة سنة^(١). ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّلِيلُ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أي: من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل من ذريتي من يُقيمها. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ أي: عبادتي كما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال عليه الصلاة والسلام: «الدعاء مُخَّ العبادَة» وقد تقدم في «البقرة»^(٢). ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: استغفر إبراهيم لوالديه قبل أن يثبتَّ عنده أنهما عدوان لله. قال القشيري: ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة؛ لأنَّ الله ذكر عُذْرَه في استغفاره لأبيه دون أمه^(٣).

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨ - ٣٩، وفيه: بُشِّرَ إبراهيمُ بإسحاق وهو ابن مئة وسبع عشرة سنة.

(٢) ٣/ ١٧٨ بلفظ: «الدعاء هو العبادَة» من حديث النعمان بن بشير. وأما الحديث بلفظ: «الدعاء مُخَّ العبادَة» فقد أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٨.

قلت: وعلى هذا قراءة سعيد بن جبير: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ» يعني أباه^(١).
 وقيل: استغفر لهما طمعاً في إيمانهما^(٢). وقيل: استغفر لهما بشرط أن يُسلما^(٣).
 وقيل: أراد آدم وحواء^(٤). وقد روي أن العبد إذا قال: اللهم اغفر لي ولوالدي، وكان أبواه قد ماتا كافرين، انصرفت المغفرة إلى آدم وحواء؛ لأنهما والدا الخلق أجمع.
 وقيل: إنه أراد ولديه إسماعيل وإسحاق، وكان إبراهيم النخعي يقرأ: «وَلَوْلَدَيَّ» يعني ابنيه، وكذلك قرأ يحيى بن يعمر، ذكره الماوردي والنحاس^(٥). ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: من أمة محمد ﷺ^(٦). وقيل: للمؤمنين كلهم^(٧). وهو أظهر. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يوم يقوم الناس للحساب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٤١﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفِئْدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا تسليّة للنبي ﷺ بعد أن عَجَبَهُ^(٨) من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم، أي: اصبر كما صبر إبراهيم، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم، بل سنّة الله إمهال العصاة مدة. قال ميمون بن مهران: هذا وعيدٌ للظالم، وتعزيةٌ للمظلوم^(٩). ﴿إِنَّمَا

(١) المحتسب ١/٣٦٥.

(٢) النكت والعيون ٣/١٣٩، وزاد المسير ٤/٣٦٩.

(٣) الوجيز (بهاشم مراح لبيد) ١/٤٣٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/١٦٥، والنكت والعيون ٣/١٣٩، وزاد المسير ٤/٣٦٩.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/٥٣٧ والنكت والعيون للماوردي ٣/١٣٩.

(٦) الوسيط للواحد ٣/٣٥.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/٢١٠، وتفسير البغوي ٣/٣٩.

(٨) من (ظ)، وفي باقي النسخ: أعجبه.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/٧٠٣ - ٧٠٤، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٦٣٦)، وأبو نعيم في الحلية

يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني: مشركي مكة، يُمهِّلُهُمْ ويؤخِّرُهُمْ عذابَهُمْ^(١). وقراءة العامة «يُؤَخِّرُهُمْ» بالياء^(٢)، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾. وقرأ الحسن والسلمي وروى عن أبي عمرو أيضاً: «نُؤَخِّرُهُمْ» بالنون للتعظيم^(٣). ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم. قاله الفراء. يقال: شَخَصَ الرجلُ بَصَرَهُ، وشَخَصَ البصرُ نفسه، أي: سَمَا وَطَمَحَ من هول ما يرى^(٤). قال ابن عباس: تَشَخَّصَ أَبْصَارُ الْخَلَائِقِ يَوْمَئِذٍ إِلَى الْهَوَاءِ؛ لشدة الحيرة فلا يغمضون^(٥).

﴿مُتَهَيِّئِينَ﴾ أي: مسرعين. قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير^(٦)، مأخوذ من أهُطَعَ يُهْطَعُ إهْطَاعاً: إذا أسرع. ومنه قوله تعالى: ﴿مُتَهَيِّئِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] أي: مسرعين. قال الشاعر:

بَدَجَلَةٌ دَارُهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ بَدَجَلَةً مُتَهَيِّئِينَ إِلَى السَّمَاعِ^(٧)
وقيل: المُهْطَعُ الذي ينظر في ذلٍّ وخشوع، أي: ناظرين من غير أن يَطْرِفُوا. قاله ابن عباس^(٨). وقال مجاهد والضحاك: ﴿مُتَهَيِّئِينَ﴾ أي: مُدِمِمِي النَظَرِ^(٩). وقال النحاس^(١٠): والمعروف في اللغة أن يُقال: أهُطَعَ إذا أسرع. قال أبو عبيد: وقد

(١) ينظر تفسير الطبري ٧٠٤/١٣، والوسيط ٣/٣٥، وتفسير أبي الليث ٢/٢١٠.

(٢) النشر ٢/٤٠٠، والسبعة ص ٣٦٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٤٤، وزاد المسير ٤/٣٧٠.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٣/٣٩، وتهذيب اللغة ٧/٧٢.

(٥) في (م) و(ظ): لا يرمضون، وفي (د): لا يرمضون، والمثبت من الوسيط للواحد ٢/٣٥.

(٦) النكت والعيون ٣/١٣٠، والوسيط ٣/٣٥، وزاد المسير ٤/٣٧٠، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٤٣/١، والطبري ١٣/٧٠٤ - ٧٠٥ عن قتادة.

(٧) النكت والعيون ٣/١٣٠، والبيت ليزيد بن مفرغ، وهو في ديوانه ص ١١٠، وفيه: «أهلها» بدل: «دارهم».

(٨) أخرجه الطبري ١٣/٧٠٥.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/٧٠٦ عنهما، ولفظ الضحاك بالمعنى.

(١٠) في معاني القرآن ٣/٥٣٨.

يكون الوجهان جميعاً، يعني: الإسراع مع إدامة النظر. وقال ابن زيد: المُهْطَع الذي لا يرفع رأسه^(١). ﴿مُقْنِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعي رؤوسهم ينظرون في دُلٍّ. وإقناع الرأس: رفعه. قاله ابن عباس ومجاهد^(٢). قال ابن عرفة والقُتَيْبِيُّ وغيرهما: المُقْنِعُ: الذي يرفع رأسه، ويُقْبَلُ ببصره على ما بين يديه، ومنه الإقناع في الصلاة^(٣) وأقنع صوته: إذا رفعه. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد^(٤). وقيل: ناكسي رؤوسهم^(٥). قال المهدوي: ويقال: أقنع: إذا رفع رأسه، وأقنع: إذا طأطأ رأسه ذلّةً وخضوعاً، والآية محتملة للوجهين^(٦). وقاله المبرد^(٧). والقول الأول أعرف في اللغة؛ قال الراجز:

أَنْغَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئاً أَظْمَعَا^(٨)
وقال الشَّمَاخ يَصِفُ إِبِلًا:

يُبَاكِزْنَ الْعِضَاءَ بِمُقْنَعَاتٍ نَوَاجِذَهُنَّ كَالْحَدَا الْوَقِيعِ^(٩)
يعني: برؤوسٍ مرفوعاتٍ إليها لتتناولهنَّ. ومنه قيل: مُقْنَعَةٌ؛ لارتفاعها. ومنه قَنَعَ الرجلُ: إذا رَضِيَ، أي: رفع رأسه عن السؤال. وقَنَعَ: إذا سأل، أي: أتى ما يتقنَعُ

(١) أخرجه الطبري ٧٠٦/١٣.

(٢) أخرجه الطبري ٧٠٨/١٣ عنهما.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٣٣.

(٤) نقله عنه الواحدي في الوسيط ٣٥/٣، والبغوي في تفسيره ٣٩/٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٣٧١/٤.

(٥) نقله الماوردي في النكت والعيون ١٤٠/٣ عن المؤرِّج وقتادة.

(٦) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٥٣٩/٣.

(٧) في الكامل ١٠٢٧/٢.

(٨) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٣٤٤/١، والماوردي في النكت والعيون ١٤١/٣.

(٩) ديوان الشماخ ص ٢٢٠، قوله: والعِضَاءُ: كل شجر يعظم وله شوك، والحَدَا جمع حَدَاةٍ: وهي الفأس ذات الرأسين. الصحاح (عضه) و(حدا).

منه. عن النحاس^(١). وَفَمُّ مُقْنَعٍ، أي: معطوفة أسنانه إلى داخل. ورجل مُقْنَعٍ - بالتشديد - أي: عليه بَيِّضَةٌ. قاله الجوهري^(٢).

﴿لَا يَزِدُّ إِلَهُمُ ظَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، فهي شاخصة النظر^(٣). يُقال: طَرَفَ الرجلُ يَظْرِفُ طَرْفًا: إذا أطبق جَفَنَهُ على الآخر^(٤)، فَسُمِّيَ النظرُ طَرْفًا؛ لأنه به يكون^(٥). وَالطَّرْفُ: العين؛ قال عَتْرَةُ^(٦):

وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَثَ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا
وقال جميل:

وَأَقْصِرُ طَرْفِي دُونَ جُمْلٍ كَرَامَةٍ لِجُمْلٍ وَلِلطَّرْفِ الَّذِي أَنَا قَاصِرُهُ^(٧)

﴿وَأَفِيدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: لا تعي^(٨) شيئاً من شدة الخوف. ابن عباس: خالية من كل خير^(٩). السُّدِّي: خرجت قلوبهم من صدورهم، فَتَشَبَّهَتْ في حُلُوقِهِمْ^(١٠). وقال مجاهد ومُرة وابن زيد: خَاوِيَةٌ خَرِبَةٌ مُنْخَرَقَةٌ؛ ليس فيها خيرٌ ولا عقل، كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء: إنما هو هَوَاءٌ. وقاله ابن عباس^(١١).

(١) في معاني القرآن ٣/ ٥٤٠.

(٢) في الصحاح (فنع).

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٥، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧١.

(٤) الصحاح (طَرَف).

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٤١.

(٦) في ديوانه ص ٧٦.

(٧) لم تقف عليه في ديوانه، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤١.

(٨) تحرفت في النسخ إلى: تغني، والتصويب من معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٦، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٤٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩، وزاد المسير ٤/ ٣٧١.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧١١.

(١٠) ذكره عنه بنحوه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢١٠، وهو قول قتادة أخرجه عنه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤٣، والطبري ١٣/ ٧١٣، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧١.

(١١) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٧١٠ - ٧١٢ بالفاظٍ مقاربة.

والهواء في اللغة: المجوّف الخالي، ومنه قول حسان:

ألا أبْلِغُ أبا سُفْيَانَ عَنِّي فأنْتَ مُجَوِّفٌ نَخِبٌ هَوَاءٌ^(١)

وقال زهير يصف ناقهً صغيرة الرأس:

كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظُّلْمَانِ جُجُؤُهُ هَوَاءٌ^(٢)

فارغ، أي: خالٍ، وفي التنزيل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسٍ فَكِرًا﴾ [القصص: ١٠]

أي: من كل شيء إلا من هم موسى. وقيل: في الكلام إضمار، أي: ذات هواء وخلاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ
أَجَلٍ قَرِيبٍ يُجِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعُ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا
لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ قال ابن عباس: أراد أهل مكة^(٣). ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ
الْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة، أي: خوّفهم ذلك اليوم، وإنما خصّه^(٤) بيوم العذاب -
وإن كان يوم الثواب - لأنّ الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي. ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾
أي: في ذلك اليوم: ﴿رَبَّنَا آخِرْنَا﴾ أي: أمهلنا^(٥). ﴿إِلَّا أَجَلٌ قَرِيبٌ﴾ سألوه الرجوع
إلى الدنيا حين ظهر الحق في الآخرة^(٦). ﴿يُجِبُّ دَعْوَتَكَ﴾ أي: إلى الإسلام ﴿وَتَتَّبِعُ

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٤٤/١، والبيت في ديوان حسان ص ٩.

(٢) ديوان زهير ص ٦٣، وفي (م) و(د): الرجل. قوله: صَعْلٌ، أي: دقيق الرأس والعنق، وظليم: هو الذكر من النعام، جمعها: ظلمان. قال ثعلب في شرحه للديوان: كان الرجل منها: من هذه الناقة. فوق صعل: فوق ظليم دقيق العنق صغير الرأس. جُجُؤُهُ: صدره. هواء: لا مَعَّ فيه.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/٣٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/٣٧٢.

(٤) في (ظ): خُصَّ، وفي (ز) و(د) و(م): خَصَّهم، والمثبت من (ف)، وهو موافق لما في النكت والعيون ٣/١٤٢، (والكلام منه) وينظر زاد المسير ٤/٣٧٢.

(٥) تفسير البغوي ٣/٤٠.

(٦) النكت والعيون ٣/١٤٢.

الرُّسُلُ. فَيُجَابُونَ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ﴾ يعني: في دار الدنيا^(١). ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ زَوَالٍ﴾ قال مجاهد: هو قَسَمُ قريش أنهم لا يُبعثون^(٢). ابن جريج: هو ما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾^(٣) [النحل: ٣٨].

﴿مَا لَكُمْ مِّنْ زَوَالٍ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: ما لكم من انتقالٍ عن الدنيا إلى الآخرة، أي: لا تُبعثون ولا تُحشرون. وهذا قول مجاهد. والثاني: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ زَوَالٍ﴾ أي: من العذاب^(٤). وذكر البيهقي^(٥) عن محمد بن كعب القرظي قال: لأهل النار خمس دَعَوَاتٍ: يُجيبهم الله في أربعة، فإذا كان في الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَكَ وَأَحْيَيْتَنَا أَتَلَّتْ فَاغْرَقْنَا بِدُثُونِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]. فيُجيبهم الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فيُجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فيُجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّنْ زَوَالٍ﴾ فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] فيُجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا بَدَّكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]. ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، فيُجيبهم

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/٢١٠، وتفسير البغوي ٣/٤٠، وزاد المسير ٤/٣٧٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٧١٥ - ٧١٦ بمعناه.

(٣) لم نقف عليه من قول ابن جريج، وإنما هو تمة كلام مجاهد السالف.

(٤) التكت والعيون ٣/١٤٢ وعزا القول الثاني للحسن، وأخرج قول مجاهد الطبري ١٣/٧١٥ بنحوه.

(٥) في البعث والنشور (٦٦٠)، وفي إسناده أبو معشر نجيع بن عبد الرحمن السندي، وهو ضعيف.

الله تعالى: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فلا يتكلمون بعدها أبداً. خرَّجه ابن المبارك في «رقائقه» بأطول من هذا - وقد كتبناه في كتاب «التذكرة»^(١) - وزاد في الحديث: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال: هذه الثالثة، وذكر الحديث، وزاد بعد قوله: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض؛ ينبح بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم. قال: فحدثني الأزهر بن أبي الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ۝ وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: في بلاد ثمود ونحوها، فهلاً اعتبرتم بمساكنهم بعد ما تبين لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن^(٢). وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: «وَبَيَّنَّ لَكُمْ» بنون، والجزم على أنه مستقبل، ومعناه الماضي^(٣)، وليناسب قوله: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾. وقراءة الجماعة: «وَبَيَّنَّ»، وهي مثلها في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياه.

(١) ص ٤١٧ - ٤١٩، ولم نقف عليه في الرقائق لابن المبارك، وقد ذكر المصنف هناك في التذكرة أن ابن المبارك رواه عن الحكم، والحكم هذا: هو ابن ظهير، وهو متروك، واتهمه ابن معين. تقريب التهذيب.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠، والوسيط للواحيدي ٣/ ٣٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٢.

(٣) القراءات الشاذة ص ٦٩، والمحور الوجيز ٣/ ٣٤٥، ونقل فيه ابن عطية أيضاً عن أبي عبد الرحمن أنه قرأ بضم النون ورفع النون الأخيرة، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٧٢.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي: بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة. عن ابن عباس وغيره^(١). ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ «إن» بمعنى «ما» أي: ما كان مكرهم لنزول منه الجبال؛ لضعفه ووهنه. و«إن» بمعنى «ما» في القرآن في مواضع خمسة: أحدها هذا. الثاني: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]. الثالث: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَأَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: ما كنا. الرابع: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]. الخامس: ﴿وَلَقَدْ مَكَرْتُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقرأ الجماعة: «وإن كان» بالنون. وقرأ عمر وعلي^(٢) وابن مسعود وأبي: «وإن كاد» بالdal^(٣). والعامة على كسر اللام في «لنزول» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصباً^(٤). وقرأ ابن مُحَيِّصٍ وابن جُريج والكسائي: «لَنَزُولٍ»^(٥) بفتح اللام الأولى على أنها لامُ الابتداء، ورفع الثانية، و«إن» مخففة من الثقيلة، ومعنى هذه القراءة: استعظام مكرهم، أي: ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال نزول منه^(٦). قال الطبري^(٧): الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة.

قال أبو بكر الأنباري: ولا حجة على مصحف المسلمين في الحديث الذي حدثناه أحمد بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا وكيع بن الجراح، عن

(١) ينظر النكت والعيون ١٤٢/٣ .

(٢) في (ز) و(د) و(م): عمرو بن علي، وهو خطأ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣٧٣/٢ ، والمحتسب ٣٦٥/١ ، والمحزر الوجيز ٣٤٦/٣ ، والنكت والعيون ١٤٣/٣ ، وزاد المسير ٣٧٤/٤ .

(٤) ينظر مشكل إعراب القرآن ٤٠٧/١ .

(٥) قراءة الكسائي من السبعة، وينظر السبعة ص ٣٦٣ ، والتيسير ص ١٣٥ ، وذكرها الطبري ٧٢٠/١٣ عن ابن جريج عن مجاهد.

(٦) ينظر الحجة في القراءات لابن زنجلة ص ٣٧٩ والوسيط ٣٦/٣ ، والمحزر الوجيز ٣٤٦/٣ .

(٧) في تفسيره ٧٢٤/١٣ .

إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن دانيال قال سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: إنَّ جبَّاراً من الجبابرة قال: لا أنتهي حتَّى أعلم من في السماوات، فعَمَدَ إلى فراخ نُسورٍ، فأمر أن تُطعم اللحم، حتى إذا^(١) اشتدَّت وعَضَلَتْ واستعلجت؛ أمر بأن يُتخذَ تابوت يسع فيه رجلين، وأن يُجعلَ فيه عصاً؛ في رأسها لحمٌ شديدٌ حُمُرته، وأن يُستوثقَ من أرجل النُسر بالأوتاد، وتُشدَّ إلى قوائم التابوت، ثم جلس هو وصاحب له في التابوت، وأثَّارَ النُسر، فلما رأت اللحمَ طَلَبَتْه، فجعلت ترفع التابوت، حتى بلغت به ما شاء الله، فقال الجبَّارُ لصاحبه: افتح البابَ فانظر ما ترى؟ فقال: أرى الجبالَ كأنها ذبابٌ. فقال: أغلقِ الباب؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد، فقال الجبَّارُ لصاحبه: افتح البابَ فانظر ما ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء، وما تزداد مِنَّا إلا بُعداً. فقال: نكسِ العصا. فنكسها، فانقضَّت النُسر، فلما وقع التابوت على الأرض سُمِعَتْ له هَذَّةٌ كادت الجبالُ تزولُ عن مراتبها منها. قال: فسمعتُ علياً عليه السلام يقرأ: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولَ» بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية^(٢).

وقد ذكر الثعلبي^(٣) هذا الخبر بمعناه، وأن الجبَّار هو الثُمرود الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه؛ قال عكرمة: كان معه في التابوت غلامٌ أمرد، وقد حمل القوس والنبل، فرمى بهما، فعاد إليه مُلَطَّخاً بالدم، وقال: كُفَيْتَ نَفْسُكَ^(٤) إله السماء. قال عكرمة: تَلَطَّخَ بدم سمكةٍ من السماء، قذفت نفسها إليه من بحرٍ في الهواء مُعلَّق. وقيل: طائرٌ من الطير أصابه السهم، ثم أمر ثُمرودُ صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنكس اللحم،

(١) لفظة: إذا من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ٧٢١/١٣ من طريق وكيع، به وأخرجه الطبري ٧١٨/١٣ من طريق سفيان الثوري، و ٧١٩/١٣ من طريق شعبة، كلاهما عن أبي إسحاق، به. لكن وقع في روايتهما تسمية الراوي عن علي: عبد الرحمن بن أذنان، وهو مجهول، فقد ترجم له البخاري في التاريخ الكبير ٢٥٥/٥، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٢١٠/٥، ولم يذكره عنه راوياً سوى أبي إسحاق، ولم يذكره فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في ثقاته ٨٧/٥ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٣) في عرائس المجالس ص ٩٨ - ٩٩.

(٤) هكذا في النسخ، وفي المراتس: كُفَيْت شغل.

فهبطت النُّسُورُ بالتأبوت، فسمعت الجبالُ حفيفَ التأبوتِ والنُّسُورِ ففزعت، وظنَّت أنه قد حدثَ بها حدثٌ من السماء، وأنَّ الساعةَ قد قامت، فذلك قوله: «وإنَّ كانَ مكرهُم لَنَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ». قال القُشَيْرِيُّ: وهذا جائزٌ بتقدير خلق الحياة في الجبال.

وذكر الماوردي^(١) عن ابن عباس: أنَّ النُّمُروذ بن كنعان بنى الصَّرح في قرية الرِّسِّ من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعاً، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً، وصعد منه مع النُّسُور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذهُ حصناً، وجمع فيه أهله وولده ليتحصَّنَ فيه، فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصَّرحُ عليهم، فهلكوا جميعاً، فهذا معنى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾.

وفي الجبال التي عنى زوالها بمكرهم وجهان: أحدهما: جبال الأرض، والثاني: الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوتِه ورسوخه كالجبال^(٢).

وقال القُشَيْرِيُّ: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: هو عالمٌ بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاءُ مكرهم، فحذف المضاف.

﴿وإنَّ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَنَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ بكسر اللام، أي: ما كان مكرهم مكرّاً يكون له أثرٌ وخطرٌ عند الله تعالى، فالجبالُ مَثَلٌ لأمر النبي ﷺ^(٣). وقيل: «وإنَّ كَانَتْ مَكْرُهُمْ» في تقديرهم «لَنَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ» ويؤثر في إبطال الإسلام. وقُرئ: «لَنَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ» بفتح اللام الأولى وضم الثانية، أي: كان مكرّاً عظيماً نزول منه الجبال^(٤). ولكنَّ اللهَ حَفِظَ رَسُولَهُ ﷺ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبَرًا﴾ [نوح: ٢٢]

(١) في النكت والعيون ١٤٢/٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ١٦٦/٣ - ١٦٧، ومشكل إعراب القرآن ٤٠٧/١، والبيان لابن الأنباري ٦٢/٢، وزاد المسير لابن الجوزي ٣٧٤/٤ - ٣٧٥.

(٤) معاني القرآن للفراء ٧٩/٢. والقراءة المذكورة هي قراءة الكسائي، وقد ذكرها المصنف قريباً.

والجبال لا تزول، ولكنَّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ﴾ اسمُ الله تعالى و«مخلف» مفعولا تحسب؛ و«رُسُلُهُ» مفعول «وَعْدِهِ»، وهو على الاتساع، والمعنى: مخلف رُسُلِهِ وَعْدَهُ^(١) قال الشاعر:

تَرَى الشُّورَ فِيهَا مُذْخِلَ الظِّلِّ رَأْسَهُ وسائِرُهُ بَادٍ إِلَى الشَّمْسِ أَجْمَعُ^(٢)
قال القُتَيْبِيُّ^(٣): هو من المُقَدَّم الذي يوضّحه التأخير، والمؤخَّر الذي يوضّحه التقديم، وسواءٌ في قولك: مخلف وعده رسله، ومخلف رسله وعده.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ أي: من أعدائه. ومن أسمائه: المنتقم، وقد بيّناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»^(٤).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٥٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٥٩ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَقَشَّى وَجُوهُهُمُ النَّارُ ٦٠ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٦١ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ أي: أذكرُ يومَ تبدّل الأرض، و«غير» نعتٌ لمحذوف، التقدير: أرضاً غير الأرض. ويحتمل أن يكون المراد: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

(١) وقع في النسخ غير (ظ): مخلف وعده رسله، وفي (ظ): رسله وعده، دون لفظة: مخلف، والمثبت من مشكل إعراب القرآن ٤٠٨/١ .

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٨٠/٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣٧٣/٢ ، والبيان لابن الأنباري ٦٢/٢ .

(٣) في تأويل مشكل القرآن ص ١٤٨ .

(٤) لم نقف عليه في المطبوع منه.

ذو انتقام يوم تُبَدَّلُ الأرض^(١)، فيكون متعلقاً^(٢) بما قبله. وقيل: هو صفة لقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(٣).

واختُلِفَ في كيفية تبديل الأرض، فقال كثير من الناس: إنَّ تبَدُّلَ الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدُّ أرضها. ورواه ابن مسعود رضي الله عنه، خرَّجه ابن ماجه في «سننه»^(٤). وذكره ابن المبارك من حديث شهر بن حوشب قال: حدَّثني ابن عباس قال: إذا كان يوم القيامة مدَّت الأرض مدَّ الأديم، وزيد في سعتها كذا وكذا؛ وذكر الحديث^(٥).

وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة، أنَّ النبي ﷺ قال: «تُبَدَّلُ الأرض غير الأرض، فيبسُّطها ويمدُّها مدُّ الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى، مَنْ كان في بطنها ففي بطنها، ومَنْ كان على ظهرها كان على ظهرها» ذكره العزَّنوي^(٦).

وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها. قاله ابن عباس. وقيل: اختلاف أحوالها، فمرة كالمُهَل ومرة كالدهان. حكاه ابن الأنباري^(٧). وقد ذكرنا هذا الباب مُبيناً في كتاب «التذكرة»^(٨) وذكرنا ما للعلماء في ذلك، وأنَّ الصحيح إزالة هذه

(١) من قوله: «وغير» إلى هذا الموضع من (ظ).

(٢) المثبت من (ظ)، وفي باقي النسخ: فتكون متعلقة.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ١٦٩/٣.

(٤) برقم (٤٠٨١)، وأخرجه أحمد (٣٥٥٦) عن ابن مسعود مرفوعاً، وفي إسنادهما مؤثر بن عفازة، وهو مجهول.

(٥) الزهد لابن المبارك - زوائد نعيم بن حماد - (٣٥٣)، وشهر بن حوشب ضعيف.

(٦) وأخرجه الطبري ١٣/٧٣٥ - ٧٣٦ من طريق إسماعيل بن رافع القاص، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة مرفوعاً. إسماعيل بن رافع ويزيد بن أبي زياد متروكان. ميزان الاعتدال ١/٢٢٧ و ٤/٤٢٥.

(٧) نقله عنهما ابن الجوزي في زاد المسير ٤/٣٧٦.

(٨) ص ١٩٠ - ١٩٣.

الأرض حسب ما ثبت عن النبي ﷺ:

روى مسلم^(١) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ، فجاءه خبرٌ من أحبار اليهود فقال: السلامُ عليك... وذكر الحديث، وفيه: فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماءات؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظُّلْمةِ دونَ الجِسرِ»^(٢). وذكر الحديث.

وخرَّجَ عن عائشة قالت: سئِلَ رسولُ الله ﷺ عن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ فآين يكون الناسُ يومئذٍ؟ قال: «على الصراط». خرَّجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء، وخرَّجه الترمذي عن عائشة وأنها هي السائلة، وقال: هذا حديث حسن صحيح^(٣).

فهذه الأحاديث تنصُّ على أنَّ السماءاتِ والأرضَ تُبدَّل وتُزال، ويخلق الله أرضاً أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسر.

وفي «صحيح مسلم» عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ الثَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ»^(٤).

وقال جابر: سألتُ أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال: تُبَدَّلُ خُبْزَةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثم قرأ: ﴿وَمَا

(١) في صحيحه (٣١٥).

(٢) أي: الصراط. إكمال المعلم ٦٥٣/٢.

(٣) صحيح مسلم (٢٧٩١)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٩)، وسنن الترمذي (٣١٢١)، وهو في مسند أحمد (٢٤٠٦٩).

(٤) صحيح مسلم (٢٧٩٠)، وأخرجه البخاري (٦٥٢١)، وقوله: «ليس فيها علمٌ لأحد» ليس من كلام النبي ﷺ، وجله التصريح بذلك في رواية البخاري، وثبَّه الحافظ في الفتح ٣٧٥/١١ على أن هذه العبارة أُدرجت في الحديث في رواية مسلم. ومعناه: أنه ليس فيها علامة سكنى أو بناء أو أثر. والعفراء: البيضاء المائلة إلى الحمرة؛ والثَّقِيُّ: هو الدقيق الحوري، وهو الدرملك. شرح صحيح مسلم للنووي ١٣٤/١٧.

جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴿١﴾ [الأنبياء: ٨].

وقال ابن مسعود: إنها تُبَدَّلُ بأَرْضٍ غَيْرِهَا بِيضَاءَ كَالْفَضَّةِ، لَمْ يُعْمَلْ عَلَيْهَا خَطِيئَةٌ^(٢). وقال ابن عباس: بأَرْضٍ مِنْ فَضَّةٍ بِيضَاءَ^(٣). وقال عليٌّ ؑ: تُبَدَّلُ الْأَرْضُ يَوْمَئِذٍ مِنْ فَضَّةٍ، وَالسَّمَاءُ مِنْ ذَهَبٍ^(٤). وَهَذَا تَبْدِيلُ الْعَيْنِ، وَحُسْبُكَ. ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أَي: مِنْ قُبُورِهِمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ وَهُمْ الْمَشْرُكُونَ. ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿مُتَقَرِّنِينَ﴾ أَي: مُشْدُودِينَ ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾: وَهِيَ الْأَغْلَالُ وَالْقِيُودُ، وَاحِدُهَا صَفْدٌ وَصَفْدٌ. وَيُقَالُ: صَفَدْتُهُ صَفْدًا، أَي: قَيْدْتُهُ، وَالاسْمُ: الصَّفْدُ، فَإِذَا أُرِدَتْ التَّكْثِيرُ قُلْتُ: صَفَدْتُهُ تَصْفِيدًا؛ قَالَ عَمْرُو بْنُ كُثُومٍ^(٥):

فَأَبَوْا بِالنُّهَابِ وَبِالسَّابَا وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَ
أَي: مَقِيدِينَ. وَقَالَ حَسَنٌ^(٦):

مِنْ كُلِّ مَأْسُورٍ يُشَدُّ صِفَادُهُ صَفِيرٌ إِذَا لَاقَى الْكَرْهَةَ حَامِي
أَي: غَلُّهُ، وَأَصْفَدْتُهُ إِصْفَادًا: أَعْطَيْتُهُ. وَقِيلَ: صَفَدْتُهُ وَأَصْفَدْتُهُ جَارِيَانٍ فِي الْقَيْدِ وَالْإِعْطَاءِ جَمِيعًا؛ قَالَ النَّابِغَةُ:

(١) مجمع البيان ١٣/٢٣٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٧٢٩ و ٧٣٠، وأبو الشيخ في العظمة (٦٠٠)، والحاكم ٤/٥٧٠ وصحَّح إسناده. وأخرجه البزار (١٨٥٩)، والطبراني في الكبير (١٠٣٢٣)، وفي الأوسط (٧١٦٧)، وابن عدي ٢/٥٤٧ عن ابن مسعود مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٣٤٥: رواه البزار، وفي إسناده جرير بن أيوب، وهو مجتمَعٌ على ضعفه.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/٧٣٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/٧٣٤ وفيه «الجنة» بدل «السماء».

(٥) في معلقته ص ١٠٠.

(٦) ديوانه ص ٢١٥.

فَلَمْ أُعَرِّضْ أَبْنَيْتَ اللُّغْنَ بِالصَّفَدِ^(١)

فَالصَّفَدُ: العطاء؛ لأنه يُقَيَّدُ وَيُعَبَّدُ^(٢)؛ قال أبو الطيب:

وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيِّدًا تَقَيَّدَا^(٣)

قيل: يُقَرَّنُ كُلُّ كَافِرٍ مَعَ شَيْطَانٍ فِي غُلٍّ، بيانه قوله: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْرَجَهُمْ﴾

[الصفات: ٢٢] يعني: قرناءهم من الشياطين. وقيل: إنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي^(٤).

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ﴾ أي: قُمُصُهُمْ. عن ابن دُرَيْد وغيره، واحدها سِرْبَال^(٥)،

والفعل: تَسْرِبُلْتُ وَسَرِبِلْتُ غَيْرِي؛ قال كعب بن مالك:

تَلَقَّاكُمْ عَصَبَ حَوْْلِ النَّبِيِّ لَهُمْ مِنْ نَسِجٍ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ^(٦)

﴿مِنْ قَطَرَانٍ﴾ يعني: قَطَرَانِ الْإِبِلِ الَّذِي تُهْنَأُ بِهِ. قاله الحسن^(٧). وذلك أَبْلَغُ

لَا شَتَالَ النَّارَ فِيهِمْ^(٨).

وفي الصحيح: أَنَّ النَّائِحَةَ إِذَا لَمْ تَتَّبِ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ

مِنْ قَطَرَانٍ وَدُرْعٌ مِنْ جَرَبٍ^(٩). وَرُوي عَنْ جَمَاعَةٍ^(١٠) أَنَّهُمْ قَالُوا: هُوَ النَّحَاسُ^(١١).

(١) وصدرة: هذا الثناء فَإِنْ تَسَمَّعَ بِهِ حَسَنًا، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٣٧.

(٢) أي: يُدَلَّلُ.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ١٥/٢. وقوله: ذَرَاكَ، أي: كنفك. الصحاح (ذرا).

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٢/١٤٨-١٤٩، والنكت والعيون ٢/١٤٤-١٤٥.

(٥) جمهرة اللغة ٣/٣٠٥ لابن دريد، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٤٥ والنكت والعيون للماوردي ٣/١٤٥.

(٦) ديوان كعب ص ٢٠٣، وفيه: مِمَّا يُؤَدُّونَ لِلْهَيْجَا، بدل: مِنْ نَسِجٍ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا.

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٣/٧٤٣، ونقله أبو الليث في تفسيره ٢/٢١٢، والماوردي في النكت والعيون ٣/١٤٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/٣٧٧.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/١٧٠.

(٩) صحيح مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري، وأخرجه أحمد (٢٢٩٠٣).

(١٠) من (ظ)، وفي بقية النسخ: حماد.

(١١) أخرجه الطبري ١٣/٧٤٣، ٧٤٤ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقرأ عيسى بن عمر: «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وتسكين الطاء^(١). وفيه قراءة ثالثة: كسر القاف وجزم الطاء^(٢)؛ ومنه قول أبي النجَم:

جَوْنٌ كَانَ الْعَرَقُ الْمَنْتُوحَا لَبَّسَهُ الْقِطْرَانُ وَالْمُسُوحَا^(٣)

وقراءة رابعة: «مِنْ قِطْرِ أَنْ» رُويت عن ابن عباس وأبي هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير ويعقوب^(٤). والقَطْرُ: النحاس، والصُّفْرُ المَذَابُ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ءَاتَوْهُ أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]. و«أَنْ»^(٥): الذي قد انتهى حرُّه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّينَا جَمِيمٌ إِنَّ﴾^(٦) [الرحمن: ٤٤].

﴿وَنَفْسٌ﴾ أي: تضرب ﴿وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ فَتُعْشِشُهَا. ﴿يَجْزِي اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: بما كسبت. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ تقدّم^(٧).

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: هذا الذي أنزلنا إليك بلاغٌ؛ أي: تبليغٌ وعِظَةٌ. ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ أي: لِيُخَوِّفُوا عِقَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقُرِئَ: «وَلِيُنذِرُوا» بفتح الياء والذال^(٨)، يقال: نَذَرْتُ بِالشَّيْءِ أَنْذَرْتُ: إذا علمت به فاستعددت له، ولم يستعملوا منه مصدراً كما لم يستعملوا من عسى وليس، وكأنهم استغنوا بأن والفعل، كقولك: سَرَّنِي أَنْ نَذَرْتُ بِالشَّيْءِ.

(١) ذكر الطبري ٧٤٢/١٣ أن عيسى بن عمر كان يقرأ: «من قِطْرَانٍ» بكسر القاف، أما قراءة فتح القاف وإسكان الطاء فقد ذكرها أبو حيان في البحر ٤٤٠/٥ عن عمر وعلي؛

(٢) وهي قراءة عيسى بن عمر فيما ذكره الطبري كما في التعليق السابق.

(٣) ديوان أبي النجم ص ٨٣. قوله: جَوْنٌ، أي: أسود، أو أبيض (ضدٌّ). أو الأسود المشرب حمرة. والمُسُوح: جمع مِسْح، وهو الكساء من الشعر.

(٤) القراءات الشاذة ص ٧٠، والمحتسب ٣٦٦/١. وينظر المحرر الوجيز ٣٤٨/٣، وزاد المسير ٣٧٧/٤. والقراءة المشهورة عن يعقوب - وهو من العشرة - قراءة الجماعة.

(٥) من (ظ)، وفي غيرها: الآن.

(٦) معاني القرآن للزجاج ١٧٠/٣، والنكت والعيون ١٤٥/٣.

(٧) ٣٦٠ - ٣٥٩/٣.

(٨) المحتسب ٣٦٧/١.

﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي: وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين. ﴿وَلْيَذْكُرُوا الْأَنْبِيَاءَ﴾ أي: وليتّعظ أصحاب العقول^(١). وهذه اللامات في «وَلْيُنْذَرُوا» «وَلْيَعْلَمُوا» «وَلْيَذْكُرُوا» متعلقة بمحذوف؛ التقدير: ولذلك أنزلناه^(٢).
وروى يمان بن رثاب أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(٣).
وسئل بعضهم: هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم. قيل: وأين هو؟ قال: قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ إلى آخرها.

تم تفسير سورة إبراهيم عليه السلام، والحمد لله.

(١) النكت والعيون للماوردي ١٤٦/٣ ، والوسيط للواحدي ٣٧/٣ .

(٢) ينظر الوسيط للواحدي ٣٧/٣ ، وزاد المسير ٣٧٨/٤ .

(٣) النكت والعيون ١٤٦/٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الحجر

قوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ ①

تقدّم معناه^(١). و«الكتاب» قيل فيه: إنّه اسمٌ لجنسِ الكتب المتقدّمة من التوراة والإنجيل، ثم قرّنهما بالكتابِ المبين. وقيل: الكتابُ هو القرآن، جَمَعَ له بينَ الاسمين^(٢).

قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ②

«رُبَّ» لا تدخلُ على الفعل، فإذا لَحَقَتْها «ما»؛ هيأتها^(٣) للدخول على الفعل، تقولُ: رُبّما قام زيدٌ، وربما يقومُ زيد. ويجوزُ أن تكونَ «ما» نكرةً بمعنى شيء، و«يودُّ» صفةٌ له، أي: رُبَّ شيءٍ يودُّ الكافر^(٤).

وقرأ نافعٌ وعاصمٌ: «رُبّما» مخفّف الباء. الباكون مشدّدة^(٥)، وهما لغتان. قال أبو حاتم: أهلُ الحجازِ يُخَفِّفُونَ «رُبّما»^(٦)؛ قال الشاعر^(٧):

(١) ٤٤٥/١٠ - ٤٤٧ .

(٢) ينظر النكت والعيون للماوردي ١٤٧/٣ .

(٣) في (ظ) و(د) و(ز): لحقه... هياء.

(٤) ينظر تفسير الطبري ٦/١٤ ، ومعاني القرآن للأخفش ٦٠٢/٢ ، ومعاني القرآن للزجاج ١٧٣/٣ ، وأمالى ابن السجري ٥٦٦/٢ - ٥٦٧ .

(٥) السبعة ص ٣٦٦ ، والتيسير ص ١٣٥ .

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣٧٥/٢ .

(٧) هو عدي بن الرّعاء الغسّاني، وسلف البيت ١٢/٥ .

رُبَّمَا ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ صَقِيلٍ بَيْنَ بُضْرَى وَطَعْنَةٍ نَجْلَاءٍ
وَتَمِيمٍ وَقَيْسٍ وَرَبِيعَةٍ يُثْقَلُونَهَا^(١). وَحُكِّيَ فِيهَا: رَبَّمَا وَرَبَّمَا، وَرَبَّتَمَا وَرَبَّتَمَا،
بتخفيف الباء وتشديدها أيضاً^(٢). وَأَصْلُهَا أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي الْقَلِيلِ، وَقَدْ تُسْتَعْمَلَ فِي
الكثير، أي: يَوَدُّ الْكَفَّارُ فِي أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ^(٣)؛ قَالَه الْكُوفِيُّونَ. وَمِنْهُ
قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَلَا رَبَّمَا أَهَذَتْ لَكَ الْعَيْنُ نَظْرَةً قُصَارَاكَ مِنْهَا أَنَّهَا عَنْكَ لَا تُجْدِي^(٤)
وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ لِلتَّقْلِيلِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ
لَا فِي كُلِّهَا^(٥)؛ لَشَغْلِهِمْ بِالْعَذَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ: «رَبَّمَا يَوَدُّ» وَهِيَ إِنَّمَا تَكُونُ لَمَّا
وَقَعَ؛ لِأَنَّهُ لِيَصْدَقَ الْوَعْدُ كَأَنَّهُ عِيَانٌ قَدْ كَانَ.

وخرَجَ الطَّبْرَانِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ النَّارَ بِذُنُوبِهِمْ، فَيَكُونُونَ فِي النَّارِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونُوا، ثُمَّ
يُعَيِّرُهُمْ أَهْلُ الشَّرْكِ^(٦)، فَيَقُولُونَ: مَا نَرَى مَا كُنْتُمْ تُخَالِفُونَا فِيهِ مِنْ تَصَدِيقِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ
نَفَعَكُمْ، فَلَا يَبْقَى مَوْحِدٌ إِلَّا أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، ثُمَّ قرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿رَبَّمَا يَوَدُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾^(٧)».

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣٧٥/٢، وفيه: «بكر» بدل «ربيعة».

(٢) وقال ابن هشام في المغني ص ١٨٤: وفي ربِّ ستَّ عشرةً لغةً: ضمُّ الراء وفتحها، وكلاهما مع التشديد والتخفيف، والأوجه الأربعة مع تاء التانيث ساكنة أو محركة ومع التجرد منها، فهذه اثنتا عشرة، والضمُّ والفتح مع إسكان الباء، وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف.

(٣) ينظر النكت والعيون ١٤٨/٣، والمحجر الوجيز ٣٤٩/٣.

(٤) في (د) و(ز): تجزي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ١٤٨/٣.

(٥) النكت والعيون ١٤٨/٣.

(٦) في (ظ): النار.

(٧) المعجم الأوسط للطبراني (٥١٤٢)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٩٢/٤ لابن مردويه، وصححه إسناده. وقال الهيثمي في المجمع ٣٧٩/١٠: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، غير بسام الصيرفي وهو ثقة.

قال الحسن: إذا رأى المشركون المؤمنين^(١) وقد دخلوا الجنة، ومأواهم^(٢) في النار، تمنّوا أنّهم كانوا مسلمين. وقال الضّحّاك: هذا التمنيّ إنّما هو عند المعاينة في الدنيا حين تبين^(٣) لهم الهدى من الضلالة. وقيل: في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين، ودلّ الكافرين^(٤).

قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(٥)
فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ تهديد لهم. ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي: يشغلهم عن الطاعة. يُقال: ألْهَاهُ عن كذا، أي: شغله، وَلَهِيَ هو عن الشيء يَلْهَى^(٥). ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا رأوا القيامة، وذاقوا وبأل ما صنعوا. وهذه الآية منسوخة بالسيف^(٦).

الثانية: في «مسند» البزار، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة من الشقاء: جُمُودُ العين، وقساوة^(٧) القلب، وطولُ الأمل، والجِرْصُ على الدنيا»^(٨).
وطولُ الأمل داءٌ عُضالٌ ومرضٌ مُزْمَنٌ، ومتى تمكّن من القلب فسَدَ مزاجُه، واشتدَّ علاجه، ولم يفارقه داءٌ، ولا نَجْعٌ^(٩) فيه دواء، بل أعيا الأطباء، ويشس من

(١) في (د) و(ز) و(م): المسلمين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ١٤٨/٣.

(٢) في (ظ) و(د) و(ز): وما رأوهم، وفي النكت والعيون ١٤٨/٣: وصارواهم.

(٣) في (ظ): حتى يتبين.

(٤) النكت والعيون ١٤٧/٣ - ١٤٨.

(٥) تهذيب اللغة ٤٢٨/٦.

(٦) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/٣٥٠، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/٣٨٢، وآية السيف هي قوله تعالى: ﴿فَأَقْضُوا لِلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

(٧) في (د) و(ز): وقساء.

(٨) كشف الأستار (٣٢٣٠)، وسلف ٢/٢٠٥، وتقلنا ثمة كلام الذهبي فيه: حديث منكر.

(٩) في (ظ): ينجع.

بُرْئِهِ الْحُكَمَاءُ وَالْعُلَمَاءُ. وَحَقِيقَةُ الْأَمَلِ: الْحَرَصُ عَلَى الدُّنْيَا، وَالْانْكَبَابُ عَلَيْهَا، وَالْحُبُّ^(١) لَهَا، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْآخِرَةِ.

وَرُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «نَجَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْيَقِينِ وَالزَّهْدِ، وَيَهْلِكَ آخِرُهَا بِالْبَخْلِ وَالْأَمَلِ»^(٢).

وَيُرَوَّى عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ؓ، أَنَّهُ قَامَ عَلَى دَرَجٍ مَسْجِدَ دِمَشْقَ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ دِمَشْقَ، أَلَا تَسْمَعُونَ مِنْ أَخٍ لَكُمْ نَاصِحٍ، إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ كَانُوا يَجْمَعُونَ كَثِيرًا، وَيَبْنُونَ مُشِيدًا، وَيَأْمُلُونَ بَعِيدًا، فَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُورًا، وَبِنَائُهُمْ قُبُورًا، وَأَمْلُهُمْ غُرُورًا، هَذِهِ عَادَةٌ قَدْ مَلَأَتْ الْبِلَادَ أَهْلًا وَمَالًا، وَخِيَلًا وَرَجَالًا، فَمَنْ يَشْتَرِي مِنِّي الْيَوْمَ تَرْكَتَهُمْ بِدَرَاهِمِينَ^(٣)؟! وَأَنْشُدَ^(٤):

يَا ذَا^(٥) الْمُؤْمَلُ أَمَالًا وَإِنْ بَعُدْتَ مِنْهُ وَيَزْعُمُ أَنْ يَحْظَى بِأَقْصَاهَا
أَنْتَى تَفُوزُ بِمَا تَرْجُوهُ وَنَيْكَ وَمَا أَصْبَحْتَ فِي ثِقَةٍ مِنْ نَيْلِ أَدْنَاهَا
وَقَالَ الْحَسَنُ: مَا أَطَالَ عَبْدٌ الْأَمَلَ إِلَّا أَسَاءَ الْعَمَلَ. وَصَدَقَ ﷺ؛ فَالْأَمَلُ يُكْسِلُ
عَنِ الْعَمَلِ^(٦)، وَيُورِثُ التَّرَاحِيَّ وَالتَّوَانِيَّ، وَيُعَقِّبُ التَّشَاغَلَ وَالتَّقَاعُسَ، وَيُخْلِدُ إِلَى

(١) فِي (ظ): وَالْحُبُّ.

(٢) أَخْرَجَهُ بِهَذَا اللَّفْظِ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي الْيَقِينِ (٣) مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ لَهِيْعَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ. وَأَوْرَدَهُ الْمُنْذَرِيُّ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ (٤٨٩٦). وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ لَهِيْعَةَ ضَعِيفٌ.

وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ (٧٦٤٦)، وَالْخَطِيبُ فِي تَارِيخِ بَغْدَادَ ١٨٦/٧، وَالْمِزِّي فِي تَهْذِيبِ الْكَمَالِ ١٠٦/٥ - ١٠٧، مِنْ طَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَيْسَرَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، مَرْفُوعًا. قَالَ الْمُنْذَرِيُّ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ (٤٧٠٢) وَ(٤٨٩٥): إِسْنَادُهُ مُحْتَمِلٌ لِلتَّحْسِينِ، وَمَتْنُهُ غَرِيبٌ.

(٣) أَخْرَجَهُ - مُخْتَصَرًا مَطْوَلًا - ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي الزَّهْدِ (٨٤٧)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ٣٠٥/١٣ - ٣٠٦، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَةِ ٢١٣/١، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (١٠٧٣٩) وَ(١٠٧٤٠)، وَالْخَطِيبُ فِي تَارِيخِ بَغْدَادَ ٩٥/٤ - ٩٦.

(٤) فِي (ظ): وَأَنْشَدُوا، وَلَمْ تَقَفْ عَلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ.

(٥) فِي (ظ): يَأْتِي.

(٦) فِي (ظ): فَالْعَمَلُ يَكْسِلُ عَنْهُ الْأَمَلُ.

الأرض، ويُميلُ إلى الهوى. وهذا أمرٌ قد شُهِد بالعيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يُطْلَب صاحبه ببرهان، كما أنَّ قِصْر الأمل يبعث على العمل، ويَحْمِلُ^(١) على المبادرة، ويحثُّ على المسابقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝٥﴾

أي: أجلٌ مؤقَّتٌ كُتِبَ لهم في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ۝٦﴾

«من» صلة؛ كقولك: ما جاءني من أحد، أي: لا تتجاوزُ أَجَلَهَا فتزیدُ عليه، ولا تتقدَّم قبله^(٢). ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٧﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧﴾

قاله كفارُ قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء، ثم طلبوا منه إتيانَ الملائكة دَلَالَةً على صدقه. و«لَوْ مَا» تحضيضٌ على الفعل، كـ «لولا» و«هَلَّا»^(٣). وقال الفراء: الميم في «لو ما» بدلٌ من اللام في «لولا». ومثله: استولى على الشيء. واستَوَمَى عليه، ومثله: خالطته وخاللته، فهو خَلِيٌّ وخِلْمِي، أي: صديقي^(٤).

وعلى هذا يجوز «لو ما» بمعنى الخبر، تقول: لوما زيدٌ لَضَرْبِ عمرو. قال الكسائي: لولا ولوما سواءٌ في الخبر والاستفهام. قال ابن مِقْبِل:

لَوْ مَا الْحَيَاءُ وَلَوْ مَا الدِّينُ عِبْتُكَمَا ببعض ما فيكما إذ عِبْتُمَا عَوْرِي^(٥)

(١) في (د) و(ز) و(م): ويحيل.

(٢) ينظر زاد المسير لابن الجوزي ٣٨٣/٤.

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٤٠/٣، وزاد المسير ٣٨٣/٤.

(٤) تفسير الرازي ١٥٩/١٩، وينظر اللسان (ولي).

(٥) في (ظ) و(ز): عَوْدِي، والبيت في ديوان ابن مقبل - وهو تميم - ص ٧٦، وفيه: لولا، بدل: لوما =

يريد: لولا الحياء.

وحكى النحاس^(١): لوما، ولولا، وهلاً؛ واحد. وأنشد أهل اللغة على ذلك:
تَعْدُونَ عَقَرَ النَّيْبِ^(٢) أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ بني ضَوْطَرَى لولا الْكَمِيِّ الْمُقْنَعَا^(٣)
أي: هلاً تَعْدُونَ الْكَمِيِّ الْمُقْنَعَا.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ٨

قرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ واختاره أبو عبيد.
وقرأ أبو بكر والمفضل: ﴿مَا تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾. الباقر: ﴿مَا تُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(٤).
وتقديره: ما تنزل؛ بتاءين، حذف إحداهما تخفيفاً، وقد شدد التاء البرزي^(٥)،
واختاره أبو حاتم اعتباراً بقوله: ﴿نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ﴾ [القدر: ٤].

ومعنى ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: إلا بالقرآن. وقيل: بالرسالة؛ عن مجاهد. وقال الحسن:
إلّا بالعذاب إن لم يؤمنوا^(٦). ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ أي: لو تنزلت الملائكة
بإهلاكهم؛ لما أمهلوا، ولا قبلت لهم توبة. وقيل: المعنى: لو تنزلت الملائكة تشهد
لك، فكفروا بعد ذلك؛ لم يُنْظَرُوا^(٧). وأصل «إذا»: إذ أن^(٨)، ومعناه: حينئذ، فُضِمَ

= في الموضوعين، ورواية المصنف في تفسير الطبري ١٥/١٤، ومجاز القرآن ٣٤٦/١.

(١) في معاني القرآن ١٠/٤.

(٢) في (د) و(ز): النبت.

(٣) البيت لجريز، وهو في ديوانه ٩٠٧/٢، وسلف ٣٤٢/٢ ونسبه المصنف ثمة للأشهب بن رُميلة،
٣٦٨/٨.

(٤) السبعة ص ٣٦٦، والتيسير ص ١٣٥، وأبو بكر: هو شعبة راوي عاصم.

(٥) التيسير ص ٨٣.

(٦) النكت والعيون ١٤٩/٣، وأثر مجاهد في تفسيره ٣٣٩/١، وأخرجه عنه الطبري ١٧/١٤ - ١٨.

(٧) ينظر الوسيط للواحدى ٤٠/٣، وتفسير السمرقندي ٢١٥/٢، والمحزر الوجيز ٣٥١/٣.

(٨) نسبه المالقي في رصف المباني في شرح حروف المعاني ص ٦٩ - ٧٠ إلى الكوفيين، ثم رده من
وجهين، أحدهما: أن الأصل في الحروف البساطة، ولا يدعى التركيب إلا بدليل قاطع. والثاني: أنها
لو كانت مركبة من «إذ» و«أن» لكانت ناصبة على كل حال، تقدمت أو تأخرت، وعدم العمل أحياناً
دليل على عدم التركيب.

إليها أن، واستقلوا الهمزة فحذفوها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يزداد فيه أو يُنقص منه^(١). قال قتادة وثابت البناني: حفظه الله من أن يزيد فيه الشياطين باطلاً، أو تنقص منه حقاً^(٢). فتولّى سبحانه حفظه، فلم يزل محفوظاً، وقال في غيره: ﴿يَمَا أَسْتَحْفِظُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، فوكل حفظه إليهم، فبدّلوا وغيروا^(٣).

أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله^(٤)، عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن عليّ بن خلف بن معزوز الكومي التلمساني قال: قرئ على الشيخة العالمية فخر النساء شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج الدينوري، وذلك بمنزلها بدار السلام في آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمس مائة، قيل لها: أخبركم الشيخ الأجلّ العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربع مائة، أخبرنا عليّ بن عبد الله بن إبراهيم، حدّثنا أبو علي عيسى بن محمد بن أحمد بن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المعروف بالطوماري، حدّثنا الحسين بن فهم قال: سمعت يحيى بن أكثم^(٥) يقول: كان للمأمون - وهو أميرٌ إذ ذاك^(٦) - مجلسٌ نظر، فدخل في جملة الناس رجلٌ يهودي حسن الثوب، حسن الوجه، طيب الرائحة. قال: فتكلّم، فأحسن الكلام

(١) معاني القرآن للزجاج ١٧٤/٣.

(٢) أخرجه عنهما عبد الرزاق في التفسير ٣٤٥/١، وأخرجه عن قتادة الطبري في التفسير ١٨/١٤ - ١٩.

(٣) بداية سقط في (ط).

(٤) هو: عبد الله بن علي بن خلف بن معزوز الكومي، ذكره الصفدي في الوافي بالوفيات ٤٧٩/١٥ - ٤٨٢ في ترجمة سنجر الأمير علم الدين الدواداري في عداد شيوخه، وقد روى عنه سنجر بمعية بني خصب.

(٥) هو: قاضي القضاة أبو محمد، يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن، ولد في خلافة المهدي، وكان من أئمة الاجتهاد، وله تصانيف منها كتاب «التنبيه». (ت ٢٤٢هـ). أخبار القضاة لوكيع ١٦١/٢، وسير أعلام النبلاء ٥/١٢.

(٦) قوله: وهو أميرٌ إذ ذاك، ليس في (د)، وفي المنتظم لابن الجوزي ٥١/١٠: قبل تقلده الخلافة.

والعبارة. قال: فلما تقوَّض المجلس، دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟ قال: نعم. قال له: أسلم حتى أفعل لك^(١) وأصنع. ووعده. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف. قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مُسلماً، قال: فتكلّم على الفقه، فأحسن الكلام، فلما تقوَّض المجلس، دعاه المأمون وقال: ألسنت صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك، فأحببتُ أن أمتحنَ هذه الأديانَ، وأنت تراني حسنَ الخط، فعمدتُ إلى التوراة، فكتبتُ ثلاث نسخ، فزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة، فاشترت مني، وعمدتُ إلى الإنجيل، فكتبتُ ثلاث نسخ، فزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة، فاشترت مني، وعمدتُ إلى القرآن، فعملت ثلاث نسخ، وزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها، فلم يشتروها، فعلمتُ أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي.

قال يحيى بن أكثم: فَحَجَجْتُ تلك السنة، فلقيت سفيانَ بنَ عُيينة، فذكرت له الخبر، فقال لي: مُصدّقُ هذا في كتاب الله عزَّ وجلَّ. قال: قلت: في أيِّ موضع؟ قال: في قولِ الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: ﴿يَمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فجعلَ حِفْظَه إليهم فضاع، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فحفظه الله عزَّ وجلَّ علينا فلم يَضِعْ^(٢).

وقيل: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: لمحمد ﷺ من أن يتقول علينا، أو يُقول^(٣) عليه.

أو ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يُكاد أو يُقتل^(٤). نظيره ﴿وَاللَّهُ يَتَوَسَّلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

[المائدة: ٦٧].

(١) في النسخ: بك، والمثبت من المتظم ٥١/١٠.

(٢) نهاية السقط في (ظ)، والقصة بتمامها في المتظم ٥١/١٠.

(٣) في (د) و(ز) و(م): تقول، والمثبت من (ظ).

(٤) ينظر معاني القرآن للفراء ٨٥/٢، وتفسير الطبري ١٩/١٤، والمحرر الوجيز ٣/٣٥١ - ٣٥٢. والكشاف ٢/٣٨٨.

و«نحن» يجوز أن يكون موضعه رفعاً بالابتداء و«نزلنا» الخبر. والجملة خبر «إن». ويجوز أن يكون «نحن» تأكيداً لاسم «إن» في موضع نصب^(١)، ولا تكون فاصلة^(٢)؛ لأنّ الذي بعدها ليس بمعرفة، وإنّما هو جملة، والجملة تكون نعتاً^(٣) للنكرات، فحكمها حكم النكرات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾

المعنى: ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً، فحذف. والشَّيْعُ جمعُ شبيعة، وهي الأُمَّة، أي: في أممهم؛ قاله ابنُ عباسٍ وقتادة. الحسن: في فريقهم. والشَّيْعَةُ: الفرقة والطائفة من الناس المتألفة المتفقة الكلمة، فكان الشَّيْعُ الْفِرْقُ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْسَنُكُمْ شَيْعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]، أي: فرقا^(٤)، وأصله مأخوذ من الشَّياع، وهو الحطب الصغار يوقد به الكبار، كما تقدّم في «الأنعام»^(٥). وقال الكلبي: إنّ الشَّيْعَ هنا القُرَى^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

تسليّة للنبي ﷺ، أي: كما فعل بك هؤلاء المشركون، فكذلك فعل بمن قبلك من الرسل^(٧).

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ﴾ أي: الضلال والكفر، والاستهزاء والشرك. ﴿فِي﴾

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣٧٧/٢ .

(٢) وجوّزه النحاس في إعراب القرآن ٣٧٧/٢ .

(٣) في (ظ): والجملة تكون نعتاً.

(٤) ينظر النكت والعيون ١٤٩/٣ ، والوسيط ٤٠/٣ ، وزاد المسير ٣٨٤/٤ - ٣٨٥ ، وتفسير الطبري ١٩/١٤ .

(٥) ٤١٤/٨ .

(٦) النكت والعيون ١٥٠/٣ ، وفيه «القبائل» بدل «القُرَى»، وما عندنا نسخة في هامشه.

(٧) المحرر الوجيز ٣٥٢/٣ ، والوسيط ٤٠/٣ ، وزاد المسير ٣٨٥/٤ .

قُلُوبِ الْمُتَجَرِّمِينَ ﴿١﴾ من قومك، عن الحسن وقتادة وغيرهما. أي: كما سلكناه في قلوب من تقدم من شيع الأولين؛ كذلك نسلكه في قلوب مشركي قومك حتى لا يؤمنوا بك، كما لم يؤمن من قبلهم برسولهم. وروى ابن جريج عن مجاهد قال: نسلكت التكبذب^(١). والسُّلُكُ: إدخال الشيء في الشيء، كإدخال الخيط في المِخِيط. يُقال: سَلَكَه يَسْلُكُه سَلَكًا وَسَلُوكًا، وأَسْلَكَه إِسْلَاكًا. وَسَلَكَ الطريقَ سُلُوكًا وَسَلَكًا، وَأَسْلَكَه: دخله، والشيء في غيره مثله، والشيء كذلك، والرُّمَحَ، والخِيطَ في الجوهر، كُلُّهُ فَعَلَ وَأَفْعَلَ^(٢). وقال عدي بن زيد:

وقد سلكتوك في يوم عَصِيبٍ^(٣)

والسُّلُكُ، بالكسر الخِيطُ وفي الآية ردُّ على القَدَرِية والمعتزلة.

وقيل: المعنى: نسلكت القرآن في قلوبهم، فيكذبون به. وقال الحسن ومجاهد وقتادة القول الذي عليه أكثر أهل التفسير، وهو ألزَمُ حجة على المعتزلة. وعن الحسن أيضاً: نسلكت الذكر إلزاماً للحجة^(٤)؛ ذكره الغزنوي.

﴿وَقَدْ خَلَّتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت سنة الله بإهلاك الكفار، فما أقرب هؤلاء من الهلاك! وقيل: «خلت سنة الأولين» بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر، فهم يقتدون بأولئك^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿٧﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سِكْرَتَا أَبْصَرْنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿٨﴾﴾

يُقال: ظلَّ يفعل كذا، أي: يفعله بالنهار. والمصدر: الظُّلُولُ. أي: لو أُجيبوا إلى

(١) معاني القرآن للنحاس ١٢/٤، وتفسير الطبري ٢٠/١٤ - ٢١، والنكت والعيون ٣/١٥٠، والمحرم الوجيز ٣/٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) ينظر الأفعال للسرطسي ٣/٤٩٥، واللسان (سلكت).

(٣) عجز بيت، وصدره: وكنت لزار خصمك لم أعرد، وهو في مجاز القرآن ١/٢٩٤، وتفسير الطبري ١٤/٢٢، والأغانى ٢/١١١، وأورده إبراهيم الحربي في غريب الحديث ١/٣٠٣ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٣/١٥٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٣٧٧.

(٥) زاد المسير ٤/٣٨٥، ومعاني القرآن للزجاج ٣/١٧٤، وتفسير السمرقندي ٢/٢١٥.

ما اقترحوا من الآيات، لأَصْرُوا على الكفر، وتعلَّلوا بالخيالات^(١)، كما قالوا للقرآن المعجز: إنه سحرٌ.

«يَعْرُجُونَ» من عَرَجَ يَعْرُجُ، أي: صَعِدَ. والمعارِجُ: المصاعد. أي: لو صَعِدُوا إلى السماء، وشاهدوا الملكوتَ والملائكةَ، لأَصْرُوا على الكفر؛ عن الحسن وغيره. وقيل: الضميرُ في «عليهم» للمشركين. وفي «فَطَّلُوا» للملائكة، تذهبُ وتجيء. أي: لو كُشِفَ لهؤلاء حتى يُعَينُوا أبواباً في السماء تصعدُ فيها الملائكةُ وتنزلُ، لقالوا: رأينا بأبصارنا ما لا حقيقةَ له؛ عن ابن عباسٍ وقتادة^(٢).

ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾: سُدَّتْ بالسَّحَرِ؛ قاله ابنُ عباسٍ والضَّحَّاكُ. وقال الحسن: سُحِرَتْ. الكلبي: أَغْشَيْتْ أَبْصَارُنَا، وعنه أيضاً: غَمِيت. قتادة: أَخَذَتْ. وقال المؤرَّج: دِيرَ بَنَّا، من الدوران، أي: صارت أَبْصَارُنَا سَكْرَى. جُوَيْرٍ: خُدِعَتْ. وقال أبو عمرو بن العلاء: «سُكِّرَتْ»: غُشِّيتْ وَغُطِّيتْ. ومنه قولُ الشاعر:

وطلعتْ شمسٌ عليها مِغْفَرٌ وجعلتْ عينُ الحَرورِ تَسْكُرُ^(٣)

وقال مجاهد: «سُكِّرَتْ»: حُجِسَتْ. ومنه قولُ أوس بنِ حجر:

فصرت على ليلةٍ سَاهِرَةٍ فليست بَطْلُقٍ ولا سَاكِرَةٍ^(٤)

قلتُ: وهذه أقوال^(٥) متقاربةٌ يجمعها قولُك: مُنِعَتْ.

(١) زاد المسير ٣٨٦/٤، والوسيط ٤٠/٣ - ٤١، وينظر الطبري ٢٣/١٤.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/١٤ - ٢٥، والوسيط ٤١/٣، والمحزر الوجيز ٣٥٣/٣.

(٣) الرجز لجندل بن المثنى، ونسبه إليه الطبري ٢٩/١٤ وأورد الثاني منه، وأورده بتمامه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٣٤٨/١، والماوردي في النكت والعيون ١٥١/٣ دون نسبة. والحَرور: الريح الحارة. الصراح (حرر). والمعنى: يسكن حرها وتخيو. لسان العرب (قبر)، ووقع في (ظ): الجزور.

(٤) البيت في ديوانه ص ٣٤، وأورده في اللسان (سكر) وفيه «جدلت» بدل «فصرت»، وأورده أيضاً بلفظ:

تزداد ليالي في طولها فليست بطلق ولا ساكره

وفي النكت والعيون ١٥١/٣: «فصرت» بدل: «فصرت».

(٥) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٥/١٤ - ٢٩، ومعاني القرآن للزجاج ١٧٥/٣، والنكت والعيون ١٥١/٣، وزاد المسير ٣٨٦/٤.

قال ابنُ عُزَيز^(١): «سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا»: سُدَّتْ أَبْصَارُنَا؛ هو من قولك: سَكَّرْتُ النهرَ: إذا سَدَدْتَهُ. ويقال: هو من سُكِّرِ الشراب، كأنَّ العينَ يلحِقُها ما يلحقُ الشاربَ إذا سَكِرَ.

وقرأ ابنُ كثير: «سُكِّرَتْ» بالتخفيف. والباقون بالتشديد^(٢). قال ابنُ الأعرابي: سُكِّرَتْ: مُلِئَتْ^(٣).

قال المهدويُّ: والتخفيفُ والتشديدُ في «سُكِّرَتْ» ظاهران، التشديدُ للتكثير، والتخفيفُ يؤدِّي عن معناه، والمعروف أنَّ «سَكِرَ» لا يتعدَّى.

قال أبو علي^(٤): يجوزُ أن يكون سُمِعَ متعدياً في البصر. ومَن قرأ: «سُكِّرَتْ»^(٥) فإنه شبه ما عَرَضَ لأبصارهم بحالِ السكران، كأنَّها جرت مجرى السكران؛ لعدم تحصيله. وقد قيل: إنَّه بالتخفيفِ، من سُكِرِ الشراب، وبالتشديد مأخوذاً من سَكَّرَتْ الماء. وقيل: سُكِّرَتْ مخففاً: سُجِرَتْ، وبالتشديد^(٦): أُخِذَتْ، ذكرهما الماوردي.

وقال النَّحاسُ^(٧): والمعروفُ من قراءة مجاهدٍ والحسن: «سُكِّرَتْ» بالتخفيف. قال الحسنُ: أي: سُجِرَتْ. وحكى أبو عبيد، عن أبي عبيدة أنه يقال: سُكِّرَتْ أَبْصَارُهُمْ: إذا غَشِيَهَا سَمَادِيرٌ^(٨) حتى لا يبصروا. وقال الفراء: مَن قرأ: «سُكِّرَتْ»

(١) في نزهة القلوب ص ٢٧٦.

(٢) السبعة ص ٣٦٦، والتيسير ص ١٣٦.

(٣) ينظر تهذيب اللغة ٥٥/١٠، ولسان العرب (سكر).

(٤) هو الفارسي، وينظر كلامه بنحوه في الحجة للقراء السبعة ٤٣/٥ - ٤٤، وينظر الدر المصون ١٤٩/٧.

(٥) هي قراءة الزهري كما في البحر المحيط ٤٤٨/٥.

(٦) قوله: مأخوذ من سكرت، إلى هذا الموضع من (ظ)، وهو الموافق لما في التكت والعيون ١٥١/٣.

(٧) في معاني القرآن ١٤/٤.

(٨) السَّمَادِير: قيل: هو الشيء الذي يتراءى للإنسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب، وغشي النعاس والدوار. اللسان (سمد)، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ٣٤٧/١، وقد نقله عنه المصنف بواسطة معاني القرآن للنحاس.

أخذه من سُكُورِ الرِّيحِ^(١).

قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة، والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى، قال: هو من السُّكْرِ في الشراب^(٢).

وهذا قول حسن، أي: غَشِيَهُمْ ما غَطَّى أَبْصَارَهُمْ، كما غَشِيَ السَّكَرَانُ ما غَطَّى عقله^(٣). وسُكُورُ الرِّيحِ: سكونها وفُتُورُها، فهو يرجع إلى معنى التحير^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝﴾

لَمَّا ذَكَرَ كُفْرَ الْكَافِرِينَ، وَعَجَزَ أَصْنَامِهِمْ، ذَكَرَ كَمَالَ قُدْرَتِهِ؛ لِيُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ. والبروج: القصورُ والمنازل. قال ابن عباس: أي: جعلنا في السماء بروج الشمس والقمر، أي: منازلهما. وأسماء هذه البروج: الحَمَلُ، والثَّوْرُ، والجُوزَاءُ، والسَّرَطَانُ، والأَسَدُ، والسُّنْبُلَةُ، والمِيزَانُ، والعقرب، والقوس، والجَذْيُ، والدَّلُو، والحوث^(٥). والعربُ تُعَدُّ المَعْرِفَةَ لمواقع النجوم وأنوائها^(٦) من أجل العلوم، ويستدلُّون بها على الطرقات والأوقات، والخصب والجذب. وقالوا: الفلك اثنا عشر بُرجًا، كلُّ بُرْجٍ مِيلَانٌ ونصف^(٧). وأصل البروج الظهور؛ ومنه تَبَرُّجُ المرأة بإظهار زينتها، وقد تقدَّم هذا المعنى في النساء^(٨). وقال الحسن وقتادة: البروج: النجوم،

(١) في (د) و(ظ) ومعاني النحاس: سكون الرِّيح، وعبارة الفراء في معاني القرآن ٨٦/٢: قد سكوت الرِّيح إذا سكنت وركدت، ونقل المصنف كلام الفراء بواسطة معاني القرآن للنحاس.

(٢) معاني القرآن ١٤/٤، وينظر الطبري ٢٦/١٤، وزاد المسير ٣٨٦/٤.

(٣) ينظر تفسير الطبري ٢٨/١٤.

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ١٧٥/٣.

(٥) زاد المسير ٣٨٧/٤، وينظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١٦١/١.

(٦) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: وأبوابها.

(٧) كذا في النسخ غير (ظ)، ففيها: ليلتان ونصف، ولعل الصواب: منزلتان وثلاث. كما ذكر المصنف في تفسير الآية (٣٩) من سورة ياسين، وينظر مفتاح دار السعادة ١٩٥/٢، ولسان العرب (برج).

(٨) ٤٦٤ - ٤٦٧.

وسُميت بذلك؛ لظهورها وارتفاعها. وقيل: الكواكب العظام؛ قاله أبو صالح، يعني: السبعة السيارة^(١). وقال قوم: «بروجاً»؛ أي: قصوراً وبيوتاً فيها الحرس، خلقها الله في السماء^(٢). فالله أعلم. ﴿وَرَبَّيْنَاهَا﴾ يعني: السماء، كما قال في سورة الملوك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ [الملوك: ٥]. ﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾: للمعتبرين والمتفكرين.

قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ﴿٧﴾

أي: مرجوم. والرجم: الرمي بالحجارة. وقيل: الرجم: اللعن والطرْد. وقد تقدّم^(٣). وقال الكسائي: كلُّ رَجِمٍ^(٤) في القرآن فهو بمعنى الشتم. وزعم الكلبي أن السماوات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى، فلما بعث الله تعالى عيسى، حفظ منها ثلاث سماوات إلى مبعث رسول الله ﷺ، فحفظ جميعها بعد بعثه، وحُرست منهم بالشُّب^(٥). وقاله ابن عباس ؓ. قال ابن عباس: وقد كانت الشياطين لا يُحجَبون عن السماء، فكانوا يدخلونها، ويلقون أخبارها إلى^(٦) الكهنة، فيزيدون عليها تسعاً، فيحدثون بها أهل الأرض، الكلمة حق والتسع باطل؛ فإذا رأوا شيئاً مما قالوه، صدّقوهم فيما جاؤوا به، فلما وُلد عيسى ابن مريم عليهما السلام، مُنعوا من ثلاث سماوات، فلما وُلد محمد ﷺ، مُنعوا من السماوات كلها، فما منهم من أحد يريدُ استراق السمع إلا رُمي بشهاب^(٧)، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٨﴾

أي: لكن من استرق السمع، أي: الخطفة اليسيرة. فهو استثناء منقطع. وقيل:

(١) وهي: زُحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر.

(٢) النكت والعيون ١٥٢/٣، وزاد المسير ٣٨٧/٤.

(٣) ٢٠١/١١.

(٤) في (د) و(ز) و(م): رَجِيم.

(٥) النكت والعيون ١٥٢/٣.

(٦) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: على.

(٧) تفسير الطبري ٣٢/١٤، وتفسير أبي الليث ٢١٦/٢، والوسيط ٤١/٣، وزاد المسير ٣٨٩/٤.

هو مُتصل، أي: إلا مَنْ استرقَّ السمع^(١). أي: حَفِظْنَا السَّمَاءَ مِنَ الشَّيَاطِينِ أَنْ تَسْمَعَ شَيْئاً مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ^(٢)، إلا مِنْ استرقَّ^(٣) السمعَ، فإنَّا لَمْ نَحْفَظْهَا مِنْهُ أَنْ تَسْمَعَ الْخَبَرَ مِنْ أَخْبَارِ السَّمَاءِ سِوَى الْوَحْيِ، فَأَمَّا الْوَحْيُ، فَلَا تَسْمَعُ مِنْهُ شَيْئاً^(٤)؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]. وإذا استمعَ الشَّيَاطِينُ إِلَى شَيْءٍ لَيْسَ بِوَحْيٍ، فَإِنَّهُمْ يَقَذِفُونَهُ إِلَى الْكَهَنَةِ فِي أَسْرَعِ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الشُّهُبُ فَتَقْتُلُهُمْ أَوْ تَخِيلُهُمْ، ذَكَرَهُ الْحَسَنُ وَابْنُ عَبَّاسٍ^(٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ أَتْبَعَهُ: أَدْرَكَهُ وَلَحِقَهُ. شِهَابٌ: كَوْكَبٌ مُضِيءٌ^(٦). وَكَذَلِكَ: ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧] أَي: بِشَعْلَةٍ نَارٍ فِي رَأْسِ عُودٍ، قَالَهُ ابْنُ عَزِيزٍ^(٧). وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ فِي إِثْرِ عَفْرِيَةٍ مُسَوِّمٌ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبٌ^(٨)
وُسْمِيَ الْكَوْكَبُ شِهَاباً لِأَنَّهُ^(٩) لِبَرِيقِهِ يُشَبِّهُ النَّارَ. وَقِيلَ: شِهَابٌ: شَعْلَةٌ مِنْ نَارِ تَبِينُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ^(١٠)، فَتَحْرِقُهُمْ وَلَا تَعُودُ إِذَا أَحْرَقَتْ، كَمَا إِذَا أَحْرَقَتِ النَّارُ لَمْ تَعُدْ، بِخِلَافِ الْكَوْكَبِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَحْرَقَ، عَادَ إِلَى مَكَانِهِ.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣٧٨/٢، ومعاني القرآن للزجاج ١٧٦/٣، وتفسير الطبري ٣٢/١٤ - ٣٣.

(٢) بعدها في (ظ): من أخبار السماء.

(٣) قوله: من استرق، ليس في (ظ).

(٤) النكت والعيون ١٥٢/٣، وزاد المسير ٣٩٠/٤.

(٥) ذكر قولهما الماوردي في النكت والعيون ١٥٣/٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣٥٤/٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٣٩٠/٤، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ٣٢/١٤ - ٣٣.

(٦) الوسيط ٤١/٣ - ٤٢، وزاد المسير ٣٩٠/٤.

(٧) في (ظ): عرفة، وكلام ابن عَزِيزٍ فِي نَزْهَةِ الْقُلُوبِ ص ٣٦٧، دُونَ قَوْلِهِ: فِي رَأْسِ عُودٍ.

(٨) البيت فِي دِيْوَانِهِ ١١١/١، قَالَ شَارِحُهُ أَبُو نَصْرِ الْبَاهِلِي: وَعَفْرِيَّةٌ: شَيْطَانٌ، وَمَسَوِّمٌ: مُغْلَمٌ مَسَوِّمٌ بِالْبَيَاضِ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ، وَيَكُونُ مَسُومٌ: مَخْلَى عَنْهُ. وَمُنْقَضِبٌ: مُنْقَضٌّ.

(٩) لَيْسَتْ فِي (د) وَ(ز) وَ(م).

(١٠) الْمَثْبُتُ مِنْ (ظ)، وَفِي غَيْرِهَا: لَشَعْلَةٍ مِنْ نَارِ قَبَسِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ.

قال ابن عباس: تصعدُ الشياطينُ أفواجاً تسترقُّ السمعَ، فينفردُ الماردُ منها فيعلو، فيُرمَى بالشهابِ، فيصيبُ جبهته أو أنفه أو ما شاء الله، فيلتهبُ، فيأتي أصحابه وهو يلهبُ، فيقولُ: إنَّه كان من الأمرِ كذا وكذا، فيذهبُ أولئك إلى إخوانهم من الكهنة، فيزيدون عليها تسعاً، فيحدثون بها أهل الأرض، الكلمة حقٌ والتسعُ باطلٌ، فإذا رأوا شيئاً مما قالوا قد كان، صدَّقوهم بكلِّ ما جاؤوا به من كذبهم^(١). وسيأتي هذا المعنى مرفوعاً في سورة «سبأ» إن شاء الله تعالى^(٢).

واختُلف في الشهابِ، هل يقتلُ أم لا؟ فقال ابن عباس: الشهابُ يجرحُ ويحرقُ ويخيلُ، ولا يقتلُ. وقال الحسنُ وطائفةٌ: يقتلُ؛ فعلى هذا القولِ؛ في قتلهم بالشُّهبِ قبلَ إلقاءِ السمعِ إلى الجنِّ قولان:

أحدهما: أنَّهم يُقتلون قبلَ إلقاءِهم ما استرقَّوه من السمعِ إلى غيرهم، فعلى هذا؛ لا تصلُ أخبارُ السماءِ إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعتِ الكهانةُ.

والثاني: أنَّهم يُقتلون بعدَ إلقاءِهم ما استرقَّوه من السمعِ إلى غيرهم من الجنِّ، ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصلْ، لانقطعَ الاستراقُ، وانقطعَ الإحراقُ. ذكره الماوردي^(٣).

قلتُ: والقولُ الأوَّلُ أصحُّ على ما يأتي بيانه في «الصفات»^(٤).

واختُلف: هل كانَ رميُّ بالشُّهبِ قبلَ المبعثِ؟ فقال الأكثرون: نعم. وقيل: لا، وإنَّما ذلك بعدَ المبعثِ^(٥). وسيأتي بيانُ هذه المسألة في سورة الجن إن شاء الله تعالى. وفي «الصفات» أيضاً. قال الزجاج^(٦): والرميُّ بالشُّهبِ من آياتِ النبي ﷺ،

(١) تفسير الطبري ٣٢/١٤، وينظر تفسير السمرقندي ٢١٦/٢.

(٢) في الآية: ٢٣.

(٣) في النكت والعيون ١٥٣/٣.

(٤) الآية: ٨.

(٥) زاد المسير ٣٨٧/٤ - ٣٨٩.

(٦) في معاني القرآن ١٧٦/٣، وينظر زاد المسير ٣٨٨/٤.

مِمَّا حَدَّثَ بَعْدَ مَوْلِدِهِ؛ لِأَنَّ الشُّعْرَاءَ فِي الْقَدِيمِ لَمْ يَذْكُرُوهُ فِي أَشْعَارِهِمْ، وَلَمْ يُشَبِّهُوا الشَّيْءَ السَّرِيعَ بِهِ، كَمَا شَبَّهُوا بِالْبَرْقِ وَبِالسَّيْلِ.

وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَقَالَ: انْقِضَاضُ الْكَوَاكِبِ كَانَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُن رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، ثُمَّ صَارَ رَجُومًا حِينَ وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ^(١).

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: نَحْنُ نَرَى انْقِضَاضَ الْكَوَاكِبِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَمَا نَرَى، ثُمَّ يَصِيرُ نَارًا إِذَا أَدْرَكَ الشَّيْطَانُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: يُرْمَوْنَ بِشُعْلَةٍ مِنْ نَارٍ مِنَ الْهَوَاءِ، فَيُخَيَّلُ لَنَا أَنَّهُ نَجْمٌ سَرَى. وَالشُّهَابُ فِي اللُّغَةِ: النَّارُ السَّاطِعَةُ^(٢).

وَذَكَرَ أَبُو دَاوُدَ^(٣)، عَنْ عَامِرِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: لَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ رُجِمَتِ الشَّيَاطِينُ بِنَجُومٍ لَمْ تَكُن تُرْجَمُ بِهَا قَبْلُ، فَأَتَوْا عَبْدَ يَالِيلَ بْنِ عَمْرٍو الثَّقَفِيَّ، فَقَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ فَرَّعُوا، وَقَدْ أَعْتَقُوا رِقَبَتَهُمْ، وَسَيَّيُوا أَنْعَامَهُمْ؛ لَمَّا رَأَوْا فِي^(٤) النُّجُومِ. فَقَالَ لَهُمْ، وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى: لَا تَعْجَلُوا، وَانظُرُوا، فَإِنْ كَانَتِ النُّجُومُ الَّتِي تُعْرَفُ فَهِيَ^(٥) عِنْدَ فَنَاءِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تُعْرَفُ فَهِيَ مِنْ حَدَثٍ، فَانظُرُوا؛ فَإِذَا هِيَ نَجُومٌ لَا تُعْرَفُ، فَقَالُوا: هَذَا مِنْ حَدَثٍ، فَلَمْ يَلْبَثُوا حَتَّى سَمِعُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَوْبَقْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝١٨ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَكُمْ بِرِزْقِينَ ۝١٩﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ هَذَا مِنْ نِعْمِهِ أَيْضًا، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَسَطْنَاهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ^(٦)؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَاهَا﴾

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤ - ٣٥٥.

(٢) اللسان (شهب).

(٣) ليس عند أبي داود، إنما ذكره ابن عبد البر في الدرر ص ١٦ - ١٧، عن أبي داود، وقد نقله المصنف عنه.

(٤) في (ظ): ما في.

(٥) في (د) و(ز) و(م): فهي (في الموضعين)، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في الدرر.

(٦) تفسير الرازي ١٩/ ١٧٠.

[النازعات: ٣٠] أي: بَسَطَهَا. وقال: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْتَهَا فَنِعَمَ الْمُهْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]. وهو يَرُدُّ على مَنْ زعم أنها كالكرة. وقد تقدّم^(١). ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسًا﴾: جبلاً ثابتة؛ لثلاثاً تتحرك بأهلها. ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي: مقدر معلوم؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير. وإنما قال: «موزون»؛ لأنَّ الوزن يُعرَف به مقدار الشيء. قال الشاعر:

قد كنتُ قبلَ لقائكم ذا مِرَّةٍ عندي لكلِّ مُخَاصِمٍ مِيزَانُهُ^(٢)
وقال قتادة: موزونٌ يعني: مقسوم. وقال مجاهد: موزونٌ: معدود^(٣). ويقال:
هذا كلامٌ موزونٌ، أي: منظومٌ غيرُ منتشر^(٤).

فعلى هذا؛ أي: أنبتنا في الأرض ما يُوزَن من الجواهر والحيوانات والمعادن. وقد قال الله عزَّ وجلَّ في الحيوان: ﴿وَأَنْبَتْنَا بَنَاتًا حَسَنَاتًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، والمقصود من الإنبات الإنشاء والإيجاد. وقيل: ﴿أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الجبال ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقزدير^(٥)، حتى الزرنيخ والكحل، كلُّ ذلك يُوزَن وزناً؛ روي معناه عن الحسن، وابن زيد. وقيل: أنبتنا في الأرض الثمار مما يُكَال ويُوزَن. وقيل: ما يوزَن فيه الأثمان؛ لأنه أجلُّ قدرًا، وأعمُّ

(١) ص ٨ من هذا الجزء، وما ذكر عن الأرض أنها كالكرة لم يعد بحاجة إلى ردِّ.

(٢) أورده الطبري في التفسير ٥٩٤/٢٤، والفراء في معاني القرآن ٢٨٧/٣، والماوردي في النكت والعيون ١٥٤/٣، وابن منظور في اللسان (وزن) دون نسبة. والمعنى كما قال الفراء: عندي وزن كلامه ونقصه.

(٣) النكت والعيون ١٥٣/٣ - ١٥٤. وأخرج عبد الرزاق في التفسير ٣٤٦/١، والطبري في التفسير ٣٦/١٤، عن قتادة في قوله تعالى ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ قال: معلوم.

وكذلك قول مجاهد في تفسيره ٣٤٠/١، وفيه: مقدر مقدور، وأخرجه الطبري في تفسيره ٣٦/١٤ بلفظ: مقدور بقدر، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ٣٩١/٤.

(٤) في النسخ الخطية: منتشر، وهما بمعنى.

(٥) هو القصدير، المعدن المعروف.

نفعاً مما لا ثمنَ له^(١).

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾ يعني: المطاعمَ والمشاربَ التي يعيشون بها؛ واحداً معيشةً؛ بسكون الباء. ومنه قولُ جرير:

تُكَلِّفُنِي مَعِيشَةَ آلِ زَيْدٍ وَمَنْ لِي بِالْمَرْقُقِ وَالصَّنَابِ^(٢)

والأصل: مَعِيشَةٌ؛ على مَفْعَلَةٍ؛ بتحريك الباء. وقد تقدّم في الأعراف^(٣). وقيل: إنها الملابس؛ قاله الحسن. وقيل: إنها التصرفُ في أسبابِ الرزق مدة الحياة. قال الماوردي^(٤): وهو الظاهر.

﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ بِرِزْقَيْنَ﴾ يريد الدوابَّ والأنعام؛ قاله مجاهد^(٥). وعنده^(٦) أيضاً: هم العبيدُ والأولادُ الذين قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿تَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرِيمُونَ﴾ [الإسراء: ٣١]. ولفظ «من» يجوز أن يتناولَ العبيدَ والدوابَّ إذا اجتمعوا؛ لأنه إذا اجتمعَ مَنْ يَعْقِلُ وما لا يَعْقِلُ؛ غُلِبَ مَنْ يَعْقِلُ، أي: جعلنا لكم فيها معاشَ وعبيداً وإماءً ودوابَّ وأولاداً نرزقُهم ولا تَرْزُقُونَهُمْ. فـ «من» على هذا التأويل في موضعِ نصبٍ؛ قال معناه مجاهدٌ وغيره. وقيل: أرادَ به الوحشَ. قال سعيّد: قرأ علينا منصورٌ: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ بِرِزْقَيْنَ﴾ قال: الوحشُ. فـ «من» على هذا تكونُ إما لا يَعْقِلُ؛ مثلُ ﴿فَتَنَّهُمْ مَنِ يَتَشَى عَلَى بَطْنَيْهِ﴾

(١) ينظر تفسير الطبري ٣٦/١٤ - ٣٧، ومعاني القرآن للزجاج ١٧٦/٣، والنكت والعيون ١٥٤/٣، والوسيط ٤٢/٣، وزاد المسير ٣٩١/٤.

(٢) البيت في تذييل ديوانه ٨١٢/٢، وطبقات فحول الشعراء ٣٩١/٢ - ٣٩٢، والكمال للمبرد ٢٠٢/١ - ٢٠٣، ووقع في تذييل الديوان: «بالصلاّ» بدل «بالمَرْقُقِ»، والصلاّ جمع صَلِيقَة، وهي الخبْزَة الرقيقة، والقطعة المَشْوَاة من اللحم، كما في اللسان (صلق). والصَّنَاب: صباغ يتخذ من الخردل والزبيب. اللسان (صنب). وزيد هو رجلٌ من أهل اليمامة يُعرف بابن التجار. قاله ابنُ سَلام في الطبقات.

(٣) ١٦٠/٩.

(٤) في النكت والعيون ١٥٤/٣.

(٥) في تفسيره ٣٤٠/١.

(٦) في (ظ): وعنه. ولم نقف عليه عنده، وعزاه الماوردي في النكت والعيون ١٥٤/٣ إلى ابن بحر.

الآية [النور: ٤٥]، وهي في محلّ خفضٍ عطفاً على الكافِ والميمِ في قوله: «لكم». وفيه قبْحٌ عند البصريين؛ فإنه لا يجوز عندهم عطفُ الظاهرِ على المضمَرِ إلّا بإعادةِ حرفِ الجرِّ؛ مثل: مررتُ به وبزيد. ولا يجوزُ: مررتُ به وزيدُ إلّا في الشعرِ^(١). كما قال:

فاليومَ قَرَبْتُ^(٢) تَهْجُونَا وَتَشْتِمُنَا فَاذْهَبْ فَمَا بَكَ وَالْأَيَّامُ مِنْ عَجَبٍ^(٣)
وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» وسورة النساءِ^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(٥)
قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي: وإن من شيءٍ من أرزاقِ الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه؛ يعني: المطرُ المُنْزَلُ من السماء؛ لأنَّ به نباتُ كلِّ شيءٍ. قال الحسنُ: المطرُ خزائنُ كلِّ شيءٍ. وقيل: الخزائنُ: المفاتيحُ، أي: في السماءِ مفاتيحُ الأرزاقِ؛ قاله الكلبيُّ. والمعنى واحدٌ^(٥).

﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: ولكن لا ننزله إلا على حَسَبِ مشيئتنا، وعلى حسب حاجةِ الخلقِ إليه؛ كما قال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]. وروى عن ابن مسعود، والحكم بن عُتَيْبَةَ وغيرهما أنه ليس عامٌ أكثرَ مطراً من عام، ولكنَّ الله يُقَسِّمُهُ كَيْفَ شاء، فيُمَطِّرُ قَوْمٌ وَيُحْرِمُ

(١) الطبري ٣٧/١٤ - ٣٩، والمحرر الوجيز ٣/٣٥٥، وزاد المسير ٤/٣٩١ - ٣٩٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٣٧٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/٨٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/١٧٧.

(٢) في (ظ): أقبلت.

(٣) أورده سيبويه في الكتاب ٢/٣٨٣، والمبرد في الكامل ٢/٩٣١، دون نسبة. وقال البغدادى في خزانة الأدب ٥/١٢٣: على أن حرف الجر قد يترك ضرورة عند البصريين، أي: ما بك وبالأيام عجب. ومعنى قربت: جعلت وأخذت.

وقال أيضاً ٥/١٢٩: والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف لها قائل.

(٤) ٧/٦.

(٥) النكت والعيون ٣/١٥٥.

آخرون. وربما كان المطرُ في البحارِ والقفار^(١).

والخزائنُ جمعُ الخزانةِ، وهو الموضعُ الذي يَستُر فيه الإنسانُ ما له. والخزانةُ أيضاً مصدرُ خَزَنَ يَخْزُنُ^(٢). وما كان في خزانةِ الإنسانِ كان مُعَدًّا له، فكَذلك ما يُقَدَّرُ عليه الربُّ؛ فكأنه مُعَدُّ عنده؛ قاله القشيري.

وروى جعفرُ بنُ محمد، عن أبيه، عن جده، أنه قال: في العرشِ مثالُ كلِّ شيءٍ خلقه الله في البرِّ والبحرِ. وهو تأويلُ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾^(٣). والإنزالُ بمعنى الإنشاءِ والإيجاد، كقوله: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةً أَرْوِجَ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقيل: الإنزالُ بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالاً؛ لأنَّ أحكامَ الله إنما تَنَزَّل من السماء.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُمْ بِخَازِنِينَ﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ﴾ قراءةُ العامة: «الرياح» بالجمع. وقرأ حمزةٌ بالتوحيد^(٤)؛ لأنَّ معنى الريحِ الجمعُ أيضاً وإن كان لفظُها لفظُ الواحد، كما يُقال: جاءتِ الريحُ من كلِّ جانبٍ^(٥)، كما يقال: أرضٌ سَبَّاسِبُ^(٦) وثوبٌ أخلاقٌ. وكذلك تفعلُ العربُ في كلِّ شيءٍ اتسعَ. وأما وجهُ قراءةِ العامة، فلأنَّ الله تعالى نعتها

(١) تفسير الطبري ٣٩/١٤ - ٤٠، والنكت والعيون ٣/١٥٥، وزاد المسير ٤/٣٩٢.

(٢) ينظر اللسان (خزن).

(٣) تفسير البغوي ٣/٤٧.

(٤) التيسير ص ٧٨، والسبعة ١٧٢ - ١٧٣.

(٥) حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٨٢، وتفسير الطبري ١٤/٤١.

(٦) السبب: المفازة، أو الأرض المستوية البعيدة. القاموس المحيط (سبب). وينظر تفسير الطبري

بـ «لواقح» وهي جمع. ومعنى لواقح: حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع^(١). قال الأزهري^(٢): وجعلَ الريحَ لاقحاً؛ لأنها تحملُ السحابَ؛ أي: تُقَلِّه وتُصَرِّفه ثم تَمْرِيه^(٣) فتَسْدِرُهُ، أي: تُنْزِلُهُ؛ قال الله تعالى: ﴿حَقَّتْ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نَفَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧] أي: حملت. وناقَة لاقح، ونُوقُ لواقح: إذا حَمَلَتِ الأجنَّةُ في بطونها. وقيل: لواقحُ بمعنى مُلْقِحَة، وهو الأصلُ، ولكنها لا تُلْقِح إلا وهي في نفسها لاقح، كأنَّ الرياحَ لَقِحت بخير. وقيل: ذوات لَفَح، وكلُّ ذلك صحيحٌ، أي: منها ما يُلْقِح الشجرَ؛ كقولهم: عيشة راضية، أي: فيها رضا، وليل نائم، أي: فيه نومٌ. ومنها ما تأتي بالسحاب. يقال: لَقِحتِ الناقةُ، بالكسر، لَقَحاً ولَقاحاً، بالفتح، فهي لاقح. وألقحها الفحلُ، أي: ألقى إليها الماءَ فَحَمَلَتْه^(٤)، فالرياحُ كالْفحلِ للسحاب.

قال الجوهري^(٥): ورياحُ لَواقِحُ، ولا يقال: مَلاقح، وهو من النوادر. وحكى المهدويُّ عن أبي عبيدة^(٦): لواقحُ بمعنى ملاقح، ذهبَ إلى أنَّه جمع مُلْقِحَة ومُلْقِح، ثم حُذِفَت زوائده^(٧). وقيل: هو جمعُ لاقحةٍ ولاقحٍ، على معنى ذاتِ اللَّقَاحِ؛ على النَّسَبِ^(٨). ويجوزُ أن يكونَ معنى لاقح حاملاً، والعربُ تقولُ لِلْجَنُوبِ: لاقح وحامل، وللشَّمالِ: حائل وعقيم.

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٦.

(٢) تهذيب اللغة ٤/ ٥٥ - ٥٦.

(٣) مَرَّتِ الرياحُ السحاب إذا أنزلت منه المطر. اللسان (مري).

(٤) في تفسير الرازي ١٩/ ١٧٥. (والكلام فيه بنحوه): ألقى الماء فيها فحملت.

(٥) في الصحاح (لقح).

(٦) في مجاز القرآن ١/ ٣٤٨.

(٧) الوسيط للواحد ٣/ ٤٢.

(٨) أي: النسب بغير ياء قال رضي الدين الاسترأبادي في شرح شافية ابن الحاجب ٢/ ٨٤: يجيء بعض ما هو على فَعَّال وفاعل بمعنى ذي كذا من غير أن يكون اسم فاعل أو مبالغة فيه. وينظر الدر المصون ٧/ ١٥٤.

وقال عُبيد بن عُمر: يرسلُ الله المُبَشِّرَةَ فتَقُومُ الأرضُ قَمًّا، ثم يرسلُ المُثِيرَةَ فتثيرُ السحاب، ثم يرسلُ المُؤَلِّفَةَ فتؤلفُهُ، ثم يبعثُ اللواقح فتلقحُ الشجر. وقيل: الريحُ الملاقحُ التي تحملُ الندى فتمجُّهُ في السحابِ، فإذا اجتمعَ فيه صار مطراً^(١).

وعن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الريحُ الجنوبُ من الجنة، وهي الريحُ اللواقحُ التي ذكرها الله في كتابه، وفيها منافعُ للناس»^(٢).
وروي عنه عليه الصلاة والسلامُ أنه قال: «ما هبَّتْ جنوبٌ إلا أنبعَ الله بها عيناً غَدَقَةً»^(٣).

وقال أبو بكر بنُ عيَّاش: لا تقطرُ قطرةٌ من السَّحابِ إلا بعدَ أن تعملَ الرياحُ الأربعُ فيها، فالصَّبَا تُهيِّجُه، والدَّبُورُ تُلْقِحُه، والجنوبُ تُدِرُه، والشَّمالُ تُفَرِّقُه^(٤).
الثانية: روى ابنُ وهب وابنُ القاسم وأشهبُ وابنُ عبد الحكم عن مالك - واللفظُ لأشهب - قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾، فلَقَّاحُ القمحِ عندي أن يُحَبَّبَ وَيُسَنَّبِلَ، ولا أدري ما يَبْسُ في أكمامه، ولكن يُحَبَّبُ حتى يكونَ لو يَبْسُ حينئذٍ لم يكن فساداً لا خيراً فيه^(٥). ولقَّاحُ الشجرِ كُلُّها أن تُثمرَ، ثم يَسْقُطُ منها ما يسقطُ، ويَثْبَتُ ما يثبت، وليس ذلك بأن تُورَّد.

قال ابنُ العربي^(٦): إنَّما عوَّلَ مالكٌ في هذا التفسيرِ على تشبيهِ لِقَّاحِ الشجرِ بلِقَّاحِ

(١) أخرجه الطبري ٤٥/١٤ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٦/١٤ ، وضَعَّفَ ابن كثير إسناده .

(٣) ذكره البغوي في التفسير ٤٧/٣ ، والماوردي في النكت والعيون ١٥٥/٣ ، وقال الشافعي في الأم ٢٢٥/١ ، ومن طريقه البيهقي في الكبرى ٣٦٤/٣ : وبلغني أن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: ما هبت جنوب قط إلا أسالت وادياً.

(٤) تفسير الطبري ٤٥/١٤ - ٤٦ ، والبغوي ٤٧/٣ ، والنكت والعيون ١٥٥/٣ ، والمحزر الوجيز ٣٥٦/٣ - ٣٥٧ ، وزاد المسير ٣٩٣/٤ - ٣٩٤ . وأحكام القرآن لابن العربي ١١١٤/٣ .

(٥) في (م): فساد الأخير فيه.

(٦) في أحكام القرآن ١١١٤/٣ ، والكلام منه من أول المسألة الثانية.

الحَمْلُ، وأنَّ الولدَ إذا عَقَدَ وَخُلِقَ وَنُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ، كانَ بِمَنْزِلَةِ تَحْبُّبِ الثَّمَرِ وَتَسْنِئِهِ؛ لِأَنَّهُ سُمِّيَ بِاسْمِ تَشْتَرِكٍ فِيهِ كُلُّ حَامِلَةٍ، وَهُوَ اللَّقَاحُ، وَعَلَيْهِ جَاءَ الْحَدِيثُ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ بَيْعِ الْحَبِّ حَتَّى يَشْتَدَّ^(١).

قال ابنُ عبدِ البرِّ^(٢): الإِبَارُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي النَّخْلِ: التَّلْقِيحُ، وَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ شَيْءٌ مِنْ طَلْعِ^(٣) النَّخْلِ، فَيُدْخَلَ بَيْنَ ظَهْرَانِي طَلْعِ الْإِنَاثِ. وَمَعْنَى ذَلِكَ فِي سَائِرِ الثَّمَارِ ظُهُورُ^(٤) الثَّمَرَةِ مِنَ التَّيْنِ وَغَيْرِهِ حَتَّى تَكُونَ الثَّمَرَةُ مَرْتَبَةً مَنْظُوراً إِلَيْهَا. وَالْمَعْتَبَرُ عِنْدَ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ فِيمَا يُذَكَّرُ مِنَ الثَّمَارِ التَّذْكِيرُ، وَفِيمَا لَا يُذَكَّرُ أَنْ يَثْبِتَ مِنْ نُوَارِهِ مَا يَثْبِتُ، وَيَسْقُطُ مَا يَسْقُطُ. وَحَدُّ ذَلِكَ فِي الزَّرْعِ ظُهُورُهُ مِنَ الْأَرْضِ؛ قَالَهُ مَالِكٌ. وَقَدْ رَوَى عَنْهُ أَنَّ إِبَارَهُ أَنْ يُحَبَّبَ. وَلَمْ يَخْتَلِفِ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْحَائِظَ إِذَا انشَقَّ طَلْعُ إِنَاثِهِ، فَأُخِّرَ إِبَارُهُ؛ وَقَدْ أُبْرَ غَيْرُهُ مِمَّنْ حَالُهُ مِثْلُ حَالِهِ؛ أَنَّ حَكَمَهُ حُكْمُ مَا أُبْرَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ عَلَيْهِ وَقْتُ الْإِبَارِ وَثَمَرَتُهُ ظَاهِرَةٌ بَعْدَ تَغْيِيهَا فِي الْجُفِّ^(٥). فَإِنْ أُبْرَ بَعْضُ الْحَائِظِ، كَانَ مَا لَمْ يُؤْبَرَّ تَبَعاً لَهُ، كَمَا أَنَّ الْحَائِظَ إِذَا بَدَأَ صَلَاحُهُ، كَانَ سَائِرُ الْحَائِظِ تَبَعاً لَذَلِكَ الصَّلَاحِ فِي جَوَازِ بَيْعِهِ.

الثَّالِثَةُ: رَوَى الْأَثَمَةُ كُلُّهُمْ عَنْ ابْنِ عَمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ ابْتَاعَ نَخْلاً بَعْدَ أَنْ تُؤْبَرَ؛ فَثَمَرُهَا لِلَّذِي بَاعَهَا إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ الْمُبْتَاعُ. وَمَنْ ابْتَاعَ عَبْدًا؛ فَمَالُهُ لِلَّذِي بَاعَهُ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَهُ الْمُبْتَاعُ»^(٦).

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٣٧١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٢٢٨)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢٢١٧)، وَأَحْمَدُ (١٣٣١٤) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) فِي التَّهْمِيدِ ٢٩١/١٣.

(٣) بَعْدَهَا فِي (م): ذَكَور.

(٤) فِي (د) وَ(ز) وَ(م): طُلُوعُ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ظ) وَهُوَ الْمَوَاقِفُ لَمَّا فِي التَّهْمِيدِ ٢٩١/١٣.

(٥) فِي (د) وَ(ز) وَ(م): الْحَبِّ، وَالْمَثْبُتُ مِنْ (ظ) وَهُوَ الْمَوَاقِفُ لَمَّا فِي التَّهْمِيدِ ٢٩١/١٣، وَالْجُفُّ: وَعَاءُ الطَّلْعِ. الْقَامُوسُ (جَفَفَ).

(٦) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٣٧٩)، وَمُسْلِمٌ (١٥٤٣) (٨٠)، وَأَبُو دَاوُدَ (٣٤٣٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٢٤٤)، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْمَجْتَبَى ٢٩٧/٧، وَفِي الْكَبِيرِ (٤٩٩١)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢٢١١)، وَأَحْمَدُ (٤٥٥٢).

قال علماؤنا: إنما لم يدخل الثمر المؤبّر مع الأصول في البيع إلا بالشرط؛ لأنّه عينٌ موجودةٌ يحاطُ بها، أمّن سقوطها غالباً، بخلاف التي لم تؤبّر؛ إذ ليس سقوطها مأموناً، فلم يتحقّق لها وجود، فلم يَجْزُ للبائع اشتراطها، ولا استثناءها؛ لأنّها كالجنين، وهذا هو المشهور من مذهب مالك. وقيل: يجوز استثناءها، وهو قول الشافعي.

الرابعة: لو اشترى النخل وبقي الثمر للبائع؛ جاز لمشتري الأصل شراء الثمرة قبل طيبها على مشهور قول مالك، ويرى لها حكم التبعية، وإن أفردت بالعقد. وعنه في رواية: لا يجوز، وبذلك قال الشافعي وأبو حنيفة، والثوري وأهل الظاهر، وفقهاء الحديث، وهو الأظهر من أحاديث النهي عن بيع الثمرة قبل بدوّ صلاحها^(١).

الخامسة: ومما يتعلق بهذا الباب النهي عن بيع الملاقح، والملاقح: الفحول من الإبل، الواحد مُلَقِح. والملاقح أيضاً: الإناث التي في بطونها أولادها، الواحدة مُلَقَّحة بفتح القاف. والملاقح: ما في بطون النوق من الأجنّة، الواحدة مُلَقَّوحة، من قولهم: لُقِّحت، كالمحموم من حُمّ، والمجنون من جُنّ^(٢). وفي هذا جاء النهي. وقد روي عن النبي ﷺ: أنه نهى عن المَجْر^(٣)، وهو بيع ما في بطون الإناث، ونهى عن المضامين والملاقح^(٤). قال أبو عبيد: المضامين: ما في البطون، وهي الأجنّة. والملاقح: ما في أصلاب الفحول. وهو قول سعيد بن المسيب وغيره. وقيل بالعكس: إنّ المضامين ما في ظهور الجمال، والملاقح ما في بطون الإناث. وهو قول ابن حبيب وغيره. وأيّ الأمرين كان، فعلماء المسلمين مجمعون على أنّ ذلك لا يجوز. وذكر المُنْزِي عن ابن هشام شاهداً بأنّ الملاقح ما في البطون لبعض

(١) المفهم ٣٩٩/٤.

(٢) الصحاح (لحق).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٤٤٤٠)، والبيهقي ٣٤١/٥، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البزار (١٢٦٨ - كشف الأستار)، والطبراني (١١٥٨١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الأعراب:

مَنِّيْتَنِي^(١) مَلَاقِحاً فِي الْأَبْطُنِ تَنْجَجُ مَا تَلْقَحُ بَعْدَ أَزْمَنِ
وذكر الجوهري^(٢) على ذلك شاهداً قولَ الراجز:

إِنَّا وَجَدْنَا طَرْدَ الْهَوَامِلِ خَيْراً مِنَ الثَّانَانِ وَالْمَسَائِلِ
وَعِدَّةِ الْعَامِ وَعَامِ قَابِلِ مَلْقُوحَةً فِي بَطْنِ نَابٍ حَامِلِ^(٣)
قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من السحاب. وكلُّ ما علاك فأظلك يُسمَّى
سماء. وقيل: من جهة السماء. ﴿مَاءٌ﴾ أي: قَطْرًا. ﴿فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ﴾ أي: جعلنا ذلك
المطرَ لسُقْيَاكُمْ ولشُرْبِ مواشيكم وأَرْضِكم. وقيل: سَقَى وأسقى بمعنى. وقيل:
بالفريق، وقد تقدّم^(٤).

﴿وَمَا أَنْتُمْ لَمْ يَخْذَرِينَ﴾ أي: ليست خَزَائِنُهُ عنْدكم، أي: نحنُ الخازنون لهذا
الماءِ نُنْزِلُهُ إِذَا شِئْنَا، وَنُمْسِكُهُ إِذَا شِئْنَا. ومثله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾
[الفرقان: ٤٨]، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْآرْضِ وَلَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾
[المؤمنون: ١٨]. وقال سفيان: لستم بمانعين المطر^(٥).

(١) في (م) واللسان (لقح): منيتي، والمثبت من النسخ الخطية، والتمهيد لابن عبد البر ٣١٥/١٣، وعنه
نقل المصنف، وتهذيب اللغة ٥٣/٤، واللسان (لقح). ووقع في التمهيد «شهاب» بدل «هشام»، وقد
جاء مصرحاً به في التهذيب واللسان وهو: عبد الملك بن هشام.

(٢) في الصحاح (لقح).

(٣) في تهذيب اللغة ٥٢/٤، والصحاح واللسان وأساس البلاغة (لقح): «حائل» بدل: «حامل»، ونُسبَه
الزمخشري إلى مالك بن الريب. والمعنى كما قال الحسن اليوسي في المحاضرات ٥٥٠/٢-٥٥١: إنَّ
سرقة الإبل الهوامل - أي: التي لا راعي معها - خير لنا من الأنين والتشكي وسؤال الناس، فهذا يردنا،
وهذا يُعِدُّنا بالعطاء في العام أو القابل جنيئاً في بطن أمه.

(٤) ١٣٥/٢.

(٥) تفسير الطبري ٤٦/١٤ - ٤٧، والنكت والعيون ١٥٥/٣ - ١٥٦، وتفسير البغوي ٤٨/٣، وزاد
المسير ٣٩٤/٤ - ٣٩٥.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

أي: مَنْ قَدَّرَ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِمَاتَةِ ثُمَّ الْإِحْيَاءِ بَعْدَهَا ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾^(١) أي: الْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَلَا يَبْقَى شَيْءٌ سِوَانَا. نَظِيرُهُ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]. فَمُلْكُ كُلِّ شَيْءٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنْ مَلَكُ عِبَادِهِ أَمَلَاكًا، فَإِذَا مَاتُوا، انْقَطَعَتِ الدَّعَاوَى، فَكَانَ اللَّهُ وَارِثًا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ^(٢). وَقِيلَ: الْإِحْيَاءُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِحْيَاءُ النُّطْفَةِ فِي الْأَرْحَامِ، فَأَمَّا الْبَعْثُ، فَقَدْ ذَكَرَهُ بَعْدَ هَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ ﴿٢٤﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ فيه ثمان تأويلات:

الأول: «المستقدمين»: في الخلق إلى اليوم، و«المستأخرين»: الذين لم يُخْلَقُوا بعد؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما.

الثاني: «المستقدمين»: الأموات، و«المستأخرين»: الأحياء؛ قاله ابن عباس والضحاك.

الثالث: «المستقدمين»: مَنْ تَقَدَّمَ أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ، و«المستأخرين»: أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ قاله مجاهد.

الرابع: «المستقدمين»: في الطاعة والخير، و«المستأخرين»: في المعصية والشر؛ قاله الحسن وقتادة أيضاً.

الخامس: «المستقدمين» في صفوف الحرب، و«المستأخرين» فيها؛ قاله سعيد ابن المسيب.

(١) قوله: أي: مَنْ قَدَّرَ إِلَى هَذَا لَيْسَ فِي (د) وَ(ز) وَ(م).

(٢) ينظر تفسير الوسيط للواحدي ٤٢/٣ - ٤٣ • وتفسير البغوي ٤٨/٣، وتفسير الرازي ١٧٧/١٩.

السادس: «المستقدمين»: مَنْ قُتِلَ في الجهاد، و«المستأخرين»: مَنْ لم يُقْتَل؛
قاله القرطبي.

السابع: «المستقدمين»: أَوَّلُ الْخَلْقِ، و«المستأخرين»: آخِرُ الْخَلْقِ؛ قاله
الشَّعْبِي.

الثامن: «المستقدمين»: في صفوفِ الصَّلَاةِ، و«المستأخرين» فيها بسبب
النساء^(١). وكلُّ هذا معلومٌ لله تعالى، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ مَوْجُودٍ وَمَعْدُومٍ، وَعَالِمٌ بِمَنْ
خُلِقَ وما هو خَالِقُهُ إلى يومِ الْقِيَامَةِ. إِلَّا أَنَّ الْقَوْلَ الثَّامِنَ هو سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ؛ لما
رواه النَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ^(٢) عَنْ أَبِي الْجَوْزَاءِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ امْرَأَةٌ تَصَلِّي
خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَسَنَاءٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَكَانَ بَعْضُ الْقَوْمِ يَتَقَدَّمُ حَتَّى يَكُونَ فِي
الْصَّفِّ الْأَوَّلِ؛ لَثَلَا يَرَاهَا، وَيَتَأَخَّرُ بَعْضُهُمْ حَتَّى يَكُونَ فِي الصَّفِّ الْمُؤَخَّرِ، فَإِذَا رَكَعَ،
نَظَرَ مَنْ تَحْتَ إِبْطِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا
الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾. وَرَوَى عَنْ أَبِي الْجَوْزَاءِ وَلَمْ يُذَكِّرْ ابْنَ عَبَّاسٍ، وَهُوَ أَصَحُّ.

الثانية: هذا يدلُّ على فَضْلِ أَوَّلِ الْوَقْتِ فِي الصَّلَاةِ، وَعَلَى فَضْلِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ؛
قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ
يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ؛ لَاسْتَهْمُوا»^(٣).

(١) تفسير الطبري ٤٨/١٤ - ٥٤، وتفسير مجاهد ٣٤١/١، وتفسير السمرقندي ٢١٧/٢ - ٢١٨،
والنكت والعيون ١٥٦/٣ - ١٥٧، والوسيط ٤٣/٣، وزاد المسير ٣٩٦/٤ - ٣٩٧، وتفسير الرازي
١٧٧/١٩ - ١٧٨. ونسب ابن الجوزي والرازي القولَ الخامس إلى الضحاك بدلاً من ابن المسيب.
وعُدَّ ابن العربي في أحكام القرآن ٣/١١٥ خمسة أقوال فقط.

(٢) النسائي في المجتبى ١١٨/٢، وفي الكبرى (١١٢٧٣)، والترمذي (٣١٢٢)، وابن ماجه (١٠٤٦)،
وأحمد (٢٧٨٣). وأبو الجوزاء: هو أوس بن عبد الله الرَّبَّيعِي.

وقال الترمذي: وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء نحوه، ولم
يذكر فيه ابن عباس، وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح. وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية:
حديث غريب جداً، وفيه نكارة شديدة. ثم رجح أن يكون من كلام أبي الجوزاء.

(٣) سلف ١٣٣/٥.

فإذا جاء الرجلُ عند الزوال، فنزلَ في الصفِّ الأوَّل مجاورَ الإمام؛ حازَ ثلاثَ مراتبٍ في الفضل: أوَّل الوقت، والصفِّ الأوَّل، ومجاورةَ الإمام. فإن جاء عند الزوال، فنزلَ في الصفِّ الآخِر، أو فيما نزلَ عن الصفِّ الأوَّل؛ فقد حازَ فضلَ أوَّل الوقت، وفاتهَ فضلُ الصفِّ الأوَّل والمجاورة. فإن جاء وقتَ الزوال، ونزلَ في الصفِّ الأوَّل دون ما يلي الإمام؛ فقد حازَ فضلَ أوَّل الوقت، وفضلَ الصفِّ الأوَّل، وفاتهَ مجاورةَ الإمام. فإن جاء بعد الزوال، ونزلَ في الصفِّ الأوَّل؛ فقد فاتهَ فضيلةُ أوَّل الوقت، وحازَ فضيلةَ الصفِّ الأوَّل، ومجاورةَ الإمام. وهكذا.

ومجاورةُ الإمام لا تكونُ لكلِّ أحد، وإنما هي كما قال ﷺ: «لِيلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى»^(١) الحديث. فما يلي الإمام ينبغي أن يكونَ لمن كانت هذه صفته، فإن نزلها غيره أخر، وتقدَّم هو إلى الموضع؛ لأنه حقهُ بأمرِ صاحبِ الشرع، كالمحرابِ هو موضعُ الإمام تقدَّم أو تأخر؛ قاله ابنُ العربي^(٢).

قلتُ: وعليه يُحملُ قولُ عمرَ رضي الله عنه: تَأَخَّرَ يَا فُلَان، تَقَدَّمَ يَا فُلَان. ثم يتقدَّم فيكبر^(٣). وقد روي عن كعب، أنَّ الرجلَ من هذه الأمة ليخِرُ ساجداً، فيغفرُ لمن خلفه. وكان كعبٌ يتوخَّى الصفِّ المؤخَّرَ من المسجدِ رجاءً ذلك، ويذكرُ أنَّه وجده كذلك في التوراة. ذكره الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادير الأصول»^(٤). وسيأتي في سورة الصَّافات زيادةٌ بيانٍ لهذا البابِ إن شاء الله تعالى.

الثالثة: وكما تدلُّ هذه الآيةُ على فضلِ الصفِّ الأوَّل في الصلاة، فكذلك تدلُّ على فضلِ الصفِّ الأوَّل في القتال؛ فإنَّ القيامَ في نحر العدوِّ، وبيعَ العبدِ نفسه من الله تعالى لا يُوازيه عملٌ، فالتقدُّمُ إليه أفضلُ، ولا خلافَ فيه، ولا خفاءَ به. ولم يكن

(١) سلف ٤٨/٢ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/١١١٥ - ١١١٦ .

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٦٥٣/١٩ .

(٤) نوادير الأصول ص ٢٩ ، الأصل العشرون.

أحدٌ يتقدَّم في الحربِ بين يدي رسولِ الله ﷺ؛ لأنَّه كان أشجعَ الناس. قال البراءُ: كُنَّا - والله - إذا احمرَّ البأسُ نَنقِي به، وإنَّ الشجاعَ مِنَّا الَّذي يُحاذي به. يعني النبي ﷺ^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَيْكَ هُوَ يُحْشِرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَيْكَ هُوَ يُحْشِرُهُمْ﴾ أي: للحسابِ والجزاء. ﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تقدم^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني: آدم عليه السلام. ﴿مِنْ صَلْصَلٍ﴾ أي: من طينٍ يابس؛ عن ابن عباس وغيره^(٣). والصلصالُ: الطينُ الحرُّ خُلِطَ بالرمل، فصَارَ يَتَصَلَصَلُ إذا جَفَّ، فإذا طُبِخَ بالنار، فهو الفَخَّار؛ عن أبي عبيدة^(٤). وهو قولُ أكثرِ المفسرين^(٥). وأنشد أهلُ اللغة:

كَعَذْوِ الْمُصَلْصِلِ الْجَوَالِ^(٦)

وقال مجاهد^(٧): هو الطَّيْنُ الْمُتَنَنِ. واختاره الكسائي^(٨). قال: وهو من قولِ العرب^(٩): صَلَّ اللَّحْمُ وَأَصْلًا: إذا أَتَنَ، مطبوخاً كان أو نِثْأً، يَصِلُّ صُلُولاً. قال الحُطَيْثَةُ:

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٦، وقول البراء أخرجه مسلم (١٧٧٦) (٧٩).

(٢) ٤٢٩/١.

(٣) تفسير الطبري ٥٧/١٤ - ٥٨.

(٤) في مجاز القرآن ٣٥٠/١.

(٥) ينظر تفسير الطبري ٥٧/١٤، ومعاني القرآن للفراء ٨٨/٢، والنكت والعيون ٣/ ١٥٧، والمحور الوجيز ٣٥٨/٣، وزاد المسير ٣٩٧/٤.

(٦) عجزُ بيتٍ للأعشى الكبير ميمون بن قيس، وصدره: عنتريس تعدو إذا مسَّها السوط. وهو في ديوانه ص ٥٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٥٠/١ - ٣٥١، واللسان (صلل).

(٧) في تفسيره ٣٤١/١، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ٥٨/١٤ - ٥٩.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٢٤/٤، وتفسير البغوي ٤٩/٣.

(٩) الصحاح (صلل).

ذَاكَ فَتَنَّى يَبْدِلُ ذَا قَدْرِهِ لَا يُفْسِدُ اللَّحْمَ لَدَيْهِ الصُّلُولُ^(١)
 وَطِينٌ صَلَّالٌ وَمِضْلَالٌ، أَي: يُصَوِّتُ إِذَا نَقَرْتَهُ، كَمَا يُصَوِّتُ [الْفَخَّارُ] الْجَدِيدُ^(٢).
 فَكَانَ أَوَّلَ تَرَابًا، أَي: مُتَفَرِّقَ الْأَجْزَاءِ، ثُمَّ بُلَّ فَصَارَ طِينًا، ثُمَّ تُرِكَ حَتَّى أَنْتَنَ، فَصَارَ
 حَمًا مَسْنُونًا، أَي: مُتَغَيَّرًا، ثُمَّ بَيَسَ فَصَارَ صَلَصَالًا؛ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ. وَقَدْ مَضَى
 فِي «الْبَقَرَةِ» بَيَانُ هَذَا^(٣).

وَالْحَمَاءُ: الطِينُ الْأَسْوَدُ، وَكَذَلِكَ الْحَمَاءَةُ، بِالتَّسْكِينِ، تَقُولُ مِنْهُ: حَمَأْتُ^(٤) الْبُئْرَ
 حَمَاءً؛ بِالتَّسْكِينِ: إِذَا نَزَعْتَ حَمَأَتِهَا. وَحَمَيْتِ الْبُئْرَ حَمَاءً؛ بِالتَّحْرِيكِ: كَثُرَتْ حَمَأَتُهَا.
 وَأَحْمَأْتُهَا إِحْمَاءً: أَلْقَيْتُ فِيهَا الْحَمَاءَةَ؛ عَنْ ابْنِ السَّكَيْتِ^(٥). وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْحَمَاءَةُ،
 بِسُكُونِ الْمِيمِ، مِثْلُ الْكَمَاءَةِ. وَالْجَمْعُ حَمَمٌ، مِثْلُ: تَمْرَةٌ وَتَمَرٌ. وَالْحَمَأُ الْمَصْدَرُ، مِثْلُ:
 الْهَلَعِ وَالْجَزَعِ، ثُمَّ سُمِّيَ بِهِ^(٦).

و«الْمَسْنُونُ»: الْمَتَغَيَّرُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ التَّرَابُ الْمَبْتَلُ الْمُنْتَنُ، فَجُعِلَ
 صَلَصَالًا كَالْفَخَّارِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ، قَالَا: الْمُنْتَنُ: الْمَتَغَيَّرُ^(٧)؛ مِنْ قَوْلِهِمْ:
 قَدْ أَسِنَ الْمَاءُ: إِذَا تَغَيَّرَ، وَمِنْهُ: «يَتَسَنَّه»، و«مَاءٌ غَيْرُ آسِنٍ». وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي قَيْسٍ بِنِ
 الْأَسْلَتِ^(٨):

(١) ديوانه ص ١٧٦، واللسان (صلل)، وصدده عند أبي حاتم السجستاني في فعلت وأفعلت ص ١٢٠: هو
 الفتى كل الفتى فاعلموا.

(٢) في النسخ: الحديد، والمثبت من الصحاح وما بين حاصرتين منه، ووقع في اللسان (صلل): الخزف،
 بدل: الفخار.

(٣) ٤١٨/١.

(٤) في (م): حمئت.

(٥) الصحاح (حمأ)، وكلام ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٢٥٥.

(٦) مجاز القرآن ٣٥١/١، والمحور الوجيز ٣٥٩/٣، وزاد المسير ٣٩٧/٤، وتفسير الرازي ١٨٠/١٩.

(٧) تفسير الطبري ٦١/١٤ - ٦٢.

(٨) النكت والعيون ١٥٨/٣.

سَقَتْ صَدَايَ رُضَاباً غَيْرَ ذِي أَسْنٍ كَالْمَسْكِ فُتَّ عَلَى مَاءِ الْعَنَاقِيدِ
وقال الفراء: هو المتغير، وأصله من قولهم: سَنَنْتُ الحجرَ على الحجرِ: إذا
حَكَّكَتَهُ به، وما يخرجُ من الحجرين يقال له: السنانة والسَّنين، ومنه المِسْنُ^(١). قال
الشاعر:

ثُمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَى الْقَبَةِ الْحَمَى رَاءَ تَمْشِي فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونٍ
أَي: محكوك مُمَلَّس. حُكِيَ أَنَّ يَزِيدَ بْنَ معاوية قال لأبيه: ألا ترى عبدَ الرحمن
ابنَ حَسَّانٍ يُشَبَّبُ بِابْنَتِكَ؟ فقال معاوية: وما قال؟ فقال: قال:
هِيَ زَهْرَاءُ مِثْلُ لَوْلُؤَةِ الْعَوِّ اصِ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونٍ
فقال معاوية: صدق! فقال يزيد: إنه يقول:

وَإِذَا مَا نَسَبْتُهَا لَمْ تَجِدْهَا فِي سَنَاءٍ مِنَ الْمَكَارِمِ دُونَ^(٢)
فقال: صدق! فقال: أينَ قوله: ثُمَّ خَاصَرْتُهَا...؟ اليَتِ. فقال معاوية: كذب.
وقال أبو عبيدة^(٣): الْمَسْنُونُ: الْمَصْبُوبُ. وهو من قولِ العربِ: سَنَنْتُ الْمَاءَ
وغيره على الوجه، إِذَا صَبَّيْتَهُ. وَالسَّنُّ: الصَّبُّ^(٤).
وروى عليُّ بن أبي طلحة، عن ابنِ عباس قال: الْمَسْنُونُ: الرُّطْبُ^(٥). وهذا

(١) معاني القرآن ٨٨/٢. للفراء، دون قوله: السنانة، ولم ينقلها أحدٌ ممن نقل كلام الفراء هذا، وينظر تهذيب اللغة ٣٠١/١٢، واللسان (سن).

(٢) اختلف في نسبة هذه الأبيات، فمنهم من نسبها إلى أبي ذؤيب الجمحي كما في الأغاني ١٢٣/٧-١٢٤، والكامل للمبرد ٣٨٧/١، ومنهم من نسبها إلى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كما في الأغاني ١٠٩/١٥ - ١١٠، والعقد الفريد ٣٢٢/٥ - ٣٢٣، والشعر والشعراء ٤٨٤/١ - ٤٨٥، والصحاح واللسان (سن)، وقال المبرد في الكامل ٣٨٧/١: والذي كأنه إجماع أنه لعبد الرحمن بن حسان، وهو في بنت معاوية. وفي جميع المصادر: «القبة الخضراء» بدل «القبة الحمراء».

(٣) في مجاز القرآن ٣٥١/١.

(٤) ينظر الأفعال للسرقسطي ٥٠٢/٣، وتهذيب اللغة ٣٠١/١٢، وزاد المسير ٣٩٨/٤.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ٦٢/١٤، وينظر زاد المسير ٣٩٨/٤.

بمعنى المَصْبُوب؛ لَأَنَّهُ لَا يَكُونُ مَصْبُوباً إِلَّا وَهُوَ رَطْبٌ. النَّحَاسُ^(١): وهذا قولٌ حسن؛ لَأَنَّهُ يُقَالُ: سَنَنْتُ الشَّيْءَ، أَي: صَبَبْتُهُ. قَالَه^(٢) أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ. وَمِنْهُ الْأَثَرُ الْمَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ^(٣) عَمْرٍو أَنَّهُ كَانَ يَسْنُ الْمَاءَ عَلَى وَجْهِهِ وَلَا يَسْتُهُ. وَالشَّنُّ، بِالشَّيْنِ: تَفْرِيقُ الْمَاءِ، وَبِالشَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ: صَبُّهُ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ.

وَقَالَ سَيْبَوِيهِ: الْمَسْنُونُ: الْمَصُورُ. أَخَذَ مِنْ سُنَّةِ الْوَجْهِ، وَهِيَ^(٤) صَوْرَتُهُ. وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

ثَرِيكَ سُنَّةٌ وَجْهِ غَيْرِ مُقْرِفَةٍ مَلَسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدَبٌ^(٥)
وَقَالَ الْأَخْفَشُ^(٦): الْمَسْنُونُ: الْمَنْصُوبُ الْقَائِمُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: وَجْهٌ مَسْنُونٌ: إِذَا كَانَ فِيهِ طَوُّ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الصَّلْصَالَ التَّرَابُ الْمَدْقُقُ^(٧)؛ حَكَاهُ الْمَهْدَوِيُّ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الصَّلْصَالَ هُوَ الْمَنْتَنُ، فَأَصْلُهُ صَلَّالٌ، فَأُبْدِلَ مِنْ إِحْدَى اللَّامَيْنِ الصَّادُ^(٨). «وَمِنْ حَمًا» مُفَسَّرٌ لَجَنَسِ الصَّلْصَالِ؛ كَقَوْلِكَ: أَخَذْتُ هَذَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ.

قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ خَلْقِ آدَمَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: يَعْنِي:

(١) فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ ٤/٢٤ - ٢٦.

(٢) فِي النِّسْخِ: قَالَ، وَالْمَثْبُوتُ مِنَ النِّكَتِ وَالْعَيُونِ ٣/١٥٨، وَزَادَ الْمَسِيرَ ٤/٣٩٨.

(٣) لَيْسَتْ فِي النِّسْخِ، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ مَصْنَفِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ ١/٦٧، وَالْغَرِيبُ لِلْخَطَّابِيِّ ١/٤٣٩، وَالنِّهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ ٢/٤١٣، وَاللِّسَانُ (سَنَن).

(٤) فِي (د) وَ(ز) وَ(م): وَهُوَ، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (ظ)، وَهُوَ الْمَوْافِقُ لِمَا فِي الْوَسِيطِ لِلْوَحِيدِ ٣/٤٤، وَتَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٩/١٨٠.

(٥) دِيوَانُ ذِي الرِّمَّةِ ١/٢٩، وَقَوْلُهُ: غَيْرُ مَقْرِفَةٍ، أَي: لَيْسَتْ بِمُهْجِنَةٍ، وَهِيَ عَتِيقَةٌ كَرِيمَةٌ. وَالنَّدَبُ: أَثَارُ الْجَرَّاحِ. وَيَنْظُرُ الصَّحَّاحُ (سَنَن).

(٦) نَقَلَهُ عَنْهُ السَّمَرْقَنْدِيُّ فِي التَّفْسِيرِ ٢/٢١٨، وَالْمَوَارِدِيُّ فِي النِّكَتِ وَالْعَيُونِ ٣/١٥٨.

(٧) فِي (ظ): الْمَرْقُوقُ.

(٨) مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ ٤/٢٤.

إِبْلِيسَ، خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَبْلَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَسُمِّيَ جَانًّا؛ لِتَوَارِيهِ عَنِ الْأَعْيُنِ. وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(١) مِنْ حَدِيثِ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَنَّةِ، تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفٌ، عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمَالِكُ».

﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: نَارُ السَّمُومِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ مِنْهَا الْجَانَّ جِزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جِزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: السَّمُومُ الرِّيحُ الْحَارَّةُ الَّتِي تَقْتُلُ^(٢). وَعَنْهُ: أَنَّهَا نَارٌ لَا دُخَانَ لَهَا، وَالصَّوَاعِقُ تَكُونُ مِنْهَا، وَهِيَ نَارٌ تَكُونُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْحِجَابِ^(٣). فَإِذَا أَحْدَثَ اللَّهُ أَمْرًا اخْتَرَقَتِ الْحِجَابَ، فَهَوَتْ الصَّاعِقَةُ إِلَى مَا أُمِرَتْ، فَالْهَذَّةُ الَّتِي تَسْمَعُونَ خَرَقَ ذَلِكَ الْحِجَابَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: نَارُ السَّمُومِ نَارٌ دُونَهَا حِجَابٌ، وَالَّذِي تَسْمَعُونَ مِنْ انْعِطَاطٍ^(٤) السَّحَابِ صَوْتُهَا. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا قَالَ: كَانَ إِبْلِيسُ مِنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُمْ: الْجِنُّ، خُلِقُوا مِنْ نَارِ السَّمُومِ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ. قَالَ: وَخُلِقَتِ الْجِنُّ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي الْقُرْآنِ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ^(٥).

قُلْتُ: هَذَا فِيهِ نَظَرٌ؛ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى سَنَدٍ يَقْطَعُ الْعُدْرَةَ؛ إِذْ مِثْلُهُ لَا يُقَالُ مِنْ جِهَةِ الرَّأْيِ. وَقَدْ خَرَجَ مُسْلِمٌ^(٦) مِنْ حَدِيثِ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». فَقَوْلُهُ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ» يَقْتَضِي الْعُمُومَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) برقم (٢٦١١)، وهو عند أحمد (١٢٥٣٩).

(٢) تفسير الطبري ٦٣/١٤ - ٦٤، وزاد المسير ٤٠٠/٤.

(٣) تفسير السمرقندي ٢١٨/٢.

(٤) في (د) و(ز) و(م): انعطاط، والمثبت من (ط)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٨٨/٢، والانعطاط: الانشقاق. اللسان (عطط).

(٥) تفسير الطبري ٤٨٢/١ و ٦٤/١٤، وينظر النكت والعيون ١٥٩/٣، والوسيط ٤٤/٣ - ٤٥. وقال ابن كثير في تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة: هذا سياق غريب، وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها.

(٦) برقم (٢٩٩٦)، وهو عند أحمد (٢٥١٩٤).

وقال الجوهري: مارج من نار: نارٌ لا دخانَ لها خُلِقَ منها الجان^(١). والسَّموُمُ: الرِّيحُ الحارَّةُ تُؤَثِّثُ؛ يقال منه: سُمَّ يومُنَا؛ فهو يومٌ مسمومٌ، والجمعُ سَمَائِمٌ. قال أبو عبيدة: السَّموُمُ بالنهار، وقد تكونُ بالليل، والحَرُورُ بالليل، وقد تكونُ بالنهار^(٢). القشيري: وَسُمِّيتِ الرِّيحُ الحارَّةُ سَمُومًا؛ لدخولها في مَسَامِ البدن^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَٰصِلٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿١٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُم سَجِدِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ﴾ تقدّم في «البقرة»^(٤). ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَٰصِلٍ﴾: من طين. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ﴾ أي: سَوَّيْتُ خَلْقَهُ وَصَوَّرْتُهُ. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ النفخ: إجراء الرِّيحِ في الشيء. والروح: جسمٌ لطيفٌ، أجرى الله العادة بأن يَخْلُقَ الحياةَ في البدن مع ذلك الجسم. وحقيقته إضافةُ خَلْقٍ إلى خالق؛ فالروحُ خلقٌ من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفًا وتكريماً، كقوله: أرضي، وسمائي، وبيتي، وناقة الله، وشهر الله. ومثله: ﴿وَرُوحٌ مِّنِّي﴾ [النساء: ١٧١] وقد تقدّم في «النساء» مبيناً^(٥). وذكرنا في كتاب «التذكرة»^(٦) الأحاديث الواردة التي تدل على أنَّ الروحَ جسمٌ لطيف، وأنَّ النفسَ والروحَ اسمان لمسمًى واحد. وسيأتي ذلك إن شاء الله. ومن قال: إنَّ الروحَ هو الحياةُ قال: أراد: فإذا رَكَّبْتُ فيه الحياةَ ﴿فَقَعُوا لَهُم سَجِدِينَ﴾ أي: خَرُّوا له ساجدين. وهو سجودٌ تحيةً وتكريماً لا سجودٌ عبادة^(٧). ولله أن يُفَضِّلَ مَنْ يريد، ففَضَّلَ الأنبياءَ على الملائكة. وقد تقدّم في «البقرة» هذا المعنى^(٨). وقال القفال:

(١) الصحاح (مرج).

(٢) الصحاح (سمم).

(٣) ينظر النكت والعيون ١٥٩/٣.

(٤) ٣٩١/١.

(٥) ٢٣١/٧، وينظر الوسيط ٤٥/٣.

(٦) ص ١٢٤.

(٧) تفسير الطبري ٦٥/١٤، ومعاني القرآن للفراء ٨٨/٢.

(٨) ٤٣٥/١.

كانوا أفضل من آدم، وامتحنهم بالسجود له تعريضاً لهم للشواب الجزيل. وهو مذهب المعتزلة. وقيل: أمروا بالسجود لله عند آدم، وكان آدم قِبلة لهم^(١).

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: لا شك أن إبليس كان مأموراً بالسجود؛ لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وإنما منعه من ذلك الاستكبار والاستعظام؛ كما تقدم في «البقرة» بيانه^(٢). ثم قيل: كان من الملائكة، فهو استثناء من الجنس. وقال قوم: لم يكن من الملائكة، فهو استثناء منقطع. وقد مضى في «البقرة» هذا كله مستوفى^(٣).

وقال ابن عباس: الجانُّ: أبو الجن، وليسوا شياطين. والشياطين: ولد إبليس، لا يموتون إلا مع إبليس. والجنُّ يموتون، ومنهم المؤمن، ومنهم الكافر. فأدّم أبو الإنس، والجانُّ أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين. ذكره الماوردي^(٤). والذي تقدم في «البقرة» خلاف هذا، فتأمل هناك.

الثانية: الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعي، حتى لو قال: لفلان علي دينار إلا ثوباً، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة، وما جانس ذلك؛ كان مقبولاً، ويسقط عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة. ويستوي في ذلك المكيلات والموزونات والمقدّرات. وقال مالك وأبو حنيفة رحمهما: استثناء المكيل من الموزون، والموزون من المكيل جائز، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة، والحنطة من الدراهم قبل، فأما إذا استثنى المقومات من المكيلات أو الموزونات، والمكيلات

(١) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٨٢.

(٢) ٤٤١/١.

(٣) ٤٣٨/١.

(٤) في النكت والعيون ٣/ ١٥٨.

من المقومات، مثل أن يقول: عليّ عشرة دنائير إلا ثوباً، أو عشرة أثواب إلا ديناراً، لا يصح الاستثناء، ويلزم المقر جميع المبلغ. وقال محمد بن الحسن: الاستثناء من غير الجنس لا يصح، ويلزم المقر جملة ما أقر به^(١). والدليل لقول الشافعي^(٢) أن لفظ الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا فِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا﴾ [الواقعة: ٢٥]، فاستثنى السلام من جملة اللغو، ومثله ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وإبليس ليس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال الشاعر:

وَبَلَدٌ لَيْسَ بِهَا أَنْيْسٌ إِلَّا الْيَعْفِيرُ وَالْإِلَاسُ^(٣)

فاستثنى اليعافير وهي ذكور الأطباء، والإيس وهي الجمال البيض، من الأنيس؛ ومثله قول النابغة^(٤):

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتْلِيَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ٣٣ ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ ٣٤ ﴿قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ٣٥ ﴿وَأِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ٣٥

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتْلِيَ مَا لَكَ﴾ أي: ما المانع لك. ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: في ألا تكون.

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ بين تكبره وحسده،

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤٧١/١، ومختصر اختلاف العلماء ٤١٤/٤ - ٤١٥، والوسيط في المذهب ٣٥٤/٣ - ٣٥٥، وعقد الجواهر الثمينة ٧١٣/٢.

(٢) نهاية المحتاج ١٠٦/٥.

(٣) البيت لجبران القود النميري، وهو في ديوانه ص ٩٧، وسلف ٦/٧.

(٤) يشير إلى قوله:

وقفت فيها أصيلاً أسألتها عيت جواباً وما بالربع من أحد
إلا الأواري لأياً ما أبينها والنوي كالحوض بالمظلومة الجلد

والبيتان في ديوانه ص ٣٠، وسلفا في موضعين ٤٦٠/١ و ٦/٧، واستشهد بهما على المسألة نفسها.

وأنه خيرٌ منه؛ إذ هو من نارٍ، والنارُ تأكلُ الطين^(١)؛ كما تقدّم في «الأعراف» بيّانه^(٢). ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ أي: من السّمّاءات، أو من جنةِ عَدْن، أو من جملةِ الملائكة^(٣). ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مرجومٌ بالشَّهَب. وقيل: ملعونٌ مشتوم^(٤). وقد تقدّم هذا كلّهُ مستوفى في «البقرة» و«الأعراف»^(٥). ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ أي: لعنتي، كما في سورة (ص) [آية: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقة^(٦) منه بمنزليته عند الله تعالى، وأنه أهلٌ أن يُجاب له دعاء، ولكن سأل تأخيرَ عذابه زيادةً في بلائه، كفعلِ الآيس من السّلامة. وأرادَ بسؤاله الإنظارَ إلى يومِ يبعثون، ألا يموت؛ لأنَّ يومَ البعث لا موت فيه، ولا بعده. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ يعني: من المؤجّلين. ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ قال ابنُ عباس: أرادَ به النّفخة الأولى، أي: حينَ تموتُ الخلائق. وقيل: الوقتُ المعلومُ الذي استأثرَ اللهُ بعلمه، ويجهله إبليسُ، فيموتُ إبليس ثم يُبعث؛ قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. وفي كلامِ الله تعالى له قولان: أحدهما: كلّمه على لسانِ رسول^(٧). الثاني: كلّمه تغليظاً في الوعيد، لا على وجهِ التّكريمِ والتّقريب^(٨).

(١) تفسير الطبري ٦٦/١٤ - ٦٧.

(٢) ١٦٥/٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣٦١/٣.

(٤) في (د) و(ز) و(م): مشؤوم، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير الطبري ٦٧/١٤، والمحرر الوجيز ٣٦١/٣.

(٥) ١٤١/١ و ١٧٣/٩ - ١٧٤، وينظر ٤٧٤/١ - ٤٧٥.

(٦) في (م) ثقته، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في النكت والعيون ١٥٩/٣.

(٧) في (م) و(د): رسوله.

(٨) النكت والعيون ١٥٩/٣ - ١٦٠.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ تقدّم معنى الإغواء والزينة في «الأعراف»^(١). وتزيينه هنا يكون بوجهين: إمّا بفعل المعاصي، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطّاعة. ومعنى ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأضلّنّهم عن طريق الهدى^(٢). وروى ابنُ لهيعة عبدُ الله، عن ذرّاج أبي السّمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا أَزَالُ أَغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَامِهِمْ»^(٣)، فقال الربُّ: وعزّتي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ ﴿٤٠﴾

قرأ أهلُ المدينة وأهلُ الكوفة بفتح اللام، أي: الذين استخلصتهم وأخلصتهم. وقرأ الباكون بكسر اللام^(٥)، أي: الذين أخلصوا لك العبادة من فسادٍ أو رياءٍ. حكى أبو ثُمّامة أنَّ الحواريّين سألوا عيسى عليه السلام عن المخلص^(٦) لله، فقال: الذي يعملُ، ولا يُحبُّ أن يحمّده النَّاسُ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾

قال عمرُ بن الخطّاب: معناه: هذا صراطٌ يستقيمُ بصاحبه حتى يَهْجَمَ به على الجَنَّة. الحسن: «عليّ» بمعنى: إلَيَّ. مجاهدٌ والكسائيّ: هذا على الوعيدِ والتهديد؛

(١) ١٧٠/٩ و ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) النكت والعيون ١٦٠/٣ - ١٦١.

(٣) في (ظ): أجسادهم.

(٤) أخرجه أحمد (١١٢٣٧) و (١١٢٤٤) وأبو يعلى (١٣٩٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٦٥)، والبغوي في شرح السنة (١٢٩٣).

(٥) التيسير ص ١٢٨، والسبعة ص ٣٤٨.

(٦) في (د) و(ز) و(م): المخلصين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ١٦١/٣.

كقولك لمن تُهَدِّدُه: طريقُكَ عليَّ ومَصِيرُكَ إليَّ. وكقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرِّصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤] فكان معنى الكلام: هذا طريقٌ مرجعه إليَّ، فأجازي كُلًّا بعمله، يعني: طريقَ العبودية. وقيل: المعنى عليَّ أن أدلَّ على الصراطِ المستقيم بالبيانِ والبرهان. وقيل: بالتوفيق والهداية^(١).

وقرأ ابنُ سيرين وقتادة، والحسن وقيسُ بن عباد، وأبو رجاء وحُميد، ويعقوب: «هذا صِرَاطٌ عليَّ مستقيم» برفع «عليَّ» وتنوينه^(٢)، ومعناه: رفيعٌ مستقيم، أي: رفيعٌ في الدين والحق. وقيل: رفيعٌ أن يُنالَ، مستقيمٌ أن يُمالَ^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قال العلماء: يعني: على قلوبهم. وقال ابنُ عُيَيْنَةَ: أي: في أن يُلقِيَهُمْ في ذنبٍ يمنَعُهُم عَفْوِي، ويُضَيِّقُهُ عليهم. وهؤلاء الذين هداهم الله، واجتَبَاهُم، واختارَهُم، واصطَفَاهُم^(٤).

قلت: لعلَّ قائلًا يقول: قد أخبر الله عن صفة^(٥) آدمَ وحواءَ عليهما السلام بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [البقرة: ٣٦]، وعن جملةٍ من أصحابِ نبيِّه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَسْأَلُهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فالجوابُ ما ذُكِرَ، وهو أنه ليس له سلطانٌ على قلوبهم، ولا موضع إيمانهم، ولا يُلقِيَهُمْ في ذنبٍ يؤوِلُ إلى عدمِ القبول، بل تُزِيلُهُ التوبة، وتَمْحُوهُ الأُوْبَةُ. ولم يكن خروجُ آدمَ عقوبةً لما تناول، على

(١) النكت والعيون ١٦١/٣ .

(٢) تفسير الطبري ٧١/١٤ ، والنكت والعيون ١٦١/٣ ، والمحور الوجيز ٣٦٢/٣ ، وتفسير البغوي ٥١/٣ ، والمحتسب ٣/٢ . وقراءة يعقوب من العشرة . ينظر النشر ٣٠١/٢ .

(٣) النكت والعيون ١٦١/٣ .

(٤) تفسير البغوي ٥١/٣ ، وزاد المسير ٤٠٢/٤ .

(٥) في (ظ): صفيه.

ما تقدّم في «البقرة» بيانه^(١). وأمّا أصحاب النبي ﷺ، فقد مضى القول عنهم في «آل عمران»^(٢). ثم إنَّ قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ يحتمل أن يكون خاصاً فيمن حفظه الله، ويحتمل أن يكون في أكثر الأوقات والأحوال، وقد يكون في تسلّطه تفريج كرب، وإزالة غمة، كما فعل بلال، إذ أتاه يهدّيه كما يهدّي الصبي حتى نام^(٣)، ونام النبي ﷺ وأصحابه، فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس، وفزعوا وقالوا: ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟ فقال لهم النبي ﷺ: «ليس في النوم تفريط»، ففرّج عنهم^(٤).

﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: الضالّين المشركين^(٥). أي: سلطانه على هؤلاء؛ دليله ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

الثانية: وهذه الآية والتي قبلها دليل على جواز استثناء القليل من الكثير، والكثير من القليل، مثل أن يقول: عشرة إلا درهماً. أو يقول: عشرة إلا تسعة. وقال أحمد ابن حنبل: لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه، وأمّا استثناء الأكثر من الجملة فلا يصح. ودليلنا هذه الآية، فإن فيها استثناء «الغاوين» من العباد، والعباد من الغاوين، وذلك يدل على أن استثناء الأقل من الجملة، واستثناء الأكثر من الجملة جائز^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: إبليس ومن اتبعه. ﴿لَهَا سَبْعَةُ

(١) ٤٧٦/١.

(٢) ٣٧٢/٥.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١٤/١ - ١٥ عن زيد بن أسلم مراسلاً.

(٤) ينظر حديث أبي هريرة وحديث أبي قتادة عند مسلم (٦٨٠)، و(٦٨١).

(٥) ينظر تفسير السمرقندي ٢/٢٢٠.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/٣٦٢، والمغني لابن قدامة ٧/٢٩٢ - ٢٩٤.

أَبْوَابٍ ﴿١﴾ أي: أطباق، طبق فوق طبق ﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾ أي: لكل طبقة ﴿مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: حظ معلوم^(١). ذكر ابن المبارك قال: أخبرنا إبراهيم أبو هارون الغنوي قال: سمعت حِطَّانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الرَّقَاشِي يَقُولُ: سمعتُ علياً عليه السلام يقول: هل تدرُونَ كيف أبواب جهنم؟ قلنا: هي مثل أبوابنا. قال: لا، هي هكذا بعضها فوق بعض^(٢). زاد الثعلبي: - ووضع إحدى يديه على الأخرى - وإن الله وضع الجنان على الأرض، والنيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها لظى، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وكلُّ بابٍ أشدُّ حرّاً من الذي يليه سبعين مرة^(٣).

قلت: كذا وقع هذا التفسير، والذي عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدَرَكَاتِ، وهي مختصة بالعصاة من أمة محمد ﷺ، وهي التي تُخَلَّى من أهلها، فتصفيق الرياح أبوابها، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية؛ قال الضحّاك: في الدرك الأعلى المحدثون، وفي الثاني النصارى، وفي الثالث اليهود، وفي الرابع الصّابئون، وفي الخامس المجوس، وفي السادس مشركو العرب، وفي السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة^(٤). قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] - وقد تقدم في النساء^(٥)، - وقال: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَمِينِهِ فَرَأَى عَذَابَ اللَّهِ كَافٍ﴾ [البقرة: ١٧٥]، وقال: ﴿وَقَسَمَ مَعَادُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ الْعُلَمَاءُ الشُّوْءَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَةِ تَقْسِيماً عَلَى تِلْكَ الْأَبْوَابِ،

(١) تفسير الطبري ٧٢/١٤ - ٧٣.

(٢) الزهد لابن المبارك ص ٨٥ زوائد نعيم بن حماد، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/١٥٤، والطبري في تفسيره ٧٣/١٤ - ٧٤.

(٣) تفسير البغوي ٥١/٣، والوسيط ٤٥/٣ - ٤٦، والمحزر الوجيز ٣/٣٦٣، وزاد المسير ٤٠٢-٤٠٣.

(٤) تفسير البغوي ٥١/٣، والوسيط ٤٦/٣، وزاد المسير ٤٦/٣.

(٥) ١٩٥/٧ - ١٩٦.

ذكرناه في كتاب «التذكرة»^(١).

وروى الترمذي^(٢) من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لجَهَنَّم سبعة أبواب: باب منها لمن سَلَّ سيفَه على أمتي» قال: حديث غريب.

وقال أبي بن كعب: لجَهَنَّم سبعة أبواب: باب منها للحرورية. وقال وهب بن منبه: بين كل بايين مسيرة سبعين سنة، كل باب أشدَّ حرًا من الذي فوقه بسبعين ضعفًا. وقد ذكرنا هذا كله في كتاب «التذكرة»^(٣).

وروى سَلَامُ الطويل، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ»: جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله، وجزء آثروا شهواتهم على الله، وجزء شَفَوْا غيظهم بغضبِ الله، وجزء صَيَّرُوا رَغْبَتَهُمْ بحظهم من الله، وجزء عَتَوْا على الله. ذكره الحَلِيمِي أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب «منهاج الدين» له^(٤)، وقال: فإن كان ثابتاً، فالمشركون بالله هم الثنوية. والشَّاكون هم الذين لا يدرون أن لهم إلهاً أو لا إله لهم، وَيَشْكُون في شريعته أنها من عنده أم لا. والغافلون عن الله هم الذين يَجْحَدُونَهُ أصلاً ولا يُشَبِّتُونَهُ، وهم الدَّهْرِيَّة. والمُؤَثِّرُونَ شهواتهم على الله هم المنهمكون في المعاصي؛ لتكذيبهم رسلَ الله وأمره ونهيه. والشَّاْفُونَ غيظهم بغضبِ الله هم القاتلون أنبياء الله، وسائر الداعين إليه، المعذَّبون من ينصَحُ لهم، أو يذهب غير مذهبهم، والمُصَيِّرُونَ رَغْبَتَهُمْ بحظهم من الله هم المنكرون البعث^(٥) والحساب؛

(١) ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) في سننه (٣١٢٣)، وهو في مسند أحمد (٥٦٨٩).

(٣) ص ٣٨٣ - ٣٨٤، وينظر التخويف من النار لابن رجب ص ٥٨.

(٤) منهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٧٢ - ٤٧٣، وسَلَامُ الطويل: هو التميمي، السعدي، وهو متروك.

وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٩/ ٢٩، بلفظ: جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله.

(٥) المثبت من (ظ)؛ وفي غيرها: بالبعث.

فهم يَعْبُدُونَ ما يرغبون فيه، لهم جميعُ حظِّهم من الله تعالى. والعاتُونَ على الله الذين لا يبالون بأن يكونَ ما هم فيه حقًّا أو باطلاً، فلا يتفكرون، ولا يَعْتَبِرُونَ، ولا يَسْتَدِلُّونَ. والله أعلم بما أرادَ رسوله ﷺ إن ثبتَ الحديثُ.

ويُروى أن سلمان الفارسيَّ ﷺ لما سَمِعَ هذه الآية: ﴿وَلَنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قرأ ثلاثة أيامٍ من الخوفِ لا يَعْقِلُ، فجاء به إلى رسولِ الله ﷺ فسأله، فقال: يا رسولَ الله، أنزلت هذه الآية: ﴿وَلَنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فوالذي بعثك بالحقِّ لقد قَطَعْتَ قلبي. فأنزلَ الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَغُيُوبٍ﴾^(١) [الحجر: ٤٥].

وقال بلالٌ: كان النبي ﷺ يُصلي في مسجدِ المدينة وَخَدَه، فمَرَّتْ به امرأةٌ أعرابيةٌ، فَصَلَّتْ خلفه ولم يعلم بها، فقرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿لَمَّا سَبَعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْشُورٌ﴾ فخرَّت الأعرابية مغشياً عليها، وسمع النبي ﷺ وَجَبَتْهَا^(٢)، فانصرفت ودعا بماء فصبَّ على وجهها حتى أفاقَت وجَلَسَت، فقال النبي ﷺ: «يا هذه، مَا لَكَ؟» فقالت: أَهَذَا شَيْءٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الْمُنْزَلِ، أَوْ تَقُولُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِكَ؟ فقال: «يا أعرابيةٌ، بل هو من كتابِ الله تعالى المنزل»، فقالت: كُلُّ عَصِيٍّ مِنْ أَعْضَائِي يُعَذِّبُ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْهَا؟ قال: «يا أعرابيةٌ، بل لكلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ يُعَذِّبُ أَهْلُ كُلِّ مِنْهَا عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ»، فقالت: والله إني امرأةٌ مسكينةٌ، مالي مالٌ، وما لي إلا سبعةٌ أَعْبُدُ، أَشْهَدُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَّ كُلَّ عَبْدٍ مِنْهُمْ عَنْ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ حُرٌّ لَوْجَهَ اللَّهِ تَعَالَى. فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِشَرِّ الْأَعْرَابِيَّةِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهَا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ كُلَّهَا، وَفَتَحَ لَهَا أَبْوَابَ الْجَنَّةِ كُلَّهَا^(٣).

(١) نَسَبَهُ السُّيُوطِيُّ فِي لِبَابِ التَّقْوِيلِ فِي أَسْبَابِ التَّزْوِيلِ إِلَى الثَّلَاثَةِ.

(٢) الْوَجْبَةُ: السَّقَطَةُ مَعَ الْهَدَّةِ. الصَّحَاحُ (وَجِبَ).

(٣) نَسَبَهُ ابْنُ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيُّ فِي التَّخْوِيفِ مِنَ النَّارِ ص ٥٨ - ٥٩، إِلَى الثَّلَاثَةِ فِي تَفْسِيرِهِ بِإِسْنَادٍ مَجْهُولٍ إِلَى مَنْصُورِ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ أَبِي رِبَاحٍ...، فَذَكَرَهُ، وَقَالَ: وَهَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ مَرْفُوعاً، وَمَنْصُورٌ =

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: الذين اتقوا الفواحش والشرك. ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ أي: بساتين^(١). ﴿وَعُيُونٍ﴾: هي الأنهار الأربعة: ماء، وخمر، ولبن، وعسل. وأمّا العيون المذكورة في سورة الإنسان: الكافور والزنجبيل والسلسبيل، وفي «المطففين»: التسنيم، فيأتي ذكرها وأهلها إن شاء الله.

وضمّ العين من «عيون» على الأصل، والكسر مراعاةً للياء، وقُري بهما^(٢).

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ قراءة العامة: «ادخلوها» بوصل الألف وضمّ الخاء، من دخل يدخل، على الأمر. تقديره: قيل: ادخلوها. وقرأ الحسن وأبو العالية ورؤيس عن يعقوب: «ادخلوها» بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخاء على الفعل المجهول^(٣)، من أدخل، أي: أدخلهم الله إياها. ومذهبهم كسر التنوين في مثل ﴿رَحِمَهُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٩] وشبهه، إلا أنهم هاهنا ألقوا حركة الهمزة على التنوين؛ إذ هي ألف قطع، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر، فيثقل على اللسان.

﴿بِسَلَامٍ﴾ أي: بسلامة من كل داء وآفة. وقيل: بتحية من الله لهم. ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من الموت والعذاب، والعزل والزوال^(٤).

= ابن عبد الحميد قال فيه ابن حبان: لا تحل الرواية عنه. والصحيح ما روى مغلد بن الحسن عن هشام بن حسان قال: خرجنا حجاجاً فنزلنا منزلاً في بعض الطريق، فقرأ رجل معنا هذه الآية..، فذكره مختصراً.

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٠، والوسيط ٣/ ٤٦.

(٢) قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وهشام بضم العين، والباقون بكسرها. التيسير ص ١٣٦.

(٣) ينظر الكشف ٢/ ٣٩٢، والمحذر الوجيز ٣/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٦، والنشر ٢/ ٣٠١. وقراءة يعقوب - وهو من العشرة - المتواترة عنه كقراءة حمزة وعاصم وأبي عمرو وابن ذكوان، بكسر التنوين، وضم الخاء.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٦١ - ٣٦٢، وزاد المسير ٤/ ٤٠٣.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْنَصِينَ﴾ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

قال ابن عباس: أوّل ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان، فيشربون من إحدى العينين، فيذهب الله ما في قلوبهم من غلٍّ، ثم يدخلون العين الأخرى، فيغتسلون منها، فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم، وتجري عليهم نضرة النعيم^(١). ونحوه عن عليّ^(٢).

وقال عليّ بن الحسين: نزلت في أبي بكر وعمر وعليّ والصحابه^(٣)، يعني ما كان بينهم في الجاهلية من الغلّ. والقول الأوّل أظهر؛ يدلّ عليه سياق الآية. وقال عليّ^(٤): أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء^(٥).

والغلّ: الحقد والعداوة، يقال منه: غلّ يغلّ. ويقال من الغلول، وهو السرقة من المغمّم: غلّ يغلّ. ويقال من الخيانة: أغلّ يغلّ^(٦). كما قال^(٧):

جَزَىٰ اللَّهُ عَنَا حَمَزَةَ ابْنَةٍ نَّوْفَلٍ جزاء مُغِلٍّ بِالْأَمَانَةِ كَاذِبٍ
وقد مضى هذا في آل عمران.

﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْنَصِينَ﴾ أي: لا ينظر بعضهم إلى قفّا بعض؛ تواصلًا وتحاببًا، عن مجاهد^(٨) وغيره. وقيل: الأسيرة تدور كيفما شاؤوا، فلا يرى أحدٌ قفا

(١) زاد المسير ٢٠٠/٣.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١٧٦/٢، وابن أبي شيبة ١١٢/١٣، والطبري في تفسيره ٢٦٧/٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ٣٢٦٢/١٠ (١٨٤١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٢٢٦٧/٧ (١٢٤٠٣)، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٨١، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٣٨/٣٠ و ٢٨٩/٥٤.

(٤) سلف ٢٢٢/٩.

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ٢٠٠/١، وسلف ٣٨٨/٥.

(٦) هو الثّور بن تولب، وسلف ٣٨٨/٥.

(٧) أخرجه نعيم بن حماد في زوائد على زهد ابن المبارك (٤٣٤)، وهناد في الزهد (٨٠)، والطبري في التفسير ٨٠/١٤، وسيأتي من قول عكرمة أيضاً في سورة الصافات، الآية (٤٤).

أحد^(١). وقيل: «مقابلين»: قد أقبلت عليهم الأزواج، وأقبلوا عليهن بالود^(٢).

وسُرر: جمع سرير، مثل جديد وجُدُد. وقيل: هو من السرور؛ فكأنه مكان رفيع ممهّد للسرور^(٣). والأوّل أظهر. قال ابن عباس: على سُرر مكلّلة بالباقوت والزّيزج والذرّ، السرير ما بين صنعاء إلى الجابية، وما بين عدن إلى أيلة^(٤).

و«إخواناً»: نصب على الحال من «المتقين»^(٥) أو من المضمر في «ادخلوها»، أو من المضمر في «آمنين»، أو يكون حالاً مقدّرة من الهاء والميم في «صدورهم»^(٦).

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: إعياء وتعب^(٧). ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا يزول، وأن أهلها فيها باقون ﴿أَكُلُهَا دَائِمٌ﴾؛ ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾^(٨).

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

هذه الآية وزان قوله عليه الصلاة والسلام: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته»

(١) مجمع البيان للطبرسي ٣٠/١٤، والكشاف ٢/٣٩٢.

(٢) حكاها الماوردي في النكت والعيون ٣/١٦٢ عن القاسم.

(٣) ينظر الصحاح (سرر) وتهذيب اللغة ١٢/٢٨٤، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٥١، وتفسير الطبري ٨٠/١٤، والرازي ١٩/١٩٣.

(٤) أورده الواحدي في الوسيط ٣/٤٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/٤٠٤، والرازي في التفسير ١٩/١٩٣، والجبابة: قرية من أعمال دمشق. معجم البلدان ٢/٩١، وأيلة: مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام. معجم البلدان ١/٢٩٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/٣٨٢.

(٦) مشكل إعراب القرآن ١/٤١٤، وأمالى ابن الشجري ٣/١٩٠.

(٧) الوسيط ٣/٤٦، وزاد المنير ٤/٤٠٤.

(٨) ينظر تفسير الطبري ١٤/٨١.

أحد^(١). أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدّم في الفاتحة^(٢). وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره، فيخوف ويرجي، ويكون الخوف في الصحة أغلب عليه منه في المرض^(٣). وجاء في الحديث أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار؟!». فشق ذلك عليهم، فنزلت الآية^(٤). ذكره الماوردي والمهدوي.

ولفظ الثعلبي عن ابن عمر قال: أطلع علينا النبي ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبّة ونحن نضحك، فقال: «ما لكم تضحكون؟ لا أراكم تضحكون»، ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع القهقري، فقال: «إني لما خرجت؛ جاءني جبريل فقال: يا محمد لم تُقنط عبادي من رحمتي؟ ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ»^(٥). فالقنوط إياس، والرجاء إهمال، وخير الأمور أوساطها.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ٥٣ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي ٥٤ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ضيف إبراهيم: هم الملائكة الذين

(١) ٢١٥/١ .

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٩٥/١٩ .

(٣) أخرجه البزار (٢٢١٦) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤٦/٧ ونسبه للطبراني وقال: رواه الطبراني، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. اهـ، ولم نقف عليه عند الطبراني، وأورده أيضاً البغوي في معالم التنزيل ٥٢/٣، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٥٧) وقال: وليس في إسناده من ترك ولا اتهم. اهـ.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨٩٢)، والطبري في التفسير ٨٢/١٤ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وفي إسناده: مصعب بن ثابت، وعاصم بن عبيد الله، وهما ضعيفان، كما في تقريب التهذيب. وأورده الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٦٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٤٠٤/٤ - ٤٠٥ .

بَشْرُوهُ بِالْوَلَدِ وَبِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ^(١). وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُكْنَى أَبَا الضَّيْفَانِ، وَكَانَ لَقَضْرُهُ أَرْبَعَةً أَبْوَابَ؛ لِكَيْلَا يَفُوتَهُ أَحَدٌ^(٢). وَسُمِّيَ الضَّيْفُ ضَيْفًا؛ لِإِضَافَتِهِ إِلَيْكَ، وَنَزُولِهِ عَلَيْكَ^(٣). وَقَدْ مَضَى مِنْ حَكْمِ الضَّيْفِ فِي «هُودٍ» مَا يَكْفِي، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ جُمِعَ الْخَبَرُ؛ لِأَنَّ الضَّيْفَ اسْمٌ يَصْلُحُ لِلوَاحِدِ وَالْجَمْعِ وَالتَّثْنِيَةِ، وَالْمَذْكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ، كَالْمَصْدَرِ^(٤). ضَافَهُ: مَالٌ إِلَيْهِ^(٥) وَأَضَافَهُ: أَمَالُهُ^(٦)؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «حِينَ تَضَيَّفَ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ»^(٧)، وَضَيْفُوفَةُ السَّهْمِ^(٨)، وَالْإِضَافَةُ النُّحْوِيَّةُ. ﴿فَقَالُوا سَلَمًا﴾ أَي: سَلِّمُوا سَلَامًا^(٩).

﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَحِلُونَ﴾ أَي: فَزَعُونَ خَائِفُونَ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا بَعْدَ أَنْ قَرَّبَ الْعَجَلَ وَرَأَاهُمْ لَا يَأْكُلُونَ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي هُودٍ^(١٠). وَقِيلَ: أَنْكَرَ السَّلَامَ، وَلَمْ يَكُنْ فِي بِلَادِهِمْ رَسْمُ السَّلَامِ.

(١) فِي سُورَةِ هُودٍ، الْآيَةُ (٦٩).

(٢) أَخْرَجَهُ بِهَذَا اللَّفْظِ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ (بِرَوَايَةِ الدُّورِيِّ ١٥٦٢)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ ٣/٣٣٦، وَابِيهَقِي فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ (٩٦١٨)، وَأَخْرَجَهُ - أَيْضًا - يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ (بِرَوَايَةِ الدُّورِيِّ ١٥٦٣)، وَابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ ١/٤٧، وَهَنَادٌ فِي الزُّهْدِ (٦٥٠)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ ٣/٣٣٥، وَابِيهَقِي فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ (٩٦١٧)، وَابِغُوِي فِي التَّفْسِيرِ ١/٤٨٤ مَقْتَصِرِينَ عَلَى الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِ عِكْرَمَةَ ؓ.

(٣) تَهْذِيبُ اللَّغَةِ ٧٣/١٢.

(٤) يَنْظُرُ تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ ٨٣/١٤، وَالْمَحَرَّرُ الْوَجِيزُ ٣/٢٢١.

(٥) قَوْلُهُ: مَالٌ إِلَيْهِ، مِنْ (ظ).

(٦) يَنْظُرُ غَرِيبُ الْحَدِيثِ لِأَبِي عَبِيدٍ ١٧/١ - ١٨، وَالصَّحَاحُ (ضَيْفٌ) وَتَهْذِيبُ اللَّغَةِ ٧٣/١٢.

(٧) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجَهَنِيِّ ؓ. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٨٣١)، وَأَوَّلُهُ: «ثَلَاثَ سَاعَاتٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْهَانَا أَنْ نَصْلِيَ فِيهِنَّ...».

(٨) ضَافَ السَّهْمَ ضَيْفًا: إِذَا عَدَلَ عَنِ الْهَدَفِ. تَهْذِيبُ اللَّغَةِ ٧٣/١٢.

(٩) يَنْظُرُ مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلزَّجَاجِ ٣/١٨٠.

(١٠) عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ (٧٠) مِنْهَا.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أي: قالت الملائكة: لا تخف. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي: حلیم؛ قاله مقاتل. وقال الجمهور: عالم. وهو إسحاق^(١).

﴿قَالَ ابْشِرْ تَمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّيَ الْكَبِيرُ﴾ «أن» مصدرية، أي: على مسِّ الكبرِ إِيَّايَ وزوجتي، وقد تقدّم في هود وإبراهيم^(٢). [و] حيث يقول: «فِيمَ تُبَشِّرُونَ» استفهام تعجب. وقيل: استفهام حقيقي^(٣). وقرأ الحسن: «تُوجَل» بضمّ التاء^(٤). والأعمش: «بشرتموني» بغير ألف^(٥)، ونافع وشيبة: «تُبَشِّرُونَ» بكسر النون والتخفيف؛ مثل «أتحاجوني» وقد تقدّم تعليله^(٦). وقرأ ابن كثير وابن محيصن: «تُبَشِّرُونَ» بكسر النون مشددة، تقديره: تبشرونني، فأدغم النون في النون. الباقون: «تُبشرون» بنصب النون بغير إضافة^(٧).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما لا خُلف فيه، وأنّ الولد لا بُدَّ منه. ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي: من الآيسين من الولد، وكان قد آيس من الولد؛ لقرط الكبر. وقراءة العامة: «من القانطين» بالألف. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب: «من القَاطِطِينَ» بلا ألف. وروي عن أبي عمرو. وهو مقصور من «القانطين». ويجوز أن يكون من لغة من قال: قَنِط يَقْنُط؛ مثل حذِر يحذر^(٨). وفتح النون وكسرُها من «يقنط» لغتان

(١) النكت والعيون ١٦٣/٣، وقوله: وهو إسحاق. أخرجه ابن أبي حاتم ٢٠٥٧/٦ من قول قتادة.

(٢) عند الآية ٧١ من سورة هود، والآية ٣٩ من سورة إبراهيم.

(٣) ينظر النكت والعيون ١٦٤/٣، والوسيط ٤٧/٣.

(٤) القراءات الشاذة ص ٧١، والمحتسب ٤/٢.

(٥) نسبها أبو حيان في البحر المحيط ٤٥٨/٥ للأعرج.

(٦) ٤٤٣/٨.

(٧) السبعة ص ٣٦٧، والتيسير ص ١٣٦، وقراءة ابن محيصن في إتحاف الفضلاء ص ٣٤٧.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣٨٣/٢ - ٣٨٤، والبحر المحيط ٤٥٩/٥.

قُرئ بهما^(١). وحكي فيه «يَقْنُطُ» بالضم^(٢). ولم يأت فيه «قَنْطُ يَقْنُطُ». ومن فَتَح النونَ في الماضي والمستقبل فإنه جمع بين اللغتين، فأخذ في الماضي بلغة مَنْ قال: قَنْطُ يَقْنُطُ، وفي المستقبل بلغة مَنْ قال: قَنْطُ يَقْنُطُ^(٣). ذكره المهدوي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّي إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦﴾

أي: المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب. يعني أنه استبعد الولد؛ لكِبَر سنِّه، لا أنه قنط من رحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۝٥٨ إِنَّا لَنُحْذِرُكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا أَمْرَانَهُمُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَكِنَّ الْقَدِيرِ ۝٦٠﴾

فيه مسألتان:

الأولى: لما علم أنهم ملائكة - إذ أخبروه بأمرٍ خارقٍ للعادة، وهو بُشراهم بالولد - قال: فما خطبكم؟ والخطب: الأمر الخطير. أي: فما أمرُكم وشأنكم، وما الذي جئتم به؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين ضالِّين. وفي الكلام إضمار، أي: أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين؛ لنهلكهم.

﴿إِنَّا لَنُحْذِرُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أتباعه وأهل دينه. ﴿إِنَّا لَنُحْذِرُكُمْ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: ﴿لَنُحْذِرُكُمْ﴾ بالتخفيف، من «أنجي». الباقون: بالتشديد، من «نَجَى»^(٤)، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. والتنجية والإنجاء: التخليص.

﴿إِلَّا أَمْرَانَهُمُ قَدَرْنَا﴾ استثنى من آل لوط امرأته، وكانت كافرة، فالتحقَّت بالمجرمين في

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي من السبعة بكسر النون، والباقون بفتحها. السبعة ص ٣٦٧، والتيسير ص ١٣٦.

(٢) وهي قراءة زيد بن علي والأشهب. البحر المحيط ٤٥٩/٥، والمحتسب ٥/٢.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣٢٨/٢، والمحتسب ٥/٢، والصاحح، وتهذيب اللغة ٢٧٩/١٦.

(٤) السبعة ص ٣٦٧، والتيسير ص ١٣٦.

الهلاك. وقد تقدّمت قصّة قوم لوط في «الأعراف»^(١) وسورة «هود»^(٢) بما فيه كفاية.
﴿قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْفَٰرِثِينَ﴾ أي: قضينا وكتبنا إنها لمنّ الباقيين في العذاب.
والغابر: الباقي.
قال^(٣):

لَا تَكْشَعُ^(٤) الشُّوْلُ^(٥) بِأَغْبَارِهَا إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ
الأغبار: بقايا اللبّن.

وقرأ أبو بكرٍ والمفضل: «قَدَرْنَا» بالتخفيف هنا^(٦) وفي النمل^(٧)، وشدّد الباقون.
الهرّوي: يقال: قدّر وقدّر، بمعنى.

الثانية: لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أنّ الاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي؛ فإذا قال رجل: له عليّ عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهماً؛ ثبت الإقرارُ بسبعة؛ لأنّ الدرهم مستثنى من الأربعة، وهو مثبت؛ لأنه مستثنى من منفيّ، وكانت الأربعة منفيّة؛ لأنها مستثناة من موجب، وهو العشرة، فعاد الدرهم إلى الستّة، فصارت سبعة.

وكذلك لو قال: عليّ خمسة دراهم إلا درهماً إلا ثلثيه؛ كان عليه أربعة دراهم

(١) ٢٧٣/٩.

(٢) ١٧٣/١١ وما بعدها.

(٣) الحارث بن حلّزة، والبيت في ديوانه ص ١١١، وكشع الناقة بغبرها: ترك في خلفها بقية من اللبّن، يريد بذلك تغزيرها، والشول: الناقة التي لم يبق في ضرعها إلا بقية من اللبّن، والمعنى: لا تبتّي ذلك اللبّن لتسمن الأولاد، فإنك لا تدري من ينتجها فلعلك تموت، فتكون للوارث، أو يُغار عليها. الكامل للمبرد ١/٤٨٤، واللسان: (شول) و(كشع).

(٤) في (د): تكشع، وفي (ظ): تلسع.

(٥) في (د): النار.

(٦) قراءة أبي بكر - وهو شعبة بن عياش الراوي عن عاصم - في السبعة ص ٣٦٧، والتيسير ص ١٣٦.

(٧) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمْرًا تَمَّ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْفَٰرِثِينَ﴾ الآية (٥٧).

وثلث. وكذلك إذا قال: لفلان عليّ عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة؛ كان الاستثناء الثاني راجعاً إلى ما قبله، والثالث إلى الثاني، فيكون عليه درهمان؛ لأن العشرة إثبات، والثمانية إثبات، فيكون مجموعها ثمانية عشر، والتسعة نفْي، والسبعة نفْي، فيكون ستة عشر، تسقط من ثمانية عشر، ويبقى درهمان، وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير.

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ نَبِيًّا﴾. إِلَّا آَلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ .
إِلَّا أَمْرًا تَمَّ فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين، ثم قال: ﴿إِلَّا أَمْرًا تَمَّ﴾ فاستثنى من آل لوط، فرجعت في التأويل إلى القوم المجرمين كما بيّنا.
وهكذا الحكم في الطلاق، لو قال لزوجته: أنت طالق ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدة، طلقت اثنتين؛ لأن الواحدة رجعت إلى الباقي من المستثنى منه، وهي الثلاث. وكذا كل ما جاء من هذا، فتفهّمه^(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ ١١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ١٢ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ١٣ وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ١٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُأ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ١٥

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي: لا أعرفكم. وقيل: كانوا شباباً ورأى جمالاً، فخاف عليهم من فتنة قومه؛ فهذا هو الإنكار.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكون أنه نازل بهم، وهو العذاب. ﴿وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق. وقيل: بالعذاب. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي: في هلاكهم.

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٥، والنكت والعيون ٣/ ١٦٤، وأحكام القرآن ٣/ ١١١٦ - ١١١٧، والمحصل لابن العربي ص ٨٢ - ٨٥.

﴿فَأَنسِرْ بِأَهْلِكَ يَفْطَحْ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ تقدم في هود^(١). ﴿وَأَتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ﴾ أي: كن من ورائهم؛ لئلا يتخلف منهم أحد فينال العذاب.

﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ نهوا عن الالتفات ليجدوا في السير، ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح. وقيل: المعنى: لا يتخلف.

﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني الشام^(٢). مقاتل: يعني صغر^(٣)، قرية من قرى لوط^(٤). وقد تقدم^(٥). وقيل: إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له: اليقين، وإنما سمي اليقين؛ لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيعهم، فقال لجبريل: من أين يخسف بهم؟ قال: من هاهنا. وحد له حداً، وذهب جبريل؛ فلما جاء لوط، جلس عند إبراهيم، وارتقبا ذلك العذاب، فلما اهتزت الأرض قال إبراهيم: أيقنت بالله، فسمي اليقين.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾^(٦) وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ^(٧) قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ صِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ^(٨) وَأَنْفِقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ^(٩) قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ^(١٠) قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَتَعِلِينَ^(١١)

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي: أوحينا إلى لوط. ﴿ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ نظيره: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: ٤٥].

(١) ١٨٢/١١ - ١٨٣ .

(٢) الوسيط ٤٨/٣ ، وتفسير البغوي ٥٤/٣ ، وزاد المسير ٤٠٧/٤ .

(٣) في (ز) و(د): صغر، وفي (م): صفد، وفي (ظ): صغر، والمثبت من معجم البلدان ٤١١/٣ وفيه أن صغر على وزن زفر وضرّد، وهي زغر التي تقدم ذكرها عنده ١٤٢/٣ ، وكذا ذكرها البغوي في تفسيره ٥٤/٣ - وأنها نجّت لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة.

(٤) زاد المسير ٤٠٧/٤ ونسبه إلى ابن السائب.

(٥) ١٨٥/١١ - ١٨٦ .

﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: عند طلوع الصُّبح. وقد تقدَّم^(١).

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ أي: أهلُ مدينةِ لوطٍ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: مستبشرينَ بالأضيافِ؛ طمعاً منهم في ركوبِ الفاحشة. ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءَ صَبِيٌّ﴾ أي: أضيافي. ﴿فَلَا تَنْصَحُون﴾ أي: تُخجلُون. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُون﴾ يجوز أن يكون من الخِزْي، وهو الذلُّ والهوان، ويجوز أن يكون من الخِزَاية، وهو الحياءُ والحَجَل. وقد تقدَّم في هود^(٢). ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَلَمِينَ﴾ أي: عن أن تضيفَ أحداً؛ لأنَّا نريدُ منهم الفاحشة. وكانوا يقصدونَ بفعلهم الغرباء؛ عن الحسن. وقد تقدَّم في الأعراف^(٣). وقيل: أو لم نهك عن أن تُكلِّمنا في أحدٍ من الناسِ إذا قصدناه بالفاحشة. ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ لِنَاسٍ لَّكُنَّ لَهُنَّ فِئَافٌ مِمَّا يَفْعَلُونَ﴾ أي: فترَوَّجوهنَّ ولا تركنوا إلى الحرِّام. وقد تقدَّم بيانُ هذا في هود^(٤).

قوله تعالى: ﴿لَمَنْعَكَ إِنَّهُمْ لَيَ سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧١﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال القاضي أبو بكر بن العربي^(٥): قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى هاهنا بحياةِ محمدٍ ﷺ تشريفاً له، أن قومه من قريشٍ في سكرتهم يعمهون، وفي خيبرتهم يترددون.

قلت: وهكذا قال القاضي عياض: أجمع أهلُ التفسيرِ في هذا أنه قسمٌ من اللوِّ جلَّ جلاله بمدةِ حياةِ محمدٍ ﷺ. وأصله ضمُّ العينِ؛ من العُمر، ولكنها فُتحت؛ لكثرة الاستعمال. ومعناه: وبَقَائِكَ يا محمد. وقيل: وحياتِكَ. وهذا نهايةُ التعظيم، وغايةُ

(١) ٣٨١/٨

(٢) عند تفسير الآية (٧٨).

(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٢٤، وتفسير البغوي ٢/١٧٩، وتقدم ٩/٢٧٧.

(٤) ١٨٥/١١

(٥) في أحكام القرآن ٣/١١١٨.

الْبِرِّ والتَّشْرِيفِ. قال أبو الجوزاء^(١): ما أقسم الله بحياة أحدٍ غيرَ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لأنه أكرمُ البرِّيةِ عنده^(٢).

قال ابنُ العربي^(٣): ما الذي يَمْنَعُ أن يُقَسِّمَ الله سبحانه وتعالى بحياةِ لوطٍ، ويبلغ به من التشريفِ ما شاء؟ وكلُّ ما يُعْطِيهِ الله تعالى للوطٍ من فَضْلٍ يُؤْتِي ضَعْفَيْنِ من شرفٍ لمُحَمَّدٍ ﷺ؛ لأنه أكرمُ على الله منه؛ أَوْ لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيمَ الخَلَّةَ، وموسى التَّكْلِيمَ، وأعطى ذلكَ لمُحَمَّدٍ، فإذا أقسم بحياةِ لوطٍ، فحياةُ مُحَمَّدٍ أَرْفَعُ. ولا يَخْرُجُ من كلامٍ إلى كلامٍ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ لغير ضرورة.

قلت: ما قاله حسنٌ؛ فإنه كان يكون قَسَمُهُ سبحانه بحياةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كلاماً معترضاً في قصةِ لوطٍ. قال القشيريُّ أبو نصر عبدُ الرحيم بنُ عبدِ الكريم في تفسيره: ويحتمل أن يقال: يَرْجَعُ ذلك إلى قومِ لوطٍ، أي: كانوا في سَكْرَتِهِمْ يَغْمَهُونَ. وقيل: لما وَعَظَ لوطٌ قَوْمَهُ، وقال: هؤلاء بناتي. قالت الملائكةُ: يا لوطُ: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَغْمَهُونَ» ولا يدرون ما يَحِلُّ بِهِمْ صباحاً.

فإن قيل: فقد أقسم تعالى بالتيْنِ والزيتونِ وطورِ سِينين؛ فما في هذا؟ قيل له: ما من شيءٍ أقسم الله به إلا وذلك دلالةٌ على فَضْلِهِ على ما يدخل في عِدَادِهِ، فكذلك نبينا ﷺ يجب أن يكون أفضلَ ممن هو في عِدَادِهِ.

والعمرُ والعُمرُ - بضمِّ العينِ وفتحِها - لغتان، ومعناها واحداً؛ إلا أنه لا يُسْتَعْمَلُ في القَسَمِ إلا بالفتح؛ لكثرة الاستعمال^(٤). وتقول: عَمَرَكُ الله، أي: أسألُ الله تعميرَكَ. و«لَعَمْرُكَ»: رفعٌ بالابتداء، وخبرُهُ محذوفٌ. المعنى: لَعَمْرُكَ مما أقسم به^(٥).

(١) أوس بن عبد الله الرُّبَيْعِي، بصري، يرسل كثيراً، ثقة، (ت ٨٨٣هـ). تقريب التهذيب.

(٢) الشفا للقاضي عياض ٨٦/١.

(٣) في أحكام القرآن ١١١٨/٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣٦٩/٣.

(٥) إعراب القرآن ٣٨٧/٢، ومعاني القرآن ٣٤/٤ للنحاس، وأحكام القرآن لابن العربي ١١١٨/٣.

الثانية: كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان: لَعَمْرِي؛ لأنَّ معناه: وحياتي. قال إبراهيم النَّخَعِيُّ^(١): يُكره للرجل أن يقول: لَعَمْرِي؛ لأنه حَلَفَ بحياة نفسه، وذلك من كلام ضَعْفَةِ الرجال. ونحو هذا قال مالك: إِنَّ المستضعفين من الرجال والمؤنثين يُقسِمون بحياتك وعَيْشِكَ، وليس من كلام أهل الذُّكران، وإن كان الله سبحانه أقسم به في هذه القصة؛ فذلك بيانٌ لشرف المنزلة والرفعة لمكانه، فلا يُحْمَل عليه سواء، ولا يُسْتَعْمَل في غيره. وقال ابنُ حبيب: ينبغي أن يُصرف «لَعَمْرُكَ» في الكلام لهذه الآية. وقال قتادة: هو من كلام العرب. قال ابنُ العربي: وبه أقول، لكنَّ الشرع قد قَطَّعه في الاستعمال، وردَّ القَسَمَ إليه^(٢).

قلت: القَسَمُ بـ «لَعَمْرُكَ» و«لَعَمْرِي» ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها كثير^(٣).

قال النابغة^(٤):

لَعَمْرِي وما عَمْرِي عليَّ بهيِّنٍ لقد نطقتُ بظلاً عليَّ الأقرارُ
آخر:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى لكالطَّوَلِ المُرْخَى وثنياء باليدِ^(٥)
آخر:

أَيُّهَا المَنْكُحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرُكَ اللّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ^(٦)

(١) أخرجه الطبري ٩٣/١٤، وينظر المحرر الوجيز ٣/٣٧٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/٣٧٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/١١١٨ - ١١١٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٦٩.

(٤) في ديوانه ص ٨٠.

(٥) قائله طرفة بن العبد، والبيت في ديوانه ص ٣٤، والطَّوَل: الحبل الذي يُطَوَّل للدابة فترعى فيه. الصحاح (طول).

(٦) قائله عمر بن أبي سلمة، وهو في ديوانه ص ٢٢٩.

آخر:

إِذَا رَضِيتُ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللَّهِ أَغْجِبْنِي رَضَاهَا^(١)
وقال بعض أهل المعاني: لا يجوز هذا؛ لأنه لا يُقال: لله عُمرٌ، وإنما هو تعالى
أزليٌّ. ذكره الزهراوي.

الثالثة: قد مضى الكلامُ فيما يُحلف به وما لا يجوز الحلف به في «المائدة»^(٢)،
وذكرنا هناك قولَ أحمدَ بنِ حنبلٍ فيمن أقسم بالنبي ﷺ لزمته الكفارة.

قال ابنُ خُوَيزِمَنَدَاد: من جَوَّزَ الحَلِفَ بغيرِ الله تعالى مما يجوز تعظيمه بحق من
الحقوق، فليس يقول إنها يمينٌ تتعلَّق بها كفارة؛ إلا أنه من قصَدَ الكذبَ كان ملوماً؛
لأنه في الباطن مستخِفٌّ بما وجبَ عليه تعظيمه.

قالوا: وقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: وحياتِكَ. وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه فإنما
أرادَ بيانَ التصريح لنا أنه يجوزُ لنا أن نَحْلِفَ بحياته. وعلى مذهب مالكٍ معنى قوله:
﴿لَعَمْرُكَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ [التين: ١]، ﴿وَالطُّورِ . وَكَتَبَ مَسْطُورٍ﴾ [الطور: ١-٢]،
﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: ١] ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ
حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَاللَّهِ وَمَا وَلَدٌ﴾ [البلد: ١-٣] كل هذا معناه: وخالقِ التين والزيتون، وبربِّ
الكتابِ المَسْطُورِ، وبربِّ البلدِ الذي حَلَلْتَ به، وخالقِ عيشِكَ وحياتِكَ، وحقُّ
محمَّدٍ؛ فاليمينُ والقَسَمُ حاصلٌ به سبحانه لا بالمخلوق.

قال ابنُ خُوَيزِمَنَدَاد: ومن جَوَّزَ اليمينَ بغيرِ الله تعالى تأوَّلَ قوله ﷺ: «لا تحلفوا
بآبائكم»^(٣). وقال: إنما نهى عن الحلفِ بالآباءِ الكفارِ، ألا ترى أنه قال لما حَلَفُوا
بآبائهم: «لَلْجَبَلِ عِنْدَ اللَّهِ أَكْرَمُ مِنْ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ»^(٤). ومالك حَمَلَ

(١) القائل هو القحيف العقيلي، وهو في أدب الكاتب ص ٥٠٦، والخصائص ٣١١/٢.

(٢) ١٣١/٨ - ١٣٢ وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٤٨)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) لم نقف عليه.

الحديث على ظاهره.

قال ابن خُوَيزِمَنداد: واستدل أيضاً من جَوَزَ ذلك؛ بأنَّ أيمانَ المسلمين جَرَتْ منذ عهدِ النبي ﷺ إلى يومنا هذا أن يَخْلِفُوا بالنبي ﷺ، حتى إنَّ أهلَ المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكمَ أحدهم صاحبه قال: اخْلِفْ لي بحق ما حواه هذا القبر، وبحق ساكنِ هذا القبر، يعني النبي ﷺ، وكذلك بالحرَم، والمشاعرِ العظام، والرُّكن، والمَقام، والمِخْراب، وما يُتلى فيه^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٢) ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (٧٤)

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾ نصبٌ على الحال، أي: وقتَ شروقِ الشمس. يقال: أشرقَتِ الشمسُ، أي: أضاءت، وشرقت: إذا طَلَعَت. وقيل: هما لغتان بمعنى. وأشرقَ القومُ، أي: دخلوا في وقتِ شروقِ الشمس. مثل: أصبحوا وأمسوا، وهو المرادُ في الآية. وقيل: أرادَ شروقَ الفجر. وقيل: أوَّلُ العذابِ كان عند الصبح، وامتدَّ إلى شروقِ الشمس، فكان تمامُ الهلاكِ عند ذلك، والله أعلم^(٢). و«الصيحة»: العذاب^(٣). وتقدَّم ذكر «سِجِّيلٍ»^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥)

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ روى الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادِر الأصول»^(٥)

(١) أكثر الفقهاء على عدم جواز الحلف بغير الله. وينظر تفصيل المسألة في فتح الباري ٥٣١/١١.

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣٨٧/٢، ومعاني القرآن للزجاج ١٨٤/٣، والوسيط ٤٩/٣، وزاد المسير ٤٠٩/٤، والصاح (شرق).

(٣) الوسيط ٤٩/٣.

(٤) ١٨٦/١١ - ١٨٧.

(٥) لم تقف عليه في المطبوع منه.

من حديث أبي سعيد الخُدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المتفَرِّسين»، وهو قول مجاهد^(١).

وروى أبو عيسى الترمذي عن أبي سعيد الخُدري قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾. قال: هذا حديث غريب^(٢). وقال مقاتل وابن زيد: للمتوسمين: للمتفكرين^(٣). الضحاك: للناظرين^(٤). قال الشاعر^(٥):

أَوْ كَلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاطُ قَبِيلَةٍ بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ
وقال قتادة: للمعتبرين^(٦). قال زهير^(٧):

وَفِيهِنَّ مَلْهَى لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ أُنِيقُ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسَّمِ
وقال أبو عبيدة^(٨): للمتبصرين. والمعنى متقارب.

وروى الترمذي الحكيمة^(٩) من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال: قال

(١) تفسير مجاهد ٣/٣٤٢، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٤/٩٤ - ٩٥. وهو عند ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٧٠.

(٢) سنن الترمذي (٣١٢٧).

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/٩١، والوسيط ٣/٤٩، والنكت والعيون ٣/١٦٧، وتفسير البغوي ٣/٥٥، وزاد المسير ٤/٤١٠.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/٩٥ و ٩٧، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/١٦٧.

(٥) القائل هو طريف بن تميم العنبري، وهو في الأصمعيات ص ١٢٧، والبيان والبيان ٣/١٠١.

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢/٣٤٩، والطبري في تفسيره ١٤/٩٦، وأبو الشيخ في العظمة (٥٠)، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/١٦٧، والواحي في الوسيط ٣/٤٩.

(٧) ديوانه ص ١٠ (بشرح ثعلب).

(٨) في مجاز القرآن ١/٣٥٤.

(٩) نواذر الأصول ص ٢٧١، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٩٣٥)، والبخاري (٣٦٣٢) كشف الأستار. وفي إسناده: بكر بن الحكم أبو بشر المُرَلِّق، قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/٣٤٤: روى خبراً منكراً، وذكر الحديث.

رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ».

قال العلماء: التَّوَسُّمُ: تفعل؛ من الوَسَم، وهي العَلَامَةُ التي يُسْتَدَلُّ بها على مطلوبٍ غيرها. يقال: تَوَسَّمْتُ فيه الخير: إذا رَأَيْتَ مِيسَمَ ذلك فيه^(١)، ومنه قولُ عبدِ الله بنِ رَوَاحَةَ للنَّبِيِّ ﷺ:

إِنِّي تَوَسَّمْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفْهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي ثَابِتُ الْبَصَرِ^(٢)
آخر:

تَوَسَّمْتُهُ لَمَّا رَأَيْتُ مَهَابَةً عَلَيْهِ وَقُلْتُ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ^(٣)
وَاتَّسَمَ الرَّجُلُ: إذا جَعَلَ لِنَفْسِهِ عَلامَةً يُعْرِفُ بِهَا. وتَوَسَّمَ الرَّجُلُ: طَلَبَ كَلَامَ الْوَسْمِيِّ^(٤). وأنشد:

وَأَضْبَحْنَ كَالدَّوْمِ النَّوَاعِمِ غُدُوَّةً عَلَى وَجْهَةٍ مِنْ ظَاعِنٍ مُتَوَسِّمٍ^(٥)
وقال ثعلب: الواسمُ: الناظرُ إليك مِنْ قَرْنِكَ إِلَى قَدَمِكَ. وأصل التَّوَسُّمِ: التَّثَبُّتُ والتَّفَكُّرُ؛ مأخوذ من الوَسَم، وهو التأثيرُ بحديدَةٍ في جِلْدِ البعير وغيره، وذلك يكون بجودةِ القَرِيحَةِ، وجِدَّةِ الخاطر، وصفاءِ الفِكر. زاد غيره: وتفرِغِ القلبِ من حَشَوِ الدنيا، وتطهيره من أدناسِ المعاصي، وكُدُورَةِ الأخلاقِ، وفُضُولِ الدنيا. روى نَهْشَلُ عن ابنِ عباسٍ: «لِلْمَتَوَسِّمِينَ» قال: لأهلِ الصَّلاحِ والخير. وزعمت الصُّوفِيَّةُ أَنَّهَا

(١) ينظر لسان العرب (وسم).

(٢) ديوانه ص ٩٤، والبيت فيه:

إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفْهُ - فِرَاسَةً خَالَفَتْهُمْ فِي الَّذِي نَظَرُوا

(٣) البيت لأعرابي أضاف عبيدَ الله بنَ العباس، وكان عند الأعرابي شاة لا يملك غيرها فذبحها له، وقَدَّمَهَا بين يديه، فكافأه عليها خمسَ مئة دينار، فقال فيه قصيدة هذا مطلعها، وذكر تتمتها المبرد في الفاضل ص ٣٢، والبغدادى في خزانة الأدب ٢٨٢/٨.

(٤) الصحاح ولسان العرب (وسم)، وأرض موسومة: أصابها الوسمي، وهو مطر يكون بعد الخَرْفِ في البرد.

(٥) ذكره نشوان الحميري في الحور العين ص ٤١.

كرامة. وقيل: بل هي استدلالٌ بالعلامات، ومن العلامات ما يبدو ظاهراً لكلٍّ أحدٍ، وبأوّل نظرة، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكلٍّ أحدٍ، ولا يُدرِك ببادي النظر. قال الحسن: المتوسّمون: هم الذين يتوسّمون الأمور فيعلمون أنّ الذي أهلك قومَ لوطٍ قادرٌ على أن يهلك الكفّار؛ فهذا من الدلائل الظاهرة.

ومثله قولُ ابنِ عباس: ما سألني أحدٌ عن شيءٍ إلا عَرَفْتُ أفضيه هو أو غيرُ فضيه.

وروي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنّهما كانا بفناء الكعبة، ورجلٌ على باب المسجد، فقال أحدهما: أراه نجاراً، وقال الآخر: بل حدّاداً، فتبادَرَ من حضِر إلى الرجل فسأله، فقال: كنت نجاراً، وأنا اليوم حدّادٌ^(١).

وروي عن جُنْدُب بن عبدِ الله البجليّ أنه أتى على رجلٍ يقرأ القرآن فوقف، فقال: من سَمِعَ سَمِعَ اللهُ به، ومن رأى رأى اللهُ به. فقلنا له: كأنّك عَرَضْتَ بهذا الرجل، فقال: إنّ هذا يقرأ عليك القرآن اليوم، ويخرج غداً حروريّاً؛ فكان رأسَ الحروريّة، واسمه مُرداس^(٢).

وروي عن الحسن البصري أنه دَخَلَ عليه عمرو بنُ عبيدٍ فقال: هذا سيّدُ فتيانِ البصرة إن لم يُحدِث، فكان من أمره من القَدَر ما كان، حتى هجره عامّةُ إخوانه. وقال لأيوب: هذا سيّدُ فتيانِ أهلِ البصرة؛ ولم يستثنِ، وروي عن الشَّعْبِيّ أنّه قال لداود الأودي^(٣) وهو يُماريه: إنّك لا تموتُ حتى تُكوى في رأسك، وكان كذلك^(٤).

وروي أنّ عمرَ بنَ الخطّابِ ؓ دخل عليه قومٌ من^(٥) مذحجٍ فيهم الأشر، فصعد

(١) الرسالة القشيرية ١٧٦/٣، وأحكام القرآن لابن العربي ١١١٩/٣.

(٢) لم نقف عليه، ومرداس: هو ابن أدية - وهي أمه - ابن حدير، أبو بلال التميمي. ينظر الكامل لابن الأثير ٥١٧/٢ و٥٨٢ حوادث سني (٥٨) و(٦١) هـ.

(٣) في (ز) و(د) و(م): الأزدي، والمثبت من (ظ) ومصدر التخريج.

(٤) نوادر الأصول ص ٢٧١.

(٥) بعدها في (ظ): بني.

فيه النظرَ وصَوَّبَهُ وقال: أَيُّهُمْ هذا؟ قالوا: مالِكُ بْنُ الْحَارِثِ. فقال: ما له قَاتَلَهُ اللهُ؟!
إني لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً؛ فكان منه في الفتنة ما كان^(١).

وروي عن عثمان بن عفان ؓ: أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ دَخَلَ عَلَيْهِ، وَكَانَ قَدْ مَرَّ
بِالسُّوقِ، فَنَظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ، قَالَ عُثْمَانُ: يَدْخُلُ أَحَدُكُمْ عَلَيَّ وَفِي عَيْنِهِ
أَثَرُ الزَّنى؟! فقال له أنس: أَوْحِيَا بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟! فقال: لا! ولكن برهاناً وفِرَاسَةً
وَصِدْقاً^(٢). ومثله كثيرٌ عن الصحابة والتابعين ؓ أجمعين.

الثانية: قال أبو بكر بن العربي: إذا ثبت أَنَّ التَّوَشُّمَ والتَفَرُّسَ من مدارك المعاني؛
فإنَّ ذلك لا يترتَّب عليه حُكْمٌ، ولا يُؤْخَذُ به موسومٌ ولا متفَرِّسٌ. وقد كان قاضي
القضاة الشامي المالكي ببغداد أيام كوني بالشام يحكِّم بالفِرَاسَةِ في الأحكام، جَزِيًّا
على طريق إِيَّاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ أَيَّامَ كَانَ قَاضِيًّا، وَكَانَ شَيْخُنَا فَخْرُ الْإِسْلَامِ أَبُو بَكْرٍ
الشَّاشِي صَنَّفَ جُزْءاً فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ، كَتَبَهُ لِي بِخَطِّهِ وَأَعْطَانِيهِ. وذلك صحيح؛ فإن
مدارك الأحكام معلومة شرعاً، مُدْرَكَةٌ قِطْعاً، وليست الفِرَاسَةُ منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهَاوِي السَّبِيلَ مَقِيمٍ﴾ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ
أَصْحَبُ الْأَيْكَةِ لَطَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ وَلَاتَهُمَا لِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَاتَهَا﴾ يعني: قرى قوم لوط. ﴿لَسَبِيلَ مَقِيمٍ﴾ أي: على طريق
قومك يا محمد إلى الشام^(٣). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لَعِبْرَةٌ لِلْمُصَدِّقِينَ^(٤).
﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَبُ الْأَيْكَةِ لَطَالِمِينَ﴾ يريد قوم شعيب، كانوا أصحاب غياضٍ ورياضٍ

(١) أخرجه أحمد في العلل ١/٣١٥، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧/١١٩ - ١٢٠، وابن عساكر
في تاريخ مدينة دمشق ٥٦/٣٧٧ - ٣٧٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٣/١٨٣.

(٣) الوسيط ٣/٥٠ وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/١٨٥.

وشجرٍ مشمر^(١). والأَيْكَةُ: الْغَيْضَةُ^(٢)، وهي جماعةُ الشجر، والجَمْعُ: الأَيْكُ^(٣).
ويُروى أنَّ شجرَهم كان دَوَّماً، وهو الْمُقْلُ^(٤). قال النابغة:
تَجَلُّوْا بِقَادِمَتَيِ حَمَامَةِ أَيْكَةٍ بَرْدًا أَسْفَ لِسَانِهِ بِالْإِثْمِ^(٥)
وقيل: الأَيْكَةُ: اسمُ القرية. وقيل: اسمُ البلدة^(٦). وقال أبو عبيدة: الأَيْكَةُ وَلَيْكَةُ:
مدينتُهم، بمنزلة بَكَّةَ من مَكَّةَ^(٧). وتقدَّم خبرُ شعيبٍ وقومه^(٨). ﴿وَلَا تُهْمَا لِإِيمَانِ مَيْمِينٍ﴾
أي: بطريقٍ واضحٍ في نفسه، يعني مدينةَ قومٍ لوطٍ وبقعةَ أصحابِ الأَيْكَةِ، يَغْتَبِرُ بهما
من يَمُرُّ عليهما^(٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾

الحِجْرُ ينطلق على معانٍ: منها حِجْرُ الكعبة. ومنها: الحَرَامُ؛ قال الله تعالى:
﴿وَحِجْرًا تَحْجُرُونَ﴾ [الفرقان: ٥٣] أي: حراماً محرماً. والحِجْرُ: العَقْلُ؛ قال الله تعالى:
﴿لِيَذَرَ حَجِيرًا﴾ [الفجر: ٥] والحِجْرُ: حِجْرُ القميص؛ والفتح أفصح. والحِجْرُ: الفرس

(١) ينظر الوسيط ٥٠/٣.

(٢) معاني القرآن للفراء ٩١/٢، وتفسير الطبري ١٠٠/١٤ وعزاه إلى الضحاك، وعزاه الماوردي في النكت والعيون ١٦٨/٣ إلى مجاهد.

(٣) تفسير الرازي ٢٠٤/١٩، ولسان العرب (أيك).

(٤) تفسير الطبري ١٠٠/١٤، والنكت والعيون ١٦٨/٣، وزاد المسير ٢٠٤/١٩، وعزاه الطبري إلى قتادة، وابن الجوزي إلى ابن عباس رضي الله عنهما. والمُقْلُ: ثَمَرُ شجر الدَّوْمِ، مُقَوٌّ للمعدة. القاموس (مقل)، وينظر المحرر الوجيز ٣٧١/٣، وتهذيب اللغة ٤١٥/١٠.

(٥) ديوان النابغة ص ٤٠، والقادمة؛ جمعها قوادم، وهي أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح، شبه الشاعر الشفتين لرفتهما بقادمتي حمامة، وشبه الأسنان بالبرد لشدة بياضه. القاموس المحيط (قدم)، وديوان المعاني للمسكري ٢٣٨/١.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣٧٥/٢، والصحاح (أيك).

(٧) النكت والعيون ١٦٨/٣، ولسان العرب (أيك).

(٨) ٢٨٠/٩ - ٢٨١.

(٩) تفسير الطبري ٩٨/١٤، وتفسير السمرقندي ٢٢٣/٢، والوسيط ٥٠/٣، وزاد المسير ٤١٠/٤.

الأنثى. والحِجْر: ديارٌ ثمود، وهو المراد هنا، أي: المدينة؛ قاله الأزهرى^(١). قتادة: وهي ما بين مكّة وتَبُوك، وهو الوادي الذي فيه ثمود^(٢). الطبري: هي أرض بين الحجاز والشام، وهم قوم صالح^(٣). وقال: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ وهو صالح وخذه، ولكن من كَذَبَ نبياً؛ فقد كَذَبَ الأنبياءَ كلَّهم؛ لأنَّهم على دينٍ واحدٍ في الأصول، فلا يجوز التفريق بينهم. وقيل: كَذَبُوا صالحاً وَمَنْ تَبِعَهُ وَمَنْ تَقَدَّمَ مِنَ النَّبِيِّينَ أيضاً^(٤). والله أعلم. روى البخاري^(٥) عن ابنِ عمرَ أَنَّ رسولَ الله ﷺ لما نزل الحِجْرَ في غزوة تَبُوك أَمَرَهُم أَلَّا يَشْرَبُوا مِنْ بَثْرِهَا، وَلَا يَسْتَقُوا مِنْهَا. فقالوا: قد عَجَنَّا واستَقينا. فَأَمَرَهُم رسولُ الله ﷺ أَنْ يُهْرِيقُوا الماءَ، وَأَنْ يَظْرَحُوا ذَلِكَ الْعَجِينَ.

وفي «الصحيح»^(٦) عن ابنِ عمرَ أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رسولِ الله ﷺ عَلَى الحِجْرِ أرضِ ثمودَ، فَاسْتَقُوا مِنْ آبَارِهَا وَعَجَنُوا بِهِ الْعَجِينَ، فَأَمَرَهُم رسولُ الله ﷺ أَنْ يُهْرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا، وَيَعْلِفُوا الْإِبِلَ الْعَجِينَ، وَأَمَرَهُم أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ الْبَثْرِ الَّتِي تَرِدُهَا النَّافَةُ. وَرَوَى أَيْضاً عَنْ ابنِ عمرَ قَالَ: مَرَرْنَا مَعَ رسولِ الله ﷺ عَلَى الحِجْرِ، فَقَالَ لَنَا رسولُ الله ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ؛ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ». ثُمَّ زَجَرَ فَأَسْرَعَ^(٧).

قلت: ففي هذه الآية التي بَيَّنَّ الشارِعُ حَكَمَهَا وأَوْضَحَ أَمْرَهَا ثَمَانِ مَسَائِلَ، اسْتَنْبَطَهَا الْعُلَمَاءُ وَاخْتَلَفَ فِي بَعْضِهَا الْفُقَهَاءُ:

(١) تهذيب اللغة ٤/ ١٣٠ - ١٣٣، وينظر الصحاح (حجر).

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٦٩، والمححر الوجيز ٣/ ٣٧٢، وزاد المسير ٤/ ٤١١.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٢، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٤١ ونسبه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ينظر المححر الوجيز ٣/ ٣٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥، والكشاف ٢/ ٣٩٦، وزاد المسير ٤/ ٤١١.

(٥) في صحيحه (٣٣٧٨).

(٦) البخاري (٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١) واللفظ له.

(٧) البخاري (٣٣٨٠)، ومسلم (٢٩٨٠): (٣٩) واللفظ له.

فأولها: كراهة دخول تلك المواضع، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار؛ فإن دخل الإنسان شيئاً من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التي أرشد إليها النبي ﷺ من الاعتبار والخوف والإسراع. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا أرض بابل؛ فإنها ملعونة»^(١).

مسألة: أمر النبي ﷺ بهزق ما استقوا من بئر ثمود، وإلقاء ما عُجنَ وخُبِرَ به؛ لأجل أنه ماء سُخِطَ، فلم يجز الانتفاع به؛ فراراً من سَخَطِ الله. وقال: «اعلفوه الإبل»^(٢).

قلت: وهكذا حكم الماء النجس وما يُعجن به.

وثانيها: قال مالك: إنَّ ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تغلفه الإبل والبهائم؛ إذ لا تكليف عليها؛ وكذلك قال في العسل النجس: إنَّه يعلفه النحل^(٣).

وثالثها: أمر رسول الله ﷺ بعلف ما عُجن بهذا الماء الإبل، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الحُمُر الإنسيّة يومَ خيبر^(٤)؛ فدلَّ على أنَّ لحم الحُمُر أشدُّ في التحريم وأغلظ في التنجيس. وقد أمر رسول الله ﷺ بكسب الحجام أن يُعلف الناصح والرفيق، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تنجيس. قال الشافعي: ولو كان حراماً لم يأمره أن يُطعمه رقيقه؛ لأنه متعبَّد فيه كما تُعبَّد في نفسه^(٥).

(١) المفهم ٣٥٢/٧، ولم نقف عليه بهذا اللفظ، بل الوارد ما أخرجه أبو داود (٤٩٠) عن علي رضي الله عنه قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي في المقبرة، ونهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة. وضعف إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١/ ٥٣٠. وسيرد ص ٢٤٥ من هذا الجزء وعلقه البخاري في الصلاة، باب ٥٣، بلفظ: ويذكر أن علياً رضي الله عنه كره الصلاة بخسف بابل.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢، ولم نقف عليه بهذا اللفظ، ولعله ذكره بالمعنى، وسلف الحديث قريباً.

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢١.

(٤) أخرجه البخاري (٤٢١٥)، ومسلم (٥٦١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) ينظر اختلاف الحديث للشافعي (بهاشم الأم) ٧/ ٣٤٤ - ٣٤٥.

ورابعها: في أمره ﷺ بَعْلَفَ الْإِبِلِ الْعَجِينَ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ حَنْلِ الرَّجُلِ النِّجَاسَةَ إِلَى كَلَابِهِ لِأَكْلُوهَا؛ خِلَافاً لِمَنْ مَنَعَ ذَلِكَ مِنْ أَصْحَابِنَا، وَقَالَ: تُطْلَقُ الْكَلَابُ عَلَيْهَا وَلَا يَحْمِلُهَا إِلَيْهِمْ^(١).

وخامسها: أمره ﷺ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْ بَثْرِ النَّاqَةِ دَلِيلٌ عَلَى التَّبَرُّكِ بِأَثَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَإِنْ تَقَادَمَتْ أَعْصَارُهُمْ، وَخَفِيَتْ أَثَارُهُمْ؛ كَمَا أَنَّ فِي الْأَوَّلِ دَلِيلًا عَلَى بُغْضِ أَهْلِ الْفَسَادِ، وَذَمِّ دِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ. هَذَا، وَإِنْ كَانَ التَّحْقِيقُ أَنَّ الْجَمَادَاتِ غَيْرُ مَوَاقِفَاتٍ، لَكِنَّ الْمَقْرُونِ بِالْمَحْبُوبِ مَحْبُوبٌ، وَالْمَقْرُونِ بِالْمَكْرُوهِ الْمَبْغُوضُ مَبْغُوضٌ؛ كَمَا قَالَ كُثَيْبٌ^(٢):

أَحَبُّ لِحَبِّهَا السُّودَانُ حَتَّى أَحَبُّ لِحَبِّهَا سُودَ الْكَلَابِ
وَكَمَا قَالَ آخَرُ:

أَمْرٌ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارٍ لَيْلَى أَقْبَلُ ذَا الْجِدَارِ وَذَا الْجِدَارِ
وَمَا تِلْكَ الدِّيَارُ شَغَفَنَ قَلْبِي وَلَكِنْ حُبٌّ مِّنْ سَكَنِ الدِّيَارِ^(٣)

وسادسها: مَنَعَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الصَّلَاةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ، وَقَالَ: لَا تَجُوزُ الصَّلَاةُ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا دَارُ سُخْطٍ، وَبِقَعَةُ غَضَبٍ^(٤). قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: فَصَارَتْ هَذِهِ الْبِقَعَةُ مُسْتَثْنَاءً مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَظَهْرًا»^(٥) فَلَا يَجُوزُ التَّيَمُّمُ بِتَرَابِهَا، وَلَا الْوُضُوءُ مِنْ مَائِهَا، وَلَا الصَّلَاةُ فِيهَا.

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَمْرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى أَنْ يُصَلَّى فِي سَبْعَةِ مَوَاطِنَ: فِي الْمَزْبَلَةِ، وَالْمَجْزَرَةِ، وَالْمَقْبَرَةِ، وَقَارَعَةِ الطَّرِيقِ، وَفِي الْحَمَامِ، وَفِي مَعَاظِنِ الْإِبِلِ،

(١) المفهم ٣٥٥/٧.

(٢) المفهم ٣٥٥/٧، وسلف ٦/٣.

(٣) الشعر لقيس بن الملوّح، وهو في ديوانه ص ١٧٠، وفيه: وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ، بَدَلُ: وَمَا تِلْكَ الدِّيَارِ.

(٤) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لابْنِ الْعَرَبِيِّ ٣/١١٢١.

(٥) سلف ٢٨٣/٢.

وفوق بيت الله. [قال:] وفي الباب عن أبي مرثد، وجابر، وأنس، [و] حديث ابن عمر إسناده ليس بذاك القوي، وقد تكلم في زيد بن جيرة من قبل حفظه^(١).

وقد زاد علماؤنا: الدار المغصوبة، والكنيسة، والبيعة، والبيت الذي فيه تماثيل، والأرض المغصوبة، أو موضعاً تستقبل فيه نائماً، أو وجه رجل، أو جداراً عليه نجاسة. قال ابن العربي^(٢): ومن هذه المواضع ما مُنِعَ لحق الغير، ومنه ما مُنِعَ لحق الله تعالى، ومنه ما مُنِعَ لأجل النجاسة المحققة أو لغلبيتها؛ فما مُنِعَ لأجل النجاسة إن فُرش فيه ثوب طاهر كالحمام والمقبرة فيها أو إليها، فإن ذلك جائز في «المدونة»^(٣). وذكر أبو مصعب عنه الكراهة. وفرق علماؤنا بين المقبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة، وبين مقبرة المسلمين والمشركون؛ لأنها دار عذاب، وبقعة سخط؛ كالحجر. وقال مالك في «المجموعة»: لا يصلي في أعطان الإبل وإن فرش ثوباً. كأنه رأى لها علتين: الاستتار بها، ونفارها، فتفسد على المصلي صلاته، فإن كانت واحدة فلا بأس؛ كما كان النبي ﷺ يفعل؛ في الحديث الصحيح^(٤).

وقال مالك: لا يصلي على بساط فيه تماثيل إلا من ضرورة. وكره ابن القاسم الصلاة إلى القبلة فيها تماثيل، وفي الدار المغصوبة، فإن فعل أجزاءه. وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة في الدار المغصوبة لا تجزئ.

قال ابن العربي^(٥): وذلك عندي بخلاف الأرض، فإن الدار لا تدخل إلا بإذن، والأرض وإن كانت ملكاً فإن المسجدية فيها قائمة لا يبطئها الملك.

(١) سنن الترمذي (٣٤٦) و(٣٤٧)، وما بين حاصرتين منه. وسيرد الكلام عليه.

(٢) في أحكام القرآن ١١٢٢/٣، وما قبله منه.

(٣) ٧٦/١.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٧)، ومسلم (٥٠٢) عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه كان يعرض راحلته فيصلي إليها، قلت: أفرأيت إذا هبت الركاب؟ قال: كان يأخذ هذا الرجل فيعذله، فيصلي إلى آخرته، أو قال: مؤخره. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يفعله.

(٥) في أحكام القرآن ١١٢٢/٣.

قلت: الصحيح - إن شاء الله - الذي يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة. وما روي من قوله ﷺ: «إِنَّ هَذَا وَإِذْ بِهِ شَيْطَانٌ»^(١) وقد رواه معمر عن الزهري فقال: «واخرجوا عن الموضع الذي أصابتكم فيه الغفلة»^(٢). وقول علي: نهاني رسول الله ﷺ أن أصلي بأرض بابل؛ فإنها ملعونة. وقوله عليه السلام حين مرَّ بالحجر من ثمود: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَعْدُبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ» ونهيه عن الصلاة في معاطن الإبل^(٣)، إلى غير ذلك مما في هذا الباب، فإنه مردودٌ إلى الأصول المجتمع عليها، والدلائل الصحيح مجيئها.

قال الإمام الحافظ أبو عمر^(٤): المختار عندنا في هذا الباب أن ذلك الوادي وغيره من بقاع الأرض جائز أن يُصلى فيها كلها ما لم تكن فيها نجاسة متيقنة تمنع من ذلك، ولا معنى لاعتلال من اعتلَّ بأن موضع النوم عن الصلاة موضع شيطان، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيه الصلاة.

وكل ما روي في هذا الباب من النهي عن الصلاة في المقبرة، وبأرض بابل، وأعطان الإبل، وغير ذلك مما في هذا المعنى، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع بعموم قوله ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا وَطَهُورًا»^(٥)، وقوله ﷺ مخبراً أن ذلك من فضائله ومما خُصَّ به.

وفضائله عند أهل العلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص، قال ﷺ: «أُوتِيَتْ خَمْسًا»^(٦) وقد روي: ستاً^(٧)، وقد روي: ثلاثاً^(٨)، و: أربعاً^(٩)، وهي تنتهي

(١) أخرجه بهذا اللفظ مالك في الموطأ ١/١٤ عن زيد بن أسلم مرسلاً وهو عند مسلم ٦٨٠ (٣١٠) بنحوه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٦) من حديث أبي هريرة ؓ، إلا أنه قال: «وتحولوا» بدل: «واخرجوا».

(٣) سلفت هذه الأحاديث قريباً.

(٤) في التمهيد ٥/٢١٧ - ٢١٨.

(٥) سلف ٤/٢٥٨.

(٦) هو الحديث السابق.

(٧) أخرجه مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٨) أخرجه مسلم (٥٢٢) من حديث حذيفة ؓ.

(٩) أخرجه أحمد (١٣٦١) من حديث علي ؓ.

إلى أزيد من تسع^(١)، قال فيهن: «لم يُؤْتِهَنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَجُعِلَتْ أُمِّي خَيْرَ الْأُمَمِ، وَأُجِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَظَهوراً، وَأُوتِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَبُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ الْأَرْضِ، فَوَضَعْتُ فِي يَدِي، وَأُعْطِيتُ الْكُوثرَ، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ». رواها جماعة من الصحابة^(٢). وَيَعْضُهُمْ يَذْكُرُ بَعْضُهَا، وَيَذْكُرُ بَعْضُهُمْ مَا لَمْ يَذْكُرْ غَيْرُهُ، وَهِيَ صَحَاحُ كُلِّهَا. وَجَائِزٌ عَلَى فُضَائِلِهِ الزِّيَادَةُ، وَغَيْرُ جَائِزٍ فِيهَا النِّقْصَانُ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ كَانَ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا، ثُمَّ كَانَ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا؛ وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْهُ^(٣). وَقَالَ: «مَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بِكُمْ» ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(٤) [الفتح: ٢]. وَسَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ لَهُ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ؛ فَقَالَ: «ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ»^(٥)، وَقَالَ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُوسُفَ بْنِ مَتَّى»^(٦)، وَقَالَ: «السَّيِّدُ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»^(٧) ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ: «أَنَا

(١) فِي (د) وَ(ظ): سَبْعٌ، وَيَنْظُرُ اعْتِقَادُ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ ٨٦٢/٤ وَمَا بَعْدَهَا، وَإِكْمَالُ الْمَعْلُومِ ٤٣٨/٢، وَفَتْحُ الْبَارِي ٤٣٩/١.

(٢) رُوِيَ هَذِهِ الْفُضَائِلُ فِي أَحَادِيثٍ مُتَفَرِّقَةٍ عَنْ عِدَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي «الصَّحِيحِينَ» كَمَا مَرَّ آنفًا، دُونَ قَوْلِهِ: «وَأُعْطِيتُ الْكُوثرَ» فَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبَزَارُ (١٤٧/٣) كَشَفَ الْأَسْتَارَ، وَاللَّيْلُكَانِي فِي اعْتِقَادِ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ (١٤٤٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَجُودُ إِسْنَادِهِ الْهَيْثُمِيِّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ ٢٦٩/٨. وَيَنْظُرُ التَّمْهِيدُ ٢٢٣/٥، وَالِاسْتِذْكَارُ ٣٣٨/١ - ٣٣٩.

(٣) أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ٢/٢٠٥ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ: وَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُ التَّشْهَدَ فَقَالَ رَجُلٌ: وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُهُ وَعَبْدُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ كُنْتُ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ أَكُونَ رَسُولًا، قُلْ: وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَيَنْظُرُ الْاسْتِذْكَارُ ٣٣٦/١.

(٤) أَسْبَابُ النُّزُولِ لِلْوَحِيدِي ص ٤٠٣ - ٤٠٤ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٣٦٩) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤١٩٧)، وَابْنُ خَالٍ (٣٤١٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ (٧٠٠٢)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ (١٠٨٩٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قَالَ الْهَيْثُمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ ١٢٨/٣ وَ ٢٠٢/٨: فِيهِ: نَافِعُ أَبُو هَرْمَزٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، أَوْ: مُتْرُوكٌ.

سَيِّدٌ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرٌ^(١). ففضائله ﷺ لم تَزَلْ تزدادُ إلى أن قبضه الله؛ فمن هاهنا قلنا: إنه لا يجوزُ عليها التَّشْخُّ ولا الاستثناء ولا النقصان، وجائزٌ فيها الزيادة^(٢).

وبقوله ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَظَهْوراً»^(٣) أجزنا الصلاة في المقبرة، والحمَّام، وفي كلِّ موضعٍ من الأرض إذا كان طاهراً من الأنجاس^(٤). وقال ﷺ لأبي ذرٍّ: «حيثما أَدْرَكْتَكَ الصلاةُ فَصَلِّ؛ فَإِنَّ الْأَرْضَ كُلَّهَا مَسْجِدٌ» ذكره البخاري^(٥)، ولم يَخْصُصْ موضعاً من موضع.

وأما مَنْ احتجَّ بحديثِ ابنِ وهبٍ قال: أخبرني يحيى بنُ أيوبَ، عن زيدِ بنِ جَبيرة، عن داودَ بنِ حُصَيْنٍ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ - حديث الترمذي الذي ذكرناه^(٦) - فهو حديث انفردَ به زيدُ بنُ جَبيرة، وأنكروه عليه، ولا يُعرف هذا الحديثُ مسنداً إلا برواية يحيى بنِ أيوبَ، عن زيدِ بنِ جَبيرة. وقد كتب الليثُ بنُ سعدٍ إلى عبدِ الله بنِ نافعٍ^(٧) مولى ابنِ عمرَ يسأله عن هذا الحديث؟ فكتب إليه عبدُ الله بنُ نافعٍ: لا أعلم من حدَّث بهذا عن نافعٍ إلا قد قال عليه الباطل. ذكره الحُلوانيُّ عن سعيدِ بنِ أبي مريم، عن الليثِ، وليس فيه تخصيصُ مقبرة المشركين من غيرها^(٨).

وقد رُوِيَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ قال: نهاني حبيبي ﷺ أن أُصَلِّيَ في المقبرة،

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري، وهو عند مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة دون قوله: «ولا فخر».

(٢) التمهيد ٢١٨/٥ - ٢٢٠.

(٣) سلف ٢٥٨/٤.

(٤) التمهيد ٢٢٠/٥.

(٥) في صحيحه (٣٤٢٥)، وأخرجه أيضاً مسلم (٥٢٠).

(٦) وهو أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى في سبعة مواطن: في المزبلة، والمجزرة، والمقبرة،... الحديث، وقد سلف قريباً.

(٧) ليست في النسخ الخطية (في الموضعين)، والمثبت من (م)، والتمهيد ٢٢٦/٥.

(٨) التمهيد ٢٢٥/٥ - ٢٢٦.

ونهاني أن أصلي في أرض بابل؛ فإنها ملعونة^(١). وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه، وأبو صالح الذي رواه عن علي هو سعيد بن عبد الرحمن الغفاري، مصري^(٢) ليس بمشهور، ولا يصح له سماع عن علي، ومن دونه مجهولون لا يعرفون.

قال أبو عمر^(٣): وفي الباب عن علي من قوله غير مرفوع حديث حسن الإسناد، رواه الفضل بن دكين قال: حدثنا المغيرة بن أبي الحر الكندي، قال: حدثني أبو العنيس حنجر بن عنبس قال: خرجنا مع علي إلى الحرورية، فلما جاوزنا سوراً^(٤) وقع بأرض بابل، قلنا: يا أمير المؤمنين أمسيت، الصلاة الصلاة؛ فأبى أن يكلم أحداً. قالوا: يا أمير المؤمنين، قد أمسيت. قال: بلى، ولكن لا أصلي في أرض خسف الله بها^(٥). والمغيرة بن أبي الحر: كوفي ثقة؛ قاله يحيى بن معين وغيره. وحنجر بن عنبس من كبار أصحاب علي^(٦).

وروى الترمذي^(٧) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام». قال الترمذي: رواه سفيان الثوري، عن عمرو بن يحيى، عن أبيه، عن النبي ﷺ مرسلاً، وكأنه أثبت وأصح.

(١) ذكره المصنف ص ٢٣٩ من هذا الجزء بلفظ: «لا تدخلوا أرض بابل فإنها ملعونة».

(٢) في النسخ: بصري، والتصويب من التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٤٩١، والجرح والتعديل للرازي ٤/ ٣٩-٤٠، والتمهيد ٥/ ٢٢٤.

(٣) في التمهيد ٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤، وما قبله منه.

(٤) في النسخ: سوريا، والمثبت من التمهيد ٥/ ٢٢٤، قال الحموي في معجم البلدان ٣/ ٢٧٨: سوراً: موضع بالعراق من أرض بابل.

(٥) هكذا أورده ابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٢٢٤، وأخرجه عبد الرزاق (١٦٢٣)، وابن أبي شيبة ٢/ ٣٧٧، ومن طريقه البغدادى في تاريخ بغداد ٨/ ٢٧٤ بنحوه. قال ابن حجر في «تغليق التعليق» ٢/ ٢٣١: إسناده حسن. اهـ. وسلف مرفوعاً قريباً.

(٦) التمهيد ٥/ ٢٢٤.

(٧) في السنن (٣١٧).

قال أبو عمر^(١): فسقط الاحتجاج به عند من لا يرى المرسل حجة، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرنا. ولسنا نقول كما قال بعض المنتحلين لمذهب المدنيين: إنَّ المقبرة في هذا الحديث وغيره أريدَ بها مقبرة المشركين خاصة؛ فإنه قال: «المقبرة والحمام» بالألف واللام؛ فغير جائز أن يُردَّ ذلك إلى مقبرة دون مقبرة، أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه، فهو قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح، ولا مدخل له في القياس، ولا في المعقول، ولا دلَّ عليه فحوى الخطاب، ولا تُخرج عليه الخبر.

ولا يخلو تخصيص مَنْ خصَّ مقبرة المشركين من أحد وجهين: إما أن يكون من أجل اختلاف الكفار إليها بأقدامهم، فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر؛ لأنَّ كلَّ موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك، وقد جَلَّ رسول الله ﷺ أن يتكلَّم بما لا معنى له. أو يكون من أجل أنها بقعة سُخِطَ، فلو كان كذلك ما كان رسول الله ﷺ ليُبنى مسجده في مقبرة المشركين، وينشئها، ويسويها، ويبني عليها^(٢).

ولو جاز لقائل أن يخصَّ من المقابر مقبرة للصلاة فيها، لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هذا الحديث. وكلُّ مَنْ كره الصلاة في المقبرة لم يخصَّ مقبرة من مقبرة؛ لأنَّ الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى معهود، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرقٌ لبيته ﷺ ولم يُهمَلْ؛ لأنَّه بُعِثَ مبيناً. ولو ساعَ لجاهل أن يقول: مقبرة كذا؛ لجاز لآخر أن يقول: حمام كذا؛ لأنَّ في الحديث المقبرة والحمام. وكذلك قوله: المزيل والمجزرة؛ غير جائز أن يُقال: مزيل كذا، ولا مَجْزَرَة كذا، ولا طريق كذا؛ لأنَّ التحكُّم في دين الله غير جائز^(٣).

وأجمع العلماء على أنَّ التيمُّم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيباً طاهراً

(١) التمهيد ٥/ ٢٢٥ - ٢٢٧.

(٢) التمهيد ٥/ ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) التمهيد ٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤.

نظيفاً جائزاً. وكذلك أجمعوا على أنَّ مَنْ صَلَّى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر، أنَّ صلاته ماضية جائزة^(١). وقد تقدّم هذا في سورة براءة^(٢).

ومعلوم أنَّ الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة سُخِطَ مِنَ المقبرة؛ لأنها بقعة يُعصى الله ويُكفّر به فيها، وليس كذلك المقبرة^(٣).

وقد وردت السُّنَّة باتخاذِ البيع والكنائس مساجد. روى النسائي^(٤) عن طلحة بن عليّ قال: خرجنا وفداً إلى النبي ﷺ فبايعناه وصلّينا معه، وأخبرناه أنَّ بأرضنا بيعة لنا، وذكر الحديث. وفيه: «فإذا أتيتم أرضكم، فاكسروا بيعتكم واتخذوها مسجداً». وذكر أبو داود^(٥) عن عثمان بن أبي العاص أنَّ النبي ﷺ أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم. وقد تقدّم في «براءة». وحسبك بمسجد النبي ﷺ الذي أسس على التقوى مبنياً في مقبرة المشركين؛ وهو حجة على كل من كره الصلاة فيها.

وممن كره الصلاة في المقبرة، سواء كانت لمسلمين أو مشركين؛ الثوري، وأبو حنيفة، والأوزاعي، والشافعي وأصحابهم. وعند الثوري: لا يُعيد. وعند الشافعي: أجزأه إذا صَلَّى في المقبرة في موضع ليس فيه نجاسة؛ للأحاديث المعلوم^(٦) في ذلك، ولحديث أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «صَلُّوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً»^(٧)، ولحديث أبي مرثد العنوي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُصلُّوا إلى القبور، ولا تجلسوا عليها»^(٨). وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد، ولا حجة فيهما؛

(١) التمهيد ٢٢٩/٥.

(٢) عند الآية (١٠٧).

(٣) التمهيد ٢٢٧/٥.

(٤) في المجتبى ٣٨/٢.

(٥) في السنن (٤٥٠)، وسلف ٢٥٥/٨.

(٦) في (د) و(ز): المعلولة، وكذا جاء في التمهيد ٢٢٩/٥.

(٧) أخرجه مسلم (٧٧٧) (٢٠٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه مسلم (٩٧٢) (٩٨).

لأنهما محتملان للتأويل، ولا يجب أن يمتنع من الصلاة في كل موضع طاهر إلا بدليل لا يحتمل تأويلاً. ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركون إلا ما حكيناه من خطل^(١) القول الذي لا يشتغل بمثله، ولا وجه له في نظر، ولا في صحيح أثر^(٢).

وثانها^(٣): الحائط يلقى فيه التَّنُّ والعذرة ليُكْرَم^(٤)، فلا يُصَلَّى فيه حتى يُسْقَى ثلاث مرّات؛ لما رواه الدارقطني عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في الحائط يلقى فيه العذرة والتَّنُّ قال: «إذا سقي ثلاث مرّات، فصلّ فيه». وخرجه أيضاً من حديث نافع عن ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التي تلقى فيها العذرات وهذا الزُّبْلُ: أيصلى فيها؟ فقال: إذا سقيت ثلاث مرّات، فصلّ فيها. رفع ذلك إلى النبي ﷺ. اختلفا في الإسناد^(٥)، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَيِّنَّاهُمْ مَا بَيْنَنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيِّنَّاهُمْ مَا بَيْنَنَا﴾ أي: بأيائنا. كقوله: ﴿إِنَّا عَدَّاهُمْ﴾ [الكهف: ٦٢] أي: بغدائنا. والمراد: الناقة، وكان فيها آيات جمّة: خروجها من الصخرة، ودنو نتاجها عند خروجها، وعظّمها حتى لم تُشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعاً^(٦). ويحتمل أنه كان لصالح آيات آخر سوى الناقة، كالبر وغيره^(٧). ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لم يعتبروا.

(١) الخطل: المنطق الفاسد المضطرب. الصحاح (خط).

(٢) التمهيد ٢٢٩/٥ - ٢٣٠.

(٣) كذا في النسخ، ولم يذكر السابعة.

(٤) كَرَمَ أرضه كَرَمًا: دَمَلَهَا (أي: أصلحها) بالسرقين، فزكت وطابت. معجم متن اللغة (كرم).

(٥) الدارقطني (٨٨٠) و(٨٨١).

(٦) الوسيط ٣/٥٠، وزاد المسير ٤/٤١١.

(٧) تفسير البغوي ٣/٥٦.

قوله تعالى: ﴿وَكَاوُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٨﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٩﴾﴾

النَّحْتُ في كلام العرب: البرزى والتَّجْر. نَحَتَهُ يَنْحِتُهُ - بالكسر - نحتاً، أي: براه. والنُّحَات: البرايا. والمِنْحَت: ما يُنَحْتُ به^(١). وفي النزيل: ﴿أَتَبَدُّونَ مَا نَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] أي: تَنْجُرُونَ وَتَضْنَعُونَ. فكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً لأنفسهم بشدة قوتهم. ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من أن تَسْقُطَ عليهم أو تَحْرَب. وقيل: آمنين من الموت. وقيل: من العذاب^(٢). ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: في وقت الصبح، وهو نصب على الحال. وقد تقدّم ذِكْرُ الصَّيْحَةِ في هود والأعراف^(٣). ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال والحُصُون في الجبال، ولا ما أُعْطَوْه من القوة^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: للزوال والفناء. وقيل: أي: لأجازي المحسن والمُسِيء^(٥)؛ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أي: لكائنة فيُجْزَى كلُّ بعمله. ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ مثل: ﴿وَأَهْجَرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل: ١٠] أي: تجاوز عنهم يا محمد، واغف عفواً حسناً؛ ثم نُسِخَ بالسيف^(٦). قال قتادة: نسخه قوله: ﴿فَحُدُّوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

(١) الصحاح (نحت).

(٢) النكت والعيون ١٦٩/٣.

(٣) ١٥٦/١١ و ٢٧١/٩ - ٢٧٢.

(٤) ينظر زاد المسير ٤١٢/٤ ، وتفسير الرازي ٢٠٥/١٩.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٥٦/٣.

(٦) ينظر النكت والعيون ١٧٠/٣ ، وتفسير الرازي ٢٠٦/١٩.

تَقْفَتُوهُمْ»^(١) [النساء: ٩١]. وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ، وَبُعْثْتُ بِالْحَصَادِ، وَلَمْ أُبْعَثْ بِالزَّرَاعَةِ»؛ قَالَه عِكْرَمَةُ وَمَجَاهِدٌ^(٢). وَقِيلَ: لَيْسَ بِمَنْسُوخٍ، وَأَنَّهُ أَمْرٌ بِالصَّفْحِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ. وَالصَّفْحُ: الْإِعْرَاضُ؛ عَنِ الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ^(٣). ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ﴾ أَي: الْمَقْدَرُ لِلْخَلْقِ وَالْأَخْلَاقِ. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِأَهْلِ الْوِفَاقِ وَالنِّفَاقِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾

اختلف العلماء في السبع المثاني؛ فقليل: الفاتحة؛ قاله علي بن أبي طالب، وأبو هريرة، والربيع بن أنس، وأبو العالية، والحسن وغيرهم^(٤)، وروى عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة، من حديث أبي بن كعب، وأبي سعيد بن المَعْلَى. وقد تقدّم في تفسير الفاتحة^(٥).

وخرّج الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي». قال: هذا حديث حسن صحيح. وهذا نص، وقد تقدّم في الفاتحة^(٦). وقال الشاعر:

نَشَدْتُكُمْ بِمُنْزِلِ الْقُرْآنِ أُمُّ الْكِتَابِ السَّبْعِ مِنْ مَثَانِي^(٧)
وقال ابن عباس: هي السَّبْعُ الطُّوْلُ: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/١٠٦، وأورده النحاس في التناسخ والمنسوخ ٢/٤٨٢.

(٢) النكت والعيون ٣/١٧٠، وأخرجه أيضاً ابن سعد ١/١٠٥ عن مجاهد، والطبري في تفسيره ١٤/١٠٧ عن سفيان بن عيينة، وهو ضعيف لإرساله.

(٣) النكت والعيون ٣/١٧٠.

(٤) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره ١٤/١١٦، وينظر النكت والعيون ٣/١٧٠، وزاد المسير ٤/٤١٣.

(٥) سلف ١/١٦٦ - ١٦٧.

(٦) الترمذي (٣١٢٤)، وسلف ١/١٧٢.

(٧) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ص ١/٣٥٤، والماوردي في النكت والعيون ١/٢٦ و ٣/١٧٠ ولم ينسبها.

والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معاً؛ إذ ليس بينهما التسمية^(١). روى النسائي^(٢): حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ، أَخْبَرَنَا شَرِيكٌ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ قَالَ: السَّبْعُ الطُّوْلُ.

وسميت مثنائي؛ لأنَّ العَبَرَ والأحكام والحدود تُنْتِث فيها. وأنكر قومٌ هذا، وقالوا: أنزلت هذه الآية بمكَّة، ولم يَنْزِلْ مِنَ الطُّوْل شيءٌ إِذْ ذَاكَ. وأجيب بأنَّ الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا، ثم أنزله منها نجوماً، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمداً ﷺ وإن لم يَنْزِلْ عليه بَعْدُ^(٣).

وممن قال إنَّها السَّبْعُ الطُّوْلُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمرٍ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَجَاهِدٌ^(٤). وقال جرير^(٥):

جَزَى اللَّهَ الْفَرَزْدَقُ حِينَ يُنْمِسِي مُضِيعاً لِلْمَفْصَلِ وَالْمَثَانِي
وقيل: المثنائي: القرآن كله؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ مُّتَشَابِهٌ مَّثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣].
هذا قول الضحاك وطاوس وأبي^(٦) مالك، وقاله ابن عباس^(٧).

وقيل له: مثنائي؛ لأنَّ الأنباء والقَصَص تُنْتِث فيه^(٨). وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله ﷺ:

فقد كان نوراً ساطعاً يُهْتَدَى بِهِ يُخَصُّ بِتَنْزِيلِ الْمَثَانِي الْمَعْظَمِ^(٩)

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٨.

(٢) المجتبى ٢/ ١٤٠، وأخرجه أيضاً أبو داود (١٤٥٩)، وسلف ١/ ١٧٥.

(٣) ينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٤، وزاد المسير ٤/ ٤١٤، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٨.

(٤) أخرج قولهم الطبري في التفسير ١٤/ ١٠٧ - ١٠٩.

(٥) ديوانه ص ٤٦٦، وفيه: لحي، بدل: جزي.

(٦) في (د) و(ز) و(م): وأبو: والمثبت من (ظ).

(٧) أخرج قولهم الطبري في التفسير ١٤/ ١٢٠ - ١٢١، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٠ - ١٧١، وزاد المسير ٤/ ٤١٤.

(٨) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٢٥، والنكت والعيون ٣/ ١٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣.

(٩) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٧١.

أي: القرآن.

وقيل: المراد بالسَّبْعِ المثنائي: أقسامُ القرآن؛ من الأمر والنهي، والتبشير والإنذار، وضَرْبِ الأمثال، وتعددِ نِعَمٍ، وأنباءِ قرونٍ؛ قاله زيادُ بنُ أبي مريم^(١).
والصحيحُ الأوَّلُ؛ لأنه نصٌّ. وقد قدَّمنا في الفاتحة^(٢) أنه ليس في تسميتها بالمثنائي ما يمنع من تسمية غيرها بذلك؛ إلا أنه إذا وَرَدَ عن النبي ﷺ؛ وثَبَّتَ عنه نصٌّ في شيء لا يحتمل التأويل؛ كان الوقوفُ عنده^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ فيه إضمارٌ، تقديره: وهو أنَّ الفاتحةَ القرآنُ العظيمُ؛ لاشتغالها على ما يتعلَّقُ بأصولِ الإسلام. وقد تقدَّم في الفاتحة^(٤). وقيل:
الواو مُفَحَّمة، التقدير: ولقد آتيناكَ سبْعاً مِنَ المثنائي القرآن العظيم^(٥). ومنه قولُ
الشاعر:

إلى المَلِكِ الْقَرْمِ وابنِ الْهُمامِ وليثِ الْكَتِيبَةِ في الْمُرْدَحَمِ^(٦)
وقد تقدَّم عند قوله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(٧) [البقرة: ٢٣٨].

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

فيه مسألتان:

(١) النكت والعيون ٣/ ١٧١، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ١١٩ - ١٢٠، وينظر زاد المسير ٤١٤/٤.

(٢) ١٧٥/١.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٢١.

(٤) ١٧٣/١.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٥٦.

(٦) لم نقف على قائله، وأورده ابن الأنباري في الإنصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٤٦٩، والزمخشري في الكشاف ١/ ١٣٣، والبغدي في خزانة الأدب ١/ ٤٥١ و ١٠٧/٥ و ٩١/٦ ولم ينسبوه.

(٧) ١٨١/١، عند القول التاسع في تعيين الصلاة الوسطى.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ المعنى: قد أغْنَيْتَكَ بالقرآن عما في أيدي الناس، فإنه: «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن»^(١)؛ أي: ليس منّا من رأى أنّه ليس يغنى بما عنده من القرآن حتى يطمح بصره إلى زخارف الدنيا، وعنده معارف المولى^(٢).

يقال: إنه وافى سبغ قوافل من البُصرى^(٣) وأذرعَات^(٤) ليهود قُرَيْظَةَ والنَّصِيرِ في يومٍ واحدٍ، فيها البرز^(٥) والطَّيْبُ والجوهرُ وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا؛ لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ﴾ أي: فهي خيرٌ لكم من القوافل السَّبْع، فلا تَمُدَّنَّ أعينكم إليها^(٦). وإلى هذا صار ابنُ عُيَيْنَةَ، وأورد قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن» أي: من لم يَسْتَعْنِ به^(٧). وقد تقدّم هذا المعنى في أوّل الكتاب^(٨). ومعنى: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أمثالا في النعم، أي: الأغنياء بعضهم أمثالا بعض في الغنى، فهم أزواج^(٩).

الثانية: هذه الآية تقتضي الزَّجَرَ عن التشوّف إلى متاع الدنيا على الدوام، وإقبال العبد على عبادة مولاه. ومثله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾ الآية [طه: ١٣١]. وليس كذلك؛ فإنه روي عن النبي ﷺ أنّه قال:

(١) سلف ٢١/١.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٤ - ١١٢٥.

(٣) من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران. معجم البلدان ١/ ٤٤١.

(٤) بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمّان. معجم البلدان ١/ ١٣٠، وتسمى الآن: درعا، وتبعد ١١٠ كم جنوبي دمشق.

(٥) في (د) و(ظ) و(م): البر، والمثبت من (ز) ومصدر التخريج.

(٦) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٢ ونسبه للحسين بن الفضل، وهو عند الزمخشري في الكشاف ٣٩٨/٢ دون نسبة.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١، وتفسير الطبري ١٤/ ١٢٧.

(٨) ٢١/١ - ٢٢.

(٩) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١، والنكت والعيون ٣/ ١٧١.

«حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١). وكان عليه الصلاة والسلام يتشاغلُ بالنساءِ جِبِلَّةَ الْآدَمِيَّةِ، وتشوُّفَ الْخَلْقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، ويحافظُ على الطَّيِّبِ، ولا تقرُّ له عينٌ إلا في الصلاة لدى مناجاة المولى، ويَرَى أَنَّ مناجاته أخرى من ذلك وأولى^(٢).

ولم يكن في دين محمد الرهبانيَّة والإقبالُ على الأعمالِ الصالحةِ بالكلية كما كان في دين عيسى، وإنما شرَّعَ اللهُ سبحانه حنيفيَّةً سمحةً خالصةً عن الحرج، خفيفةً على الآدميِّ، يأخذ من الآدميَّةِ بشهواتها، ويرجع إلى الله بقلبٍ سليم.

ورأى القراء والمخلصون من الفضلاء الانكشافَ عن اللذات والخلوصَ لرَبِّ الأرضِ والسمواتِ اليومِ أولى؛ لِمَا غَلَبَ على الدنيا مِنَ الحرامِ، واضْطَرَّ العبدُ في المعاشِ إلى مخالطة مَنْ لا تجوز مخالطته، ومصانعة مَنْ تَحْرُمُ مصانعته، فكانت القراءةُ أفضلَ، والفرارُ عن الدنيا أصوبَ للعبدِ وأعدلَ؛ قال ﷺ: «يأتي على الناسِ زمانٌ يكون خيراً مالٍ المسلمِ غَنَمًا يتبع بها شَعَفَ الجبالِ ومواقعَ القَطْرِ؛ يَفِرُّ بدينه من الفتن»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا. وقيل: المعنى: لا تحزن على ما مُتَّعُوا به في الدنيا؛ فَلَكَ في الآخرةِ أفضلُ منه. وقيل: لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب؛ فهم أهلُ العذاب^(٤).

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ألِنْ جانبَكَ لمن آمَنَ بك وتواضعَ لهم. وأصله أنَّ الطائرَ إذا ضَمَّ فَرْخَهُ إلى نفسه بَسَطَ جناحَه ثم قَبَضَهُ على الفَرْخِ، فجعل ذلك وصفاً لتقريبِ الإنسانِ أتباعه. ويقال: فلانٌ خافضُ الجناحِ، أي: وقورٌ ساكنٌ. والجناحان

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي في المجتبى ٦١/٧ - ٦٢، من حديث أنس ؓ.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١١٢٥/٣، والكلام الآتي منه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١١٢٥/٢، والحديث أخرجه البخاري (٣٦٠٠) عن أبي سعيد الخدري ؓ.

(٤) ينظر تفسير السمرقندي ٢/٢٢٥، والنكت والعيون ٣/١٧١.

مِنْ ابْنِ آدَمَ: جانباه؛ ومنه ﴿وَأَصْمُمُ يَذَّكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] وجناح الطائر: يده^(١).
وقال الشاعر:

وَحَسْبُكَ فِتْيَةٌ لَزْعِيمٍ قَوْمٍ يَمُدُّ عَلَى أَخِي سَقَمَ جَنَاحَا^(٢)
أي: تواضعاً وليناً.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩) ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠)
في الكلام حذف؛ أي: إني أنا النذير المبين عذاباً، فحذف المفعول، إذ كان الإنذارُ يدلُّ عليه، كما قال في موضع آخر: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَبَاحَةً مِّثْلَ صَبَاحَةِ عَادٍ وَتَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]. وقيل: الكاف زائدة، أي: أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين؛ كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقيل: أنذرتكم مثل ما أنزلنا بالمقتسمين^(٣).
وقيل: المعنى كما أنزلنا على المقتسمين، أي: من العذاب وكفيناك المستهزئين، فاضدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين الذين بغوا، فإننا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كُنتَ تلقى منهم ما تلقى.

واختلف في «المُقْتَسِمِينَ» على أقوالٍ سبعة:

الأول: قال مقاتلٌ والفراء: هم سِتَّةٌ عَشَرَ رجلاً بعثهم الوليدُ بنُ المغيرة أَيْامَ الموسم، فاقتسموا أعقابَ مَكَّةَ وأنقابها وفجأجها يقولون لمن سَلَكَها: لا تغتروا بهذا الخارجِ فينا يدَّعي النبوة؛ فإنه مجنونٌ، وربما قالوا: ساحرٌ، وربما قالوا: شاعرٌ، وربما قالوا: كاهنٌ. وسُمُّوا المقتسمين؛ لأنَّهم اقتسموا هذه الطرق، فأما تهم اللهُ شرَّ ميِّتة، وكانوا نصبوا الوليدَ بنَ المغيرة حَكَمًا على بابِ المسجد، فإذا سألوه عن

(١) الصحاح ولسان العرب (خفَض) و(جَنَح).

(٢) كَذَا فِي النُّكَتِ وَالْعِيُونِ ٣/ ١٧١، وَجَاءَ فِي دِيَوَانِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَرَمَةَ ص ٨٨ قَوْلُهُ:

وَحَسْبُكَ تَهْمَةٌ بَبْرِيءٍ قَوْمٍ يَضُمُّ عَلَى أَخِي سَقَمَ جَنَاحَا

(٣) يَنْظُرُ الْوَسِيطُ ٣/ ٥٢، وَتَفْسِيرُ الرَّازِي ١٩/ ٢١٢.

النبي ﷺ قال: صَدَقَ أولئك^(١).

الثاني: قال قتادة: هم قومٌ من كفَّار قريش؛ اقتسموا كتابَ الله، فجعلوا بعضه شعراً، وبعضه سحرًا، وبعضه كهانةً، وبعضه أساطيرَ الأولين^(٢).

الثالث: قال ابنُ عباسٍ: هم أهلُ الكتابِ؛ آمنوا ببعضه وكفَّروا ببعضه^(٣). وكذلك قال عكرمة: هم أهلُ الكتابِ، وسُمُّوا مقتسمين؛ لأنَّهم كانوا مستهزئين، فيقول بعضهم: هذه السورةُ لي، وهذه السورةُ لك. وهو القول الرابع. الخامس: قال قتادة: قسموا كتابهم ففرَّقوه وبدَّدوه وحرفَّوه^(٤).

السادس: قال زيدُ بنُ أسلمَ: المرادُ: قومٌ صالح، تقاسموا على قتله فُسِّموا مقتسمين؛ كما قال تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾^(٥) [النمل: ٤٩].

السابع: قال الأخفشُ: هم قومٌ اقتسموا إيماناً تحالفوا عليها. وقيل: إنَّهم العاصُ بنُ وائلٍ، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، وأبو جهلُ بنُ هشام، وأبو البَخْتَرِيِّ بنُ هشام، والنَّضْرُ بنُ الحارث، وأمّيةُ بنُ خلف، ومنبّهُ بنُ الحجاج؛ ذكره الماوردي^(٦).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾^(٧)

هذه صفةُ المقتسمين. وقيل: هو مبتدأ، وخبره: ﴿لَشَأْنُهُمْ﴾^(٧).

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٩١/٢ - ٩٢ ، والنكت والعيون ١٧٢/٣ ، وتفسير البغوي ٥٨/٣ ، وتفسير الرازي ٢١١/١٩ - ٢١٢ .

(٢) النكت والعيون ١٧٢/٣ ، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٣٥/١٤ ، وذكره الرازي في تفسيره ٢١٢/١٩ ونسبه لمقاتل بن حيان.

(٣) النكت والعيون ١٧٢/٣ . وسيأتي تخريج قوله تقريباً.

(٤) النكت والعيون ١٧٢/٣ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٣١/١٤ .

(٥) النكت والعيون ١٧٢/٣ ونسبه إلى ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٣٢/١٤ - ١٣٣ ، وكذا ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤١٨/١٤ .

(٦) في النكت والعيون ١٧٣/٣ .

(٧) تفسير الرازي ٢١٣/١٩ .

وواحد العِضِينَ: عِضَّة، من عَضَّيْتُ الشيءَ تعَضِيَّةً، أي: فَرَّقْتُهُ؛ وكلُّ فرقةٍ عِضَّةٌ^(١). وقال بعضهم: كانت في الأصل عِضْوَةٌ، فنقصت الواو، ولذلك جُمِعت عِضِينَ؛ كما قالوا: عِزِينَ في جمع عِزَّة، والأصل: عِزْوَةٌ. وكذلك ثُبَّةٌ وثِبِينٌ^(٢). ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين. قال ابن عباس: آمنوا ببعض وكفروا ببعض^(٣). وقيل: فَرَّقُوا أَقَاوِيلَهُمْ فِيهِ، فجعلوه كذباً، وسحراً، وكُهانةً، وشِعْراً. عِضْوَتُهُ، أي: فَرَّقْتُهُ^(٤). قال الشاعر - هو رؤبة -:

وليس دينُ اللهِ بالمُعَضَّى^(٥)

أي: بالمفروق.

ويقال: نقصانه الهاء، وأصله: عِضْهَةٌ؛ لأنَّ العِضَّةَ والعِضِينَ في لغة قريش: السَّحَرُ. وهم يقولون للساحر: عاضِه، وللساحرة: عاضِهة^(٦). قال الشاعر:

أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ النَّافِثَا تِ فِي عُقْدِ الْعَاضِهِ الْمُعَضِّهِ^(٧)

وفي الحديث: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَاضِهَةَ وَالْمُسْتَعْضِهَةَ»^(٨)، وفُسِّر: الساحرة والمستسحرة^(٩). والمعنى: أَكْثَرُوا الْبُهْتَ عَلَى الْقُرْآنِ، وَنَوَّعُوا الْكُذْبَ فِيهِ، فَقَالُوا:

(١) الوسيط ٥٢/٣، والنكت والعيون ١٧٣/٣.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/٣٧٤، وتهذيب اللغة ١/١٣٠ - ١٣١، ولسان العرب (عضه).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٠٥)، والطبري في تفسيره ١٤/١٣٥، والحاكم ٢/٣٥٥.

(٤) الصحاح (عضه).

(٥) ديوانه ص ٨١، وبعده: إِنَّ لَنَا هَوَاسَةً عَزِيْضًا

(٦) الصحاح (عضه).

(٧) هو في غريب الحديث للهروي ٣/١٨١، وتهذيب اللغة ١/١٣٠، والصحاح واللسان (عضه) دون نسبة.

(٨) أخرجه ابن عدي في التراجم الساقطة من الكامل ص ١٠٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص ٩٤: في إسناده: زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وهما ضعيفان.

(٩) النهاية في غريب الحديث ٣/٢٥٥.

سحر، وأساطير الأولين، وأنه مفترى، إلى غير ذلك.

ونظير عضة في النقصان: شفة، والأصل: شفة، كما قالوا: سنة، والأصل: سنة، فنقصوا الهاء الأصلية، وأثبتت هاء العلامة وهي للتأنيث.

وقيل: هو من العضه، وهي: النميمة. والعضيئة: البهتان؛ وهو أن يعضه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه. يقال: عضه عضها: رماه بالبهتان. وقد أغضهت: أي: جئت بالبهتان. قال الكسائي: العضة: الكذب والبهتان، وجمعها عضون؛ مثل عزة وعزون؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَمَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾^(١). ويقال: عضوه، أي: آمنوا بما أحبوا منه وكفروا بالباقي، فأحبط كفرهم إيمانهم. وكان الفرء يذهب إلى أنه مأخوذ من العضاه، وهي شجر الوادي، ويخرج كالشوك^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لنستلن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عَمَّا عَمَلُوا في الدنيا. وفي البخاري^(٣): وقال عِدَّةٌ من أهل العلم في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: عن لا إله إلا الله.

قلت: وهذا قد روي مرفوعاً، روى الترمذي الحكيم^(٤) قال: حدثنا الجارود بن معاذ، قال: حدثنا الفضل بن موسى، عن شريك، عن ليث، عن بشير بن نهيك، عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: «عن قول: لا إله إلا الله»^(٥). قال أبو عبد الله: معناه عندنا: عن

(١) الصحاح (عضه).

(٢) ذكر الفرء في معاني القرآن ٩٢/٢ أن العضين في كلام العرب: السحر بعينه. وكذا نقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة ١٣/١، والماوردي في النكت والعيون ١٧٤/٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣٧٤/٣.

(٣) في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب ١٨، قبل حديث (٢٦).

(٤) في نوادر الأصول ص ٢٤٦ - ٢٤٧، وهو أبو عبد الله الآتي ذكره.

(٥) أخرجه الترمذي (٣١٢٦)، والطبري في تفسيره ١٣٩/١٤ - ١٤٠، وهو عند البخاري في التاريخ الكبير ٨٦/٢ و ١٣٣/٨. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

صِدْقٍ: لا إله إلا الله، ووفائها؛ وذلك أَنَّ الله تعالى ذَكَرَ في تنزيله العملَ فقال: ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: عَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ، وإن كان قد يجوز أن يكون القولُ أيضاً عملَ اللسانِ، فإنَّما المعنيُّ به ما يعرفه أهلُ اللغة أَنَّ القولَ قولٌ، والعملُ عملٌ. وإنما قال رسولُ الله ﷺ: «عن: لا إله إلا الله» أي: عن الوفاءِ بها والصِّدْقِ لمقاليها. كما قال الحسنُ البصريُّ: ليس الإيمانُ بالتحلِّي ولا الدِّينُ بالتمنِّي، ولكن ما وُفِّرَ في القلوبِ وصدَّقَتْه الأعمالُ.

ولهذا^(١) قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قال: لا إله إلا الله مخلصاً؛ دخلَ الجنةَ» قيل: يا رسولَ الله، وما إخلاصُها؟ قال: «أَنْ تَحْجُزَهُ عن محارِمِ الله». رواه زيدُ بنُ أرقم^(٢).

وعنه أيضاً قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَهْدَ إِلَيَّ أَلَّا يَأْتِيَنِي أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي بِلا إله إلا الله، لا يَخْلُطُ بها شيئاً؛ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجنةُ» قالوا: يا رسولَ الله، وما الذي يخلطُ بلا إله إلا الله؟ قال: «حرصاً على الدنيا، وَجَمْعاً لها، وَمَنْعاً لها، يقولون قولَ الأنبياء، ويعملون أعمالَ الجبابرة»^(٣).

وروى أنسُ بنُ مالكٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا إله إلا الله تمنعَ العبادَ مِنْ سَخَطِ الله، ما لم يؤثروا صفقَةً دنياهم على دينهم، فإذا آثروا صفقَةً دنياهم على دينهم، ثم قالوا: لا إله إلا الله، رُدَّتْ عليهم، وقال الله: كذبتُمْ». أسانيدُها في «نوادِرِ الأصول»^(٤).

قلت: والآيةُ بعمومِها تدلُّ على سِوَالِ الجميعِ ومحاسبتِهِمْ كافرِهِمْ ومؤمِنِهِمْ، إلا

(١) بعدها في (ز) و(د) و(م): ما، والمثبت من (ظ).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٠٧٤) وفي الأوسط (١٢٥٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٨/١ وقال: في إسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، وهو وضاع.

(٣) هو في نوادر الأصول ص ٢٤٦، ولم نقف عليه عند غيره.

(٤) ص ٢٤٦ - ٢٤٧، والحديث أخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في الزهد ص ١٤٤، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٩٧). قال الرازي في العلل ١٢١/٢ - ١٢٢: هذا خطأ إنما هو سهيل عن مالك بن أنس عن النبي ﷺ مرسل.

مَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ «التَّذَكُّرَةِ»^(١).

فإن قيل: وهل يُسأل الكافر ويُحاسب؟ قلنا: فيه خلاف، وذكرناه في «التَّذَكُّرَةِ»^(١). والذي يظهر سؤاله؛ للآية وقوله: ﴿وَقَفُّوهُمْ لِمَتَّهِمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]. فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقال: ﴿لِمَتَّهِمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؟ قلنا: القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه. قال عكرمة: القيامة مواطن، يُسأل في بعضها، ولا يُسأل في بعضها. وقال ابن عباس: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام؛ هل عملتم كذا وكذا؛ لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقرير وتوبيخ، فيقول لهم: لِمَ عصيتم القرآن، وما حججكم فيه؟ واعتمد قُطْرُبُ هذا القول^(٢). وقيل: ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: المؤمنين المكلفين؛ بيانه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]. والقول بالعموم أولى كما ذكر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ^(٤) قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: بالذي تؤمر به، أي: بلغ رسالة الله جميع الخلق؛ لتقوم الحجة عليهم، فقد أمرك الله بذلك. والصدع: الشق. وتصدع القوم، أي: تفرقوا، ومنه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يتفرقون. وصدعته فأنصدع: أي: انشق. وأصل الصدع: الفرق والشق^(٥). قال أبو ذؤيب^(٤) يصف الحمار وأنته:

(١) ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤١/٤ - ١٤٢، والبغوي ٥٨/٣ - ٥٩، وزاد المسير ٤١٩/٤ - ٤٢٠.

(٣) ينظر الصحاح، وتهذيب اللغة ٤/٢ - ٦، ولسان العرب (صدع).

(٤) هو: خويلد بن خالد، الهذلي، جاهلي إسلامي. والبيت في ديوان الهذليين ص ٦، قال شارحه: الرِّبَابَةُ: خرقة تُغَطَّى بها القداح، ويقال: الرِّبَابَةُ هنا هي القداح، واليَسْر: الذي يضرب بها. ويصدع: يفرق ويصيح.

وَكَاَنَّهُنَّ رِبَابَةٌ وَكَاَنَّهُ يَسْرُ يُفِيضُ عَلَى الْقِدَاحِ وَيَصْدَعُ
 أي: يفرق ويشق. فقلوه: ﴿اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قال الفراء^(١): أراد: فاصدع
 بالأمر، أي: أظهر دينك، ف «ما» مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر. وقال ابن
 الأعرابي^(٢): معنى ﴿اصدع بما تؤمر﴾، أي: اقصد. وقيل: ﴿فَاَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي:
 فرق جمعهم وكلمتهم، بأن تدعوهم إلى التوحيد، فإنهم يتفرقون؛ بأن يجيب البعض.
 فيرجع الصّدْعُ على هذا إلى صدع جماعة الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عن الاهتمام باستهزائهم، وعن
 المبالاة بقولهم، فقد برأك الله عما يقولون. وقال ابن عباس: هو منسوخ بقوله:
 ﴿فَاَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣) [التوبة: ٥]. وقال عبد الله بن عبيد: ما زال النبي ﷺ مستخفياً
 حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَاَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه^(٤). وقال مجاهد: أراد
 الجهر بالقرآن في الصلاة^(٥).

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾: لا تُبالِ بهم. وقال ابن إسحاق^(٦): لما تمادوا في الشر
 وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿فَاَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ
 إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. والمعنى: اصدع
 بما تؤمر ولا تحف غير الله؛ فإن الله كافيك من آذاك كما كافاك المستهزئين.

وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم، والعاص
 ابن وائل، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث،

(١) في معاني القرآن ٩٣/٢ .

(٢) تهذيب اللغة ٦/٢ .

(٣) ينظر النكت والعيون ١٧٥/٣ ، والأثر أخرجه الطبري في تفسيره ١٤٥/١٤ .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤٣/١٤ .

(٥) تفسير مجاهد ٣٤٤/١ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٤٣/١٤ .

(٦) سيرة ابن هشام ٤٠٩/١ ، وينظر تفسير الطبري ١٤٥/١٤ - ١٤٦ .

والحارثُ بْنُ الطَّلَاطِلَةِ. أهلكهم الله جميعاً قبلَ يومِ بدرٍ في يومٍ واحدٍ؛ لاستهزائهم برسولِ الله ﷺ^(١).

وسببُ هلاكهم فيما ذكر ابنُ إسحاق^(٢): أنَّ جبريلَ أتى رسولَ الله ﷺ وهم يَطوفون بالبيت، فقامَ وقامَ رسولُ الله ﷺ، فمرَّ به الأسودُ بْنُ المطلَّبِ، فرمى في وجهه بورقةَ خضراءَ فعميَ، ووَجِعَت عينُه، فجعلَ يَضْرِبُ برأسه الجدارَ. ومرَّ به الأسودُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ، فأشارَ إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات منه حَبْنًا؛ يقال: حَبِنَ - بالكسر - حَبْنًا، وَحِنَ للمفعول: عَظَمَ بطنه بالماءِ الأصفرِ، فهو أَحْبَنُ، والمرأةُ حَبْناءُ؛ قاله في «الصحاح»^(٣). ومرَّ به الوليدُ بْنُ المغيرة، فأشارَ إلى أثرِ جُرْحٍ بأسفلِ كعبِ رِجله، وكان أصابه قبلَ ذلك بسنين وهو يَجُرُّ سَبَلَهُ^(٤)، وذلك أنه مرَّ برجلٍ من خزاعة يَرِيشُ نَبَلًا له، فتعلَّقَ سهمٌ من نَبَله بإزاره فَخَدَشَ في رِجله ذلك الخدشَ، وليس بشيء، فانتفضَ به، فقتلَه. ومرَّ به العاصُ بْنُ وائلٍ، فأشارَ إلى أُخْمَصِ رِجله، فخرجَ على حمارٍ له يريدُ الطائفَ، فربَضَ به على شِبْرِقة^(٥)، فدخلت في أُخْمَصِ رِجله شوكةٌ، فقتلته. ومرَّ به الحارثُ بْنُ الطَّلَاطِلَةِ، فأشارَ إلى رأسه فامتخط^(٦) قبحاً، فقتلَه. وقد ذُكر في سببِ موتهم اختلافٌ قريبٌ من هذا^(٧).

(١) النكت والعيون ١٧٥/٣، وينظر تفسير الطبري ١٤٦/١٤، وورد في (م): قيل: يوم بدر.

(٢) في السير والمغازي ص ٢٧٣ - ٢٧٤، وينظر سيرة ابن هشام ٤١٠/١، وتفسير الطبري ١٤٦-١٤٧، وتفسير البغوي ٥٩/٣.

(٣) الصحاح (حب).

(٤) السَّبَلُ: الإزار. تفسير الطبري ١٤٧/١٤.

(٥) الشُّبْرِقُ: نبت حجازي يؤكل وله شوك. النهاية في غريب الحديث (شبرق).

(٦) في (ظ): فامتخض.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٤٧/١٤ - ١٥٢، والمحذر الوجيز ٣٧٥ - ٣٧٦، وزاد المسير ٤٢٢-٤٢٣، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٤٧/٧، ونسبه للطبراني في الأوسط وقال: فيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري، ولم أعرفه.

وقيل: إنهم المراد بقوله تعالى: ﴿فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦].
شبه ما أصابهم في موتهم بالسقف الواقع عليهم؛ على ما يأتي^(١).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٦﴾
هذه صفة المستهزئين. وقيل: هو ابتداء، وخبره: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿٩٧﴾
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي: قلبك؛ لأنَّ الصدر محلُّ
القلب^(٣). ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: بما تسمعه من تكذيبك وردِّ قولك، وتناله ويناؤه
أصحابك من أعدائك.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٩٨﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فافزع إلى الصلاة، فهي غاية التسبيح،
ونهاية التقديس^(٤)؛ وذلك تفسير لقوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾، ولا خفاء أنَّ غاية
القرب في الصلاة حال السجود، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون
العبد من ربه وهو ساجد، فأخلصوا الدعاء»^(٥). ولذلك خصَّ السجود بالذكر.

الثانية: قال ابن العربي^(٦): ظنَّ بعض الناس أنَّ المراد بالأمر هنا السجود نفسه،
فرأى هذا الموضع محلَّ سجود في القرآن، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من

(١) في سورة النحل، عند الآية ٢٦.

(٢) الإملاء (بهاشم الفتوحات الإلهية) ٤٣٧/٣، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣٩٠/٢.

(٣) النكت والعيون ١٧٥/٣.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١١٢٦/٣.

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ؓ، وفيه: فأكثرُوا الدعاء، بدل: فأخلصوا الدعاء.

(٦) أحكام القرآن ١١٢٦/٣.

البيت المقدس طهره الله، يسجد في هذا الموضع وسجدت معه فيها، ولم يره جماهير العلماء.

قلت: قد ذكر أبو بكر النقاش أن هاهنا سجدة عند أبي حذيفة ويمان بن رثاب، ورأى أنها واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾

فيه مسألة واحدة، وهو أن اليقين الموت. أمره بعبادته إذ قصر عباده في خدمته، وأن ذلك يجب عليه^(١).

فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ وكان قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ﴾ كافياً في الأمر بالعبادة؟ قيل له: الفائدة في هذا أنه لو قال: «واعبد ربك» مطلقاً، ثم عبده مرة واحدة، كان مطيعاً؛ وإذا قال: «حتى يأتبك اليقين» كان معناه: لا تفارق هذا حتى تموت.

فإن قيل: كيف قال سبحانه: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ولم يقل: أبداً؟ فالجواب أن «اليقين» أبلغ من قوله: أبداً؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة، ولجميع الأبد. وقد تقدّم هذا المعنى^(٢).

والمراد: استمرار العبادة مدة حياته، كما قال العبد الصالح: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. ويترتب على هذا أن الرجل إذا قال لامرأته: أنت طالق أبداً، وقال: نويت يوماً أو شهراً، كانت عليه الرجعة. ولو قال: طلقها حياتها، لم يراجعها^(٣).

والدليل على أن اليقين الموت حديث أم العلاء الأنصارية، وكانت من

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١١٢٧/٣ .

(٢) ٢٥٨/٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١١٢٧/٣ .

المبايعات، وفيه: فقال رسولُ الله ﷺ: «أما عثمانُ - أعني عثمانُ بنُ مظعونٍ - فقد جاءه اليقينُ، وإنِّي لأرجو له الخيرَ، واللَّهِ ما أدري وأنا رسولُ اللَّهِ ما يُفَعِّلُ به» وذكر الحديث. انفرد بإخراجه البخاري^(١) رحمه الله!

وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيز يقول: ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشكَّ من يقينِ الناسِ بالموت، ثم لا يَسْتَعِدُّونَ له؛ يعني كأنَّهم فيه شاؤون^(٢).

وقد قيل: إنَّ اليقينَ هنا الحقُّ الذي لا ريبَ فيه من نصرِكَ على أعدائِكَ؛ قاله ابنُ شجرة؛ والأوَّلُ أصحُّ، وهو قول مجاهدٍ وقتادةٍ والحسين^(٣). واللَّهِ أعلم.

وقد روى جُبَيْرُ بنُ نَفِيرٍ، عن أبي مسلمٍ الحَوَّلَانِيَّ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «ما أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ الْمَالَ وَأَكُونَ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلَكِنْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ سَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَتَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ»^(٤).

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجَرِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

(١) في «صحيحه» (٢٦٨٧)، وهو عند أحمد (٢٧٤٥٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٤٣) بنحوه.

(٣) النكت والعيون ١٧٦/٣، وأخرجه عنهم الطبري في تفسيره ١٥٥/١٤ - ١٥٦.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٣١/٢، وهو ضعيف لإرساله، وأخرجه الواحدي في الوسيط ٥٤/٣ عن جبير بن نفير مرسلأً أيضاً، وينظر الكامل لابن عدي ٩٣٩/٣.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة النحل

وهي مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر^(١).

وتسمَّى: سورة النُّعْم؛ بسبب ما عَدَّدَ اللهُ فيها من نِعَمه على عباده. وقيل: هي مكية غير قوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [الآية ١٢٦]؛ نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد، وغير قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الآية: ١٢٧]، وغير قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [الآية ١١٠]. وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ [٤١] فمَكِّيٌّ، في شأن هجرة الحبشة^(٢).

وقال ابن عباس: هي مَكِّيَّةٌ إِلَّا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة، وهي قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿يَٰأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٩٥-٩٧]^(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قيل: «أَتَى» بمعنى يأتي، فهو كقولك: إن أكرمتني أكرمتك. وقد تقدَّم أنَّ أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آتٍ لا محالة، كقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]^(٤).

(١) النكت والعيون ١٧٧/٣.

(٢) المحرر الوجيز ٣٧٧/٣.

(٣) النكت والعيون ١٧٧/٣.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٥٠/٤، وزاد المسير ٤٢٧/٤.

و«أمرُ الله»: عقابُه لمن أقام على الشرك وتكذيبِ رسوله؛ قاله الحسنُ وابنُ جريج^(١).

الضحَّاك: إنه ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه^(٢). وفيه بعد؛ لأنه لم يُنقل أن أحداً من الصحابة استعجلَ فرائضَ الله من قبل أن تُفرض عليهم، وأما مستعجلو العذاب والعقابِ فذلك منقول عن كثير من الكفار؛ قريش وغيرهم^(٣)، حتى قال النَّضر بن الحارث: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ» الآية [الأنفال: ٣٢] فاستعجلَ العذاب^(٤).

قلت: قد يستدلُّ الضحاك بقول عمر رضي الله عنه: وافقتُ ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر؛ خرَّجه مسلمٌ والبخاري^(٥). وقد تقدَّم في سورة البقرة^(٦). وقال الزجاج^(٧): هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وهو كقوله: ﴿وَحَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَثَرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ﴾ [هود: ٤٠].

وقيل: هو يوم القيامة أو ما يدلُّ على قربها من أسرارها.

قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأُنْشِقَ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] قال الكفار: إنَّ هذا يزعم أنَّ القيامةَ قد قُرِبت، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون، فأمسكوا وانتظروا فلم يَرَوْا شيئاً، فقالوا: ما نرى شيئاً! فنزلت: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ الآية [الأنبياء: ١]. فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة، فامتدَّت الأيام فقالوا: ما نرى

(١) مجمع البيان ٥٠/١٤. وأخرجه الطبري ١٥٨/١٣ - ١٥٩ عن ابن جريج.

(٢) أخرجه الطبري ١٥٨/١٣، وابن أبي حاتم ٢٢٧٦/٧.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٦٠/٣.

(٤) تفسير البغوي ٦١/٣.

(٥) صحيح مسلم (٢٣٩٩) واللفظ له، وصحيح البخاري (٤٠٢) من حديث أنس رضي الله عنه. وهو في مسند أحمد (١٥٧).

(٦) ٣٧٤/٢.

(٧) في معاني القرآن ١٨٩/٣.

شيئاً! فنزلت: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَلَلٌّ﴾ فوثب رسول الله ﷺ والمسلمون وخافوا؛ فنزلت: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا، فقال النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وأشار بأصبعيه؛ السبابة والتي تليها. يقول: إِنَّ كَادَتْ لِتَسْبِقَنِي، فسبقتها^(١).

وقال ابن عباس: كَانَ بَعُثُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَإِنَّ جَبْرِيلَ لَمَّا مَرَّ بِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ مَبْعُوثًا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا: اللَّهُ أَكْبَرُ، قَدْ قَامَتِ السَّاعَةُ^(٢).

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُمْ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزيهاً له عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة، وذلك أنهم يقولون: لا يقدر أحدٌ على بَعْثِ الأموات. فوصفوه بالعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوق، وذلك شركٌ. وقيل: «عَمَّا يُشْرِكُونَ» أي: عن إشراكهم. وقيل: «ما» بمعنى الذي، أي: ارتفع عن الذين أشركوا به.

قوله تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ﴿١﴾

قرأ المفضل عن عاصم: «تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ^(٣)»، والأصل تنزّل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الكسائي عن أبي بكر عن عاصم باختلاف عنه والأعمش: «تُنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ» غير مسمّى الفاعل^(٤). وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم: «تُنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ» بالنون مسمّى الفاعل^(٥)، الباكون: «يُنْزَلُ» بالياء مسمى الفاعل^(٦).

(١) تفسير البغوي ٦١/٣، وأسباب النزول للواحدي ص ٢٨٣، وزاد المسير ٤٢٦/٤. وأخرج نحوه الطبري ١٥٩/١٤ عن ابن جريج. وقوله: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» أخرجه أحمد (١٢٢٤٥)، والبخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس ؓ. وأخرجه أيضاً البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) تفسير البغوي ٦١/٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣٧٨/٣، وقراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجماعة، وقرأ بها من العشرة يعقوب في رواية روح. النشر ٣٠٢/٢.

(٤) هذه الرواية عن عاصم ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص ٣٧٠، والفارسي في الحجة ٥٣/٥. وهي غير المشهورة عنه. وقراءة الأعمش في المحرر الوجيز ٣٧٨/٣.

(٥) نسبها في المحرر الوجيز ٣٧٨/٣ لابن أبي عبيدة.

(٦) لكن قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يُنْزَلُ» بسكون النون وتخفيف الزاي. السبعة ص ٣٧٠، والتيسير ص ٧٥.

والضمير فيه لاسم الله عز وجل. ورؤي عن قتادة: «تُنزل الملائكة» بالنون والتخفيف^(١). وقرأ الأعمش: «تَنْزِل» بفتح التاء وكسر الزاي^(٢)، من النزول، «الملائكة» رفعاً مثل: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [القدر: ٤].

﴿بِالرُّوحِ﴾ أي: بالوحي، وهو النبوة؛ قاله ابن عباس؛ نظيره: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥]. الربيع بن أنس: بكلام الله، وهو القرآن. وقيل: هو بيان الحق الذي يجب اتباعه. وقيل: أرواح الخلق؛ قاله مجاهد، لا ينزل ملكٌ إلا ومعه روح^(٣). وكذا رؤي عن ابن عباس أن الروح خلقٌ من خلقِ الله عز وجل كصُورِ ابنِ آدم، لا ينزل من السماء ملكٌ إلا ومعه واحدٌ منهم^(٤). وقيل: بالرحمة؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: بالهداية؛ لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالروح^(٥) الأبدان، وهو معنى قول الزجاج؛ قال الزجاج^(٦): الروح ما كان فيه من أمر الله حياةً بالإرشاد إلى أمره. وقال أبو عبيدة^(٧): الروح هنا جبريل. والباء في قوله: «بالروح» بمعنى مع، كقولك: خرج بشيابه، أي: مع ثيابه.

﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: بأمره. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: على الذين اختارهم الله للنبوة. وهذا ردٌ لقولهم: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. ﴿أَنْ أُنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ تحذيرٌ من عبادة الأوثان، ولذلك جاء

(١) ذكر هذه القراءة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٧٨، وهي من القراءات السبعة، كما سلف في التعليق قبله.

(٢) لم تقف عليها.

(٣) النكت والعيون ٣/١٧٨. وأخرج الطبري ١٤/١٦٢ و ١٦٣ هذه الأقوال.

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/٥٣.

(٥) في (م): بالأرواح. والمثبت من النسخ موافق للنكت والعيون ٣/١٧٨، وعنه نقل المصنف.

(٦) في معاني القرآن ٣/١٩٠.

(٧) في (ز) و(ظ): أبو عبيد.

الإنذار؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه. ودلّ على ذلك قوله: «فاتقون». و«أن» في موضع نصب بنزع الخافض؛ أي: بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله، ف«أن» في محل نصب بسقوط الخافض، أو بوقوع الإنذار عليه^(١).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ١٣

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: للزوال والفناء. وقيل: «بالحق» أي: للدلالة على قدرته، وأنّ له أن يتعبّد العباد بالطاعة، وأن يحيي الخلق بعد الموت. ﴿تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من هذه الأصنام التي لا تقدر على خلق شيء.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ١٤

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ لما ذكر الدليل على توحيده؛ ذكر بعده الإنسان ومناكده وتعديّ طوره. «والإنسان» اسم للجنس.

وروي أنّ المراد به أبيّ بن خلف الجُمحيّ؛ جاء إلى النبي ﷺ بعظم رميم فقال: أترى يحيي الله هذا بعد ما قد رمّم^(٢). وفي هذا أيضاً نزل: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] أي: خلق الإنسان من ماءٍ يخرج من بين الصلب والترائب، فنقله أطواراً إلى أن وُلِدَ ونشأ بحيث يخاصم في الأمور. فمعنى الكلام: التعجيب^(٣) من الإنسان: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨].

وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي: مخاصم، كالنسيب بمعنى المناسب، أي: يخاصم الله عزّ وجلّ في قدرته. و﴿مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر الخصومة. وقيل: يُبين عن نفسه الخصومة بالباطل. والمبين: هو المفصح عما في ضميره بمنطقه.

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨ - ٣٧٩.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٤.

(٣) في النسخ الخطية: التعجب، والمثبت من (م).

قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْتَفِعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْإِنْسَانَ؛ ذَكَرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِ. وَالْأَنْعَامُ: الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ. وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ: نَعَمٌ وَأَنْعَامٌ؛ لِلْإِبِلِ، وَيُقَالُ لِلْمَجْمُوعِ، وَلَا يُقَالُ لِلْغَنَمِ مُفْرَدَةً^(١).

قال حسان:

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ إِلَى عَذْرَاءٍ مَنَزَلُهَا خَلَاءُ
دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفْرٌ تُعَفِّيهِا الرِّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ
وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيْسٌ خِلَالِ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ^(٢)
فَالنَّعَمُ هُنَا الْإِبِلُ خَاصَّةً.

وقال الجوهري^(٣): وَالنَّعَمُ وَاحِدُ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ الْمَالُ الرَّاعِيَّةُ، وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ هَذَا الْأِسْمُ عَلَى الْإِبِلِ. قَالَ الْفَرَّاءُ: هُوَ ذَكَرٌ لَا يُؤَنَّثُ، يَقُولُونَ: هَذَا نَعَمٌ وَارِدٌ، وَيَجْمَعُ عَلَى نُعْمَانٍ، مِثْلُ: حَمَلٌ وَحُمْلَانٍ. وَالْأَنْعَامُ تَذَكَّرُ وَتَوَنَّثُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل: ٦٦]، وَفِي مَوْضِعٍ: ﴿يَمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١].

وَانْتَصَبَ «الْأَنْعَامُ»^(٤) عِظْفًا عَلَى الْإِنْسَانِ، أَوْ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ، وَهُوَ أَوْجَهُ^(٥).

الثانية: قوله تعالى: ﴿دِفْءٌ﴾ الدَّفْءُ: السَّخَانَةُ، وَهُوَ مَا اسْتُدْفِئُ بِهِ مِنْ أَصْوَابِهَا

(١) المحرر الوجيز ٣/٣٧٩.

(٢) ديوان حسان ص ٧. وتقدم البيت الأخير ٥/٥٤. عَفَّتْ: دَرَسَتْ. وَذَاتُ الْأَصَابِعِ وَالْجَوَاءُ: مَوْضِعَانِ فِي الشَّامِ. وَعَذْرَاءُ: مَوْضِعٌ عَلَى بَرِيدٍ مِنْ دِمَشْقٍ. وَبَنُو الْحَسْحَاسِ: أَوْلَادُ الْحَسْحَاسِ بْنِ مَالِكٍ مِنْ بَنِي النِّجَارِ. وَالرِّوَامِسُ: الرِّيحُ الَّتِي تُثِيرُ التُّرَابَ فَتُرْسِمُ بِهِ الْآثَارَ، أَيْ: تَدْفِنُهَا. وَالسَّمَاءُ: الْمَطَرُ.

(٣) فِي الصَّحَاحِ (نَعَم). وَيَنْظُرُ مَعَانِي الْقُرْآنِ لِلْفَرَّاءِ ٢/٩٥.

(٤) فِي (د) وَ(ز) وَ(ظ): وَالنَّصَبُ وَالْأَنْعَامُ. وَالْمُبْتَدَأُ مِنْ (ف) وَ(م).

(٥) المحرر الوجيز ٣/٣٧٩.

وأوبارها وأشعارها، ملابس ولُحْفٍ وقُطْف. ورُوِيَ عن ابن عباس: دفؤها: نسلها^(١)؛ والله أعلم.

قال الجوهري في الصحاح^(٢): الدَّفءُ: نتاجُ الإبل والبأنها وما ينتفع به منها؛ قال الله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ﴾. وفي الحديث: «لنا من دفنهم ما سلّموا بالميثاق»^(٣). والدَّفءُ أيضاً: السُّخونة، تقول منه: دَفَّى الرجلُ دَفَاءً؛ مثلُ: كَرِهَ كراهة. وكذلك: دَفَّى دَفًّا؛ مثلُ: ظَمِئَ ظَمًّا. والاسم: الدَّفءُ - بالكسر - وهو الشيء الذي يُدْفَتُك، والجمع: الأدفَاء. تقول: ما عليه دَفٌّ؛ لأنه اسم. ولا تقول: ما عليك دَفَاء؛ لأنه مصدر. وتقول: اقْعُدْ في دَفٍّ هذا الحائط؛ أي: كِنِّهِ. وَرَجُلٌ دَفِيٌّ على فَعْلٍ: إذا لبس ما يُدْفَنه. وكذلك: رَجُلٌ دَفَانٌ، وامرأةٌ دَفَاى. وقد أدفاه الثوبُ، وتدَفَّا هو بالثوب واستَدَفَّا به، وادَّفَا به، وهو افتعل، أي: لَبَسَ ما يُدْفَنه. ودَفَوْتُ ليلتنا، ويومٌ دَفِيٌّ على فَعِيلٍ، وليلةٌ دَفِيَّةٌ، وكذلك الثوبُ والبيتُ. والمُدْفئة: الإبلُ الكثيرة؛ لأنَّ بعضها يدَفِي بعضاً بأنفاسها، وقد يُشَدَّد. والمُدْفأة: الإبلُ الكثيرة الأوبار والشحوم؛ عن الأصمعي، وأنشد للشماخ:

وكيف يَضِيعُ صاحبُ مُدْفَاتٍ على أثباجِهِنَّ من الصَّقِيعِ^(٤)
قوله تعالى: ﴿وَمَنْفِعٌ﴾ قال ابن عباس: المنافع: نسل كل دابة^(٥). مجاهد:

(١) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/١١٢٨. وأخرج عبد الرزاق في تفسيره ٣/٣٥٣، والطبري ١٤/١٦٧ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفِعٌ﴾ قال: نسل كل دابة. وسيرد قريباً. قال النحاس في معاني القرآن ٤/٥٤: وأحسب مذهب ابن عباس أن المنافع النسل؛ لا الدفء، على أن الأموي قد روى أن الدفء عند العرب نتاج الإبل والانتفاع بها، فيكون هذا فيه.

(٢) مادة (دفا).

(٣) لم نقف عليه. وأورده ابن الأثير في النهاية (دفا) بلفظ: «لنا من دفنهم وصرامهم...».

(٤) ديوان السماخ ص ٢٢٠. والأثباج؛ جمع ثَبَج: ما بين الكاهل إلى الظهر، وقيل، ثَبَج كل شيء وسَطه. مختار الصحاح (ثبج).

(٥) سلف ذكره في الحاشية.

الرُّكُوبَ وَالْحَمْلَ وَالْأَلْبَانَ وَاللَّحُومَ وَالسَّمْنَ^(١).

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذكر؛ لأنها معظم المنافع. وقيل: المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح.

الثالثة: دلّت هذه الآية على لباس الصُّوف، وقد لبسه رسولُ الله ﷺ والأنبياءُ قبله كموسى وغيره. وفي حديث المغيرة: فَعَسَلَ وَجْهَهُ وَعَلِيهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ شَامِيَّةٍ ضَيْقَةُ الْكُمَيْنِ... الحديث، خرّجه مسلم وغيره^(٢). قال ابنُ العربي^(٣): وهو شِعَارُ الْمُتَّقِينَ، وَلِبَاسُ الصَّالِحِينَ، وَشَارَةُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَاخْتِيَارُ الزَّهَّادِ وَالْعَارِفِينَ، وَهُوَ يُلْبَسُ لِيَنَّا وَخَشَنًا، وَجِدَادًا وَمُقَارِبًا وَرَدِيثًا، وَإِلَيْهِ نُسَبُّ^(٤) جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ الصُّوفِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ لِبَاسُهُمْ فِي الْغَالِبِ، فَالْيَاءُ لِلنَّسَبِ^(٥) وَالْهَاءُ لِلتَّأْنِيثِ^(٦). وقد أنشدني بعضُ أشياخهم بالبيت المقدس طَهَّرَهُ اللهُ:

تَشَاجَرَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ وَظَنُّوه مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ
وَلَسْتُ أَنْحِلُ هَذَا الْإِسْمَ غَيْرَ فَتَى صَافَى فَصُوفِي حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفِي^(٧)

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حَيْثُ تَرِيحُونَ وَحَيْثُ تَرَحُّونَ﴾ ﴿٦﴾

الْجَمَالُ: مَا يُتَجَمَّلُ بِهِ وَيُتَزَيَّنُ. وَالْجَمَالُ: الْحُسْنُ. وَقَدْ جَمَلَ الرَّجُلُ - بِالضَّمِّ - جَمَالًا فَهُوَ جَمِيلٌ، وَالْمَرْأَةُ جَمِيلَةٌ، وَجَمَلَاءُ أَيْضًا؛ عَنِ الْكَسَائِي؛ وَأَنْشَدَ:

فَهِيَ جَمَلَاءُ كَبِيرٍ طَالِعٍ بَذَتْ الْخَلْقَ جَمِيعًا بِالْجَمَالِ^(٨)

(١) أخرج نحوه الطبري في تفسيره ١٦٧/١٤ - ١٦٨ .

(٢) صحيح مسلم (٢٧٤) (٧٩)، وهو عند أحمد (١٨١٩٣)، والبخاري (٣٦٣).

(٣) في أحكام القرآن ١١٢٨/٣ .

(٤) في النسخ الخطية: ينسب. والمثبت من (م) وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٥) قوله: (فالياء للنسب)؛ من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٦) في النسخ الخطية: للمبالغة. والمثبت من (م) وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٧) نسبها القيرواني في زهر الآداب ٨١٣/٢ لأبي الفتح البستي.

(٨) ذكره في الصحاح (جمل)، والكلام منه. وقوله: بَذَتْ: سبقت وغلبت. اللسان (بذذ).

وقول أبي ذؤيب:

جَمَالُكَ أَثِيهَا الْقَلْبُ الْقَرِيحُ^(١)

يريد: اِلْزَمْ تَجَمُّلَكَ وَحَيَاءَكَ، وَلَا تَجْزَعْ جَزَعًا قَبِيحًا.

قال علماؤنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخَلْقَةِ، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال.

فأما جَمَالُ الخَلْقَةِ؛ فهو أمرٌ يدركه البصرُ، ويلقيه إلى القلب متلائماً، فتتعلق به النفس من غير معرفةٍ بوجه ذلك، ولا نسبته لأحد من البشر.

وأما جَمَالُ الأخلاق؛ فكونُها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة، والعدل والعِفَّةِ، وكظم الغيظ، وإرادة الخير لكلِّ أحد.

وأما جَمَالُ الأفعال؛ فهو وجودها ملائمةً لمصالح الخلق، وقاضيةً لجلبِ المنافع فيه، وصرفِ الشرِّ عنهم.

وجَمَالُ الأنعام والدوابِّ من جَمَالِ الخَلْقَةِ، وهو مرئيٌّ بالأبصار، موافق للبصائر. ومن جَمَالِها كثرتُها^(٢)، وقولُ الناس إذا رأوها: هذه نَعَمُ فلان؛ قاله السُّدِّيُّ^(٣). ولأنها إذا راحت توقَّرَ حُسْنُها، وعُظُم شأنُها، وتعلَّقت القلوبُ بها^(٤)؛ لأنها إذ ذاك أعظمُ ما تكون أسنمةً وضروعاً؛ قاله قتادة^(٥). ولهذا المعنى قدَّم الرِّواح على السراح؛ لتكامل دَرُّها وسرور النفس بها إذ ذاك^(٦). والله أعلم.

ورَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حَيْثُ تَرِيحُونَ

(١) ديوان الهذليين ص ٦٨، وعجزة: ستلقى من تحب فتستريح.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٩.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٠.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٩.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥٣، والطبري ١٤/ ١٦٩.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٨٠.

وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَذَلِكَ فِي الْمَوَاشِي حِينَ تَرُوحُ إِلَى الْمَرْعَى وَتَسْرَحُ عَلَيْهِ ^(١).

وَالرَّوَّاحُ : رجوعها بالعشي من المرعى، والسَّراح بالغداة؛ تقول: سَرَحْتُ الإبلَ أَسْرَحُهَا سَرَحاً وَسُرُوحاً؛ إذا غدوت بها إلى المرعى فخلَّيتها، وسَرَحْتُ هي، المتعدِّي واللازم واحد ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّئِمَّ تَكُونُوا فِيهِ إِلَّا يَشِقُّ آلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الأثقال أثقال الناس من متاع وطعام وغيره، وهو ما يُثقل الإنسان حمله. وقيل: المراد أبدانهم؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢].

والبلد: مكة؛ في قول عكرمة. وقيل: هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر ^(٣).

وَشِقُّ الْأَنْفُسِ: مشقتها وغاية جهدها. وقراءة العامة بكسر الشين. قال الجوهري ^(٤): وَالشَّقُّ: المشقة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَّئِمَّ تَكُونُوا فِيهِ إِلَّا يَشِقُّ آلْأَنْفُسِ﴾ وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة ^(٥).

قال المهدوي: وكسر الشين وفتحها في «شِق» متقاربان، وهما بمعنى المشقة، وهو من الشَّقِّ في العصا ونحوها؛ لأنه ينال منها؛ كالمشقة من الإنسان.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٠.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥٥/ ٤.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٠. وقول عكرمة أخرجه الطبري ١٤/ ١٧٠.

(٤) في الصحاح (شقق).

(٥) في الصحاح: أبو عبيد. وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٥٦.

وقال الثعلبي: وقرا أبو جعفر: ﴿إِلَّا يَشْقُ الْأَنْفُسِ﴾^(١) وهما لغتان، مثل: رِقَّ ورَقَّ، وَجِصَّ وَجَصَّ، وَرِظَل وَرَظَل. وينشد قول الشاعر^(٢) بكسر الشين وفتحها: وذئب إبلٍ يَسْعَى ويَحْسِبُها له أخِي نَصَبٍ من شَقَّها ودُؤوبٍ ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، من: شَقَّقت عليه أشقُّ شَقًّا.

والشَّقُّ أيضاً بالكسر: النُّصْفُ، يقال: أخذت شِقَّ الشاة وشِقَّةَ الشاة^(٣). وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى، أي: لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوة، وذهاب شِقِّ منها، أي: لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم، وذهاب النصف الآخر.

والشَّقُّ أيضاً: الناحية من الجبل. وفي حديث أم زَرْع: وجدني في أهل غُنيمة يَشْقُ^(٤). قال أبو عبيد^(٥): هو اسم موضع.

والشَّقُّ أيضاً: الشقيق، يقال: هو أخِي وشِقُّ نفسي. وشَقُّ: اسم كاهن من كهَّان العرب^(٦).

والشَّقُّ أيضاً: الجانب؛ ومنه قول امرئ القيس: إذا ما بَكَى مِنْ خَلْفِها انصرفتْ له بِشِقِّ وتحتي شِقُّها لم يُحوَّلِ^(٧) فهو مشترك.

(١) النشر ٢/٣٠٢.

(٢) هو النمر بن تولب، كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٥٦، والمحزر الوجيز ٣/٣٨٠، واللسان (شقق).

(٣) الصحاح (شقق).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

(٥) في غريب الحديث ٢/٣٠١. ونقله المصنف عنه بواسطة الصحاح (شقق) وما قبله منه.

(٦) الصحاح (شقق).

(٧) ديوان امرئ القيس ص ١٢، وفيه: (انحرفت) بدل: (انصرفت). و(وشق عندنا) بدل: (وتحتي شقها).

الثانية: مَنْ اللّهُ سبحانه بالأنعام عموماً، وَخَصَّ الإِبِلَ هنا بالذكر في حملِ الأثقال على سائر الأنعام؛ فَإِنَّ الغنمَ للسَّرْحِ والذبيح، والبقرة للحرث، والإبل للحمل^(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجلٌ يسوقُ بقرةً له، قد حَمَلَ عليها، التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أُخلَقْ لهذا، ولكنني إنما خُلِقْتُ للحَرثِ». فقال الناس: سبحان الله، تعجباً وفزعاً، أبقرةٌ تَكَلِّمُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «وإني أؤمن به وأبو بكرٍ وعمر»^(٢). فدلَّ هذا الحديث على أَنَّ البقرَ لا يُحمل عليها ولا تُركب، وإنما هي للحرث وللأكل والنسل والرُّسل^(٣).

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على جوازِ السفر بالدوابِّ، وحملِ الأثقال عليها، ولكن على قَدَر ما تحتمله، من غير إسراف في الحمل، مع الرفق في السير. وقد أمر النبي ﷺ بالرفق بها، والإراحة لها، ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها^(٤).

ورَوَى مسلمٌ من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخِصْبِ؛ فَأَعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ؛ فَبَادِرُوا بِهَا نِقْيَهَا»^(٥). رواه مالك في الموطأ عن أبي عبيد عن خالد بن معدان^(٦).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٣٨٨). وأخرجه أيضاً أحمد (٨٩٦٣)، والبخاري (٣٤٧١).

(٣) الرُّسل: اللِّبَن.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣١ .

(٥) صحيح مسلم (١٩٢٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٩١٨).

والسَّنة: القحط. والثَّقْي: بكسر النون وإسكان القاف: المتخ. أي: إن سافروا في القحط عجلوا السير ليصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها، ولا يقللوا السير فيلحقها الضرر؛ لأنها لا تجد ما ترعى فتضعف ويذهب نقيها. شرح النووي ١٣/ ٦٩ .

(٦) الموطأ ٢/ ٩٧٩ بنحوه، وأوله: «إن الله رفيق يحب الرفق...»، ونقله المصنف عن أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣١ .

وَرَوَى معاوية بن قُرَّة قال: كان لأبي الدرداء جَمَلٌ يقال له: دمون، فكان يقول: يا دمون، لا تخاصمني عند ربك^(١). فالدوابُّ عُجَمٌ لا تقدر أن تحتالَ لنفسها ما تحتاج إليه، ولا تقدر أن تُفصح بحوائجها، فمن ارتفق بمرافقتها، ثم ضيَّعها من حوائجها؛ فقد ضيَّع الشكرَ، وتعرَّض للخصومة بين يدي الله تعالى.

وَرَوَى مطر بن محمد قال: حَدَّثَنَا أبو داود قال: حَدَّثَنَا أبو خُلدة^(٢) قال: حَدَّثَنَا المسيَّب بن دارم^(٣) قال: رَأَيْتُ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ضَرَبَ جَمَّالاً وقال: تحمل على بعيرك ما لا يطيق^(٤)؟

قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ﴾ بالنصب معطوف، أي: وخلق الخيل. وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ: «والخيلُ والبغالُ والحُميرُ» بالرفع فيها كلها. وسُمِّيت الخيلُ خَيْلاً لا خَيْتالها في المِشْيَةِ^(٥). وواحد الخيل: خائل، كضائن واحد ضَيْن. وقيل: لا واحد له. وقد تقدَّم هذا في «آل عمران»^(٦)، وذكرنا الأحاديث هناك.

ولمَّا أفرد سبحانه الخيلَ والبغالَ والحُميرَ بالذكرِ؛ دلَّ على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام. وقيل: دخلت؛ ولكن أفردها بالذكر لِمَا يتعلق بها من الركوب؛ فإنه يكثر

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص ٤١٤، وابن عساكر في تاريخه ٧٧٦/١٣ (مخطوط دار البشير).

(٢) في النسخ: ابن خالد. وهو خطأ، والتصويب من مصادر التخريج والتهذيب. وأبو خُلدة هو خالد بن دينار.

(٣) في النسخ: المسيب بن آدم. وهو خطأ، والتصويب من مصادر التخريج والتهذيب.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١٢٧/٧، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخه ٥١٦/١٦ (مخطوط). وأبو داود هو سليمان بن داود الطيالسي.

(٥) المحرر الوجيز ٣/٣٨٠.

(٦) ٥٠/٥.

في الخيل والبغال والحمير.

الثانية: قال العلماء: ملَكنا الله تعالى الأنعامَ والدوابَّ، ودلَّلها لنا، وأباحَ لنا تسخيرَها والانتفاعَ بها رحمةً منه تعالى لنا، وما ملَكه الإنسانُ وجاز له تسخيرُه من الحيوان؛ فكِراؤه له جائز بإجماع أهل العلم، لا اختلاف بينهم في ذلك. وحُكم كِراء الرواحل والدوابِّ المذكور في كتب الفقه.

الثالثة: لا خلاف بين العلماء في اكتراء الدوابِّ والرواحل للحمل عليها والسفر بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الآية. وأجازوا أن يُكْرِيَ الرجلُ الدابةَ والراحلةَ إلى مدينة بعينها؛ وإن لم يُسمَّ أين ينزل منها، وكم من مَنهل^(١) ينزل فيه، وكيف صفة سيره، وكم ينزل في طريقه، واجتَرَّوا بالمتعارف بين الناس في ذلك. قال علماؤنا: والكِراء يجري مجرى البيوع فيما يحلُّ منه ويحرم.

قال ابن القاسم فيمن اكترى دابةً إلى موضعٍ كذا بثوبٍ مَرَوِيٍّ ولم يصف رُقعته وذرعه: لم يجز: لأن مالكَاً لا يجيز هذا في البيع، ولا يجيز في ثمن الكِراء إلا ما يجوز في ثمن البيع^(٢).

قلت: ولا يُختلف في هذا إن شاء الله؛ لأن ذلك إجارة.

قال ابن المنذر^(٣): وأجمع كلُّ مَنْ يُحفظ عنه من أهل العلم على أن مَنْ اكترى دابةً ليحملَ عليها عشرةَ أفقرةٍ قمح، فحمل عليها ما اشترط، فتلفت؛ أن لا شيء عليه. وهكذا إن حمل عليها عشرةَ أفقرةٍ شعير.

واختلفوا فيمن اكترى دابةً ليحملَ عليها عشرةَ أفقرةٍ، فحمل عليها أحدَ عشر

(١) المنهل: المورد، وهو عين ماء ترده الإبل في المراعي، وتسمى المنازل التي في المفاوز على طرق السُّقار: مناهل؛ لأن فيها ماء. مختار الصحاح (نهل).

(٢) ينظر المدونة ٤/ ٤٧٠.

(٣) في الإشراف ١/ ٢١١.

قفيزاً؛ فكان الشافعي وأبو ثور يقولان: هو ضامنٌ لقيمة الدابة، وعليه الكراء. وقال ابنُ أبي ليلى: عليه قيمتها، ولا أجر عليه. وفيه قول ثالث وهو: أنَّ عليه الكراء، وعليه جزء من أجر وجزء^(١) من قيمة الدابة؛ بقدر ما زاد من الجمل؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد. وقال ابنُ القاسم صاحبُ مالك^(٢): لا ضمانٌ عليه في قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يَفدح^(٣) الدابة، ويُعلم أن مثله لا تعطب فيه الدابة، ولربَّ الدابة أجرُ القفيز الزائد مع الكراء الأول؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة. وذلك بخلاف مجاوزة المسافة؛ لأنَّ مجاوزة المسافة تَعُدُّ كُلُّه، فيضمن إذا هلك في قليله وكثيره. والزيادةُ على الجمل المشترط اجتمع فيه إذنٌ وتعدُّ، فإذا كانت الزيادةُ لا تُعطب في مثلها؛ عُلِمَ أنَّ هلاكها مما أذن له فيه.

الرابعة: واختلف أهلُ العلم في الرجل يكتري الدابةَ بأجر معلوم إلى موضع مسمًى، فيتعدَّى فيتجاوز ذلك المكان، ثم يرجع إلى المكان المأذون له في المصير إليه:

فقال طائفة: إذا جاوز ذلك المكان ضَمِنَ، وليس عليه في التعدي كراء؛ هكذا قال الثوري.

وقال أبو حنيفة: الأجرُ له فيما سَمَّى، ولا أجرُ له فيما لم يسمَّ؛ لأنه خالف فهو ضامن، وبه قال يعقوب.

وقال الشافعي: عليه الكراء الذي سَمَّى، وكراء المثل فيما جاوزَ ذلك، ولو عَطِبَتْ؛ لزمه قيمتها^(٤).

ونحوه قال الفقهاء السبعة، مشيخةُ أهل المدينة؛ قالوا: إذا بلغ المسافة، ثم

(١) في الإشراف: وعليه جزء من أحد عشر جزءاً.

(٢) في المدونة ٤/ ٤٨١. ونقله المصنف عنه بواسطة الإشراف.

(٣) يَفدح: يثقل. مختار الصحاح (فدح).

(٤) الإشراف ١/ ٢١٠ - ٢١١. وما قبله منه.

زاد؛ فعليه كِراءُ الزيادة إن سلمت، وإن هلكَت ضَمِنَ.

وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور: عليه الكِراء والضمان. قال ابن المنذر^(١): وبه نقول.

وقال ابن القاسم: إذا بلغ المكتري الغاية التي اِكْتَرَى إليها، ثم زاد ميلاً ونحوه، أو أميالاً أو زيادة كثيرة فعطبت الدابة؛ فلربُّها كِراءُه الأول؛ والخيارُ في أخذه كِراءُ الزائد بالغاً ما بلغ، أو قيمة الدابة يوم التعدي.

ابن المَوَّاز: وقد روي أنه ضامنٌ ولو زاد خطوة. وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة الميل ونحوه: وأما ما يعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن^(٢).

وقال ابن حبيب عن ابن الماجشون وأصبغ: إذا كانت الزيادة يسيرة، أو جاوز الأمد الذي تكارها إليه بيسير، ثم رجع بها سالمةً إلى موضع تكارها إليه فماتت، أو ماتت في الطريق إلى الموضع الذي تكارها إليه؛ فليس له إلا كِراءُ الزيادة، كردهً لِمَا تسَلَّفَ من الوديعة. ولو زاد كثيراً مما فيه مقام الأيام الكثيرة التي يتغيَّر في مثلها سوقها؛ فهو ضامن، كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يُعلم أن ذلك مما لم يُعَنَّ على قتلها، فهلاكها بعد ردها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسَلَّفَ من الوديعة بعد رده لا محالة، وإن كانت الزيادة كثيرة؛ فتلك الزيادة قد أعانت على قتلها^(٣).

الخامسة: قال ابن القاسم وابن وهب: قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فجعلها للركوب والزينة، ولم يجعلها للأكل؛ ونحوه عن أشهب^(٤). ولهذا قال أصحابنا: لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن

(١) في الإشراف ١/ ٢١١.

(٢) ينظر النوادر والزيادات ٧/ ١١٨.

(٣) ينظر النوادر والزيادات ٧/ ١١٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٢. والموطأ ٢/ ٤٩٧.

الله تعالى لَمَّا نَصَّ عَلَى الرُّكُوبِ وَالزَّيْنَةَ دَلَّ عَلَى أَنَّ مَا عَدَاهُ بِخِلَافِهِ. وَقَالَ فِي الْأَنْعَامِ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ مَعَ مَا امْتَنَّ اللَّهُ مِنْهَا مِنَ الدَّفْعِ وَالْمَنَافِعِ، فَأَبَاحَ لَنَا أَكْلَهَا بِالذَّكَاءِ الْمَشْرُوعَةِ فِيهَا.

وبهذه الآية احتجَّ ابنُ عباسٍ والحَكَمُ بْنُ عُثَيْبَةَ، قَالَ الْحَكَمُ: لِحُومِ الْخَيْلِ حَرَامٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ وَالتِّي قَبْلَهَا وَقَالَ: هَذِهِ لِلْأَكْلِ، وَهَذِهِ لِلرُّكُوبِ^(١).

وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ لِحُومِ الْخَيْلِ فَكَرَّهَا، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ وَقَالَ: هَذِهِ لِلرُّكُوبِ، وَقَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي قَبْلَهَا: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾ ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ لِلْأَكْلِ^(٢). وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُمَا وَالْأَوْزَاعِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو عُبَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ^(٣)، وَاحْتَجُّوا بِمَا خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّسَانِي وَالْدَّارَقُطْنِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَنْ صَالِحِ ابْنِ يَحْيَى بْنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ أَكْلِ لِحُومِ الْخَيْلِ وَالْبَغَالِ وَالْحَمِيرِ، وَكُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ أَوْ مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ. لَفْظُ الدَّارَقُطْنِيِّ^(٤). وَعِنْدَ التَّسَانِي^(٥) أَيْضاً عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَحِلُّ أَكْلُ لِحُومِ الْخَيْلِ وَالْبَغَالِ وَالْحَمِيرِ».

وَقَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ: هِيَ مُبَاحَةٌ. وَرَوَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ. وَشَدَّدَتْ طَائِفَةٌ فَقَالَتْ بِالتَّحْرِيمِ؛ مِنْهُمْ الْحَكَمُ كَمَا ذَكَرْنَا، وَرَوَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ. حَكَى الثَّلَاثُ رَوَايَاتٍ عَنْهُ الرُّوْيَانِيُّ فِي بَحْرِ الْمَذْهَبِ عَلَى مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ.

قُلْتُ: الصَّحِيحُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ النَّظَرُ وَالْخَبَرُ جَوَازُ أَكْلِ لِحُومِ الْخَيْلِ، وَأَنَّ الْآيَةَ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٧٤/١٤ .

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٧٣/١٤ وَ ١٧٤ .

(٣) يَنْظُرُ التَّمْهِيدُ ١٠/١٢٧ .

(٤) سَنَّ الدَّارَقُطْنِيُّ (٤٧٦٩) وَ (٤٧٧٠)، وَأَبُو دَاوُدَ (٣٧٩٠)، وَالتَّسَانِيُّ فِي الْمَجْتَبَى ٧/٢٠٢، وَفِي الْكِبَرَى (٤٨٢٥)، وَابْنُ مَاجَهَ (٣١٩٨). وَهُوَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ (١٦٨١٧). وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ.

(٥) فِي الْمَجْتَبَى ٧/٢٠٢، وَفِي الْكِبَرَى (٤٨٢٤).

والحديث لا حجةَ فيهما لازمةٌ. أمّا الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل؛ إذ لو دلّت عليه لدلّت على تحريم لحوم الحُمُر، والسورة مكية، وأيُّ حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحُمُر عامَ خَيْبَر؛ وقد ثبت في الأخبار تحليلُ الخيل على ما يأتي. وأيضاً لما ذَكَر تعالى الأنعام؛ ذَكَر الأغلبَ من منافعها وأهمَّ ما فيها، وهو حمل الأثقال والأكل، ولم يذكرِ الركوبَ ولا الحرثَ بها ولا غير ذلك مصرّحاً به، وقد تُركِبُ ويُحرث بها؛ قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْفُسَ لِتَرْكَبُوهَا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩]. وقال في الخيل: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فذكر أيضاً أغلبَ منافعها والمقصودَ منها، ولم يذكر حمل الأثقال عليها، وقد تحمل كما هو مشاهد، فلذلك لم يذكر الأكل. وقد بيّنه نبيّه عليه الصلاة والسلام الذي جعل إليه بيانُ ما أنزل عليه على ما يأتي^(١)، ولا يلزم من كونها خُلقت للركوب والزينة ألا تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذي أنطق كلَّ شيء فقالت: إنما خُلقت للحرث^(٢). فيلزم من علل أن الخيل لا تؤكل لأنها خُلقت للركوب؛ ألا تؤكل البقر لأنها خُلقت للحرث، وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، فكذلك الخيل بالسنة الثابتة فيها؛ روى مسلم من حديث جابر قال: نهى رسولُ الله ﷺ يومَ خَيْبَر عن لحومِ الحُمُرِ الأهليّة، وأذن في لحومِ الخيل^(٣). وقال النسائي^(٤): عن جابر: أطعمنا رسولُ الله ﷺ يومَ خيبر لحومَ الخيل، ونهانا عن لحومِ الحُمُر. وفي رواية^(٥) عن جابر قال: كُنّا نأكلُ لحومَ الخيلِ على عهدِ رسولِ الله ﷺ.

فإن قيل: الرواية عن جابر بأنهم أكلوها في خَيْبَر حكايةٌ حالٍ، وقضيةٌ في عَيْنٍ،

(١) عند تفسير الآية ٤٤ من هذه السورة.

(٢) تقدم ص ٢٧٧ من هذا الجزء.

(٣) صحيح مسلم (١٩٤١). وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٨٩٠)، والبخاري (٤٢١٩).

(٤) في المجتبى ٢٠١/٧، وفي الكبرى (٤٨٢١) و(٤٨٢٢).

(٥) في المجتبى ٢٠١/٧، وفي الكبرى (٤٨٢٣).

فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورة، ولا يُحتجُّ بقضايا الأحوال^(١).

قلنا: الرواية عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله ﷺ يُزيل ذلك الاحتمال، ولئن سلّمناه؛ فمعنا حديث أسماء قالت: نَحَرْنَا فرساً على عهد رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة فأكلناه؛ رواه مسلم^(٢). وكلُّ تأويلٍ من غير ترجيح في مقابلة النصِّ فإنما هو دعوى، لا يلتفت إليه ولا يُعرج عليه.

وقد رَوَى الدارقطني^(٣) زيادةً حسنةً ترفع كلَّ تأويلٍ في حديث أسماء، قالت أسماء: كان لنا فرسٌ على عهد رسول الله ﷺ أرادت أن تموت، فذبحناها فأكلناها. فذُبُحْها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال. وبالله التوفيق.

فإن قيل: حيوان من ذوات الحوافر؛ فلا يؤكل كالحمار؛

قلنا: هذا قياس الشبهة، وقد اختلف أرباب الأصول في القول به، ولئن سلّمناه؛ فهو منتقض بالخنزير؛ فإنه ذو ظلف، وقد بايَنَ ذوات الأظلاف، وعلى أن القياس إذا كان في مقابلة النصِّ فهو فاسدٌ الوضع لا التفات إليه.

قال الطبري^(٤): وفي إجماعهم على جواز ركوب ما ذُكر للأكل دليلٌ على جواز أكل ما ذُكر للركوب.

السادسة: وأما البغال فإنها تُلحق بالحمير. إن قلنا: إنَّ الخيل لا تؤكل؛ فإنها تكون متولدة من عينين لا يؤكلان. وإن قلنا: إنَّ الخيل تؤكل، فإنها عينٌ متولدة من مأكولٍ وغير مأكول، فغلب التحريم على ما يلزم في الأصول^(٥). وكذلك ذبح المولود بين كافرين، أحدهما من أهل الذكاة، والآخر ليس من أهلها؛ لا تكون ذكاة، ولا

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١١٣٢/٣.

(٢) في صحيحه (١٩٤٢). وأخرجه أيضاً أحمد (٢٦٩١٩)، والبخاري (٥٥١٠).

(٣) في سننه (٤٧٨٤).

(٤) في تفسيره ١٧٦/١٤.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١١٣٣/٣.

تحلُّ به الذبيحة. وقد مضى في «الأنعام»^(١) الكلام في تحريم الحُمْر، فلا معنى للإعادة. وقد علل تحريم أكل الحمار بأنه أبدى جوهرة الخبيث، حيث نزا على ذُكْر وتلَوَّط؛ فسُمِّي رجساً^(٢).

السابعة: في الآية دليلٌ على أنَّ الخيلَ لا زكاةَ فيها؛ لأنَّ الله سبحانه مَنْ علينا بما أباحنا منها، وكرَّمنا به من منافعها، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل. وقد رَوَى مالك، عن عبد الله بن دينار، عن سليمان بن يسار، عن^(٣) عراك بن مالك، عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي عَبْدِهِ وَلَا فَرَسِهِ صَدَقَةٌ»^(٤).

ورَوَى أبو داود، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ فِي الْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ زَكَاةٌ، إِلَّا زَكَاةُ الْفُطْرِ فِي الرَّقِيقِ»^(٥)؛ وبه قال مالك والشافعي والأوزاعي والليث وأبو يوسف ومحمد. وقال أبو حنيفة: إِنْ كَانَتْ إِنَاثًا كُلُّهَا أَوْ ذَكَورًا وَإِنَاثًا، فَفِي كُلِّ فَرَسٍ دِينَارٌ إِذَا كَانَتْ سَائِمَةً، وَإِنْ شَاءَ قَوْمُهَا فَأَخْرَجَ عَنْ كُلِّ مِثْقَلِ دِرْهَمٍ خَمْسَةَ دِرَاهِمٍ^(٦). واحتجَّ بأثرٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «فِي الْخَيْلِ السَّائِمَةِ فِي كُلِّ فَرَسٍ

(١) ٨٦/٩ - ٨٧.

(٢) نواذر الأصول ص ١٣٢.

(٣) في (د) و(ظ): وعن. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٧/١٢٣: هكذا هذا الحديث في الموطأ عند جماعة الرواة... وهذا الحديث أخطأ فيه يحيى بن يحيى، كخطئه في الحديث الذي قبله سواء، وأدخل بين سليمان وعراك بن مالك واوًا، فجعل الحديث لعبد الله بن دينار وعراك، وهو خطأ غير مشكل، وهذان الموضعان مما عُدَّ عليه من غلظه في الموطأ، والحديث محفوظ في الموطآت كلها وغيرها: لسليمان بن يسار، عن عراك بن مالك، وهما تابعان نظيران، وعراك أسنُّ من سليمان، وسليمان عندهم أفضه، وكلاهما ثقة جليل عالم.

(٤) موطأ مالك ١/٢٧٧. وأخرجه أيضاً أحمد (٧٢٩٥)، والبخاري (١٤٦٣)، ومسلم (٩٨٢).

(٥) سنن أبي داود (١٥٩٤) وفي إسناده: عبيد الله، عن رجل، عن مكحول. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٧/١٣٦: هذه الزيادة جاءت في هذا الحديث كما ترى، ولا ندري من الرجل الذي رواها عن مكحول، وإنما كنا نعرف هذه الزيادة لجعفر بن ربيعة عن عراك بن مالك؛ هذا إن صححت عنه أيضاً... وهذا لم يجرى به غير جعفر بن ربيعة، إلا أنه قد رُوِيَ بأسانيد معلولة كلها، فاحتج بهذه الزيادة بعض من ذهب مذهب العراقيين.

(٦) ينظر التمهيد ٤/٢١٥.

دينار^(١)، ويقول ﷺ: «الخیلُ ثلاثة...» الحديث، وفيه: «ولم يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ في رِقَابِها ولا ظُهورِها»^(٢).

والجواب عن الأول؛ أنه حديث لم يروه إلا غورك السَّعدي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر. قال الدَّارَقُطْنِي^(٣): تفرَّد به غورك عن جعفر، وهو ضعيف جداً، وَمَنْ دَوَّنَه ضَعْفَاء.

وأما الحديث؛ فالحق المذكور فيه هو الخروج عليها إذا وقع النَّفِيرُ، وتعيَّن بها لقتال العدو؛ إذا تعيَّن ذلك عليه، ويَحْمِلُ المنقطعين عليها إذا احتاجوا لذلك، وهذا واجبٌ عليه إذا تعيَّن ذلك، كما يتعيَّن عليه أن يُطْعِمَهُمْ عند الضرورة، فهذه حقوقُ الله في رِقَابِها.

فإن قيل: هذا هو الحقُّ الذي في ظهورها، وبقي الحقُّ الذي في رِقَابِها.

قيل: قد روي: «لا يَنْسَى حَقَّ اللَّهِ فيها». ولا فرق بين قوله: «حَقَّ اللَّهِ فيها» أو: «في رِقَابِها وظُهورِها» فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد؛ لأنَّ الحقَّ يتعلَّقُ بجملتها.

وقد قال جماعة من العلماء: إنَّ الحقَّ هنا حُسْنُ مِلْكِها، وتعهُّدُ شِيعِها، والإحسانُ إليها، وركوبُها غير مشقوق عليها؛ كما جاء في الحديث: «لا تتخذوا ظُهورَها كَراسِيَّ»^(٤). وإنما خصَّ رِقَابَها بالذكر؛ لأنَّ الرِقَابَ والأعناق تستعار كثيراً في مواضع الحقوقِ اللازمة، والفروضِ الواجبة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]. وكثر عندهم استعمالُ ذلك واستعارته، حتى جعلوه في

(١) أخرجه الدارقطني (٢٠١٩)، والطبراني في الأوسط (٧٦٦١)، والبيهقي ١١٩/٤ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦٩/٣: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الليث بن حماد وغورك، وكلاهما ضعيف.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٥٦٣)، والبخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة ؓ.

(٣) في سننه عقب (٢٠١٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٦٢٩) من حديث معاذ بن أنس الجهني بلفظ: «ولا تتخذوها كراسيَّ لأحاديثكم...».

الرِّبَاع^(١) والأموال؛ ألا ترى قول كُثَيِّر:

عَمُرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً غَلِقْتُ لِضَحَكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ^(٢)

وأيضاً؛ فَإِنَّ الحيوان الذي تجب فيه الزكاة له نصابٌ من جنسه، ولَمَّا خرجت الخيلُ عن ذلك؛ عَلِمْنَا سقوطَ الزكاة فيها.

وأيضاً؛ فإيجابُه الزكاة في إناثها منفردةٌ دون الذكور؛ تناقض منه، وليس في الحديث فصلٌ بينهما. ونقيس الإناثَ على الذكور في نفي الصدقة؛ بأنه حيوان مُقْتَنَى لنسله، لا لدرّهِ، ولا تجبُ الزكاة في ذكوره، فلم تجب في إناثه، كالبغال والحمير^(٣). وقد رُوِيَ عنه أنه لا زكاة في إناثها وإن انفردت كذكورها منفردة، وهذا الذي عليه الجمهور.

قال ابن عبد البر^(٤): الخبر في صدقة الخيل عن عمر صحيحٌ من حديث الزُّهْرِيِّ وغيره. وقد رُوِيَ من حديث مالك، رواه عنه جُوَيْرِيَّة، عن الزهري: أَنَّ السائبَ بْنَ يزيد قال: لقد رأيت أبي يَقُومُ الخيلَ، ثم يدفَعُ صدقتها إلى عمر^(٥). وهذا حجةٌ لأبي حنيفة وشيخه حمادِ بنِ أبي سليمان، لا أعلم أحداً من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة في الخيل غيرهما. تفرَّد به جُوَيْرِيَّة عن مالك؛ وهو ثقة.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَزِينَةً﴾ منصوبٌ بإضمار فعل؛ المعنى: وجعلها زينة. وقيل: هو مفعول من أجله^(٦). والزينة: ما يُتَزَيَّن به، وهذا الجمال والتزيين وإن كان

(١) الرباع؛ جمع الرُّبْع: المنزل ودار الإقامة، وربيع القوم: محلّتهم. النهاية (ربيع).

(٢) التمهيد ٢١٠/٤، وما قبله منه. وشعر كثير في ديوانه ص ٢٩٥. وقوله: غمر الرداء: كثير المعروف، سخي. وقوله (غلقت): استحقت. القاموس (غمر، غلق).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٥.

(٤) في التمهيد ٢١٧/٤.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٨٨٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٢/ ٢٦.

(٦) أي: وللزينة. مشكل إعراب القرآن ١/ ٤١٧.

من متاع الدنيا؛ فقد أذن الله سبحانه لعباده فيه؛ قال النبي ﷺ: «الإبلُ عِزٌّ لأهلها، والغنمُ بركةٌ، والخيْلُ في نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ». خرَّجه البرقاني وابنُ ماجه في السنن. وقد تقدَّم في الأنعام^(١).

وإنما جمع النبي ﷺ العِزَّ في الإبل؛ لأنَّ فيها اللباسَ والأكلَ واللَبَنَ والحَمَلَ والغزو؛ وإنَّ نَقَصَهَا الْكَرُّ وَالْفَرُّ. وجعل البركة في الغنم لِمَا فيها من اللباسِ والطعام والشرابِ وكثرة الأولاد؛ فإنها تلد في العام ثلاث مرَّات، إلى ما يتبعه من السَّكِينَةِ، وتحمل صاحبها عليه من خفضِ الجناح ولينِ الجانب؛ بخلاف الفَدَّادِينِ^(٢) أهل الوَبَرِ. وقرنَ النبي ﷺ الخيرَ بنواصي الخيلِ بقية الدهر؛ لِمَا فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش، وما يوصل إليه من قهرِ الأعداء، وغَلَبِ الكفار، وإِعْلَاءِ كلمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال الجمهور: من الخلق. وقيل: من أنواع الحشرات والهوامِّ في أسافل الأرض والبرِّ والبحر، مما لم يَرَهُ البَشَرُ، ولم يسمعوا به. وقيل: «ويخلق ما لا تعلمون» مما أعدَّ الله في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تَرَهُ عَيْنٌ، ولم تسمع به أذن، ولا خَطَرَ على قَلْبٍ بشر^(٣).

وقال قتادة والسُّدِّي: هو خَلَقُ السُّوسِ في الثياب، والدودِ في الفواكه^(٤). ابن عباس: عين تحت العرش؛ حكاه الماوردي^(٥).

الثعلبي: وقال ابن عباس: عن يمين العرش نهرٌ من النور مثل السماوات السبع

(١) سنن ابن ماجه (٢٣٠٥) من حديث عروة البارقي، وتقدم في آل عمران ٥٤/٥.

(٢) الفدادون: كثيرو الإبل، كان إذا ملك أحدهم المئتين من الإبل إلى الألف؛ قيل له: فداد. النهاية (فدد).

(٣) تفسير الطبري ١٤/١٧٦ - ١٧٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/٦٣.

(٥) في النكت والعيون ٣/١٨٠.

والأرضين السبع والبحار السبع سبعين مرة، يدخله جبريلُ كلَّ سَحَرٍ فيغتسلُ، فيزداد نوراً إلى نوره، وجمالاً إلى جماله، وعِظْماً إلى عِظْمه، ثم ينتفضُ، فيُخرجُ اللهُ من كلِّ ريشةٍ سبعين ألف قطرة، ويخرج من كلِّ قطرة سبعة آلاف ملك، يدخل منهم كلُّ يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور، وفي الكعبة سبعون ألفاً لا يعودون إليه إلى يوم القيامة^(١).

وقول خامس: وهو ما رُوِيَ عن النبي ﷺ: «إنها أرضٌ بيضاء، مسيرة الشمس ثلاثين يوماً، مشحونة خلقاً لا يعلمون أنَّ الله تعالى يُعْصِي في الأرض». قالوا: يا رسول الله، من ولد آدم؟ قال: «لا يعلمون أنَّ الله خلق آدم». قالوا: يا رسول الله، فأين إبليس منهم؟ قال: «لا يعلمون أنَّ الله خلق إبليس»، ثم تلا: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكره الماوردي^(٢).

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكر البيهقي عن الشعبي قال: إنَّ لله عبداً من وراء الأندلس، كما بينا وبين الأندلس، ما يرون أنَّ الله عصاه مخلوق، رَضْرَاضُهُمْ^(٣) الدُّرُّ والياقوت، وجبالُهم الذهبُ والفضة، لا يحرقون ولا يزرعون ولا يعملون عملاً، لهم شجرٌ على أبوابهم لها ثمر؛ هي طعامهم، وشجرٌ لها أوراقٌ عراض؛ هي لباسهم. ذكره في بدء الخلق من كتاب الأسماء والصفات^(٤). وخرَّج من حديث موسى بن عقبة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مسيرة سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»^(٥).

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٥٧/٣، وفيما يورده الثعلبي من مثل هذه الأخبار نظر.

(٢) في النكت والعيون ١٨١/٣، وليس في ذلك خبر صحيح.

(٣) الرضراض: الحصى، أو صفارها. القاموس (رضض).

(٤) حديث (٨٣٠). وهو مقطوع على الشعبي، وفي متنه نظر. ثم إن في إسناده القاسم بن سلمان، لم يذكر في الرواة عنه إلا علي بن ثابت، كما في التاريخ الكبير ١٦٥/٧، فهو في عداد المجهولين.

(٥) الأسماء والصفات (٨٤٦). وأخرجه أيضاً أبو داود في سننه (٤٧٢٧). قال ابن حجر في فتح الباري ٦٦٥/٨: إسناده على شرط الصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ①

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: على الله بيان قصد السبيل، فحذف المضاف؛ وهو البيان. والسبيل: الإسلام، أي: على الله بيانه بالرسول والحجج والبراهين. وقصد السبيل: استعانة الطريق؛ يقال: طريق قاصد، أي: يؤدي إلى المطلوب.

﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ أي: ومن السبيل جائز، أي: عادل عن الحق، فلا يهتدي به؛ ومنه قول امرئ القيس^(١):

وَمِنْ الطَّرِيقَةِ جَائِزٌ وَهُدًى قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهُ ذُو دَخْلٍ
وَقَالَ طَرْفَةٌ^(٢):

عَدُولِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنْ يَجُورُ بِهَا الْمَلَأُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
الْعَدُولِيَّةُ: سفينة منسوبة إلى عدولي؛ قرية بالبحرين. والعدولي: الملاح؛ قاله في الصحاح^(٣). وفي التنزيل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقد تقدم^(٤).

وقيل: المعنى: ومنهم جائز عن سبيل الحق، أي: عادل عنه فلا يهتدي إليه. وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أهل الأهواء المختلفة؛ قاله ابن عباس^(٥). الثاني: ملل الكفر من اليهودية والمجوسية والنصرانية^(٦).

(١) ديوانه ص ٢٣٨.

(٢) ديوانه ص ٢٠.

(٣) (عدل).

(٤) ١١٥/٩.

(٥) أخرجه الطبري ١٧٩/١٤ - ١٨٠.

(٦) نسبه الواحدي في الوسيط ٥٨/٣ للكلبي.

وفي مصحف عبد الله: «وَمِنْكُمْ جَائِرٌ»، وكذا قرأ عليٌّ: «وَمِنْكُمْ» بالكاف^(١).

وقيل: المعنى: وعنهما جائر، أي: عن السبيل. فـ «مِنْ» بمعنى عن.

وقال ابن عباس: أي: مَنْ أراد الله أن يهديه سهلاً له طريقَ الإيمان، وَمَنْ أراد أن يضلّه ثَقُلَ عليه الإيمانَ وفروعه.

وقيل: معنى «قَصْدُ السبِيلِ»: مسيركم ورجوعكم.

والسبيل واحدة بمعنى الجمع، ولذلك أُنْثِ الكناية فقال: «ومنها»، والسبيل مؤنثة في لغة أهل الحجاز^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بَيَّنَّ أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية، ويردُّ على القَدَرِيَّةِ وَمَنْ وافقها؛ كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾

الشراب ما يُشْرَب، والشجر معروف. أي: يُنبت من الأمطار أشجاراً وعروشاً ونباتاً. ﴿تُسِيمُونَ﴾: ترعون إبلكم؛ يقال: سامت السائمة تسوم سَوْماً، أي: رعت، فهي سائمة. والسَّوَام والسائم بمعنى، وهو المال الراعي. وجمع السائم والسائمة: سوائم. وأسَمَّتها أنا، أي: أخرجتها إلى الرِّغْي، فأنا مُسِيم وهي مُسامة وسائمة. قال: أُولَى لَكَ ابْنُ مُسِيَمَةَ الْأَجْمَالِ^(٣)

(١) قراءة ابن مسعود أخرجهما عبد الرزاق في تفسيره ٣٥٤/٢، والطبري ١٧٩/١٤. وقراءة علي ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٧٢، والنحاس في معاني القرآن ٥٨/٤. وقال السيوطي في الدر المنثور ١١٢/٤: أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف عن علي أنه كان يقرأ هذه الآية: فمَنْكُمْ جائر.

(٢) ينظر معاني القرآن للأخفش ٦٠٥/٢.

(٣) قائله الأخطل، وهو في ديوانه ص ١٥٩، وصدّره: مثل ابن بزعة أو كآخر مثله. وتقدم ٥٢/٥.

وأصل السَّوْم: الإبعاد في المرعى^(١).

وقال الزجاج^(٢): أُخِذَ من السَّوْمَة، وهي العلامة، أي: إنها تؤثر في الأرض علامات برعيها، أو لأنها تُعَلَّم للإرسال في المرعى.

قلت: والخييل المسَّوْمَة تكون المرعيَّة. وتكون المُعَلَّمة. وقوله: «مُسَوِّمِينَ»؛ قال الأخفش: تكون مُعَلَّمِينَ، وتكون مُرْسَلِينَ؛ من قولك: سَوَّمت فيها الخيل، أي: أرسلها، ومنه السائمة، وإنما جاء بالياء والنون؛ لأن الخيل سُومت وعليها ركبائها^(٣).

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ لَكُمْ فِي الزَّرْعِ وَالزَّيْتُونِ وَالنَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ لَكُمْ فِي الزَّرْعِ وَالزَّيْتُونِ وَالنَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «ثَبِّتَ»؛ بالنون على التعظيم. العامة بالياء^(٤)؛ على معنى: يثبت الله لكم.

يقال: ثَبَّتَ الأرضُ وأَثَبَّتْ بمعنى، وَبَّتَ البَقْلُ وأَثَبَّتْ بمعنى. وأُشْدَ الفراء: رأيتُ ذوي الحاجاتِ حَوْلَ بيوتهم قَطِيناً [لهم] حتى إذا أَثَبَّتَ البَقْلُ^(٥) أي: نبت. وَأَثَبَّتَهُ اللهُ فهو منبوثٌ، على غير قياس. وَأَثَبَّتَ الغلامُ: ثَبَّتَ عانته. وَثَبَّتُ الشَّجَرَ: غرسته؛ يقال: ثَبَّتَ أَجْلَكَ بين عينيك. وَثَبَّتُ الصَّبِيَّ تنبيتاً: رَيَّيْتُهُ.

(١) ينظر تفسير الطبري ١٨١/١٤.

(٢) في معاني القرآن ١٩٢/٣.

(٣) الصحاح (سوم). وينظر معاني القرآن للأخفش ٤٢٠/١.

(٤) السبعة ص ٣٧٠، والتيسير ص ١٣٧.

(٥) البيت لزهير، وهو في شرح ديوانه ص ١١١، وما بين حاصرتين منه، ووقع في (م): بها. ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء. والقطين: أهل الرجل وحشمه، أو الساكن النازل في الدار. شرح ديوان زهير لثعلب ص ١١١.

وَالْمَنْبِثُ: موضع النبات؛ يقال: ما أحسن نابتة بني فلان، أي: ما تنبت عليه أموالهم وأولادهم. وَنَبَتَتْ لَهُمْ نَابِتَةٌ: إذا نشأ لهم نشء صغار. وَإِنَّ بَنِي فَلَانَ لَنَابِتَةٌ شَرٌّ. وَالنَّوَابِثُ مِنَ الْأَحْدَاثِ: الأغمار. وَالنَّبِيتُ: حيٌّ من اليمن. وَالْيَنْبُوثُ: شجر؛ كله عن الجوهري^(١).

﴿وَالزَّيْتُونُ﴾ جمع زيتونة. ويقال للشجرة نفسها: زيتونة، وللثمرة: زيتونة. وقد مضى في سورة الأنعام^(٢) حكمُ زكاة هذه الثمار، فلا معنى للإعادة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإنزالِ والإنباتِ ﴿لَايَةً﴾ أي: دلالة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: للسكون والأعمال؛ كما قال: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي﴾ أي: مُدَلَّلَاتٌ لمعرفة الأوقات، ونضج الثمار والزرع، والاهتداء بالنجوم في الظلمات.

وقرأ ابن عامر وأهل الشام: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بالرفع على الابتداء والخبر. الباقيون بالنصب عطفاً على ما قبله. وقرأ حفص عن عاصم برفع «والنجوم»، «مسخرات» خبره^(٣).

وَقُرئ: «والشمس والقمر والنجوم» بالنصب، «مسخرات» بالرفع^(٤)، وهو خبر ابتداء محذوف، أي: هي مسخرات. وهي في قراءة مَنْ نَصَبَهَا حَالٌ مؤكدة؛ كقوله:

(١) في الصحاح (نبت).

(٢) ص ٥٣ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) السبعة ص ٣٧٠ ، والتيسير ص ١٣٧ .

(٤) لم نقف على هذه القراءة.

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: عن الله ما نبههم عليه، ووفّقهم له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أي: وسخّر ما ذرأ في الأرض لكم.

«ذَرَأَ» أي: خَلَق. ذرأ الله الخلق، يذرؤهم ذرأً: خَلَقَهُمْ، فهو ذارئ؛ ومنه الذرّية، وهي نسل الثقلين، إلّا أنّ العرب تركت همزها، والجمع: الذراري^(١). يقال: أنمى الله ذرأك وذرؤك، أي: ذرّيتك^(٢). وأصل الذرؤ والذرء: التفريق عن جَمْع. وفي الحديث: ذرء النار^(٣)، أي: إنهم خُلِقُوا لها.

الثانية: ما ذرأه الله سبحانه؛ منه مسخّر مدلل كالدوابّ والأنعام والأشجار وغيرها، ومنه غير ذلك. والدليل عليه ما رواه مالك في الموطأ^(٤) عن كعب الأحبار قال: لولا كلمات أقولهنّ لجعلتني يهود حماراً. ف قيل له: وما هنّ؟ فقال: أعوذ بوجه الله العظيم الذي ليس شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلّها ما علمت منها وما لم أعلم، من شرّ ما خَلَقَ وبرّاً وذرأ.

(١) الصحاح (ذرأ).

(٢) تهذيب اللغة ٣/١٥.

(٣) أخرجه عبد بن حميد - كما في الدر المنثور ٣/١٤١ - عن ابن عباس موقوفاً، قال: (إن الله ضرب يمينه على منكب آدم، فخرج منه مثل اللؤلؤ في كفه، فقال: هذا للجنة، وضرب يده الأخرى على منكبه الشمال، فخرج منه سواد مثل الحمم فقال: هذا ذرء النار). وأورد أبو عبيد في غريب الحديث ٣/٣٢٨ أن عمر رضي الله عنه كتب إلى خالد بن الوليد... وإني أظنكم آل المغيرة ذرء النار.

(٤) ٩٥١/٢ - ٩٥٢.

وفيه عن يحيى بن سعيد أنه قال: أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فرأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار، الحديث، وفيه: وَشَرُّ مَا دَرَأَ فِي الْأَرْضِ^(١). وقد ذكرناه وما في معناه في غير هذا الموضع^(٢).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ «مختلفاً» نصبٌ على الجال. و«ألوانه»: هيئاته ومناظره، يعني الدوابَّ والشجرَ وغيرها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في اختلاف ألوانها. ﴿لَايَةً﴾ أي: لعبرة. ﴿لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ﴾ أي يتعظون ويعلمون أنَّ في تسخير هذه المكوّنات لعلامات على وحدانية الله تعالى، وأنه لا يقدرُ على ذلك أحدٌ غيره.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلَبَسُوهُمَا وَتَمَرُّ الْفُلُكُ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٣﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ تسخيرُ البحرِ هو تمكينُ البشرِ من التصرفِ فيه، وتذليله بالركوب والإرفاء^(٣) وغيره، وهذه نعمة من نِعَمِ اللَّهِ علينا، فلو شاء سلّطه علينا وأغرقنا. وقد مضى الكلام في البحر وفي صيده^(٤). وسَمَّاهُ هنا لَحْمًا.

واللحومُ عند مالك ثلاثة أجناس: فلهنّ ذواتُ الأربع جنسٌ، ولهنّ ذواتُ

(١) موطأ مالك ٢/ ٩٥٠ - ٩٥١، وأخرجه من طريقه النسائي في السنن الكبرى (١٠٧٢٦)، وابن عبد البر في التمهيد ١١٢/ ٢٤.

(٢) سيأتي عند تفسير الآية ٣٩ من سورة النمل.

(٣) قال في الصحاح (رفأ): أرفأت السفينة: قربتها من الشط، وذلك الموضع مُرفأ، وأرفأت إليه: لجأت.

(٤) ينظر ٢/ ٩٠ و ٨/ ٢٠٨.

الريش جنسٌ، ولحمُ ذواتِ الماء جنسٌ. فلا يجوز بيعُ الجنسِ من جنسه متفاضلاً، ويجوز بيعُ لحمِ البقر والوحش بلحم الطير والسّمك متفاضلاً، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسّمك يجوز متفاضلاً.

وقال أبو حنيفة: اللحوم كلها أصنافٌ مختلفة كأصولها؛ فلحمُ البقر صنفٌ، ولحمُ الغنم صنفٌ، ولحمُ الإبل صنفٌ، وكذلك الوحش مختلفٌ، وكذلك الطير، وكذلك السمك، وهو أحد قولي الشافعي. والقول الآخر: أنَّ الكلَّ من النّعم والصيد والطير والسمك جنسٌ واحد لا يجوز التفاضل فيه. والقول الأوّل هو المشهور من مذهبه عند أصحابه.

ودليلنا هو أنَّ الله تعالى فرّق بين أسماء الأنعام في حياتها فقال: ﴿ثُمَّ بَيِّنَ أَزْوَاجَهُمْ مِّنَ الْأُنثَىٰ أَتْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ أَثْنَيْنِ﴾ ثم قال: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أَثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤]، فلمّا أن أُمّ^(١) الجميع إلى اللحم قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: ١] فجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها، كتقارب لحم الضأن والمعز. وقال في موضع آخر: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١]، وهذا جمْعُ طائر الذي هو الواحد، لقوله تعالى: ﴿وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فجمع لحم الطير كلّ باسم واحد، وقال هنا: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فجمع أصناف السمك بذكر واحد، فكان صِغَارُهُ كِكِبَارِهِ في الجمع بينهما.

وقد روي عن ابن عمر أنه سُئل عن لحم المَعز بلحم الكباش: شيءٌ واحد؟ فقال: لا^(٢). ولا مخالف له، فصار كالإجماع، والله أعلم.

ولا حجة للمخالف في نهيه ﷺ عن بيع الطعام إلّا مثلاً بمثل؛ فإنَّ الطعام في الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات، ولا يتناول اللحم؛ ألا ترى أنَّ

(١) أي قصد.

(٢) لم نقف عليه.

القائل إذا قال: أكلت اليوم طعاماً؛ لم يَسِيقِ الفهمُ منه إلى أكلِ اللحم، وأيضاً فإنه مُعارض بقوله ﷻ: «إِذَا اخْتَلَفَ الْجِنْسَانِ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ»^(١) وهذان جنسان، وأيضاً فقد اتفقنا على جواز بيع اللحم^(٢) بلحم الطير متفاضلاً، لا لعلّة^(٣) أنه يَبِيعُ طعام لا زكاة له يَبِيعُ بلحم ليس فيه الزكاة، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلاً^(٤).

الثانية: وأما الجرادُ فالمشهور عندنا جواز بيع بعضه ببعض متفاضلاً. وذكر عن سُخْنُون أنه يَمْنَعُ من ذلك، وإليه مال بعض المتأخرين ورآه مما يدّخر^(٥).

الثالثة: اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحماً؛ فقال ابن القاسم: يحنث بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة. وقال أشهب في المجموعة: لا يحنث إلا بأكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره، مراعاةً للعرف والعادة، وتقديماً لها على إطلاق اللفظ اللغوي^(٦)، وهو أحسن.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً حَلِيبَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني به اللؤلؤ والمرجان؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]^(٧).

وإخراج الحلية إنما هي فيما عرف من المِلْح فقط. ويقال: إنَّ في الزمرد بحرياً.

(١) أخرجه الربيع في مسنده ص ١٥٣ عن ابن عباس مرفوعاً، وتامه: «إلا ما نهيتكم عنه». وأورده ابن عبد البر في التمهيد ١٩/ ١٨٢. وأورده الآمدي في الأحكام ٣/ ٢٢٩ بلفظ: «البر بالبر» إلى قوله: «فإذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم يبدأ بيد». وأخرج نحوه أحمد (٢٢٧٢٧)، ومسلم (١٥٨٧) (٨١) من حديث عبادة بن الصامت ولفظه: «الذهب بالذهب... فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يبدأ بيد».

(٢) في (ظ): اللبن، بدل: بيع اللحم.

(٣) لفظة: لا، من (د). ووقع في (ظ): لعله فيه.

(٤) ينظر المتقى ٥/ ٢٦ - ٢٨، والاستذكار ٢٠/ ١١٢ - ١١٤.

(٥) ينظر المتقى ٥/ ٢٦.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٥.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٦.

وقد خُطِّيَ الْهُذَلِيُّ فِي قَوْلِهِ فِي وَصْفِ الدَّرَّةِ:

فَجَاءَ بِهَا مِنْ دُرَّةٍ لَطْمِيَّةٍ عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفِرَاتِ يَدُومُ
فَجَعَلَهَا مِنَ الْمَاءِ الْحَلْوِ^(١).

فَالْحَلِيَّةُ حَقٌّ، وَهِيَ نَخْلَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِآدَمَ وَوَلَدِهِ. خُلِقَ آدَمُ وَتَوَجَّ وَكُلَّلَ بِأَكْلِيلِ
الْجَنَّةِ، وَخُتِمَ بِالْخَاتَمِ الَّذِي وَرَثَهُ عَنْهُ سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ يُقَالُ
لَهُ: خَاتَمُ الْعِزِّ، فِيمَا رَوَى.

الخامسة: اَمْتَنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ اَمْتِنَانًا عَامًّا بِمَا يَخْرُجُ مِنَ
الْبَحْرِ، فَلَا يَحْرَمُ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْهُ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الرِّجَالِ الذَّهَبَ
وَالْحَرِيرَ^(٢).

رَوَى الصَّحِيحُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَلْبَسُوا
الْحَرِيرَ، فَإِنَّهُ مَنْ لَبَسَهُ فِي الدُّنْيَا؛ لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»^(٣). وَسَيَأْتِي فِي سُورَةِ الْحَجِّ
الْكَلَامُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(٤).

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، وَجَعَلَ
فَصَّهُ مِمَّا يَلِي بَاطِنَ كَفِّهِ، وَنَقَشَ فِيهِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ؛ فَاتَّخَذَ النَّاسُ مِثْلَهُ، فَلَمَّا رَأَوْهُمُ

(١) المحرر الوجيز ٣/٣٨٣. وما قبله منه، والبيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ص ٥٧،
ولفظه:

فَجَاءَ بِهَا مَا شَتَّتْ مِنْ لَطْمِيَّةٍ يَدُومُ الْفِرَاتِ فَرَقَهَا وَيَمُوجُ
وَكَذَلِكَ ذَكَرَهُ صَاحِبُ اللِّسَانِ (فَرْت) وَقَالَ: لَيْسَ هُنَالِكَ فِرَاتٌ؛ لِأَنَّ الدَّرَّ لَا يَكُونُ فِي الْمَاءِ الْعَذْبِ،
وَإِنَّمَا يَكُونُ فِي الْبَحْرِ. قَالَ فِي تَاجِ الْعُرُوسِ (لَطْمٌ): دُرَّةٌ لَطْمِيَّةٌ: مَنْسُوبَةٌ إِلَى اللَّطَائِمِ؛ وَهِيَ الْأَسْوَاقُ
الَّتِي تَبَاعُ فِيهَا الْعَطَرِيَّاتُ، وَقَدْ سَتَلَ الْأَصْمَعِيُّ: هَلْ تَكُونُ الدَّرَّةُ فِي سَوَاقِ الْمَسْكِ؟ فَقَالَ: تَحْمِلُ مَعَهُمْ
فِي عَيْرِهِمْ. وَقِيلَ: لَطْمِيَّةٌ: فِي عَيْرِ لَطْمِيَّةٍ. وَقِيلَ: لَطْمِيَّةٌ: نَسَبْتُهَا إِلَى التَّطَامِ الْبَحْرِ عَلَيْهَا بِأَمْوَاجِهَا.

(٢) يَنْظُرُ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٣/١١٣٦.

(٣) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٥٨٣٠)، وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ (٢٠٦٩) (١١) وَاللَّفْظُ لَهُ. وَهُوَ فِي مُسْتَدْرَكِ أَحْمَدَ (٩٢) بِنَحْوِهِ.

(٤) عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ ٢٣ مِنْهَا.

قَدْ اتَّخَذُوهَا رَمَى بِهِ، وَقَالَ: «لَا أَلْبِسُهُ أَبَدًا». ثُمَّ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ الْفِضَّةِ. قَالَ ابْنُ عَمْرٍ: فَلَيْسَ الْخَاتَمَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عَثْمَانُ، حَتَّى وَقَعَ مِنْ عَثْمَانَ فِي بَثْرِ أَرِيْسَ^(١). قَالَ أَبُو دَاوُدَ^(٢): لَمْ يَخْتَلِفِ النَّاسُ عَلَى عَثْمَانَ حَتَّى سَقَطَ الْخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ.

وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ التَّخْتُمِ بِالْوَرِقِ عَلَى الْجُمْلَةِ لِلرِّجَالِ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ^(٣): وَكُرِهَ لِلنِّسَاءِ التَّخْتُمُ بِالْفِضَّةِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ زِيِّ الرِّجَالِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْنَ ذَهَبًا فَلْيَصْفُرْنَ بِزَعْفَرَانٍ أَوْ بِشَبْهِهِ.

وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ عَلَى تَحْرِيمِ اتِّخَاذِ الرِّجَالِ خَاتَمَ الذَّهَبِ؛ إِلَّا مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ^(٤) وَخَبَّابٍ، وَهُوَ خِلَافٌ شَاذٌ، وَكُلُُّ مِنْهُمَا لَمْ يَبْلُغْهُمَا النَّهْيُ وَالنَّسْخُ^(٥). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا مَا رَوَاهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّهُ رَأَى فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاتَمًا مِنْ وَرَقٍ يَوْمًا وَاحِدًا، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اصْطَنَعُوا الْخَوَاتِمَ مِنْ وَرَقٍ وَلَيْسُوهَا، فَطَرَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَاتَمَهُ، فَطَرَحَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ - أَخْرَجَهُ الصَّحِيحَانِ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ^(٦) - فَهُوَ عِنْدَ

(١) صحيح البخاري (٥٨٦٦). وأخرجه أيضاً أحمد (٦٣٣١)، ومسلم (٢٠٩١).

(٢) في سننه عقب الحديث (٤٢١٨).

(٣) في معالم السنن ١٩٠/٤، ونقله المصنف عنه بواسطة المفهم ٤١١/٥.

(٤) كذا نقل المصنف عن أبي العباس القرطبي في المفهم ٤٠٨/٥، والكلام للقاضي عياض في إكمال المعلم ٦٠٣/٦، وفيه: أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وكذلك أورده من قبله ابن عبد البر في التمهيد ١٠٩/١٧؛ قال: وقد روي عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه كان يتختم بالذهب. قال: وهذا - إن صح عنه أو عن غيره - فلا معنى له لشذوذه... وجائز أن لا يبلغه الخبر بالنهي عن ذلك.

(٥) ينظر المفهم ٤٠٨/٥. وأخرج أحمد (٤٠٢٥)، والبخاري (٤٣٩١) الحديث عن خباب مطولاً، وفيه: ثم التفت (أي: ابن مسعود) إلى خباب وعليه خاتم من ذهب فقال: ألم يأن لهذا الخاتم أن يلقي؟ قال: أما إنك لن تراه عليّ بعد اليوم، فألقاه. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٠١/٨: ولعل خباباً كان يعتقد أن النهي عن لبس الرجال خاتم الذهب للتنزيه، فنبهه ابن مسعود على تحريمه، فرجع إليه مسرعاً.

(٦) صحيح البخاري (٥٨٦٨)، ومسلم (٢٠٩٣) (٦٠). وهو في مسند أحمد (١٢٦٣١).

العلماء وَهَمَّ من ابن شهاب؛ لَأَنَّ الذي نَبَذَ رسولُ الله ﷺ إنما هو خاتم الذهب. رواه عبد العزيز بن صُهَيْب وثابت وقتادة عن أنس، وهو خلاف ما رَوَى ابنُ شهاب عن أنس، فوجب القضاء بالجماعة على الواحد إذا خالفها، مع ما يشهد للجماعة من حديث ابن عمر^(١).

السادسة: إذا ثَبَتَ جوازُ التَّخْتُمِ للرجال بخاتم الفضة والتحلي به، فقد كره ابنُ سيرين وغيره من العلماء نَقْشَهُ، وأن يكون فيه ذِكْرُ الله. وأجاز نَقْشَهُ جماعة من العلماء^(٢).

ثم إذا نَقَشَ عليه اسمُ الله أو كلمة حِكْمَةٍ أو كلماتٍ من القرآن، وجعله في شماله، فهل يدخل به الخلاء ويستنجي بشماله؟ خَفَّفَهُ سعيدُ بن المُسَيَّب ومالك^(٣).

قيل لمالك: إن كان في الخاتم ذِكْرُ الله، ويلبسه في الشمال، أيسْتَجِجِي به؟ قال: أرجو أن يكون خفيفاً^(٤). ورُوي عنه الكراهة، وهو الأولى^(٥). وعلى المنع من ذلك أكثر أصحابه.

وقد رَوَى هَمَّام، عن ابن جُرَيْج، عن الزُّهري، عن أنس قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا دَخَلَ الخلاءَ وَضَعَ خَاتَمَهُ^(٦). قال أبو داود: هذا حديث منكر، وإنما يُعرف عن ابن جُرَيْج، عن زياد بن سعد، عن الزُّهري، عن أنس: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ وَرَقٍ، ثُمَّ أَلْقَاهُ. قال أبو داود: لم يحدث بهذا إِلَّا هَمَّام^(٧).

(١) ينظر الاستذكار ٢٦/٣٥٤، والمفهم ٥/٤١٢ - ٤١٣.

(٢) ينظر الاستذكار ٢٦/٣٦٠.

(٣) المفهم ٥/٤١١.

(٤) الاستذكار ٢٦/٣٦٠.

(٥) المفهم ٥/٤١١.

(٦) أخرجه أبو داود (١٩)، والترمذي (١٧٤٦)، والنسائي في المجتبى ٧/١٧٨، وفي الكبرى (٩٤٧٠)، وابن ماجه (٣٠٣). قال الترمذي: حديث حسن غريب. وقال النسائي: هذا الحديث غير محفوظ.

(٧) سنن أبي داود عقب الحديث (١٩). وينظر تلخيص الحبير ١/١٠٧ - ١٠٨.

السابعة: رَوَى البخاري عن أنس بن مالك: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِصَّةٍ، وَنَقَشَ فِيهِ: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، وَقَالَ: «إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ وَرَقٍ، وَنَقَشْتُ فِيهِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَلَا يَنْقُشَنَّ أَحَدٌ عَلَى نَقْشِهِ»^(١).

قال علماؤنا: فهذا دليلٌ على جوازِ نَقْشِ اسمِ صاحبِ الخاتمِ على خاتمه^(٢).

قال مالك: ومن شأن الخلفاء والقضاة نقشُ أسمائهم على خواتيمهم، ونهيه عليه الصلاة والسلام: لا ينقشَنَّ أحدٌ على نقشِ خاتمه؛ من أجل أنَّ ذلك اسمُهُ وصِفَتُهُ برسالةِ الله له إلى خلقه.

وَرَوَى أَهْلُ الشَّامِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ اتِّخَاذُ الْخَاتَمِ لِغَيْرِ ذِي سُلْطَانٍ^(٣). وروى في ذلك حديثاً عن أبي ریحانة^(٤)، وهو حديثٌ لا حجةَ فيه لضعفه. وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ينقشَنَّ أحدٌ على نقشه» يردُّه، ويدلُّ على جوازِ اتِّخَاذِ الْخَاتَمِ لِجَمِيعِ النَّاسِ؛ إِذَا لَمْ يُنْقَشْ عَلَى نَقْشِ خَاتَمِهِ.

وكان نقش خاتم الزُّهري: «مُحَمَّدٌ يَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ». وكان نقش خاتم مالك: «حَسْبِيَ اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ»^(٥). وذكر الترمذيُّ الحَكِيمُ في نوادر الأُصول أنَّ نَقْشَ خَاتَمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ»^(٦) وقد مضى في الرعد^(٧).

وبلغَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّ ابْنَهُ اشْتَرَى خَاتَمًا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّهُ بَلَّغَنِي

(١) صحيح البخاري (٥٨٧٧). وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٠٩١)، ومسلم (٢٠٩٢).

(٢) المفهم ٤١١/٥.

(٣) ينظر الاستذكار ٣٥٨/٢٦.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٢١١)، وأبو داود (٤٠٤٩)، والنسائي في المجتبى ١٤٣/٨ - ١٤٤ وفي الكبرى (٩٣١٣). ولفظه عند أحمد: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الْخَاتَمِ إِلَّا لَذِي سُلْطَانٍ.

(٥) ذكرهما ابن رجب في كتاب أحكام الخواتيم ص ٧٥.

(٦) لم نقف عليه في مطبوع نوادر الأُصول. وذكره ابن رجب في كتاب أحكام الخواتيم ص ٦٦.

(٧) ص ٨٧ من هذا الجزء.

أَنْكَ اشْتَرَيْتْ خَاتَمًا بِأَلْفِ دَرَاهِمٍ، فَبِعَهُ وَأَطْعَمَ مِنْهُ أَلْفَ جَائِعٍ، وَاشْتَرَى خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ بِدَرَاهِمٍ، وَكَتَبَ عَلَيْهِ: رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ^(١).

الثامنة: مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَلْبَسَ حُلِيًّا، فَلْيَسْ لَوْلَا؛ لَمْ يَحْنَثْ؛ وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ. قَالَ ابْنُ خُوَيْزِمَةَ: لِأَنَّ هَذَا وَإِنْ كَانَ الْأَسْمُ اللَّغَوِيُّ يَتَنَاوَلُهُ فَلَمْ يَقْصِدْهُ بِالْيَمِينِ، وَالْإِيمَانِ تُخَصُّ بِالْعَرَفِ، أَلَّا تَرَى أَنَّهُ لَوْ حَلَفَ أَلَّا يَنَامَ عَلَى فَرَّاشٍ، فَنَامَ عَلَى الْأَرْضِ؛ لَمْ يَحْنَثْ، وَكَذَلِكَ لَا يَسْتَضِيءُ بِسَرَّاجٍ، فَجَلَسَ فِي الشَّمْسِ؛ لَا يَحْنَثْ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ سَمَّى الْأَرْضَ فَرَّاشًا، وَالشَّمْسَ سَرَّاجًا.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو يُونُسَ وَمُحَمَّدٌ: مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَلْبَسَ حُلِيًّا، وَلَبَسَ اللَّوْلُو، فَإِنَّهُ يَحْنَثُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وَالَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ: اللَّوْلُو وَالْمَرْجَانُ^(٢).

التاسعة: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَآخِرَ فِيهِ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْفُلْكِ وَرُكُوبِ الْبَحْرِ فِي «الْبَقَرَةِ»^(٣) وَغَيْرِهَا.

وَقَوْلُهُ: «مَوَآخِرَ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَوَارِي^(٤)، مِنْ جَرَتْ تَجْرِي. سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مُعْتَرِضَةٌ. الْحَسَنُ: مَوَاقِرُ^(٥). قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: أَيُّ: تَذْهَبُ وَتَجِيءُ، مُقْبِلَةٌ وَمُدْبِرَةٌ بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ^(٦). وَقِيلَ: «مَوَآخِرَ»: مَلْجِجَةٌ فِي دَاخِلِ الْبَحْرِ؛ وَأَصْلُ الْمَخْرِ: شَقُّ الْمَاءِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي حَلِيَّةِ الْأَوْلِيَاءِ ٣٠٦/٥. وَأَوْرَدَهُ الْمَنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ ٢٩/٤.

(٢) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ١١٣٦/٣.

(٣) ٩٠/٢ وَ ٤٩٤.

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١٢٤٨٥).

(٥) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ ١٨٦/١٤. وَذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ ٤٣٥/٤ وَقَالَ: يَعْنِي الْمَمْلُوءَةَ.

(٦) أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ٣٥٤/٢، وَالتَّبْرِيُّ ١٨٨/١٤ قَوْلَ قَتَادَةَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١٢٤٨٨) قَوْلَ

الضَّحَّاكِ، وَذَكَرَهُ النَّحَّاسُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ ٥٩/٤.

مَخَرَّتِ السَّفِينَةُ تَمَخَّرُ وَتَمَخَّرُ مَخْرًا وَمُخَوْرًا: إِذَا جَرَتْ تَشَقُّ الْمَاءَ مَعَ صَوْتٍ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكِيَ الْفُلَّكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ يَعْنِي جَوَارِي؛ قَالَهُ الْجَوْهَرِيُّ^(١). وَمَخَّرَ السَّابِغُ: إِذَا شَقَّ الْمَاءَ بِصَدْرِهِ، وَمَخَّرَ الْأَرْضَ: شَقَّهَا لِلزَّرْعَةِ، وَمَخَّرَهَا بِالْمَاءِ: إِذَا حَبَسَ الْمَاءَ فِيهَا حَتَّى تَصِيرَ أَرِيضَةً، أَيْ: خَلِيقَةً بِجُودَةِ نَبَاتِ الزَّرْعِ.

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ^(٢): الْمَخْرُ فِي اللُّغَةِ: صَوْتُ هَبُوبِ الرِّيحِ. وَلَمْ يَقَيِّدْ كَوْنَهُ فِي مَاءٍ. وَقَالَ: إِنَّ مِنْ ذَلِكَ قَوْلَ وَاصِلِ مَوْلَى أَبِي عُيَيْنَةَ: إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ الْبَوْلَ فَلْيَتَمَخَّرِ الرِّيحَ^(٣)، أَيْ: لِيَنْظُرَ فِي صَوْتِهَا فِي الْأَجْسَامِ مِنْ أَيْنَ تَهُبُّ، فَيَتَجَنَّبَ اسْتِقْبَالَهَا؛ لِثَلَا تَرَدُّ عَلَيْهِ بَوْلُهُ.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيْ: وَلِتَرْكَبُوهُ لِلتِّجَارَةِ وَطَلَبِ الرِّيحِ. ﴿وَلَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تَقْدِمُ جَمِيعُ هَذَا فِي «الْبَقَرَةِ»^(٤)، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَوَّسُوا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَوَّسُوا﴾ أَيْ: جِبَالًا ثَابِتَةً. رَسَا يَرَسُو: إِذَا ثَبَتَ وَأَقَامَ. قَالَ:

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لَذَلِكَ حُرَّةً تَرَسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطْلُعُ^(٥) ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أَيْ: لِثَلَا تَمِيدَ؛ عِنْدَ الْكُوفِيِّينَ. وَكَرَاهِيَةُ أَنْ تَمِيدَ؛ عَلَى قَوْلِ الْبَصْرِيِّينَ. وَالْمِيدُ: الْاضْطِرَابُ يَمِينًا وَشِمَالًا^(٦)؛ مَا دَ الشَّيْءُ، يَمِيدُ مِيدًا: إِذَا تَحَرَّكَ؛

(١) فِي الصَّحَاحِ (مَخْر).

(٢) فِي تَفْسِيرِهِ ١٨٨/١٤ .

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ ١٩٣/٢ . وَيَنْظُرُ تَلْخِصُ الْحَبِيرِ ١٠٧/١ .

(٤) ٤٩٤/٢ .

(٥) قَائِلُهُ عَتْرَةٌ، وَهُوَ فِي دِيْوَانِهِ ص ٤٩ . وَتَقْدَمُ ٦٥/٢ .

(٦) تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٧/٢٠ ، وَيَنْظُرُ إِعْرَابُ الْقُرْآنِ لِلْنَّحَاسِ ٣٩٣/٢ .

ومادتِ الأغصانُ: تمايلت، ومادَ الرجلُ: تبختر^(١).

قال وهب بن مُنبه: خلق الله الأرضَ فجعلت تميد وتمور، فقالت الملائكة: إنَّ هذه غير مُقرَّةٍ أحداً على ظهرها. فأصبحت وقد أُرسيَّت بالجبال، ولم تدرِ الملائكةُ ممَّ خلقت الجبال^(٢).

وقال عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام: لَمَّا خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ قَمَصَتْ ومالت، وقالت: أيُّ رَبٍّ، أتجعل عليَّ مَنْ يعمل بالمعاصي والخطايا، ويُلقِي عليَّ الجِفِّ والتَّنَّ! فأرْسَى اللهُ تعالى فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون^(٣).

ورَوَى الترمذيُّ في آخر كتاب التفسير: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَارٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا الْعَوَّامُ بْنُ حَوْشَبٍ، عَنْ سَلِيمَانَ بْنِ أَبِي سَلِيمَانَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ، فَخَلَقَ الْجِبَالَ، فَعَادَ بِهَا عَلَيْهَا، فَاسْتَقَرَّتْ، فَعَجِبَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ شِدَّةِ الْجِبَالِ؛ قَالُوا: يَا رَبُّ هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْ الْحَدِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الْحَدِيدُ. قَالُوا: يَا رَبُّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْ الْحَدِيدِ؟ قَالَ: نَعَمْ، النَّارُ. فَقَالُوا: يَا رَبُّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الْمَاءُ. قَالُوا: يَا رَبُّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الْمَاءِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الرِّيحُ. قَالُوا: يَا رَبُّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ؟ قَالَ: نَعَمْ، ابْنُ آدَمَ؛ تَصَدَّقْ بِصَدَقَةٍ يَمِينِهِ يُخْفِيهَا مِنْ شِمَالِهِ». قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مَرْفُوعاً إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ^(٤).

قلت: وفي هذه الآية أدلُّ دليلٍ على استعمال الأسباب، وقد كان قادراً على

(١) الصحاح (ميد).

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٦٤/٣. وأخرج نحوه عبد الرزاق في تفسيره ٣٥٤/٢، والطبري ١٤/١٩٠ عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨٩/١٤ - ١٩٠، وأبو الشيخ في العظمة (٩٠٦). وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري ٣٨٥/٨. وقوله: قمصت؛ نفرت. النهاية (قمص). وفي العظمة: نطقت بدل: قمصت.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٦٩). وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٢٥٣)، وإسناده ضعيف.

سكونها دون الجبال. وقد تقدّم هذا المعنى^(١).

﴿وَأَنْتَرَا﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً، أو: ألقى فيها أنهاراً. ﴿وَسُبُلَا﴾ أي: طرقاً ومسالك.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى حيث تقصّدون من البلاد، فلا تضلّون ولا تتحيّرون^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ رِيَالَتَجِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١١﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُمُ﴾ قال ابن عباس: العلامات: معالم الطرق بالنهار، أي: جعل للطرق علامات يقع الاهتداء بها. ﴿وَيَا تَجِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني بالليل، والنجم يراد به النجوم^(٣).

وقرأ ابنُ وثّاب: «وَيَا النُّجُم». الحسن: بضم النون والعجم جميعاً^(٤)، ومراده النجوم، فقصره؛ كما قال الشاعر:

إِنَّ الْفَقِيرَ بَيْنَنَا قَاضٍ حَكْمُ أَنْ تَرِدَ الْمَاءَ إِذَا غَابَ النُّجْمُ
وكذلك القول لمن قرأ: «النُّجْم»؛ إلّا أنه سَكَنَ استخفافاً. ويجوز أن يكون النُّجْم جمع نَجْم، كسُفِّ وسُفِّ^(٥).

واختلف في النجوم؛ فقال الفراء^(٦): الجُذْي والفرقدان.

(١) ٢٩٠/٥.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤/١٩١ - ١٩٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/١٩٢.

(٤) ذكر ابن خالويه ص ٧٢ قراءة الحسن. وذكر ابن جني في المحتسب ٨/٢ القراءتين.

(٥) ينظر المحتسب ٨/٢. وفيه الرجز دون نسبة.

(٦) في معاني القرآن ٢/٩٨.

وقيل: الثريا؛ قال الشاعر:

حتى إذا ما استقلَّ النَّجْمُ في غَلَسٍ وَغُودِرَ البَقْلُ مَلُويٍّ ومَحْصُودٌ^(١)

أي: منه ملويٌّ، ومنه محصود، وذلك عند طلوع الثريا يكون.

وقال الكلبيُّ: العلامات: الجبال. وقال مجاهد: هي النجوم؛ لأن من النجوم ما

يُهْتَدَى بها، ومنها ما يكون علامة لا يُهْتَدَى بها؛ وقاله قتادة والنخعي^(٢).

وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿وَعَلَّمَكُنَّ﴾، ثم ابتدأ وقال: ﴿وَيَا لَنَجْمٍ هُمُ

يَهْتَدُونَ﴾^(٣). وعلى الأوّل: أي: وجعل لكم علاماتٍ ونجوماً تهتدون بها. ومن

العلامات الرياح يهتدى بها.

وفي المراد بإلهتداء قولان: أحدهما: في الأسفار، وهذا قول الجمهور.

الثاني: في القبلة. وقال ابن عباس: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَيَا لَنَجْمٍ

هُمُ يَهْتَدُونَ﴾ قال: «هو الجذّيُّ يا ابنَ عباس، عليه قبلكم، وبه تهتدون في برّكم

وبحرّكم» ذكره الماوردي^(٥).

الثانية: قال ابن العربي^(٦): أمّا جميع النجوم فلا يهتدي بها إلا العارف بمطالعها

ومغاريبها، والمفرّق^(٧) بين الجنوبي والشمالي منها، وذلك قليل في الآخرين. وأما

(١) قائله ذو الرمة، وهو في شرح ديوانه ١٣٦٦/٢. وفيه: وأحصد البقل أو مُلُويٍّ ومحْصود قال شارحه أبو

نصر: استقل النجم: أي طلع بعد النور عند الصبح.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٩٢/١٤ - ١٩٣. وينظر زاد المسير ٤٣٦/٤.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٦٤/٣.

(٤) في (ظ): قال ابن. وانظر التعليق التالي.

(٥) في النكت والعيون ١٨٢/٣ - ١٨٣. وحديث ابن عباس ذكره الديلمي في مسند الفردوس (٢٦٤٧).

وذكره أبو حيان في البحر ٤٨١/٥ إلى قوله: «الجدي» وقال: ولو صح هذا لم يعدل أحد عنه. اهـ.

وجعل آخر الحديث موقوفاً على ابن عباس، وهو الموافق لـ (ظ).

(٦) في أحكام القرآن ١١٣٧/٣.

(٧) في النسخ: والفرق. والمثبت من أحكام القرآن.

الثَّريَّا فلا يَهْتدي بها إِلَّا مَنْ يَهْتدي بجميع النجوم. وإنما الهُدي لكلُّ أحدٍ بالجُدي والفرَّقين؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع، الظاهرة السَّمْتُ، الثابتة في المكان، فإنها تدور على القطب الثابت دوراناً مُحَصَّلاً، فهي أبداً هُدي الخلق في البرِّ إذا عميتِ الطرُق، وفي البحر عند مَجَرى السفن، وفي القِبلة إذا جُهل السَّمْتُ، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظَهر منكبك الأيسر، فما استقبلت فهو سَمْتُ الجهة.

قلت: وسأل ابنُ عباس رسولَ الله ﷺ عن النجم فقال: «هو الجُدي، عليه قبلتكم، وبه تهتدون في برِّكم وبحركم». وذلك أنَّ آخرَ الجدي بناتٌ نَعش الصغرى والقطب الذي تستوي عليه القبلة بينها.

الثالثة: قال علماؤنا: وحكم استقبال القبلة على وجهين:

أحدهما: أن يراها ويعاينها، فيلزمه استقبالها وإصابتها وقصدُ جهتها بجميع بدنه. والآخر: أن تكون الكعبة بحيث لا يراها، فيلزمه التوجُّه نحوها وتلقاها بالدلائل؛ وهي الشمس والقمر والنجوم والرياح، وكلُّ ما يمكن به بمعرفة جهتها. ومَن غابت عنه، وصلى مجتهداً إلى غير ناحيتها، وهو ممن يمكنه الاجتهاد؛ فلا صلاة له. فإذا صلى مجتهداً مستديلاً، ثم انكشف له بعد الفراغ من صلاته أنه صلى إلى غير القبلة، أعاد إن كان في وقتها، وليس ذلك بواجب عليه؛ لأنه قد أدَّى فرضه على ما أمر به^(١). وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»^(٢) مستوفى، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٧)

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ هو الله تعالى ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ يريد الأصنام. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع، كما يُخبر عمَّن يعقل على

(١) الكافي لابن عبد البر ١/ ١٩٨، وينظر التمهيد ١٧/ ٥٤.

(٢) ٤٤٣/ ٢.

ما تستعمله العرب في ذلك؛ فإنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ «مَنْ»، كقوله: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلٌ﴾ [الأعراف: ١٩٥] وقيل: لاقتران الضمير في الذكر بالخالق.

قال الفراء: هو كقول العرب: اشتبه عليّ الراكبُ وجمله، فلا أدري مَنْ ذا وَمَنْ ذا؛ وإن كان أحدهما غير إنسان^(١).

قال المَهْدَوِيُّ: ويُسأل بـ «مَنْ» عن البارئ تعالى، ولا يُسأل عنه بـ «ما»؛ لأن «ما» إنما يُسأل بها عن الأجناس، والله تعالى ليس بذي جنس، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ [طه: ٤٩]، ولم يُجب حين قال له: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] إلا بجواب «مَنْ»، وأضرب عن جواب «ما» حين كان السؤال فاسداً. ومعنى الآية: مَنْ كان قادراً على خَلْقِ الأشياءِ المتقدمة الذكر، كان بالعبادة أحقَّ مِمَّنْ هو مخلوق لا يضرُّ ولا ينفع؛ ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١] ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ تقدم في إبراهيم^(٢). ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ أي: ما تُبطنونه وما تظهرونه. وقد تقدّم جميع هذا مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قراءة العامة: «تدعون» بالتاء؛ لأن ما قبله خطاب. رَوَى أبو بكر عن عاصم وهُبيرة عن حفص: «يدعون» بالياء، وهي

(١) معاني القرآن للفراء ٩٨/٢. وقع في مطبوعه: وحمله، وهو خطأ.

(٢) ص ١٤٥ من هذا الجزء.

قراءة يعقوب^(١). فأما قوله: ﴿مَا تُسْرُوتُ وَمَا تَعْلُنُوتُ﴾ فكلهم بالتاء على الخطاب؛ إلا ما رَوَى هُبَيْرَةُ، عن حفص، عن عاصم أنه قرأ بالياء^(٢).

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدرُونَ على خلق شيء ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَمْيَاتٍ﴾ أي: هم أموات؛ يعني الأصنام، لا أرواح فيها، ولا تسمع، ولا تبصر، أي: هي جمادات، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة؟! ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني الأصنام ﴿إِيَّانَ يَبْعَثُونَ﴾.

وقرأ السُّلَمِيُّ: «إِيَّان» بكسر الهمزة^(٣)، وهما لغتان، وموضعه نصب بـ «يبعثون» وهي في معنى الاستفهام؛ والمعنى: لا يدرون متى يبعثون. وعَبَّرَ عنها كما عَبَّرَ عن الآدميين؛ لأنهم زعموا أنها تَعْقِلُ عنهم وتَعْلَمُ وتَشْفَعُ لهم عند الله تعالى، فَجَرَى خطابهم على ذلك.

وقد قيل: إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الأصنامَ يوم القيامة ولها أرواح، فتتبرأ من عبادتهم، وهي في الدنيا جماد لا تَعْلَمُ متى تُبْعَثُ.

قال ابن عباس: تُبْعَثُ الأصنامُ، وتُرَكَّبُ فيها الأرواحُ ومعها شياطينها، فيتبرؤون من عِبَادَتِهِمْ^(٤)، ثم يُؤْمَرُ بالشياطين والمشرِكين إلى النار^(٥).

وقيل: إِنَّ الأصنامَ تُطْرَحُ في النار مع عِبَادَتِهَا يوم القيامة؛ دليله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقيل: تَمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ثم ابتداءً فوصف المشرِكين بأنهم أموات، وهذا الموت موت كفر. «وما يشعرون إيان يبعثون» أي: وما

(١) لا خلاف عن عاصم بقراءتها بالياء. ينظر السبعة ص ٣٧١، والتيسير ص ١٣٧، والنشر ٢/ ٣٠٣.

(٢) السبعة ص ٣٧١، والقراءة المتواترة عن عاصم بالتاء، كالجماعة.

(٣) القراءات الشاذة ص ٧٢، والمحتسب ٩/ ٩.

(٤) في (م): عبادتها.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٣٧ - ٤٣٨.

يدري الكفار متى يبعثون، أي: وقت البعث؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدوا للقاء الله. وقيل: أي: وما يُدريهم متى الساعة، ولعلها تكون قريباً.

قوله تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ لا جرمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لَمَّا بَيَّنَّ استحالة الإشراف بالله تعالى، بَيَّنَّ أَنَّ المعبودَ واحدٌ لا ربَّ غيره، ولا معبودَ سواه. ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ أي: لا تقبل الوعظ، ولا ينجع فيها الذكر، وهذا ردُّ على القدرية. ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: متكبرون متعظمون عن قبول الحق. وقد تقدَّم في «البقرة»^(١) معنى الاستكبار.

﴿لَا جَرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: من القول والعمل فيجازيهم.

قال الخليل: «لا جرم» كلمة تحقيق، ولا تكون إلا جواباً؛ يقال: فعلوا ذلك؛ فيقال: لا جرمَ سيندمون. أي: حقاً أَنْ لَهُم النار^(٢). وقد مضى القول في هذا في «هود»^(٣) مستوفى.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي: لا يُثيبهم ولا يثني عليهم.

وعن الحسين بن عليٍّ أنه مرَّ بمساكين قد قدَّموا كِسْراً بينهم^(٤) وهم يأكلون، فقالوا: الغداء يا أبا عبد الله، فتزل وجلس معهم، وقال: «إنه لا يحبُّ المستكبرين» فلما فرغ قال: قد أجبتكم، فأجيبوني، فقاموا معه إلى منزله، فأطعمهم، وسقاهم،

(١) ٤٤١/١ .

(٢) ينظر العين للخليل ١١٩/٦ ، وكتاب سيبويه ١٣٨/٣ .

(٣) ٩٤/١١ - ٩٥ .

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): لهم.

وأعطاهم، وانصرفوا^(١). قال العلماء: وكلُّ ذنبٍ يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكِبَر؛ فإنه فسقٌ يلزمه الإعلان، وهو أصلُ العصيانِ كُلِّه. وفي الحديث الصحيح: «إنَّ المتكبرينَ يُحشرون أمثالَ الذرِّ يومَ القيامة، يَطَّوِّهم الناسُ بأقدامهم لتكبرهم» أو كما قال ﷺ^(٢). تَضَعُ لهم أجسامهم في المحشر حتى يضرهم صِغَرُها، وتَعْظُم لهم في النار حتى يضرهم عِظْمُها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أُنْزِلَ رَّبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أُنْزِلَ رَّبُّكُمْ﴾ يعني: وإذا قيل لمن تقدّم ذكره ممن لا يؤمن بالآخرة، وقلوبهم منكرة بالبعث: «ماذا أنزل ربكم؟»^(٣).

قيل: القائل النضر بن الحارث، وأن الآية فيه نزلت، وكان خرج إلى الحيرة فاشترى أحاديث «كَلِيلَة ودُمْنَة» فكان يقرأ على قريش ويقول: ما يقرأ محمدٌ على أصحابه إلا أساطير الأولين، أي: ليس هو من تنزيل ربنا^(٤). وقيل: إنَّ المؤمنين هم القائلون لهم اختباراً^(٥)، فأجابوا بقولهم: «أساطير الأولين». فأقرؤا بإنكار شيء هو أساطير الأولين.

والأساطير: الأباطيل والثِّرَّهات. وقد تقدّم في الأنعام^(٦).

والقول في «ماذا أنزل ربكم» كالقول في «ماذا ينفقون»^(٧).

(١) أخرج نحوه مختصراً أحمد في الزهد ص ٢١٣، والطبري في تفسيره ١٤/١٩٨، وابن العديم في بغية الطلب ٦/٢٥٩٠.

(٢) أخرج نحوه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ولفظه: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم...» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) النكت والعيون ٣/١٨٤.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/٣٨٧. وتقدم ٩/٤٩٥.

(٥) النكت والعيون ٣/١٨٤.

(٦) ٣٤٦/٨.

(٧) تقدم ٣/٤١٣.

وقوله: ﴿أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ خبرُ ابتداءٍ محذوف؛ التقدير: الذي أنزله أساطير الأولين^(١).

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٢٥)

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ قيل: هي لام كي، وهي متعلقة بما قبلها. وقيل: لام العاقبة؛ كقوله: ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عَذَابًا وَحَرْنًا﴾ [القصص: ٨]؛ أي: قولهم في القرآن والنبيّ أداهم إلى أن حملوا أوزارهم، أي: ذنوبهم. ﴿كَامِلَةً﴾ لم يتركوا منها شيئاً لنكبة أصابتهم في الدنيا بكفرهم. وقيل: هي لام الأمر، والمعنى التهديد^(٢).
﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال مجاهد: يحملون وزر من أضلّوه، ولا ينقص من إثم المضلّ شيء^(٣).

وفي الخبر: «أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبِعْ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ، وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتَّبِعْ، فَلَهُ مِثْلُ أَجُورِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ» خرّجه مسلم بمعناه^(٤).

و«مِنْ» للجنس لا للتبعض؛ فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم.

وقوله: ﴿يُضِلُّونَ الْخَلْقَ جَهْلًا مِنْهُمْ بِمَا يُلْزِمُهُم مِنَ الْآثَامِ﴾؛ إذ لو علموا لَمَا أَضَلُّوا. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أي: بثس الوزر الذي يحملونه. ونظير هذه الآية: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣١]. وقد تقدّم في آخر

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣٩٤/٢.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣٨٧/٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦٣/٤. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٥٠٦)، والطبري ٢٠٠/١٤.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبري ٢٠١/١٤ عن الربيع مرفوعاً. وأخرجه مسلم (٢٦٧٤) بنحوه من حديث أبي هريرة ؓ، وهو في مسند أحمد (٩١٦٠).

«الأنعام»^(١) بيان قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدمين، فكانت العاقبة الجميلة للرسل. ﴿فَأَتَىٰ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما: إنه النمرود بن كنعان وقومه، أرادوا صعود السماء وقتل أهله، فبنوا الصرح؛ ليصعدوا منه بعد أن صنع بالنسور ما صنع، فخر؛ كما تقدم بيانه في آخر سورة إبراهيم^(٢). ومعنى «فَأَتَىٰ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ» أي: أتى أمره البيان، إما زلزلة أو ريحاً، فخرّبته.

قال ابن عباس ووهب: كان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف. وقال كعب ومقاتل: كان طوله فرسخين، فهبت ريح فألقت رأسه في البحر وخرّ عليهم الباقي. ولما سقط الصرح، تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سُمِّيَ بابل، وما كان لسان قبل ذلك إلا الشّرْيانية^(٣). وقد تقدم هذا المعنى في «البقرة»^(٤).

وقرأ ابن هُرْمَزٍ وابن مُحَيْصِن «السَّقْفُ» بضم السين والقاف جميعاً^(٥). وضم مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفاً^(٦)، كما تقدم في «وبالنجم» في الوجهين^(٧).

(١) ١٤٥/٩ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٨٥ - ١٨٦ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٠٤ - ٤٠٥ عنهما. وهي أخبار غير صحيحة وسلف الكلام ٩/ ٣٨٠ - ٣٨١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٦٦ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٠٤ . وردّ ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٤٠ سبب تسمية بابل بهذا الاسم.

(٤) ٤٢٣/١ .

(٥) القراءات الشاذة ص ٧٢ ، وينظر البحر المحيط ٥/ ٤٨٥ .

(٦) المحتسب ٩/ ٢ .

(٧) يعني عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ الْبَاقِيَ ثُمَّ يَقْنُوتُ﴾ الآية ١٦ من هذه السورة.

والأشبه أن يكون جمع سقف. والقواعدُ أصولُ البناء، وإذا اختلَّت القواعد، سقط البناء.

وقوله: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ قال ابن الأعرابي: وكُدَّ^(١) لِيُعْلَمَكَ أَنَّهُمْ كانوا حَالِينَ تحته. والعرب تقول: خَرَّ علينا سقفٌ، ووقع علينا حائِطٌ إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه، فجاء بقوله: «مِنْ فَوْقِهِمْ» ليخرجَ هذا الشك الذي في كلام العرب، فقال: «مِنْ فَوْقِهِمْ»، أي: عليهم وقع وكانوا تحته، فهلكوا وما أفلتوا^(٢). وقيل: إِنَّ المراد بالسقفِ السماء؛ أي: إن العذابَ أتاهم من السماء التي هي فوقهم، قاله ابن عباس^(٣). وقيل: إن قوله: «فَأَتَى اللَّهُ بِنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ» تمثيل، والمعنى: أهلكهم، فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه^(٤). وقيل: المعنى أحبط الله أعمالهم، فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه^(٥). وقيل: المعنى أبطل مكرهم وتدبيرهم، فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه^(٦). وعلى هذا اخْتُلِفَ في الذين خَرَّ عليهم السقف، فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدَّم^(٧). وقيل: إنه بُخْتَنَصِرٌ وأصحابه، قاله بعضُ المفسرين. وقيل: المرادُ المقتسمون الذي ذكرهم الله في سورة الحجر، قاله الكلبي. وعلى هذا التأويل يخرجُ وجهُ التمثيل، والله أعلم.

﴿وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث ظَنُّوا أَنَّهُمْ في أمان^(٨).

(١) في (د) و(ظ): وكذا.

(٢) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٤٠ - ٤٤١.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٥، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٠٦.

(٤) قاله ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص ٢٤٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٥.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٣.

(٧) كذا قال، والذي سلف أنه زيد بن أسلم، وكذلك هو في النكت والعيون ٣/ ١٨٦.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٦٦، والوسيط ٣/ ٦٠، وزاد المسير ٤/ ٤٤١.

وقال ابن عباس: يعني البعوضة التي أهلك الله بها نمروداً^(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يفضحهم بالعذاب، ويذلهم به ويهينهم. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ أي: بزعمكم وفي دعواكم، أي: الآلهة التي عبدتم دوني، وهو سؤال توبيخ^(٢). ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تعادون أنبيائي بسببهم، فليدفعوا عنكم هذا العذاب. وقرأ ابن كثير: «شُرَكَائِيَ» بياء مفتوحة من غير همز، والباقون بالهمز^(٣). نافع: «تُشَاقُونَ» بكسر النون على الإضافة، أي: تعادوني فيهم. وفتحها الباقيون^(٤). ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قال ابن عباس: أي: الملائكة. وقيل: المؤمنون^(٥). ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أي: الهوان والذل يوم القيامة. ﴿وَالسُّوءَ﴾ أي: العذاب^(٦). ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا أَلَسْنَا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ هذا من صفة الكافرين. و«ظالمني أنفسهم» نصب على الحال، أي: وهم ظالمون أنفسهم إذ أوردوها موارد الهلاك. ﴿قَالُوا أَلَسْنَا نَعْمَلُ﴾ أي: الاستسلام^(٧). أي: أقرؤا لله بالربوبية، وانقادوا عند

(١) نمرود بالذال، وأهل البصرة يقولون: نمرود بالذال. مجالس ثعلب ص ١٨١.

(٢) الوسيط ٦٠/٣، والمحرم الوجيز ٣٨٨/٣.

(٣) السبعة ص ٣٧١، و التيسير ص ١٣٧، وقراءة ابن كثير هذه هي من رواية البزي بخلاف عنه.

(٤) السبعة ص ٣٧١ - ٣٧٢، والتيسير ص ١٣٧.

(٥) زاد المسير ٤/٤٤١، وتفسير الرازي ٢٠/٢١، ونسب ابن عطية القول الثاني في المحرم الوجيز ٣٨٨/٣ إلى يحيى بن سلام.

(٦) تفسير الطبري ١٤/٢٠٨، وتفسير البغوي ٣/٦٦.

(٧) المحرم الوجيز ٣/٣٨٩.

الموت، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: من شرك. فقالت لهم الملائكة: ﴿بَلَىٰ﴾ قد كنتم تعملون الأسواء^(١)، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية بالمدينة في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا، فأخرجتهم قريش إلى بدر كرهاً فقتلوا بها، فقال: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ بقبض أرواحهم^(٢). ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في مقامهم بمكة وتركهم الهجرة. ﴿فَالْقَوْلُ أَسَلَّ﴾ يعني: في خروجهم معهم. وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه الصلح؛ قاله الأخفش.

الثاني: الاستسلام؛ قاله قطرب.

الثالث: الخضوع؛ قاله مقاتل.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ يعني: من كفر. ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أن أعمالكم أعمال الكفار^(٣). وقيل: إن بعض المسلمين لما رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى المشركين، فنزلت فيهم^(٤). وعلى القول الأول، فلا يخرج كافر ولا منافق من الدنيا حتى ينقاد ويستسلم، ويخضع ويذل، ولا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان، كما قال: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَتُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]. وقد تقدّم هذا المعنى، وتقدّم في «الأنفال» أن الكفار يتوفون بالضرب والهوان، وكذلك في «الأنعام»^(٥). وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»^(٦).

(١) زاد المسير ٤/٤٤٢.

(٢) تفسير الطبري ١٤/٢٠٨، والمحزر الوجيز ٣/٣٨٩.

(٣) النكت والعيون ٣/١٨٦.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/٢٣٣.

(٥) الأنفال ١٠/٤٤ - ٤٥، والأنعام ٩/١٢٧.

(٦) ص ١٧ و ٢٠ و ٢٧.

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلْيَلْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُقال لهم ذلك عند الموت. وقيل: هو إشارة لهم بعذاب القبر؛ إذ هو بابٌ من أبواب جهنم للكافرين. وقيل: لا تصلُ أهلُ الدركة الثانية إليها مثلاً إلا بدخول الدركة الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة هكذا. وقيل: لكل دركة بابٌ مفرد، فالبعضُ يدخلون من بابٍ، والبعضُ يدخلون من بابٍ آخر. فالله أعلم. ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها^(١). ﴿فَلْيَلْسَ مَثْوَى﴾ أي: مقام ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: الذين تكبروا عن الإيمان، وعن عبادة الله تعالى^(٢)، وقد بينهم بقوله الحق: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ أي: قالوا: أنزل خيراً^(٣)، وثَمَّ الكلام. و«ماذا» على هذا اسمٌ واحد^(٤). وكان يرُدُّ الرجلُ من العرب مَكَّةَ في أيام الموسم، فيسألُ المشركين عن محمدٍ عليه الصلاة والسلام، فيقولون: ساحرٌ أو شاعرٌ، أو كاهنٌ أو مجنون، ويسألُ المؤمنين فيقولون: أنزلَ الله عليه الخير والهدى^(٥)، والمرادُ القرآن^(٦). وقيل: إنَّ هذا يُقال لأهل الإيمان يوم القيامة. قال

(١) تفسير الطبري ٢٠٩/١٤.

(٢) الوسيط ٦١/٣.

(٣) تفسير الطبري ٢١٠/١٤، والكشاف ٤٠٧/٢، وزاد المسير ٤٤٣/٤.

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٩٦/٣.

(٥) الوسيط ٦١/٣، وتفسير الرازي ٢٣/٢٠.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣٩٠/٣.

الثعلبي: فإن قيل: لِمَ ارتفع الجواب في قوله: «أساطيرُ الأولين» وانتصبَ في قوله: «خيراً»؟ فالجواب: أنَّ المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنَّهم قالوا: الذي يقوله محمدٌ هو أساطيرُ الأولين. والمؤمنون آمنوا بالنزول فقالوا: أنزل خيراً^(١). وهذا مفهوم معناه من الإعراب، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قيل: هو من كلامِ الله عزَّ وجلَّ. وقيل: هو من جملة كلام الذين اتَّقوا^(٢). والحسنة هنا: الجنة، أي: مَنْ أطاع الله فله الجنةُ غداً. وقيل: «للذين أحسنوا» اليومَ حسنةً في الدنيا من النصرِ والفتح والغنيمة^(٣): ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خيراً وأعظم من دار الدنيا^(٤)؛ لفنائها وبقاء الآخرة. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ فيه وجهان: قال الحسن: المعنى: ولنعم دارُ المتقين الدنيا؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة. وقيل: المعنى: ولنعم دارُ المتقين الآخرة^(٥). وهذا قولُ الجمهور، وعلى هذا تكون ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ بدلاً من الدار، فلذلك ارتفع^(٦). وقيل: ارتفع على تقدير: هي جنات، فهي مبيَّنة لقوله: «دَارُ الْمُتَّقِينَ»، أو تكون مرفوعةً بالابتداء، التقدير: جناتٌ عدنٍ نعم دارُ المتقين^(٧). ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ في موضع الصفة، أي: مدخولة. وقيل: «جنات» رُفِعَ بالابتداء، وخبره «يدخلونها»^(٨) وعليه يُخرَج قولُ الحسن.

(١) ينظر تفسير الطبري ٢١٠/١٤، والكشاف ٤٠٧/٢، وتفسير الرازي ٢٣/٢٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/٣٩٠.

(٣) تفسير البغوي ٦٧/٣، وزاد المسير ٤٤٣/٤.

(٤) ينظر تفسير الطبري ٢١٠/١٤.

(٥) النكت والعيون ١٨٧/٣، وزاد المسير ٤٤٣/٤.

(٦) ذكره ابن كثير في تفسير هذه الآية.

(٧) ينظر معاني القرآن للفراء ٩٩/٢، ومعاني القرآن للزجاج ١٩٦/٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣٩٥/٢،

والمحرر الوجيز ٣/٣٩٠.

(٨) المحرر الوجيز ٣/٣٩٠.

والله أعلم ﴿يَجْزِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ تقدّم معناه في «البقرة»^(١). ﴿لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: مما تمنّوه وأرادوه^(٢). ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء يجزي الله المتقين.

﴿الَّذِينَ نَزَّلْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ﴾ قرأ الأعمش وحمزة: «يتوفاهم الملائكة» في الموضعين بالياء، واختاره أبو عبيد؛ لما روي عن ابن مسعود أنه قال: إن قريشاً زعموا أن الملائكة إناث فذكروهم أنتم. الباقر بالتاء^(٣)؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة. و﴿طَيِّبِينَ﴾ فيه ستة أقوال:

الأول: «طَيِّبِينَ»: طاهرين من الشرك.

الثاني: صالحين.

الثالث: زاكية أفعالهم وأقوالهم.

الرابع: طَيِّبَةٌ^(٤) الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى.

الخامس: طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله.

السادس: «طيبين» أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم، بخلاف ما تُقبض به روح الكافر والمُخلط^(٥). والله أعلم.

﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون السلام إنذاراً لهم بالوفاة. الثاني: أن يكون تبشيراً لهم بالجنة؛ لأنّ السلام أمان^(٦). وذكر ابن المبارك

(١) ٣٥٩/١ - ٣٦٠.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/٢٣٤.

(٣) السبعة ص ٣٧٢، والتيسير ص ١٣٧، والمحرر الوجيز ٣/٣٩٠، وذكر أثر ابن مسعود مكي بن أبي طالب في الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/٣٧، وسلف نحوه ٥/١١٢.

(٤) في (ظ) و(م): طيبين.

(٥) النكت والعيون ٣/١٨٧، وزاد المسير ٤/٤٤٣ - ٤٤٤.

(٦) النكت والعيون ٣/١٨٧.

قال: حَدَّثَنِي حَيَّوَةُ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو صَخْر، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرَظِيِّ قَالَ: إِذَا اسْتَنْقَعَتْ نَفْسُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ؛ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَلِيَّ اللَّهِ، اللَّهُ يقرأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ. ثُمَّ نَزَعَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»^(١).

وقال ابن مسعود: إِذَا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ يَقْبِضُ رُوحَ الْمُؤْمِنِ قَالَ: رَبُّكَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ. وقال مجاهد: إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيُسَرَّ بِصَلاَحِ وَلَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ لِيَتَقَرَّ عَيْنُهُ. وقد أَتَيْنَا عَلَى هَذَا فِي «كِتَابِ التَّذْكَرَةِ»^(٢) وَذَكَرْنَا هُنَاكَ الْأَخْبَارَ الْوَارِدَةَ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. وقوله: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أُنْبِشِرُوا بِدُخُولِ الْجَنَّةِ. الثَّانِي: أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَعْنِي: فِي الدُّنْيَا مِنَ الصَّالِحَاتِ^(٣).

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٤)

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ هَذَا رَاجِعٌ إِلَى الْكُفَّارِ، أَي: مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ وَهُمْ ظَالِمُونَ لَأَنْفُسِهِمْ. وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ وَابْنَ وَثَّابٍ وَحُمَزةَ وَالْكَسَائِيَّ وَخَلْفَهُ: «يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ» بِالْيَاءِ، وَالْبَاقُونَ بِالتَّاءِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ^(٥). ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ أَي: بِالْعَذَابِ مِنَ الْقَتْلِ، كَيَوْمِ بَدْرٍ، أَوْ الزَّلْزَلَةِ وَالْخَسْفِ فِي الدُّنْيَا. وَقِيلَ: الْمَرَادُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ^(٥). وَالْقَوْمُ لَمْ يَنْتَظِرُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ؛

(١) الزهد لابن المبارك ص ١٤٩، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة ص ٢٠٢، وهو مقطوع، وسلف ١٨ - ١٧/١١.

(٢) ص ٥٠، وأخرج أثر مجاهد أبو نعيم في الحلية ٢/٢٨٥، وأخرج أثر ابن مسعود المروزي، وابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور ٥/٢٠٦.

(٣) النكت والعيون ٣/١٨٧.

(٤) السبعة ص ٣٧٢، والتيسير ص ١٠٨، والمحرم الوجيز ٣/٣٩١.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٤/٢١٤، وتفسير أبي الليث ٢/٢٣٤، وتفسير البغوي ٣/٦٨، وزاد المسير ٤/٤٤٤.

لأنهم ما آمنوا بها، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب، فأضيف ذلك إليهم، أي: عاقبتهم العذاب. ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أصرُّوا على الكفر، فاتاهم أمر الله، فهلكوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: بتعذيبهم وإهلاكهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ قيل: فيه تقديم وتأخير، التقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم^(٢). ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم ودار. ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: عقاب استهزائهم^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً، و«مين» صلة. قال الزجاج^(٤): قالوه استهزاءً، ولو قالوه عن اعتقادٍ لكانوا مؤمنين. وقد مضى هذا في سورة الأنعام^(٥) مبيِّناً معنى وإعراباً، فلا معنى للإعادة.

﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل مَنْ كان قبلهم بالرسول، فأهلكوا. ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ليس عليهم إلا

(١) زاد المسير ٤/٤٤٤ - ٤٤٥.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٦٨/٣، وتفسير الرازي ٢٠/٢٦.

(٣) تفسير الرازي ٢٠/٢٦.

(٤) في معاني القرآن ٣/١٩٧.

(٥) ١٠٢/٩.

التبليغ، وأمّا الهداية؛ فهي إلى الله تعالى^(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذِبين ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: بأن اعبدوا الله ووحدوه. ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: اتركوا كلَّ معبودٍ دون الله، كالشيطان والكاهن والصنم، وكلَّ من دعا إلى الضلال. ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: أرشده إلى دينه وعبادته^(٢). ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي: بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره^(٣)، وهذا يرُدُّ على القدرية؛ لأنهم زعموا أنَّ الله هدى الناس كلَّهم ووقفهم للهدى، والله تعالى يقول: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ وقد تقدَّم هذا في غير موضع^(٤). ﴿فسيروا في الأرض﴾ أي: فسيروا معتبرين في الأرض. ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذِبين﴾ أي: كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك^(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ أي: إن تطلب يا محمدُ بجُهدك هداهم؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي: لا يُرشد من أضله، أي: من سبق له من الله

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/٢٣٥، وزاد المسير ٤/٤٤٥.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/٢٣٥، والمحور الوجيز ٣/٣٩٢، والوسيط ٣/٦٢، والبغوي ٣/٦٨.

(٣) تفسير البغوي ٣/٦٨.

(٤) ينظر ١٠/٤٨١ - ٤٨٢.

(٥) الوسيط ٣/٦٢، وتفسير البغوي ٣/٦٨.

الضلالة؛ لم يهده^(١). وهذه قراءة ابن مسعود، وأهل الكوفة^(٢). فـ «يَهْدِي» فعلٌ مستقبل، وماضيه هَدَى. و«مَنْ» في موضع نصب بـ «يهدي». ويجوزُ أن يكونَ هَدَى يَهْدِي بمعنى اهتدى يهتدي، رواه أبو عبيد عن الفراء^(٣) قال: كما قُرئ: «أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى» [يونس: ٣٥] بمعنى يهتدي. قال أبو عبيد: ولا نعلم أحداً روى هذا غير الفراء، وليس بمتهم فيما يحكيه. النحاس: حُكي لي عن محمد بن يزيد: كأنَّ معنى «لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ»: مَنْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَسَبَقَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَهُ، قَالَ: وَلَا يَكُونُ يَهْدِي بِمَعْنَى يَهْتَدِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ يُهْدَى أَوْ يُهْدَى^(٤). وعلى قولِ الفراء «يَهْدِي» بمعنى يهتدي، فيكون «مَنْ» في موضع رفع، والعائدُ إلى «مَنْ» الهاء المحذوفة من الصَّلَةِ، والعائدُ إلى اسم «إِنَّ» الضمير المستكنَّ في «يُضِلُّ»^(٥). وقرأ الباقون: «لَا يُهْدَى» بضم الياء وفتح الدال^(٦)، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، على معنى: مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ لَمْ يَهْدِهِ هَادٍ، دليلاً قوله: «مَنْ يُضِلِّلِ اللَّهُ فَكَلَا هَادِي لَمْ يَكُنْ» [الأعراف: ١٨٦] و«مَنْ» في موضع رفع على أنه اسم ما لم يُسمَّ فاعله^(٧)، وهي بمعنى الذي، والعائدُ عليها من صلتها محذوف^(٨)، والعائد على اسم إنَّ مِنْ «فَإِنَّ اللَّهَ» الضمير المستكنَّ في «يُضِلُّ». ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ تَكْوِينٍ﴾ تقدَّم معناه^(٩).

(١) ينظر الطبري ٢١٧/١٤، والوسيط ٦٢/٣، والمحرر الوجيز ٣/٣٩٢.

(٢) السبعة ص ٣٧٢، والتيسير ص ١٣٧، وتفسير الطبري ٢١٧/١٤ - ٢١٨، والمحرر الوجيز ٣/٣٩٢.

(٣) في معاني القرآن ٩٩/٢.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦٥/٤ - ٦٦، وما قبله منه.

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي ٦٤/٥، والمحرر الوجيز ٣/٣٩٢.

(٦) وهم: ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر. السبعة ص ٣٧٢، والتيسير ص ١٣٧.

(٧) ينظر الطبري ٢١٨/١٤، ومعاني القرآن للفراء ٩٩/٢، وحجة القراءات ص ٣٨٩.

(٨) الحجة لأبي علي الفارسي ٦٤/٥.

(٩) ينظر ١٥٦/٥ و ١٩٨ و ٤٧٥.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ هذا تعجيبٌ من صنعهم، إذ أقسموا بالله، وبالغوا في تغليظ اليمين بأنَّ الله لا يبعثُ مَنْ يموت^(١). ووجه التعجيب أنهم يُظهرون تعظيمَ الله فيقسمون به ثم يُعجزونه عن بَعْثِ الأموات. وقال أبو العالية: كان لرجلٍ من المسلمين على مشرك دينٌ فتقاضاه، وكان^(٢) في بعض كلامه: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله: لا يبعثُ الله مَنْ يموت. فنزلت الآية. وقال قتادة: ذُكر لنا أنَّ ابن عباس قال له رجل: يا ابن عباس، إنَّ ناساً يزعمون أن علياً مبعوثٌ بعد الموت قبل الساعة، ويتأولون هذه الآية. فقال ابنُ عباس: كذب أولئك! إنما هذه الآيةُ عامَّةٌ للناس، لو كان عليٌّ مبعوثاً قبل القيامة؛ ما نكحنا نساءه، ولا قَسَمنا ميراثه^(٣).

﴿بَلَى﴾ هذا ردٌّ عليهم، أي: بلى ليعبثنهم^(٤). ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكَّد؛ لأنَّ قوله «يبعثهم»^(٥) يدلُّ على الوعد، أي: وعد البعث وعداً حَقًّا^(٦). ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مبعوثون. وفي البخاري^(٧) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «قال الله تعالى: كَذَّبَنِي ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إِيَّايَ، فقوله: لن يعيدني كما بداني، وأما شتمه إِيَّايَ فقوله: اتخذ الله ولداً. وأنا

(١) الوسيط ٦٢/٣.

(٢) في (ظ): وقال.

(٣) أخرج الطبري ٢١٩/١٤ - ٢٢١ أثر أبي العالية وقاتدة، وينظر زاد المسير ٤٤٦/٤ - ٤٤٧، والمحرر الوجيز ٣٩٣/٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣٩٣/٣، والكشاف ٤٠٩/٢.

(٥) يعني القول المقدر، كما ذكر قبل.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣٩٣/٣، والكشاف ٤٠٩/٢، والوسيط ٦٢/٣ - ٦٣.

(٧) برقم (٤٩٧٤)، وهو عند أحمد (٨٢٢٠).

الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». وقد تقدّم، ويأتي^(١).

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: ليُظهِرَ لهم. ﴿الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ أي: من أمر البعث. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالبعث وأقسموا عليه^(٢) ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ وقيل: المعنى ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً؛ ليبيّن لهم الذي يختلفون فيه. والذي اختلف فيه المشركون والمسلمون أمور: منها البعث، ومنها عبادة الأصنام^(٣)، ومنها إقرار قوم بأن محمداً حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد، كأبي طالب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

أعلمهم سهولة الخلق عليه، أي: إذا أردنا أن نبعث من يموت، فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائهم، ولا في غير ذلك ممّا نُحدثه؛ لأننا إنّما نقول له: كن، فيكون^(٤). قراءة ابن عامر والكسائي: «فيكون» نصباً عطفاً على «أن نقول». وقال الزجاج: يجوز أن يكون نصباً على جواب «كن»^(٥). الباقر بالرفع على معنى فهو يكون^(٦). وقد مضى القول فيه في «البقرة» مستوفى^(٧). وقال ابن الأنباري: أوقع لفظ الشيء على المعلوم عند الله قبل الخلق؛ لأنه بمنزلة ما وُجد وشوهد^(٨).

(١) سلف ٣٣٣/٢، وسيرد عند تفسير الآية (٩٣) من مريم، والآية (٥٧) من الأحزاب.

(٢) ينظر الطبري ٢٢١/١٤.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ١٩٨/٣ - ١٩٩.

(٤) تفسير الطبري ٢٢٢/١٤، ومعاني القرآن للزجاج ١٩٨/٣.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ١٩٨/٣، وأنكر النحاس في إعراب القرآن ٣٩٦/٢ قول الزجاج هذا؛ لأنه إخبار لا يجوز فيه الجواب.

(٦) السبعة ص ٣٧٣، والتيسير ص ١٣٧.

(٧) ٣٣٨/٢.

(٨) زاد المسير ٤٤٧/٤، ولم ينسبه لابن الأنباري.

وفي الآية دليلٌ على أن القرآن غير مخلوق؛ لأنه لو كان قوله: «كن» مخلوقاً؛ لاحتاج إلى قولٍ ثانٍ، والثاني إلى ثالثٍ، وتسلسل وكان مُحالاً^(١).

وفيها دليلٌ على أن الله سبحانه مريدٌ لجميع الحوادثِ كُلِّها خيرها وشرها نفعها وضرها، والدليلُ على ذلك أن مَنْ يرى في سلطانه ما يكرهه ولا يريده، فلا حِدَ شيئين: إمّا لكونه جاهلاً لا يدري، وإمّا لكونه مغلوباً لا يطيق، ولا يجوز ذلك في وصفه سبحانه، وقد قام الدليلُ على أنه خالقٌ لاكتساب العباد^(٢)، ويستحيل أن يكون فاعلاً لشيءٍ وهو غيرُ مريدٍ له؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا، فلو لم يكن الحقُّ سبحانه مريداً لها؛ لكانت تلك الأفعال تحصل من غير قصدٍ، وهذا قولُ الطبيعيين^(٣)، وقد أجمع الموحِّدون على خلافه وفساده.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْتَغِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآئِجُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قد تقدَّم في «النساء» معنى الهجرة^(٤)، وهي تركُ الأوطان والأهل والقراية في الله أو في دين الله، وتركُ السيئات. وقيل: «في» بمعنى اللام، أي: لله. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ أي: عُدِّبوا في الله^(٥). نزلت في ضُهيِّب وبلال وخبَّاب وعمَّار، عُدِّبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما خلَّوهم هاجروا إلى المدينة، قاله الكلبي^(٦). وقيل: نزلت في أبي جندل ابن سهيل. وقال قتادة: المرادُ أصحابُ محمد ﷺ، ظلمهم المشركون بمكة،

(١) تفسير الرازي ٣٢/٢٠.

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٤٩/٢٦ و ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٣) في النسخ الخطية: الطباع، والمثبت من (م).

(٤) ٦٥/٧.

(٥) تفسير البغوي ٦٩/٣.

(٦) النكت والعيون ١٨٩/٣.

وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله تعالى دار الهجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين^(١). والآية تعم الجميع.

﴿لَتَنَزِّلَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ في الحسنة ستة أقوال:

الأول: نزول المدينة، قاله ابن عباس والحسن والشَّعْبِيُّ وقَتادة.

الثاني: الرزق الحسن، قاله مجاهد.

الثالث: النصر على عدوهم، قاله الضحاك.

الرابع: أنه لسان صدق، حكاه ابن جريج^(٢).

الخامس: ما استولوا عليه من فتوح البلاد، وصار لهم فيها من الولايات.

السادس: ما بقي لهم في الدنيا من الشئ، وما صار فيها لأولادهم من

الشرف^(٣). وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله، والحمد لله.

﴿وَلَا جُرْ إِلَّا فِي الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: ولا جُرْ دار الآخرة أكبر، أي: أكبر من أن يعلمه أحد

قبل أن يشاهده، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعَمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك. وقيل: هو

راجع إلى المؤمنين. أي: لو رأوا ثواب الآخرة وعانيوه؛ لعلموا أنه أكبر من حسنة

الدنيا^(٤). وروى أن عمر بن الخطاب ؓ كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال: هذا

ما وعدكم الله في الدنيا، وما ادخر لكم في الآخرة أكثر، ثم تلا عليهم هذه الآية^(٥).

(١) زاد المسير ٤/ ٤٤٨، وأخرج القولين الطبري ١٤/ ٢٢٣ و ٢٢٥. وأبو جندل بن سهيل: اسمه عبد الله، كان من السابقين إلى الإسلام، وممن عُدَّ بسبب إسلامه، استشهاداً باليمامة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. الإصابة ١١/ ٦٤ - ٦٥.

(٢) كذا في النسخ، وفي النكت والعيون ٣/ ١٨٨، والكلام منه: ابن جريج، ونسبه في زاد المسير ٤/ ٤٤٨ إلى مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٤٧.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٨ - ١٨٩.

(٤) ينظر تفسير الرازي ٢٠/ ٣٤.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٨٩، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٤٢﴾

قيل: ﴿الَّذِينَ﴾ بدلٌ من «الذين» الأول. وقيل: من الضمير في «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ»^(١) وقيل: هم الذين صبروا على دينهم^(٢). ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كل أمورهم^(٣). وقال بعض أهل التحقيق: خيارُ الخلق من إذا نابَه أمرٌ صبر، وإذا عجزَ عن أمرٍ توكل؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ﴾ قراءة العامة: «يُوحَى» بالياء وفتح الحاء. وقرأ حفص عن عاصم: «نُوحِي إِلَيْهِمْ» بنون العظمة، وكسر الحاء^(٤). نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد ﷺ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلاً بعث إلينا ملكاً^(٥)، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى الأمم الماضية يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ آدميين.

﴿فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ قال سفيان: يعني مؤمني أهل الكتاب^(٦). ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يُخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً. وقيل: المعنى: فاسألوا أهل الكتاب، فإن لم يؤمنوا، فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر^(٧). رُوي معناه عن

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣٩٦/٢.

(٢) تفسير الرازي ٣٥/٢٠.

(٣) ينظر تفسير الطبري ٢٢٦/١٤.

(٤) السبعة ص ٣٧٣، والتيسير ص ١٣٠.

(٥) أسباب النزول للواحد ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٦) أخرجه الطبري ٢٢٧/١٤ بنحوه عن سفيان عن الأعمش.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٢٠٠/٣ - ٢٠١.

ابن عباس ومجاهد^(١). وقال ابن عباس: أهل الذكر: أهل القرآن^(٢). وقيل: أهل العلم^(٣)، والمعنى متقارب.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ قيل: «بالبينات» متعلق بـ «أرسلنا». وفي الكلام تقديم وتأخير، أي: ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزُّبر إلا رجالاً - أي: غير رجال، فـ «إلا» بمعنى غير، كقوله: لا إله إلا الله، وهذا قول الكلبي^(٤) - نوحى إليهم. وقيل: في الكلام حذف دل عليه: «أرسلنا»، أي: أرسلناهم بالبينات والزُّبر^(٥). ولا يتعلق «بالبينات» بـ «أرسلنا» الأول على هذا القول؛ لأنَّ ما قبل «إلا» لا يعمل فيما بعدها، وإنما يتعلق بـ «أرسلنا» المقدَّرة، أي: أرسلناهم بالبينات. وقيل: مفعول بـ «تعلمون» والباء زائدة^(٦)، أو نصب بإضمار أعني^(٧)، كما قال الأعشى:

وليس مُجيراً إن أتى الحيَّ خائفٌ ولا قائلاً إلا هو المتعيباً^(٨)

أي: أعني المتعيب. والبينات: الحجج والبراهين. والزُّبر: الكتب. وقد تقدَّم في آل عمران^(٩). ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن. ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعود والوعيد بقولك وفعلك؛ فالرسول ﷺ مبين عن الله عزَّ وجلَّ مراده ممَّا أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم

(١) أخرجه الطبري عنهما ٢٢٧/١٤ - ٢٢٨ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٢٨/١٤ - ٢٢٩ عن ابن زيد، وهو كذلك في النكت والعيون ٣/١٨٩ ، وزاد المسير ٤/٤٤٩ ، وزاد نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٩٥ لابن جبير .

(٣) أخرجه الطبري ٢٨٨/١٤ عن أبي جعفر.

(٤) أورده الطبري ٢٢٩/١٤ - ٢٣٠ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٩٥ دون نسبة.

(٥) نسبه الرازي في تفسيره ٣٧/٢٠ إلى الفراء.

(٦) الكشف ٢/٤١١ .

(٧) تفسير الطبري ٢٣٠/١٤ .

(٨) في ديوانه ص ١٦٣ ، وتفسير الطبري ١٤/٢٣٠ .

(٩) سلف ٥/٤٤٦ - ٤٤٧ .

يفضّله. وقد تقدّم هذا المعنى مستوفى في مقدّمة الكتاب^(١)، والحمد لله. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتعطّون.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٣) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٤﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: بالسيئات، وهذا وعيدٌ للمشرّكين الذين احتالوا في إبطال الإسلام. ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس: كما خُسِفَ بقارون^(٢)، يقال: خَسَفَ المكانُ يَخْسِفُ خُسُوفًا: ذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خُسْفًا^(٣)، أي: غاب به فيها، ومنه قوله: ﴿خَسَفْنَا بِهِمُ وَيْدَايِرِ الْأَرْضِ﴾ [الفصص: ٨١]. وَخَسَفَ هو في الأرض وَخُسِفَ به. والاستفهام بمعنى الإنكار، أي: يجب ألا يأمّنوا عقوبةً تلحقهم كما لحقت المكذّبين^(٤). ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما فعل بقوم لوط وغيرهم. وقيل: يريد يوم بدر^(٥)؛ فإنهم أهلكوا ذلك اليوم، ولم يكن شيء منه في حسابهم.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ﴾ أي: في أسفارهم وتصرفهم؛ قاله قتادة^(٦). ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: مسابقين الله ولا فائتيه. وقيل: «في تَقْلُيبِهِمْ»: على فراشهم أينما كانوا^(٧). وقال الضحاك: بالليل والنهار^(٨).

(١) ٦٤/١ - ٦٨.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٦٤/٣ دون نسبة، وذكره عن ابن عباس ابن الجوزي ٥٩/٣ في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَكُونُ كَالِأَعْنَابِ﴾ من سورة الأنعام.

(٣) في النسخ: خسوفًا، والمثبت من الصحاح (خسف) والكلام منه.

(٤) الوسيط للواحدي ٦٤/٣.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٦٤/٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الطبري ٢٣٤/١٤.

(٧) ينظر الوسيط ٦٤/٣.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦٩/٤، وزاد المسير ٤٥١/٤، وأخرجه الطبري ٢٣٤/١٤ عن ابن جريج.

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أي: على تنقُّص من أموالهم ومواشيهم وزروعهم^(١). وكذا قال ابن الأعرابي: أي: على تنقُّص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلُّهم.

وقال الضحاك: هو من الخوف؛ المعنى: يأخذ طائفةً وَيَدْعُ طائفةً، فتخاف الباقية أن يَنْزَلَ بها ما نزل بصاحبها^(٢). وقال الحسن: «على تَخَوُّفٍ» أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى^(٣)، وهذا هو معنى القول الذي قبله بعينه، وهما راجعان إلى المعنى الأول، وأنَّ التَخَوُّفَ التَّنْقِصُ؛ تَخَوُّفُهُ: تَنَقَّصَهُ، وتَخَوُّفُهُ الدهرُ وتَخَوُّنُهُ، بالفاء والنون؛ بمعنًى؛ يقال: تَخَوَّنِي فلانٌ حَقِّي: إذا تَنَقَّصَكَ^(٤). قال ذو الرِّمَّة: لا بل هو الشوق مِن دارٍ تَخَوَّنَهَا مَرًّا سَحَابٌ وَمَرًّا بَارِحٌ تَرِبُ^(٥) وقال لييد:

تَخَوَّنَهَا نَزُولِي وارتحالي

أي: تَنَقَّصَ لِحِمَمَهَا وشَحَمَهَا^(٦).

وقال الهيثم بن عدي: التَخَوُّفُ، بالفاء: التَّنْقِصُ، لغةٌ لأَزِدَ شُوءَ^(٧). وأنشد: تَخَوُّفٌ غَذِرَهُم مَالِي وأَهْدِي سلاسلَ في الحلوق لها صليل^(٨)

(١) أخرجه الطبري ٢٣٧/١٤ - ٢٣٨ بنحوه. وينظر معاني القرآن للنحاس ٦٩/٤ - ٧٠.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦٩/٤، وأخرجه الطبري ٢٣٨/١٤.

(٣) النكت والعيون ١٩٠/٣.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ٥٨٣/٧، والصاحح (خون).

(٥) ديوانه ١٩/١، والبارح: الريح الحارة في الصيف. القاموس (برح).

(٦) الصاحح (خون)، وبيت لييد في ديوانه ص ٧٦ (شرح الطوسي) وصدده: غَذَاوَةٌ تَقْمِصُ بالرُّدَافِ. وهو في وصف ناقته. والمغاذرة: الضخمة القوية الشديدة. تقمص: تنزو به. الرادف: راكبها الذي يرتدف خلف الراكب. قاله الطوسي.

(٧) تفسير الطبري ٢٣٥/١٤، وزاد المسير ٤٥١/٤.

(٨) هو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٦٠/١، وغريب الحديث لإبراهيم الحربي ٨٣٥/٢، وتفسير =

وقال سعيد بن المسيب: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال: يا أيها الناس، ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ فسكت الناس، فقال شيخ من بني هذيل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين، التَّخَوُّفُ: التَّنْقِصُ. فخرج رجل فقال: يا فلان، ما فعل دَيْنُكَ؟ قال: تَخَوَّفْتُهُ، أي: تَنَقَّصْتُهُ؛ فرجع فأخبر عمر، فقال عمر: أتعرف العرب ذلك في أشعارهم؟ قال: نعم؛ قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقه تنقّص السير سنامها بعد تمكّه واكتنازه:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَائِمَكَا قَرْدَا كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفْنُ^(١)
فقال عمر: يا أيها الناس، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية؛ فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم^(٢).

تَمَكَ السَّنَامُ يَتَمَكُّ تَمَكَا، أي: طال وارتفع، فهو تَائِمَك. والسَّفْنُ والمِسْفَنُ: ما يُنَجَّرُ به الخشب^(٣).

وقال الليث بن سعد: «على تخوُّفٍ» على عَجَلٍ^(٤). وقيل: على تقريب بما قدّمه من ذنوبهم، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً. وقال قتادة: «على تخوُّفٍ» أن يعاقب

= الطبري ٢٣٥/١٤ ، والفائق ٢٩٩/١ دون نسبة، والبيت الذي قبله: ألام على الهجاء وكل يوم يلاقيني من الجيران غولٌ. وقوله: سلاسل، يعني قوافي.

(١) هكذا نسبه هنا، وكذا في تفسير البيضاوي ١٨٢/٣ ، ونسبه الأزهري في تهذيب اللغة ٥٩٤/٧ لابن مقبل، وهو في ديوانه ص ٤٠٥ ، ونسبه في الصحاح (خوف، سفن) لذي الرُّمَّة، ونسبه الزمخشري في الكشاف ٤١١/٢ وفي أساس البلاغة ص ١٧٨ إلى زهير، ونسبه البكري في سمط اللالي ص ٧٣٨ لقعناب ابن أمّ صاحب، ونسبه الأصفهاني في الأغاني في ترجمة حماد الراوية لابن مزاحم الشمالي، وأورده الطبري ٢٣٥/١٤ ولم ينسبه.

(٢) أخرجه الطبري ٢٣٦/١٤ عن رجل، عن عمر رضي الله عنه بنحوه. وينظر الكشاف ٤١١/٢ ، والمحرم الوجيز ٣٩٦/٣ ، وتفسير الرازي ٣٩/٢٠ .

(٣) ينظر الصحاح (تمك) و(سفن)، والقرد: الذي يركب بعضه بعضاً. والنبع: شجر تتخذ منه القسي. الصحاح (قرد) و(نبع).

(٤) النكت والعيون ١٩٠/٣ .

أو يتجاوز^(١).

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّوُفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لا يُعَاجِلُ، بل يُنْهَلِ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوُا ظُلُمًا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾

قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى والأعمش ﴿تَرَوْا﴾ بالتاء^(٢)؛ على أنَّ الخطاب لجميع الناس. الباقون بالياء؛ خبراً عن الذين يمكرون السيئات؛ وهو الاختيار. ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: من جسم قائم له ظلٌّ من شجرة أو جبل؛ قاله ابن عباس. وإن كانت الأشياء كلها سميعة مطيعة لله تعالى.

﴿يَنْفَعِيوُا ظُلُمًا﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتاء^(٣)؛ لتأنيث الظلال. الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد. أي: يميل من جانب إلى جانب، ويكون أول النهار على حال ويتقلَّص، ثم يعود في آخر النهار على حالة أخرى، فدورانها وميلانها من موضع إلى موضع سجودها، ومنه قيل للظلِّ بالعشي: فَيءٌ؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق، أي: رجع. والفَيءُ: الرجوع^(٤)، ومنه ﴿حَتَّى تَقِيَّءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. رُوي معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما^(٥)، وقد مضى هذا المعنى في سورة الرعد^(٦). وقال الزجاج^(٧): يعني سجود الجسم، وسجوده انقياده

(١) أخرجهما الطبري ١٤/ ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص ٣٧٣ ، والتيسير ص ١٣٨ ، وقراءة خلف في النشر ٢/ ٣٠٤ ، وقراءة الأعمش في إتحاف فضلاء البشر ص ٣٥١ .

(٣) قراءة أبي عمرو في السبعة ص ٣٧٤ ، والتيسير ص ١٣٨ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٠٤ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٧١ .

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٤/ ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٦) ص ٤٥ من هذا الجزء .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٢ .

وما يُرى فيه من أثر الصَّنعة، وهذا عامٌ في كلِّ جسم.

ومعنى ﴿وَهُمْ دَخِرُونَ﴾ أي: خاضعون صاغرون. والدُّخور: الصَّغار والدُّلُّ. يقال: دَخَرَ الرجلُ، بالفتح؛ فهو داخِر، وأدخره الله^(١). وقال ذو الرُّمَّة:

فلم يبقَ إلَّا داخِرٌ في مُحَيِّسٍ ومُنَجَّجِرٌ في غير أرضك في جُخِرٍ

كذا نسبه الماورديُّ لذي الرُّمَّة، ونسبه الجوهريُّ للفرزدق^(٢) وقال: المُحَيِّس:

اسم سجنٍ كان بالعراق، أي: موضع التذلل. وقال:

أما تراني كَيْساً مُكَيِّساً بَنَيْتُ بَعْدَ نَافِعٍ مُحَيِّساً^(٣)

وَوَحَّدَ اليمينَ في قوله: «عَنِ الْيَمِينِ» وجمعَ الشمال؛ لأنَّ معنى اليمين وإن كان واحداً الجمعُ. ولو قال: عن الأيمان والشمال، واليمين والشمال، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال، لجاز؛ لأن المعنى للكثرة. وأيضاً فمن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحد أن تجمع إحداهما وتُفرد الأخرى، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وكقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ولو قال: على أسماعهم، وإلى الأنوار، لجاز. ويجوز أن يكون ردُّ اليمين على لفظ «ما» والشمال على معناها^(٤). ومثل هذا في الكلام كثير. قال الشاعر:

الواردون وتَئِمُّ في ذُرَا سَبَلٍ قد عَضَّ أَعْنَاقَهُم جِلْدُ الْجَوَامِيسِ^(٥)

(١) الصحاح (دخر).

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٩١، والصحاح (خيس). والبيت في ديوان ذي الرمة ٢/ ٩٧٩.

(٣) قائله علي بن أبي طالب ؑ كما في العقد الفريد ٤/ ١٨٣، وجمهرة الأمثال ١/ ٧٩، واللسان (خيس). وجاء فيه: نافع؛ هو سجن بالكوفة كان غير مستوثق البناء، وكان من قصب، فكان المحبوسون يهربون منه، وقيل: إنه نقب وأفلت منه المحبسون، فهدمه علي ؑ، وبنى المخيس لهم من مدر.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٧١.

(٥) قائله جرير، وهو في ديوانه ص ٢٥٢، والشرط الأول فيه: تدعوك تيم وتيم في قرى سبأ. أراد أنهم أسرى، وفي أعناقهم أطواق من جلد الجواميس.

ولم يقل: جلود.

وقيل: وُحِّد اليمين؛ لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجِّهٌ إلى القبلة، انبسط الظلُّ عن اليمين، ثم في حال يميل إلى جهة الشمال، ثم حالات، فسماها شمائل.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُشْكَرُونَ ۗ﴾ (٤٨) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: من كل ما يَدِبُّ على الأرض. ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ يعني: الملائكة الذين في الأرض، وإنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة، فميَّزهم من صفة الديب بالذكر وإن دخلوا فيها؛ كقوله: ﴿فِيهَا فَلَئِكَةٌ وَنُفْلٌ وَرَمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]. وقيل: لخروجهم من جملة مَنْ يَدِبُّ، لِمَا جعل الله لهم من الأجنحة، فلم يدخلوا في الجملة، فلذلك ذُكروا^(١). وقيل: أراد «ولِلَّهِ يسجد ما في السماوات» من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، «وما في الأرض من دابة» وتسجد ملائكة الأرض^(٢). ﴿وَهُمْ لَا يُشْكَرُونَ﴾ عن عبادة ربِّهم. وهذا ردُّ على قريش حيث زعموا أنَّ الملائكة بناتُ الله.

ومعنى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي: عقاب ربِّهم وعذابه؛ لأنَّ العذابَ المُهِلِكَ إنما ينزل من السماء. وقيل: المعنى: يخافون قدرة ربِّهم التي هي فوق قدرتهم؛ ففي الكلام حذف^(٣). وقيل: معنى «يخافون ربهم مِنْ فَوْقِهِمْ» يعني الملائكة، يخافون ربَّهم؛ وهي من فوق ما في الأرض من دابة ومع ذلك يخافون؛ فَلأنَّ يخافَ مَنْ دونهم أولى؛ دليلُ هذا القولِ قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يعني: الملائكة^(٤).

(١) النكت والعيون ١٩٢/٣.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٧١/٣، والمحرر الوجيز ٣٩٩/٣.

(٣) ينظر النكت والعيون ١٩٢/٣، والوسيط للواحيدي ٦٥/٣، والمحرر الوجيز ٣٩٩/٣.

(٤) ينظر الوسيط للواحيدي ٦٥/٣.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهُبُون﴾ ﴿٥١﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ قيل: المعنى: لا تتخذوا اثنين إلهين^(١). وقيل: جاء قوله: «اثنين» تأكيداً. ولما كان الإله الحق لا يتعدد، وأن كل من يتعدد فليس بإله، اقتصر على ذكر الاثنين؛ لأنه قصد نفى التعديد^(٢). ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ يعني ذاته المقدسة. وقد قام الدليل العقلي والشرعي على وحدانيته حسبما تقدم في «البقرة» بيانه^(٣)، وذكرناه في اسمه الواحد في «شرح الأسماء»^(٤) والحمد لله. ﴿فَإِنِّي فَارْهُبُون﴾ أي: خافون. وقد تقدم في «البقرة»^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْدِّينُ وَاصِباً﴾ الدين: الطاعة والإخلاص. و«وَاصِباً» معناه دائماً؛ قاله الفراء^(٦)، حكاه الجوهري^(٧). وَصَبَ الشَّيْءُ يَصْبُ وَصُوباً، أي: دام^(٨). وَوَصَبَ الرَّجُلُ عَلَى الْأَمْرِ: إذا واطب عليه. والمعنى: طاعة الله واجبة أبداً. وممن قال: واصباً دائماً: الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك^(٩). ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصفات: ٩] أي: دائم. وقال الدؤلي:

لا أبتغي الحمدَ القليلَ بقاؤه بدم يكون الدهرَ أجمعَ واصباً^(١٠)

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/٣٩٧، والمحرم الوجيز ٣/٣٩٩.

(٢) ينظر المصدران السابقان.

(٣) ٤٨٨/٢ - ٤٨٩.

(٤) ص ١٦١ - ١٦٧.

(٥) ٩/٢.

(٦) معاني القرآن ٢/١٠٤.

(٧) الصحاح (وصب)، وما بعده منه.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/٧٢.

(٩) النكت والعيون ٣/١٩٣، وأخرجه الطبري ١٤/٢٤٧ - ٢٤٩.

(١٠) رواية عجزه في ديوانه ص ٥٢. هي كما في البيت التالي، وفيه أيضاً: لا أشتري، بدل: ما أبتغي. وينظر التعليق التالي.

أنشد الغزنوي^(١) والثعلبي وغيرهما:

ما أبتغي الحمد القليل بقاؤه يوماً بدم الدهر أجمع واصبأ^(١)

وقيل: الوَصَب: التعب والإعياء^(٢)، أي: تجب طاعة الله تعالى وإن تعب العبدُ

فيها. ومنه قول الشاعر:

لا يُمسيك الساق من أين ولا وصِبٍ ولا يَعْضُ على شُرُوفِهِ الصَّفَرُ^(٣)

وقال ابن عباس: «واصبأ»: واجبأ. الفراء والكلبي: خالصاً^(٤).

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾ أي: لا ينبغي أن تتقوا غير الله. فـ «غير» نصب بـ «تتقون».

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن يَّعْمَلِ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْزِعُونَ

﴿٥٦﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فِرَاقُ مَنكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٧﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا

ءَالَيْنَهُمْ فَتَنَّاوُا فَنَسَوْا فَنَسُوا فَنَسُوا فَنَسُوا ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن يَّعْمَلِ فَمِنَ اللَّهِ﴾ قال الفراء^(٥): «ما» بمعنى الجزاء،

(١) قوله: أنشد الغزنوي... هذا الموضع، ليس في (د) و(ظ) و(ز)، والبيت في مجاز القرآن ١/ ٣٦١، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٤٧، والنكت والعيون ٣/ ١٩٣، وزاد المسير ٤/ ٤٥٦، والأغاني ١٢/ ٣٠٩.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٩٣.

(٣) قائله أعشى باهلة عامر بن الحارث أبو قحطان يرثي أخاه لأمه المنتشر بن وهب الباهلي. وهو في الأصمعيات ص ٩٠، والكمال ٣/ ١٤٣١، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٤٧. وفي جمهرة أشعار العرب ٢/ ٧١٨ - ٧١٩، والخزانة ١/ ١٩٧ كل شطر منه لبيت، وهما:

لا يتأزى لما في القدر يرقبه ولا يعض على شرسوفه الصفر

لا يغمز الساق من أين ولا وصب ولا يزال أمام القوم يقتفر

لا يتأزى: لا يتحسب ويتلبث. الشرسوف: طرف الضلع. الصفر: دوية مثل الحية تكون في البطن تعتري من به شدة الجوع. لا يغمز الساق: لا يجسها، يصف جلده وتحمله للمشاق. الأين: الإعياء. الاقتفار: اتباع الآثار. قاله البغدادي في الخزانة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٩٣، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٤/ ٢٤٩، وكلام الفراء في معاني القرآن ١٠٤/٢.

(٥) في معاني القرآن ١٠٤/٢.

والباء في «بكم» متعلقة بفعل مضمر، تقديره: وما يكن بكم. ﴿مِنْ نِّعْمَةٍ﴾ أي: صحة جسم وسعة رزق وولد، فمن الله^(١). وقيل: المعنى: وما بكم من نعمة فمن الله هي. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ أي: السقم والبلاء والقحط.

﴿فَلْيَايِهَ بِخَيْرٍ﴾ أي: تَضِجُون بالدُّعاء. يقال: جَارَ يَجَارُ جُؤَارًا. والجُؤَارُ مثلُ الحُؤَارِ؛ يقال: جَارَ الثورُ يَجَارُ، أي: صاح. وقرأ بعضهم: «عجلاً جسداً له جُؤَارٌ» [طه: ٨٨]؛ حكاه الأخفش. وجَارَ الرجلُ إلى الله، أي: تضرَّع بالدُّعاء^(٢). وقال الأعشى يصف بقرةً:

فطافت ثلاثاً بين يومٍ وليلة وكان النكير أن تُضيفَ وتجاراً^(٣)
﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ﴾ أي: البلاء والسقم. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار. فمعنى الكلام التعجبُ من الإشراك بعد النجاة من الهلاك، وهذا المعنى مكرَّر في القرآن، وقد تقدَّم في «الأنعام» و«يونس»، ويأتي في «سبحان» وغيرها^(٤). وقال الزجاج^(٥): هذا خاصٌّ بمن كفر.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ أي: ليحمدوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم من كشف الضُّرِّ والبلاء. أي: أشركوا ليحمدوا، فاللام لام «كي». وقيل: لام العاقبة^(٦). وقيل: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: ليجعلوا النعمة سبباً للكفر^(٧)، وكلُّ هذا فعلٌ خبيثٌ؛ كما

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢٠٤/٣.

(٢) الصحاح (جار).

(٣) البيت في ديوان النابغة الجعدي ص ٤١، ونسبه إليه سيبويه في الكتاب ٥٦٣/٣، والبغدادى في الخزائن ٣١٧/٣ (دار صادر) وقال: وصف النابغة الجعدي به بقرة وحشية أكل السبع ولدها فطافت، وروي: أقامت ثلاثة أيام وثلاث ليال تطلبه، ولا إنكار عندها ولا غناء إلا الإضافة، وهي الجزع والإشفاق والجؤار. اهـ وشطره الأول في الديوان: فجالت على وحشيها مستبّة.

(٤) تقدم ٤١٢/٨ - ٤١٣ و ٤٦٤/١٠ - ٤٦٥، ويأتي عند تفسير الآية (٦٧) من الإسراء.

(٥) في معاني القرآن ٢٠٤/٣.

(٦) تفسير البغوي ٧٢/٣.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٧٣/٤.

قال:

والكفرُ مَخْبِئَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعِمِ^(١)﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أمرٌ تهديد. وقرأ عبد الله^(٢): «قل^(٣) تمتعوا». ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

أي: عاقبة أمركم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأْلَاهُ لَسْتُمْ لَهُمْ عَمَّا كُتِبَ

تَفَرُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ذكر نوعاً آخر من جهالتهم، وأنهم يجعلون لِمَا لَا يَعْلَمُونَ أنه يضرُّ وينفع - وهي الأصنام - شيئاً من أموالهم يتقربون به إليه؛ قاله مجاهدٌ وقتادة^(٤) وغيرهما. فـ «يعلمون» على هذا للمشركين. وقيل: هي للأوثان، وجرى بالواو والتون مجرى مَنْ يعقل^(٥)، فهو ردٌّ على «ما»، ومفعولٌ «يعلم» محذوف، والتقدير: ويجعل هؤلاء الكفارُ للأصنام التي لا تعلم شيئاً نصيباً. وقد مضى في «الأنعام» تفسيرُ هذا المعنى في قوله: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾^(٦) [الآية: ١٣٦]. ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال: ﴿تَأْلَاهُ لَسْتُمْ لَهُمْ عَمَّا كُتِبَ تَفَرُّونَ﴾ أي: تخلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ نزلت في خُزاعة وكنانة؛ فإنهم زعموا أنَّ

(١) البيت لعنترة، وصدره: بُنِيتُ عَمراً غير شاكرٍ نعمتي. وهو في ديوانه ص ٢٨، والخزانة ١/٣٣٦. والكفر هنا: الجحد. ومخبئة: بفتح الميم: من الخُب. قاله البغدادى.

(٢) في (د): ووعده الله، وفي (ز): وواعد الله.

(٣) في (ف): قال. ولم نقف على القراءة.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/٢٥٣ عنهما.

(٥) ينظر زاد المسير ٤/٤٥٨.

(٦) ٣٦/٩ - ٣٨.

الملائكة بناتُ الله^(١)، فكانوا يقولون: أَلْحِقُوا الْبَنَاتِ بِالْبَنَاتِ. ﴿سُبْحَنَهُ﴾ نَزَّهَ نَفْسَهُ وعَظَّمَهَا عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد.

﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: يجعلون لأنفسهم البنين ويأنفون من البنات. وموضع «ما» رفعٌ بالابتداء، والخبر «لهم». وتمَّ الكلامُ عند قوله: «سبحانه»^(٢). وأجاز الفراء^(٣) كونها نصباً، على تقدير: ويجعلون لهم ما يشتهون. وأنكره الزجاج^(٤) وقال: العرب تستعمل في مثل هذا: ويجعلون لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ﴾ أي: أخبر أحدهم بولادة بنت. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: متغيّراً، وليس يريد السواد الذي هو ضدُّ البياض، وإنما هو كناية عن غَمِّه بالبنت. والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً: قد اسودَّ وجهه غَمًّا وحزنًا؛ قاله الزجاج^(٥). وحكى الماوردي^(٦) أنَّ المراد سوادُ اللون، قال: وهو قولُ الجمهور. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ممتلئٌ من الغمِّ. وقال ابن عباس: حزين. وقال الأخفش: هو الذي يكظم غيظه فلا يُظهره. وقيل: إنه المغموم الذي يُطبق فاه فلا يتكلَّم من الغمِّ؛ مأخوذاً من الكظامة، وهو شدُّ قِمِ القِرْبَةِ؛ قاله عليُّ بنُ عيسى^(٧). وقد تقدَّم هذا المعنى في سورة يوسف^(٨).

(١) الوسيط للواحدي ٦٧/٣ ، وتفسير البغوي ٧٣/٣ ، وزاد المسير ٤٥٨/٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣٩٨/٢ .

(٣) في معاني القرآن له ١٠٥/٢ .

(٤) في معاني القرآن له ٢٠٦/٣ .

(٥) في معاني القرآن ٢٠٦/٣ .

(٦) النكت والعيون ١٩٤/٣ ، وما قبله منه .

(٧) النكت والعيون ١٩٤/٣ ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢٥٦/١٤ .

(٨) ٤٣٢/١١ .

قوله تعالى: ﴿يَتَوَرَّئِنَ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَوَرَّئِنَ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: يختفي ويتغيب. ﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي: من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنت.

﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ ذكر الكناية؛ لأنه مردودٌ على «ما»^(١). ﴿عَلَى هُونٍ﴾ أي: هوان. وكذا قرأ عيسى الشافعي: «على هوان»^(٢). والهُون: الهوان بلغة قريش؛ قاله اليزيدي^(٣)، وحكاه أبو عبيد عن الكسائي^(٤). وقال الفراء: هو القليل بلغة تميم. وقال الكسائي: هو البلاء والمشقة^(٥). وقالت الخنساء^(٦):

نُهين النفوسَ وهونَ النفوسِ
سَ يومَ الكريهةِ أبقي لها
وقرأ الأعمش: «أيمسكه على سوء» ذكره النحاس^(٧)، قال: وقرأ الجحدري: «أم يدسها في التراب»، يردّه على قوله: «بالأنثى»، ويلزمه أن يقرأ: «أيمسكها». ثم قيل: يرجع الهوان إلى البنت؛ أي: أيمسكها وهي مهانةٌ عنده. وقيل: يرجع إلى المولود له، أي: أيمسكه على رغم أنفه أم يدسه في التراب، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حيّة^(٨).

قال قتادة: كان مُضَرُّ وخُزاعة يدفنون البناتِ أحياء؛ وأشدُّهم في هذا تميم.

(١) تفسير البغوي ٧٣/٣.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٧٦/٤، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٧٣ للجحدري.

(٣) النكت والعيون ١٩٤/٣، وينظر تفسير الطبري ٢٥٧/١٤.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٧٦/٤.

(٥) النكت والعيون ١٩٤/٣، وينظر معاني القرآن للفراء ١٠٦/٢ - ١٠٧.

(٦) ديوانها ص ١٢١.

(٧) في معاني القرآن ٧٦/٤.

(٨) ينظر تفسير الرازي ٥٥/٢٠.

زعموا خوفَ القهرِ عليهم، وطمعَ غيرِ الأكفاءِ فيهنَّ^(١).

وكان صَغَصَعَةُ بِنُ ناجيةَ عَمِّ الفرزدق^(٢) إذا أَحَسَّ بشيءٍ من ذلك، وجَّهَ إلى والدِ البنتِ إبلاً يستحيها بذلك^(٣). فقال الفرزدق يفتخر:

وعَمِّي الذي مَنَعَ الوائداتِ وأحيا الوئيدَ فلم يُؤادِ^(٤)
وقيل: دَسَّها: إخفاؤها عن الناس حتى لا تُعرف، كالمَدسوس في التراب؛
لإخفائه عن الأبصار، وهذا محتمل^(٥).

مسألة: ثبت في «صحيح مسلم»^(٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءني امرأةٌ ومعها ابنتان لها، فسألني، فلم تجد عندي [شيئاً] غيرَ تمرٍ واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليَّ النبي ﷺ، فحدثته حديثها، فقال النبي ﷺ: «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهنَّ، كنَّ له سِتْراً من النار». ففي هذا الحديث ما يدلُّ على أنَّ البناتِ بليَّةٌ، ثم أخبر أنَّ في الصبر عليهنَّ والإحسان إليهنَّ ما بقي من النار.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: جاءني مسكينةٌ تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاثَ تمرات، فأعطت كلَّ واحدةٍ منهما تمرَةً، ورفعت إلى فيها تمرَةً لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما؛ فأعجبني شأنها، فذكرتُ الذي صنعتُ لرسول الله ﷺ فقال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد

(١) ينظر تفسير البغوي ٧٣/٣.

(٢) كذا في تفسير البغوي ٧٣/٣، والكلام منه، وقال ابن حجر في الإصابة ١٤٢/٥: وبه جزم أبو عمر، لكن ليس للفرزدق عم اسمه صغصعة، وإنما صغصعة جده.

(٣) أخرجه ضمن حديث طويل البزار (٧٢ كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٧٤١٢).

(٤) ديوانه ص ١٧٣ برواية: ومنا الذي... وفي المصادر: وجدي الذي..

(٥) النكت والعيون ١٩٥/٣.

(٦) برقم (٢٦٢٩)، وهو عند أحمد (٢٤٥٧٢) والبخاري (١٤١٨). وما سيرد بين حاصرتين منها.

أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار».

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ» وَضَمَّ أَصَابِعَهُ، خَرَّجَهُمَا أَيْضاً مُسْلِمَ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١).

وخرَّجَ أَبُو نُعَيْمٍ الْحَافِظُ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ بِنْتُ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي أَسْبَغَ عَلَيْهِ، كَانَتْ لَهُ سِتْرًا وَحِجَابًا مِنَ النَّارِ»^(٢).

وخطب إلى عَقِيلِ بْنِ عُقْلَةَ^(٣) ابنته الجرباء فقال:
إِنِّي وَإِنْ سِيقَ إِلَيَّ الْمَهْرُ أَلْفَ وَعُبدَانٍ وَخُورٌ^(٤) عَشْرُ
أَحَبُّ أَصْهَارِي إِلَيَّ الْقَبْرِ^(٥)
وقال عبد الله بن طاهر^(٦):

(١) برقم (٢٦٣٠) و(٢٦٣١). وهما عند أحمد (٢٤٦١١) و(١٢٤٩٨).

(٢) حلية الأولياء ٥/٥٧، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (١٠٤٤٧). قال أبو نعيم: غريب من حديث الأعمش، تفرد به الأموي عن طلحة، وقال الهيثمي في المجمع ٨/١٥٨: فيه طلحة بن زيد، وهو وضاع. اهـ، ويغني عنه ما أخرجه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل... وفيه: فقال النبي ﷺ: من ابتلي من هذه البنات بشيء كنَّ له ستراً من النار.

(٣) ابن الحارث بن معاوية، يكنى أبا العمَّس وأبا الجرباء، وهو شاعر مجيد مقل، من شعراء الدولة الأموية، وابنته الجرباء تزوجها يزيد بن عبد الملك. الأغاني ١٢/٢٥٤.

(٤) في المصادر: وذود: وهو ما بين الثنتين إلى التسع من الإبل. النهاية (ذود)، والخور: الثوق الغُزُر. القاموس (خور).

(٥) ديوان المعاني ٢/٢٥١، وزهر الآداب ١/٤٨٤، والصاهل والشاحج ص ٥٧٥، وبهجة المجالس ٧٦٨/٢.

(٦) كذا وقع في النسخ، والبيتان المذكوران في ديوان المعاني ٢/٢٥١، وزهر الآداب ١/٤٨٤ منسوبان لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وهو الأمير أبو أحمد الخزاعي، ولي شرطة بغداد، وكان رئيساً جليلاً، وشاعراً محسناً، ومرتسلاً بليغاً. مات سنة ٣٠٠هـ وأما عبد الله بن طاهر فهو الأمير العادل أبو العباس، حاكم خراسان وما وراء النهر، له يد في النظم والنثر. مات سنة ٢٣٠هـ السير ١٤/٦٢ و ١٠/٢٥٢.

لكل أبي بنت يراعي شؤونها ثلاثة أصهار إذا حمد الصُّهرُ
فَبَعْلُ يُرَاعِيهَا وَخِذْرُ يَكُنُّهَا وقبر يُوارِيها وخيرُهما القبر
﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: في إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم.
نظيره: ﴿الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذَا قَسَمَ ضَرِيضَةٌ﴾ [النجم: ٢١-٢٢]^(١) أي: جائرة،
وسياتي.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لهؤلاء الواصفين لله البنات^(٢) ﴿مَثَلُ
السَّوِّ﴾ أي: صفة السَّوِّ مِنَ الجَهِل والكفر. وقيل: هو وَصْفُهُم الله تعالى بالصَّاحِبَة
والولد^(٣). وقيل: أي: العذاب والنار^(٤).

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي: الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد؛ قاله قتادة.
وقيل: أي: الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومُجازٍ^(٥). وقال ابن عباس: «مثل
السَّوِّ»: النار، و«المثل الأعلى»: شهادة أن لا إله إلا الله^(٦). وقيل: ليس كمثله
شيء^(٧). وقيل: «ولله المثل الأعلى» كقوله: ﴿اللَّهُ تَوْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾
[النور: ٣٥].

فإن قيل: كيف أضاف المَثَلَ هنا إلى نفسه، وقد قال: ﴿فَلَا تَقْرَبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾

(١) ينظر تفسير البغوي ٧٣/٣.

(٢) تفسير البغوي ٧٣/٣.

(٣) النكت والعيون ١٩٥/٣.

(٤) ينظر تفسير أبي الليث ٢٣٩/٢.

(٥) النكت والعيون ١٩٥/٣، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٥٨/١٤.

(٦) تفسير البغوي ٧٣/٣.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٤٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

[النحل: ٧٤]؟ فالجواب أن قوله: «فلا تضربوا لله الأمثال» أي: الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص؛ أي: لا تضربوا لله مثلاً يقتضي نقصاً وتشبيهاً بالخلق؛ والمثل الأعلى وصفه بما لا شبه له ولا نظير، جلّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً^(١). ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدّم معناه^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بكفرهم وافترائهم، وعاجلهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض، فهو كناية عن غير مذكور، لكن دلّ عليه قوله: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ فإنّ الدابة لا تدبّ إلا على الأرض. والمعنى المراد: من دابة كافرة، فهو خاص^(٣). وقيل: المعنى: أنّه لو أهلك الآباء بكفرهم، لم تكن الأبناء^(٤). وقيل: المراد بالآية العموم^(٥)، أي: لو أخذ الله الخلق بما كسبوا، ما ترك على ظهر هذه الأرض من دابة من نبي ولا غيره؛ وهذا قول الحسن.

وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية: لو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين، لأصاب العذاب جميع الخلق حتى الجعلان^(٦) في جحرها، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض، فمات الدواب، ولكن الله يأخذ بالعمو والفضل؛ كما قال: ﴿وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

(١) ينظر مجمع البيان ١٤/ ٨٨.

(٢) ٤٢٩/١، ٤٠٣/٢، ٤٠٤.

(٣) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٥٩.

(٤) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٩٦، وتفسير البغوي ٣/ ٧٤.

(٥) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٥٩.

(٦) جمع جُعَل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. والأثر أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٧٠)، والطبري ١٤/ ٢٦٠ مختصراً بنحوه.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ أي: أجلُ موتهم ومنتهى أعمارهم ﴿لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ وقد تقدّم^(١).

فإن قيل: فكيف يعمُّ بالهلاك مع أنَّ فيهم مؤمناً ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاءً، وهلاك المؤمن معوضاً بثواب الآخرة^(٢).

وفي «صحيح مسلم»^(٣) عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً، أصاب العذاب مَنْ كان فيهم، ثم بُعثوا على نياتهم»^(٤).

وعن أم سلمة وسُئلت عن الجيش الذي يُخسف به - وكان ذلك في أيام ابن الزبير - فقالت: قال رسول الله ﷺ: «يعودُ بالبيت عائذ، فيُبْعَثُ إليه بَعْثٌ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِفَ بهم» فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: «يُخَسَفُ به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته»^(٥).

وقد أتينا على هذا المعنى مُجَوِّداً في كتاب «التذكرة»^(٦)، وتقدّم في «المائدة» وآخر «الأنعام» ما فيه كفاية^(٧)، والحمد لله. وقيل: «فإذا جاء أجلهم» أي: فإذا جاء يومُ القيامة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السَّبْتَهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْقَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي: من البنات. ﴿وَتَصِفُ السَّبْتَهُمُ﴾

(١) ٢١٢/٩.

(٢) ينظر تفسير الرازي ٥٩/٢٠.

(٣) برقم (٢٨٧٩)، وهو عند أحمد (٤٩٨٥)، والبخاري (٧١٠٨).

(٤) في المصادر: أعمالهم.

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٨٢)، وهو عند أحمد (٢٦٤٧٥) بنحوه مختصر.

(٦) ص ٥٢٨ - ٥٣٢.

(٧) ٢٤٨/٨ ، ١٤٥/٩.

الْكَذِبَ ﴿١﴾ أي: وتقول ألسنتهم الكذب. ﴿أَنْ لَهُمُ اللَّسُنُ﴾ قال مجاهد: هو قولهم: إِنَّ لَهُمُ الْبَنِينَ وَلِلَّهِ الْبَنَاتُ ^(١). «الْكَذِبَ» مفعولٌ «تَصِفُ»، و«أَنَّ» في محل نصبٍ بدل من الكذب؛ لأنه بيانٌ له ^(٢). وقيل: «الحسنى»: الجزاء الحسن؛ قاله الزجاج ^(٣).

وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن مُحَيِّصٍ: «الْكُذْبُ» برفع الكاف والذال والباء؛ نعتاً لللسنة ^(٤)؛ وكذا ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنُكُمُ الْكَذِبَ﴾ ^(٥) [النحل: ١١٦]. والْكُذْبُ: جمع كَذُوب ^(٦)، مثل: رَسُولٌ وَرُسُلٌ، وَصَبُورٌ وَصُبُورٌ، وَشُكُورٌ وَشُكُورٌ.

﴿لَا﴾ رَدٌّ لقولهم، وَتَمَّ الكلام، أي: ليس كما يزعمون. ﴿جَعَلْنَا أَنْ لَكُمْ النَّارَ﴾ أي: حقاً أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ^(٧). وقد تقدّم مستوفى ^(٨).

﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾: متركون منسيئون في النار؛ قاله ابنُ الأعرابيِّ وأبو عبيدة والكسائيُّ والفراء، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير أيضاً: مُبْعَدُونَ. قتادة والحسن: معجلون إلى النار مقدّمون إليها ^(٩).

والفارط: الذي يتقدم إلى الماء؛ ومنه قولُ النبي ﷺ: «أَنَا قَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ»

(١) أخرجه الطبري ٢٦٢/١٤.

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤٠٠/٢، والمحتسب لابن جني ١١/٢.

(٣) معاني القرآن ٢٠٧/٣.

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤٠٠/٢، فقد نسب القراءة - نقلاً عن أبي حاتم - إلى أهل الشام أو بعضهم. ونسبها في المحتسب ١١/٢ لمعاذ، وفي زاد المسير ٤٦٠/٤ لأبي العالية والنخعي وابن أبي عبيدة.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٧٣، وابن جني في المحتسب ١٢/٢ لمسلمة بن محارب، وابن الجوزي في زاد المسير ٥٠٢/٤ لابن أبي عبيدة.

(٦) ينظر المحتسب ١١/٢.

(٧) النكت والعيون ١٩٦/٣، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢٠٧/٣، وزاد المسير ٤٦٠/٤.

(٨) ٩٤/١١ - ٩٥.

(٩) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٦٣/١٤ - ٢٦٦، وينظر معاني القرآن للنحاس ٨٠/٤.

أي: متقدمكم^(١). وقال القَظَامِيّ^(٢):

فَاسْتَعَجَلُونَا وَكَانُوا مِنْ صَحَابَتِنَا كَمَا تَعَجَّلَ فَرَّاطٌ لَوُرَّادٍ
وَالْفَرَّاطُ: المتقدمون في طلب الماء. والوُرَّاد: المتأخرون^(٣).

وقرأ نافع في رواية وَرَش: «مُفَرِّطُونَ» بكسرِ الرَّاءِ وتخفيفِها^(٤)، وهي قراءة عبد الله بن مسعود وابن عباس^(٥)، ومعناه: مُسْرِفُونَ في الذنوب والمعصية، أي: أفرطوا فيها^(٦). يقال: أفرط^(٧) فلان على فلان: إذا أزيى عليه، وقال له أكثر مما قال من الشر.

وقرأ أبو جعفر القاري: «مُفَرِّطُونَ» بكسرِ الرَّاءِ وتشديدِها، أي: مضيعون أمر الله؛ فهو من التفريط في الواجب^(٨).

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: أعمالهم الخبيثة. هذا تسلية للنبي ﷺ بأن من تقدمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ﴾ أي: ناصرهم في الدنيا على زعمهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وقيل: «فَهُوَ وَلِيُّهُمْ» أي: قرينهم في النار^(٩). ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة،

(١) النكت والعيون ١٩٦/٣. والحديث سلف ٢٥٧/٥ و ٣٥٨/٨.

(٢) ديوانه ص ٩٠.

(٣) النكت والعيون ١٩٦/٣.

(٤) وقرأ بها نافع في رواية قالون أيضاً. السبعة ص ٣٧٤، والتيسير ص ١٣٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٠/٢، والمحزر الوجيز ٤٠٤/٣.

(٦) ينظر النكت والعيون ١٩٦/٣.

(٧) في (د) ومعاني القرآن للنحاس ٨٠/٤: فرط.

(٨) النكت والعيون ١٩٧/٣، وقراءة أبي جعفر في النشر ٣٠٤/٢.

(٩) تفسير أبي الليث ٢٤٠/٢.

وأطلق عليه اسمَ اليوم؛ لشهرته. وقيل: يقال لهم يومَ القيامة: هذا وليكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب؛ على جهة التوبيخ لهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك^(١). وعطف «هُدًى وَرَحْمَةً» على موضع قوله: «لِتُبَيِّنَ» لأنَّ محله نصب. ومجاز الكلام: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا تبيانا للناس^(٢). ﴿وَهُدًى﴾ أي: رشداً وَرَحْمَةً للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: السحاب. ﴿مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ عاد الكلام إلى تعداد النعم، وبيان كمال القدرة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: دلالة على البعث وعلى وحدانيته؛ إذ علموا أنَّ معبودهم لا يستطيع شيئاً، فتكون هذه الدلالة ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله تعالى بالقلوب لا بالأذان^(٣)؛ ﴿فَأَخْيَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمُ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٥﴾

﴿وَاللَّشَّارِينَ﴾ ﴿٦٦﴾

فيه عشرُ مسائل:

(١) الوسيط للواحدى ٦٩/٣ .

(٢) ينظر الكشف ٤١٦/٢ ، وتفسير الرازي ٦٢/٢٠ .

(٣) تفسير البغوي ٧٥/٣ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُوفِي الْأَنْفَرِ لَعِبْرَةً﴾ قد تقدّم القول في الأنعام^(١)، وهي هنا الأصناف الأربعة: الإبل والبقر، والضأن والمغز^(٢). ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته. والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء؛ لتعرف حقيقة من طريق المشاكلة، ومنه ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ [الحشر: ٢]. وقال أبو بكر الورّاق: العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمردك على ربك وخلافك له في كل شيء، ومن أعظم العبر بريء يحيل مذنباً.

الثانية: قوله تعالى: ﴿تُسْقِيكُمْ﴾ قراءة أهل المدينة وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر: بفتح النون، من سقى يسقي. وقرأ الباقر وحفص عن عاصم بضم النون، من أسقى يسقي، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة. قيل: هما لغتان^(٣). وقال لبيد:

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى نُمَيْرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالٍ^(٤)

وقيل: يُقال لما كان من يدك إلى فيه: سقيته، فإذا جعلت له شرباً، أو عرّضته لأن يشرب فيه، أو بزرعه^(٥)؛ قلت: أسقيته؛ قاله ابن عَرِيز^(٦)، وقد تقدم^(٧).

وقرأت فرقة: «تسقيكم» بالتاء^(٨)، وهي ضعيفة^(٩)، يعني: الأنعام. وقُرئ بالياء^(١٠)، أي: يسقيكم الله عز وجل. والقراء على القراءتين المتقدمين؛ ففتح النون

(١) ٧٣/٩.

(٢) المحرر الوجيز ٤٠٤/٣.

(٣) التيسير ص ١٣٨، والسبعة ص ٣٧٤، وينظر الطبري ٢٧٠/١٤، وإعراب القرآن للنحاس ٤٠١/٢، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٤٩/١ - ٣٥٠.

(٤) ديوان لبيد بين ربيعة ص ١١٠، وسلف ١٣٥/٢.

(٥) في (م): يزرعه.

(٦) في نزهة القلوب ص ٨١ - ٨٢.

(٧) ١٣٥/٢.

(٨) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. ينظر النشر ٣٠٤/٢.

(٩) المحرر الوجيز ٤٠٥/٣.

(١٠) وهي قراءة أبي رجاء، وهي شاذة ينظر البحر المحيط ٥٠٨/٥.

لغة قريش، وضمها لغة جيمير.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ اختلف الناس في الضمير من قوله: «مما في بطونه» على ماذا يعود؟ فقليل: هو عائذ إلى ما قبله، وهو جمع المؤنث. قال سيويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد. قال ابن العربي^(١): وما أراه عوّل عليه إلا من هذه الآية، وهذا لا يشبه منصبه، ولا يليق بإدراكه. وقيل: لما كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يُذكر ويؤنث فيقال: هو الأنعام وهي الأنعام، جازَ عَوْدُ الضمير بالتذكير؛ وقاله الزجاج^(٢). وقال الكسائي: معناه: ممّا في بطون ما ذكرناه، فهو عائذ على المذكور^(٣)، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَذْكِرُ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوا﴾ [عبس: ١١] وقال الشاعر:

مثل الفِراخ نَتَقَتْ^(٤) حواصله

ومثله كثير. وقال الكسائي: ﴿يَمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي: ممّا في بطون بعضه؛ إذ الذكور لا ألبان لها، وهو الذي عوّل عليه أبو عبيدة. وقال الفراء^(٥): الأنعام والنعم واحد، والنعم يُذكر، ولهذا تقول العرب: هذا نَعَمٌ واردٌ، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام. قال ابن العربي^(٦): إنّما رجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة، فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع، وأنّته في سورة المؤمنين باعتبار

(١) في أحكام القرآن ١١٣٩/٣ .

(٢) في معاني القرآن ٢٠٩/٣ ونقله المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٤٠٧/٢ .

(٣) معاني القرآن للفراء ١٠٩/٢ .

(٤) في النسخ والمسائل العسكرية لأبي علي الفارسي ص ١١٧ ، وشرح شواهد الإيضاح لابن بري ص ٣٤٧ ، والمحتسب ١٥٣/٢ ، واللسان (نعم) و(خلف): نتفت، والمثبت من مجالس ثعلب كما نبّه عليه عبد السلام هارون رحمه الله، وكذلك جاء في معاني القرآن للفراء ١٣٠/١ و ١٠٩/٢ ، وتفسير الطبري ٢٧٢/١٤ - ٢٧٣ ، ونتق نتوقاً: امتلا جلده شحماً ولحمًا، تهذيب اللغة ٦٢/٩ .

(٥) في معاني القرآن ١٠٨/٢ .

(٦) في أحكام القرآن ١١٣٩/٣ .

لفظ الجماعة فقال: ﴿تَشَقِّكُم مَّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]. وبهذا التأويل ينتظم المعنى انتظاماً حسناً، والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة، والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رَمَل يَبْرِين وَتَيْهَاءِ فَلَسْطِين^(١).

الرابعة: استنبط بعض العلماء الجِلَّة - وهو القاضي إسماعيل - من عَوْدِ هذا الضَّمِير، أَنَّ لَبْنَ الْفَحْلِ يُقَيَّدُ التَّحْرِيمِ، وقال: إِنَّمَا جِيءَ بِهِ مَذْكَراً؛ لأنه راجعٌ إلى ذَكَرِ النَّعَمِ؛ لأنَّ اللَّبْنَ لِلذَّكَرِ مُحْسُوبٌ، ولذلك قضى النبي ﷺ أَنَّ لَبْنَ الْفَحْلِ يُحَرِّمُ حِينَ أَنْكَرْتَهُ عَائِشَةُ فِي حَدِيثِ أَفْلَحِ أَخِي أَبِي الْقَعِيسِ^(٢)، فللمرأة السَّقْيُ وللرجل اللقَّاحُ، فجرى الاشتراكُ فيه بينهما^(٣). وقد مضى القولُ في تحريمِ لبَنِ الْفَحْلِ في «النساء»^(٤) والحمدُ لله.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمْرٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ نَبَّهَ سبحانه على عظيمِ قدرته بخروج اللبنِ خالصاً بين القَرْنِ والدم. والقَرْنُ: الزَّيْلُ الذي ينزَلُ إلى الكَرِشِ، فإذا خرجَ لم يُسَمَّ قَرْنًا. يقال: أَقَرَنْتُ الكَرِشَ: إذا أَخْرَجْتُ ما فيها^(٥). والمعنى: أَنَّ الطَّعَامَ يَكُونُ مِنْهُ ما في الكَرِشِ، ويكونُ مِنْهُ الدَّمُ، ثم يَخْلُصُ اللبنُ مِنَ الدَّمِ، فأعلم الله سبحانه أَنَّ هذا اللبنَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ، وَبَيْنَ الدَّمِ في العروق^(٦). وقال ابنُ عباس: إِنَّ الدَّابَّةَ تَأْكُلُ الْعَلْفَ، فإذا اسْتَقَرَّ في كَرِشِهَا، طَبَخَتْهُ، فَكَانَ أَسْفَلُهُ قَرْنًا، وَأَوْسَطُهُ لَبَنًا، وَأَعْلَاهُ دَمًا، وَالْكَبِدُ مُسَلَّطٌ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَافِ، فَتَقْسِمُ الدَّمَ وَتُمَيِّزُهُ

(١) يبرين من أصقاع البحرين به منبران وهناك الرمل الموصوف بالكثرة، كما في معجم البلدان ٥/٢٧٧. وفي (ظ) وأحكام القرآن: «مها» بدل «تياه».

(٢) سلف ٦/١٨٥.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٣٩.

(٤) ٦/١٨٤.

(٥) الصحاح (قرث).

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٤٠.

وَتُجْرِيهِ فِي الْعُرُوقِ، وَتُجْرِي اللَّبْنَ فِي الضَّرْعِ، وَيَبْقَى الْفَرْثُ كَمَا هُوَ فِي الْكَرْشِ^(١)،
﴿حِكْمَهُ بَلَّغَتْهُ فَمَا تُعْنِ الْأُنْذُرُ﴾ [القمر: ٥]. ﴿خَالِصًا﴾ يريدُ من حمرة الدم، وقذارة
الْفَرْثِ، وقد جَمَعَهُمَا وعاءٌ واحدٌ^(٢). وقال ابنُ بحر: خالِصًا بياضُه^(٣). قال النابغة:
بِخَالِصَةِ الْأُرْدَانِ خُضِرِ الْمَنَاكِبِ^(٤)

أي: يبيض الأكمام. وهذه قدرة لا تنبغي إلا للقائم على كل شيء بالمصلحة.

السادسة: قال النَّقَّاش: في هذا دليلٌ على أَنَّ الْمَنِيَّ ليس بنجسٍ. وقاله أيضاً
غيره، واحتجَّ بأن قال: كما يخرجُ اللبنُ من بين الفَرْثِ والدمِ سائغاً خالِصاً، كذلك
يجوزُ أن يخرجَ المنِيُّ على مخرجِ البولِ طاهراً. قال ابنُ العربي: إنَّ هذا لجهلٌ
عظيم، وأخذُ شنيع. اللبنُ جاء الخبرُ عنه مجيء النعمة والمِنَّة الصادرة عن القدرة؛
ليكون عبرةً، فافتضى ذلك كله وصفَ الخلوصِ واللذة، وليسَ المنِيُّ من هذه الحالة
حتى يكون ملحقاً به أو مقيساً عليه^(٥).

قلت: قد يُعارض هذا بأن يقال: وأيُّ مِنَّةٍ أعظمُ وأرفعُ من خروجِ المنِيِّ الذي
يكون عنه الإنسانُ المكرم؛ وقد قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٧]،
وقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾
[النحل: ٧٢] وهذا غايةٌ في الامتنان. فإن قيل: إنه يَتَنَجَّسُ بخروجه في^(٦) مجرى البولِ؟
قلنا: هو ما أردناه، فالنَّجَاسَةُ عارضةٌ وأصلُه طاهر، وقد قيل: إن مَخْرَجَه غيرُ مخرجِ

(١) تفسير الوسيط ٧٠/٣، وتفسير الرازي ٦٤/٢٠.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٤٠.

(٣) النكت والعيون ٣/١٩٧.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص ١٢، وصدرة: يصونون أجساداً قديماً نعيمها. وقال الجوهري في الصحاح (خضر) الرُّدْدُ أصلُ الكمِّ. وأراد النابغة بقوله هذا سعة ما هم فيه من الخُصْبِ.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٤٠.

(٦) في (ظ): من.

البول وخاصة المرأة، فإنَّ مدخلَ الذكرِ منها ومخرجَ الولدِ غيرُ مخرجِ البولِ على ما قاله العلماء. وقد تقدَّم في «البقرة».

فإن قيل: أصله دمٌ فهو نجس؟ قلنا: ينتقض بالمسك؛ فإنَّ أصله دمٌ وهو طاهر. وممن قال بطهارته الشافعيُّ وأحمدُ وإسحاقُ وأبو ثور وغيرهم^(١)؛ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: كنتُ أفركه من ثوبِ رسولِ الله ﷺ يابساً بظفري^(٢). قال الشافعيُّ: فإن لم يُفرك فلا بأس به^(٣). وكان سعدُ بن أبي وقاصٍ يفرُّك المنيَّ من ثوبه. وقال ابن عباس: هو كالنخامة أمّطه عنك بإذخرة، وامسحه بخرقه^(٤). فإن قيل: فقد ثبت عن عائشة أنها قالت: كنت أغسل المنيَّ من ثوبِ رسولِ الله ﷺ، ثم يخرجُ إلى الصلاة في ذلك الثوب وأنا أنظرُ إلى أثرِ الغسل فيه؟^(٥) قلنا: يحتملُ أن تكونَ غسلته استقذاراً كالأشياء التي تُزال من الثوب كالنجاسة، ويكون هذا جمعاً بين الأحاديث^(٦). والله أعلم. وقال مالك وأصحابه والأوزاعيُّ: هو نجس^(٧). قال مالك: غسلُ الاحتلام من الثوبِ أمرٌ واجبٌ مُجمع^(٨) عليه عندنا، وهو قولُ الكوفيين. ويروى عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وجابر بن سمرة أنهم غسلوه من ثيابهم. واختلف فيه عن ابنِ عمر وعائشة. وعلى هذين القولين في نجاسة المني وطهارته التابعون^(٩).

(١) الأوسط ١٥٩/٢ - ١٦٠، والمجموع ٥٦١/٢.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨) و(٢٩٠)، وأحمد (٢٤٠٦٤).

(٣) الأم ٤٧/١.

(٤) أخرجه عنهما الشافعي في الأم ٤٨/١، وابن المنذر في الأوسط ١٥٩/٢.

(٥) أخرجه البخاري (٢٢٩) و(٢٣٠)، ومسلم (٢٨٩).

(٦) ينظر الأم ٤٨/١.

(٧) المجموع ٥٦١/٢.

(٨) في (د) و(ز) و(م): مجتمع، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الأوسط ١٥٨/٢، وعنه نقل المصنف كلام مالك، وينظر المدونة ٢١/١.

(٩) ينظر الأوسط ١٥٧/٢، والمجموع ٥٦١/٢.

السابعة: في هذه الآية دليلٌ على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره^(١)، فأما لبنُ الميتة، فلا يجوز الانتفاعُ به^(٢)؛ لأنه مائعٌ طاهرٌ حصل في وعاءٍ نجسٍ، وذلك أنَّ ضَرْعَ الميتة نجسٌ واللبن طاهرٌ، فإذا حُلِبَ صار مأخوذاً من وعاءٍ نجسٍ. فأما لبنُ المرأة الميتة، فاختَلَفَ أصحابنا فيه، فَمَن قال: إن الإنسان طاهرٌ حياً وميتاً، فهو طاهر. ومن قال: يَنْجُسُ بالموت، فهو نجس^(٣). وعلى القولين جميعاً تثبتُ الحرمة؛ لأنَّ الصبي قد يَغْتَذِي به كما يَغْتَذِي من الحية، وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الرِّضَاعُ ما أَنْبَتَ اللحم، وَأَنْشَرَ العظم»^(٤). ولم يَخُصَّ؛ وقد مَضَى في «النساء»^(٥).

الثامنة: قوله تعالى: ﴿سَاقِيَا لِلثَّائِبِينَ﴾ أي: لذيذاً هيناً لا يَعْصُ به مَنْ شَرِبَهُ. يُقَالُ: سَاعَ الشَّرابُ يَسُوعُ سَوْعاً، أي: سَهْلٌ مدخله في الحلق، وأساغه شاربُه، وسُغْتُهُ أنا أَسِغُهُ وأسُوغُهُ، يتعدَّى ولا يتعدَّى، والأجودُ: أسغته إساغةً. يقال: أَسِغَ لي عُصَّتِي، أي: أمهلني ولا تُعجلني، وقال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ يُسِغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٧]. والسَّوَاغُ، بكسر السين: ما أسغَتْ به عُصَّتَكَ. يقال: الماء سِوَاغُ الْعُصَصِ؛ ومنه قول الكُمَيْتِ:

فكانت سِوَاغاً أن جَثُرْتُ بِعُصَّةٍ^(٦)

وروي أنَّ اللبنَ لم يَشْرَقْ به أحدٌ قطُّ، وروي ذلك عن النبي ﷺ^(٧).

التاسعة: في هذه الآية دليلٌ على استعمالِ الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها،

(١) ينظر المدونة ٢٠/١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ١٢٠/١.

(٣) ينظر المجموع ٥٧٥/٢، ومختصر اختلاف العلماء للطحاوي ٣٥٧/٤ - ٣٥٨.

(٤) أخرجه أحمد (٤١١٤)، وأبو داود (٢٠٦٠) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٥) ١٨١/٦ - ١٨٢.

(٦) عَجَزُهُ: يضيق بها ذرعاً سواها طيبها، وهو في ديوان الكميّ ص ٦٦، واللسان (سوغ)، ووقع في الديوان: «إذ عثرت» بدل «أن جثرت». ويجتزأ بالمله يَجْأُ: إذا عَصَّ به. اللسان (جأز).

(٧) أورده الطبري في التفسير ٢٧٤/١٤، ولم يُبَيِّرْ إلى رفعه.

ولا يقال: إِنَّ ذلك يناقض الزهد أو يباعده، لكن إذا كان من وجهه، ومن غير سَرَف ولا إكثار. وقد تقدّم هذا المعنى في «المائدة»^(١) وغيرها. وفي الصحيح عن أنس قال: لقد سقيت رسول الله ﷺ بقَدَحِي هذا الشراب كله: العسل والنبيذ، واللبن والماء^(٢). وقد كره بعض القراء أكل الفالودج واللبن من الطعام، وأباحه عامة العلماء. وروى عن الحسن أنه كان على مائدة^(٣) ومعه مالك بن دينار، فأُتي بفالودج، فامتنع عن أكله، فقال له الحسن: كُلْ! فَإِنَّ عَلَيْكَ في الماء البارد أكثر من هذا^(٤).

العاشرة: روى أبو داود^(٥) وغيره عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ بلبن فشرّب، فقال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم طعاماً، فليقل: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْراً مِنْهُ. وإذا سَقِيَ لبناً فليقل: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وزِدْنَا مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزَى مِنْ^(٦) الطعام والشراب إِلَّا اللبن».

قال علماؤنا^(٧): فكيف لا يكون ذلك وهو أول ما يَغْتَذِي به الإنسان وتَنَمِّي به الجثث والأبدان، فهو قوتٌ خَلِيٌّ عن المفاسد، به قِوَامُ الأجسام، وقد جعله الله تعالى علامةً لجبريل على هداية هذه الأمة التي هي خيرُ الأممِ أمةً؛ فقال في الصحيح: «فجاءني جبريلُ بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبنٍ، فاخترتُ اللبنَ، فقال لي جبريلُ: اخترتُ الفِطْرَةَ، أما إِنَّكَ لو اخترتُ الخمرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ^(٨). ثم إِنَّ في الدعاء

(١) ١١٩/٨.

(٢) أخرجه البخاري بعد (٥٦٣٨) قال: قال أنس: لقد سقيت رسول الله ﷺ في هذا القدح أكثر من كذا وكذا.

(٣) في (ظ): مائدته.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١٧٦/٧، وسلف ١١٩/٨.

(٥) في السنن (٣٧٣٠)، والترمذي (٣٤٥٥) وقال: هذا حديث حسن.

(٦) في (د) و(ز) و(م): عن، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في سنن أبي داود.

(٧) ينظر إكمال المعلم ٥٠١/١.

(٨) أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة.

بالزيادة منه علامة الخصب، وظهور الخيرات والبركات، فهو مبارك كله.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٧﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ﴾ قال الطبري^(١): ومن^(٢) ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون. فحذف «ما»، ودلّ على حذفه قوله: «منه». وقيل: المحذوف «شيء» والأمر قريب. وقيل: معنى «منه» أي: من المذكور، فلا يكون في الكلام حذف، وهو أولى. ويجوز أن يكون قوله: «وَمِنْ ثَمَرَاتِ» عطفاً على «الأنعام»، أي: ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة. ويجوز أن يكون معطوفاً على «مما» أي: ونسقيكم أيضاً مشروبات من ثمرات^(٣).

الثانية: قوله تعالى: ﴿سَكَرًا﴾ السَّكْر ما يُسَكِّر. هذا هو المشهور في اللغة. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر. وأراد بالسَّكْر الخمر، وبالرَّزْقِ الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالاً من هاتين الشجرتين. وقال بهذا القول ابن جبير والنَّخِيعِي والشَّعْبِيّ وأبو ثور^(٤). وقد قيل: إنَّ السَّكْر الحَلُّ بلغة الحبشة، والرَّزْقُ الحسنُ الطعام. وقيل: السَّكْر: العصيرُ الحلوُ الحلال^(٥)، وسُمِّيَ سَكَرًا؛ لأنه قد يصيرُ مسكرًا إذا بقي، فإذا بلغ الإسكارَ حرّم. قال ابن العربي: أسدُّ هذه الأقوال قولُ ابن عباس، ويخرجُ ذلك على أحدٍ معنيين، إما أن يكونَ ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكونَ المعنى: أنعم الله عليكم بثمراتِ النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرّم

(١) في تفسيره ٢٧٤/١٤.

(٢) في (د) و(ز) و(م): التقدير ومن...، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير الطبري.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٤١، والمحرر الوجيز ٣/٤٠٥، وينظر تفسير الطبري ١٤/٢٧٤-٢٧٥.

(٤) المحرر الوجيز ٣/٤٠٥، وفي: «زيد» بدل «ثور».

(٥) النكت والعيون ٣/١٩٨، وزاد المسير ٤/٤٦٤ - ٤٦٥، وينظر تفسير الطبري ١٤/٢٨١.

الله عليكم اعتداءً منكم، وما أحلّ لكم اتفاقاً أو قصداً إلى منفعة أنفسكم. والصّحيح أنّ ذلك كان قبلَ تحريمِ الخمر، فتكون منسوخة؛ فإنّ هذه الآية مكية باتفاقٍ من العلماء، وتحريمِ الخمرِ مَدَنِيٌّ^(١).

قلت: فعلى أنّ السّكرَ الخلُّ أو العصيرُ الحلو لا نسخّ، وتكون الآية محكمة، وهو حسن. قال ابنُ عباس: الحبشة يسمّون الخلَّ السّكرَ، إلا أنّ الجمهورَ على أنّ السّكرَ الخمرُ، منهم ابنُ مسعود، وابنُ عمر، وأبو رزين، والحسن، ومجاهد، وابن أبي ليلى، والكَلْبِيُّ، وغيرُهم ممّن تقدّم ذكرهم، كلّهم قالوا: السّكرُ ما حرّمه الله من ثمرتيهما. وكذا قال أهلُ اللغة: السّكر اسمٌ للخمر وما يُسكر^(٢)، وأنشدوا:

بُسَّ الصُّحَاةُ وبُسَّ الشَّرْبُ شَرِبُهُمْ إِذَا جَرَى فِيهِمُ الْمُرَاءُ وَالسَّكْرُ^(٣)
والرزقُ الحسنُ: ما أحلّه الله من ثمرتيهما. وقيل: إن قوله: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا» خبرٌ معناه الاستفهامُ بمعنى الإنكار؛ أي: أَتَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا، وَتَدْعُونَ رِزْقًا حَسَنًا الخلَّ والزبيبَ والتمر، كقوله: «فَهُمُ الْخَالِدُونَ» [الأنبياء: ٣٤] أي: أفهم الخالدون. والله أعلم. وقال أبو عبيدة^(٤): السّكر الطّعمُ، يقال: هذا سكرٌ لك، أي: طعم. وأنشد:

جَعَلَتْ عَيْنَبُ الْأَنْحَرَمِينَ سَكَرًا^(٥)

أي جَعَلَتْ ذَمَّهُمْ طُعْمًا. وهذا اختيارُ الطبري^(٦) أنّ السّكر ما يُطعم من الطعامِ

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١١٤١/٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٨٢/١٤ - ٢٨٣، والنكت والعيون ١٩٨/٣، والمحضر الوجيز ٤٠٥/٣، وزاد المسير ٤٦٤/٤، وتهذيب اللغة ٥٨/١٠.

(٣) البيت للأخطل وهو في ديوانه ص ١١٠، والمُرَاءُ: ضربٌ من الأشربة. الصحاح (مزز).

(٤) في مجاز القرآن ١/٣٦٣.

(٥) نسبه في مجاز القرآن ١/٣٦٣ إلى جندل، وهو عند الطبري ٢٨٤/١٤، والنكت والعيون ١٩٨/٣، واللسان (سكر) دون نسبة.

(٦) في التفسير ٢٨٥/١٤.

وَحَلَّ شَرْبُهُ مِنْ ثَمَارِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ، وَهُوَ الرِّزْقُ الْحَسَنُ، فَالْلَفْظُ مُخْتَلَفٌ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، مِثْلُ ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وَهَذَا حَسَنٌ وَلَا نَسَخَ، إِلَّا أَنَّ الزَّجَاجَ قَالَ: قَوْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ هَذَا لَا يُعْرَفُ، وَأَهْلُ التَّفْسِيرِ عَلَى خِلَافِهِ، وَلَا حُجَّةَ لَهُ فِي الْبَيْتِ الَّذِي أَنْشَدَهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ عِنْدَ غَيْرِهِ أَنَّهُ يَصِفُ أَنَّهَا تَتَخَمَّرُ بِعُيُوبِ النَّاسِ.

وَقَالَ الْحَنْفِيُّونَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «سَكْرًا» مَا لَا يُسْكِرُ مِنَ الْأَنْبَذَةِ؛ وَالِدَلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى ائْتَنَّ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَقَعُ الْاِئْتِنَانُ إِلَّا بِمَحَلٍّ لَا بِمَحْرَمٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى جَوَازِ شَرْبِ مَا دُونَ الْمُسْكِرِ مِنَ النَّبِيذِ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى السَّكْرِ لَمْ يَجْزِ، وَعَضَّدُوا هَذَا مِنَ السَّنَةِ بِمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «حَرَّمَ اللَّهُ الْخَمْرَ بَعَيْنِهَا وَالسَّكْرَ مِنْ غَيْرِهَا»^(١). وَبِمَا رَوَاهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ عِنْدَ الرُّكْنِ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ الْقَدَحَ، فَرَفَعَهُ إِلَى فِيهِ، فَوَجَدَهُ شَدِيدًا، فَرَدَّهُ إِلَى صَاحِبِهِ، فَقَالَ لَهُ حِينَئِذٍ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْرَامٌ هُوَ؟ فَقَالَ: «عَلَيَّ بِالرَّجُلِ» فَأَتَيْتُ بِهِ، فَأَخَذَ مِنْهُ الْقَدَحَ، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَصَبَّهُ فِيهِ، ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَى فِيهِ فَقَطَّبَ، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ أَيْضًا فَصَبَّهُ فِيهِ ثُمَّ قَالَ: «إِذَا اغْتَلَمْتُ عَلَيْكُمْ هَذِهِ الْأَوْعِيَةُ، فَاكْسِرُوا مَثُونَهَا بِالْمَاءِ»^(٢). وَرُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يُنْبِذُ لَهُ فَيَشْرَبُهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْيَوْمِ الثَّانِي أَوْ الثَّلَاثِ سَقَاهُ الْخَادِمَ إِذَا تَغَيَّرَ، وَلَوْ كَانَ حَرَامًا مَا سَقَاهُ إِيَّاهُ^(٣).

(١) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٣/ ١١٤٢، وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْعَقِيلِيُّ فِي الضَّعْفَاءِ ٢/ ٤٢٤، مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ ﷺ، مَرْفُوعًا. وَقَالَ الْعَقِيلِيُّ: وَهَذَا يُعْرَفُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَادٍ بْنِ الْهَادِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ. وَالْمَوْقُوفُ أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي الْكِبَرِيِّ (٥١٧٤) وَ(٦٧٤٧) وَ(٦٧٤٨)، وَفِي الْمَجْتَبَى ٨/ ٣٢١، وَالطَّحَاوِيُّ فِي شَرْحِ مَعَانِي الْأَثَارِ ٤/ ٢١٤، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا. وَيَنْظُرُ الدَّرَايَةُ ٢/ ٢٥١.

(٢) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي الْكِبَرِيِّ (٥١٨٤)، وَفِي الْمَجْتَبَى ٨/ ٣٢٣. وَقَالَ: عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ نَافِعٍ لَيْسَ بِالْمَشْهُورِ، وَلَا يَحْتَجُ بِحَدِيثِهِ، وَالْمَشْهُورُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ خِلَافَ حِكَايَتِهِ. وَمَعْنَى اغْتَلَمْتُ: أَيُّ: إِذَا جَاوَزْتَ حَدُّهَا الَّذِي لَا يُسْكِرُ إِلَى حَدِّهَا الَّذِي يُسْكِرُ. النَّهْيَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ ٣/ ٣٨٢.

(٣) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٣/ ١١٤٢، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٠٠٤) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

قال الطحاوي: وقد رَوَى أَبُو عَوْنُ الثَّقَفِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَادٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حُرِّمَتِ الْخَمْرُ بَعَيْنِهَا الْقَلِيلُ مِنْهَا وَالْكَثِيرُ، وَالسَّكَّرُ مِنْ كُلِّ شَرَابٍ. خَرَجَهُ الدَّارِقُطْنِيُّ أَيْضاً^(١). ففِي هَذَا الْحَدِيثِ وَمَا كَانَ مِثْلَهُ، أَنَّ غَيْرَ الْخَمْرِ لَمْ تُحْرَمْ عَيْنُهُ كَمَا حُرِّمَتِ الْخَمْرُ بَعَيْنِهَا^(٢). قَالُوا: وَالْخَمْرُ شَرَابُ الْعَنْبِ لَا خِلَافَ فِيهَا، وَمِنْ حُجَّتِهِمْ أَيْضاً مَا رَوَاهُ شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيُّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: قَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّا نَأْكُلُ لَحُومَ هَذِهِ الْإِبِلِ، وَلَيْسَ يَقْطَعُهُ فِي بَطُونِنَا إِلَّا النَّبِيذُ. قَالَ شَرِيكٌ: وَرَأَيْتُ الثَّوْرِيَّ يَشْرَبُ النَّبِيذَ فِي بَيْتِ خَيْرٍ^(٣) أَهْلُ زَمَانِهِ مَالِكِ بْنِ مِغُولٍ.

وَالْجَوَابُ أَنْ قَوْلَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمْتَنَ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَا يَكُونُ امْتِنَانُهُ إِلَّا بِمَا أَحَلَّ. فَصَحِيحٌ، بَيِّنٌ أَنَّهُ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فَيَكُونُ مَنْسُوخاً كَمَا قَدَّمْنَاهُ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: إِنْ قِيلَ: كَيْفَ يُنْسَخُ هَذَا وَهُوَ خَبْرٌ، وَالْخَبْرُ لَا يَدْخُلُهُ النَّسْخُ؟ قُلْنَا: هَذَا كَلَامٌ مَنْ لَمْ يَتَحَقَّقِ الشَّرِيعَةَ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْخَبْرَ إِذَا كَانَ عَنِ الْوُجُودِ الْحَقِيقِيِّ، أَوْ عَنِ إِعْطَاءِ ثَوَابٍ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ، فَهُوَ الَّذِي لَا يَدْخُلُهُ النَّسْخُ، فَأَمَّا إِذَا تَضَمَّنَ الْخَبْرُ حُكْماً شَرْعِيّاً، فَلَا أَحْكَامَ تَبَدُّلٍ وَتُنْسَخُ، جَاءَتْ بِخَبْرٍ أَوْ أَمْرٍ، وَلَا يَرْجِعُ النَّسْخُ إِلَى نَفْسِ اللَّفْظِ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى مَا تَضَمَّنَهُ، فَإِذَا فَهَمْتُمْ هَذَا خَرَجْتُمْ عَنِ الصَّنْفِ الْغَيْبِيِّ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَنِ الْكُفَّارِ فِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]. الْمَعْنَى أَنَّهُمْ جَهِلُوا أَنَّ الرَّبَّ يَأْمُرُ بِمَا يَشَاءُ، وَيَكْلِفُ مَا يَشَاءُ، وَيَرْفَعُ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَهُ مَا يَشَاءُ، وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ^(٤).

(١) الطحاوي في مختصر اختلاف العلماء ٣٧٥/٤، وشرح معاني الآثار ٢١٤/٤، والدارقطني (٤٦٦٦).

(٢) مختصر اختلاف العلماء ٣٧٥/٤.

(٣) في (م): حَبْر، وأخرج أثر عمر الطحاوي في شرح معاني الآثار ٢١٨/٤، والدارقطني (٤٦٨١) و(٤٦٨٤)، والبيهقي ٢٩٩/٨، وابن عدي في الكامل ٢٩٩/٨.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٤٢ - ١١٤٣.

قلت: هذا تشنيعٌ شنيعٌ حتى يُلْحَقَ فيه العلماءُ الأخيارُ في قصورِ الفهمِ بالكفارِ، والمسألةُ أصوليةٌ، وهي أنَّ الأخبارَ عن الأحكامِ الشرعيةِ، هل يجوزُ نسخُها أم لا؟ اختلفَ في ذلك، والصحيحُ جوازُه؛ لهذه الآيةِ وما كان مثلُها^(١)، ولأنَّ الخبرَ عن مشروعيةِ حكمٍ ما يتضمَّنُ طلبَ ذلك المشروعِ، وذلك الطلبُ هو الحكمُ الشرعيُّ الذي يُستدلُّ على نسخه. والله أعلم.

وأما ما ذكروا من الأحاديثِ، فالأولُ والثاني ضعيفان^(٢)؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد روي عنه بالنقلِ الثابت أنه قال: «كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ»^(٣) وقال: «كُلُّ مَسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مَسْكِرٍ حَرَامٌ»^(٤) وقال: «مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ»^(٥). قال النسائي: وهؤلاءُ أهلُ الثَّبْتِ والعدالةِ مشهورون بصحةِ النقلِ، وعبدُ الملك لا يقومُ مقامُ واحدٍ منهم، ولو عاضده من أشكالِه جماعةٌ، وبالله التوفيق^(٦).

وأما الثالثُ - وإن كان صحيحاً - فإنه ما كان يسقيه للخادمِ على أنَّه مسكرٌ، وإنما كان يسقيه؛ لأنَّه متغيرُ الرائحةِ، وكان ﷺ يكره أن تُوجَدَ منه الرائحةُ، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيَّلَ عليه أزواجهُ في غسلِ زينبَ، بأن قيل له: إنا نجدُ منك ريحَ مغافيرٍ؟ يعني: ريحاً منكراً، فلم يشربه بعدُ^(٧). وسيأتي في «التحريم».

(١) في (ظ): لهذه الأمة ولا كان مثلها.

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٣.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٨٥)، ومسلم (٢٠٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٠٣) والنسائي في الكبرى (٥١٩١)، وأحمد (٤٦٤٤)، من حديث عبد الله بن عمر.

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٣٩٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢١٧، من حديث عبد الله بن عمرو.

(٦) السنن الكبرى للنسائي إثر حديث (٥١٩١).

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٣، وحديث المغافير أخرجه البخاري (٥٢٦٧) و(٦٦٩١)، ومسلم (١٤٧٤)، وأحمد (٢٥٨٥٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٧٤: مغافير: واحدها مُغْفُور بالضم، وله ريح كريهة منكورة، ويقال أيضاً: المغاير.

وأما حديثُ ابنِ عباسٍ، فقد رُوي عنه خلافُ ذلك من روايةِ عطاء وطاوس ومجاهد، أنَّه قال: ما أسكر كثيره فقليله حرامٌ، ورواه عنه قيس بن خبَر^(١)، وكذلك فُتياه في المسكر؛ قاله الدَّارَقُطْنِيُّ. والحديثُ الأول رواه عنه عبدُ الله بن شدَّاد، وقد خالفه الجماعةُ، فسقط القولُ به مع ما ثبت عن النبي ﷺ.

وأما ما روي عن عمرَ من قوله: ليس يقطعُه في بطوننا إلا النبيذُ. فإنه يريدُ غيرَ المسكر بدليل ما ذكرنا. وقد روى النَّسَائِيُّ عن عتبة بن فرقد قال: كان النبيذُ الذي شربه عمرُ بن الخطاب قد خُلِّل. قال النَّسَائِيُّ: ومما يدلُّ على صحة هذا حديثُ السائب، قال الحارثُ بن مسكين قراءةً عليه وأنا أسمعُ: عن ابنِ القاسم، حدثني مالك، عن ابنِ شهاب، عن السَّائب بن يزيد، أنه أخبره أنَّ عمرَ بن الخطاب خرجَ عليهم فقال: إني وجدتُ من فلانٍ ريحَ شراب، فزعم أنه شرابُ الطَّلَاء، وأنا سائلُ عمَّا شرب، فإن كان مسكرًا جلدته، فجعله عمرُ بن الخطاب ﷺ الحدَّ تامًّا^(٢). وقد قال في خطبته على منبرِ رسول الله ﷺ: أمَّا بعد، أيها الناسُ، فإنه نزلَ تحريمُ الخمر وهي من خمسة: من العنب، والعسل، والتمر، والحنطة، والشعير، والخمرُ ما خامرَ العقلَ^(٣). وقد تقدَّم في «المائدة»^(٤).

فإن قيل: فقد أحلَّ شربه إبراهيمُ النَّخَعِيُّ، وأبو جعفر الطَّحَاوِيُّ وكان إمامَ أهلِ زمانه، وكان سفيانُ الثوريُّ يشرِّبه. قلنا: ذكرَ النَّسَائِيُّ في كتابه^(٥) أنَّ أولَ مَنْ أحلَّ المسكر من الأنبياء إبراهيمُ النَّخَعِيُّ. وهذه زلةٌ من عالمٍ وقد حذرنا من زلةِ العالم، ولا

(١) في النسخ: دينار، والمثبت من سنن الدارقطني بعد رقم (٤٦٦٦)، ولم نجد قيس بن دينار في الرواة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) السنن الكبرى (٥١٩٧) و(٥١٩٨)، والمجتبى ٣٢٦/٨.

(٣) صحيح البخاري (٥٥٨١)، وصحيح مسلم (٣٠٣٢).

(٤) ١٥٩/٨.

(٥) السنن الكبرى (٥٢٤١)، والمجتبى ٣٣٥/٨.

حجة في قول أحد مع السنة^(١). وذكر النسائي^(٢) أيضاً عن ابن المبارك قال: ما وجدت الرخصة في المسكر عن أحد صحيحاً إلا عن إبراهيم. قال أبو أسامة: ما رأيت رجلاً أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك في^(٣) الشامات ومصر، واليمن والحجاز^(٤). وأما الطحاوي وسفيان، لو صحَّ ذلك عنهما، لم يُحتجَّ بهما على مَنْ خالفهما من الأئمة في تحريم المسكر مع ما ثبت من السنة، على أنَّ الطحاوي قد ذكر في كتابه الكبير في الاختلاف خلاف ذلك.

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب «التمهيد»^(٥) له: قال أبو جعفر الطحاوي: اتفقت الأمة على أن عصير العنب إذا اشتدَّ وغلى وقذف بالزبد، فهو خمرٌ ومُستحلُّه كافر. واختلفوا في نقيع التمر إذا غلى وأسكر. قال: فهذا يدلُّ^(٦) على أنَّ حديث يحيى ابن أبي كثير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «الخمر من هاتين الشجرتين: النخلة والعنب»^(٧) غيرُ معمولٍ به عندهم؛ لأنَّهم لو قبلوا الحديث لكفروا^(٨) مستحلَّ نقيع التمر، فثبت أنه لم يدخل في الخمر المحرَّمة غيرُ عصير العنب الذي قد اشتدَّ وبلغ أن يُسكر. قال: ثم لا يخلو من أن يكون التحريم معلقاً بها فقط غير مقيس عليها غيرها، أو يجبُ القياس عليها، فوجدناهم جميعاً قد قاسوا عليها نقيع التمر إذا غلى وأسكر كثيره، وكذلك نقيع الزبيب. قال: فوجب قياساً على ذلك أن يحرم كلُّ ما أسكر من الأشربة. قال: وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ مسكرٍ حرامٌ»^(٩)

(١) التمهيد ٢٥٥/١.

(٢) في السنن الكبرى (٥٢٤٢)، والمجتبى ٣٣٥/٨.

(٣) ليست في النسخ، وهي من تحفة الأشراف (١٨٩٤١).

(٤) السنن الكبرى للنسائي (٥٢٤٣)، والمجتبى ٣٣٥/٨.

(٥) ٢٥٦/١.

(٦) في (د) و(ز) و(م): يدلُّ، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في التمهيد.

(٧) أخرجه مسلم (١٩٨٥)، وأحمد (٧٧٥٣).

(٨) في (د) و(ز) و(م): لأكفروا، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في التمهيد ٢٥٦/١.

(٩) سلف آتفاً.

واستغني عن سنده؛ لقبول الجميع له، وإنما الخلاف بينهم في تأويله، فقال بعضهم: أراد به جنس ما يُسكر. وقال بعضهم: أراد به ما يقع السكر عنده، كما لا يسمى قاتلاً إلا مع وجود القتل^(١).

قلت: فهذا يدل على أنه مُحَرَّم عند الطحاوي؛ لقوله: فوجب قياساً على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة. وقد روى الدارقطني في «سننه»^(٢) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن الله لم يحرم الخمر لاسمها، وإنما حرّمها لعاقبتها. فكل شراب يكون عاقبته كعاقبة الخمر، فهو حرام كتحريم الخمر.

قال ابن المنذر^(٣): وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة، وإذا اختلف الناس في الشيء وجب رد ذلك إلى كتاب الله، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وما روي عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذي يُسكر كثيره، فللقوم ذنوب يستغفرون الله منها، وليس يخلو ذلك من أحد معنيين: إمّا مخطئ أخطأ في التأويل على حديث سمعه، أو رجل أتى ذنباً لعله أن يكثر من الاستغفار لله تعالى، والنبى ﷺ حجة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة.

وقد قيل في تأويل الآية: إنها إنما ذُكرت للاعتبار، أي: من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث، وهذا الاعتبار لا يختلف بأن كانت الخمر حلالاً أو حراماً، فاتخاذ السكر لا يدل على التحريم، وهو كما قال تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

يَعْرَشُونَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل:

(١) التمهيد ٢٥٦/١.

(٢) برقم (٤٦٦٩).

(٣) في الإشراف ٢/٣٧٧ - ٣٧٩.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾ قد مضى القول في الرّخي وأنه قد يكون بمعنى الإلهام^(١)، وهو ما يخلقه الله تعالى في القلب ابتداءً من غير سبب ظاهر، وهو من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧]. ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من ذكّ منافعها، واجتناب مضارها، وتدبير معاشها^(٢). وقد أخبر عزّ وجلّ بذلك عن المّوات فقال: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]. قال إبراهيم الحربي: لله عزّ وجلّ في المّوات قدرة لم يذّر ما هي، لم يأتيها رسول من عند الله، ولكن الله تعالى عرفها ذلك، أي: ألهمها. ولا خلاف بين المتأولين أن الوحي هنا بمعنى الإلهام. وقرأ يحيى بن وثّاب «إلى النحل» بفتح الحاء^(٣). وسُمّي نحلاً؛ لأنّ الله عزّ وجلّ نَحَلَ العسل الذي يخرج منه؛ قاله الزّجاج^(٤). الجوهري: والنحل والنحلة: الدّبر، يقع على الذكر والأنثى، حتى يقال: يَغْسُوب^(٥). والنحل يؤنث في لغة أهل الحجاز، وكلّ جمع ليس بينه وبين واحد إلا الهاء^(٦). وروى من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «الدّبان كلّها في النار يجعلها عذاباً لأهل النار إلا النحل» ذكره الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول»^(٧). وروى عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل النملة والنحلة، والهذّهد والضّرّد. خرّجه أبو داود أيضاً^(٨)، وسيأتي في «النمل»^(٩) إن شاء الله تعالى.

(١) ١٣٠/٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١١٤٤/٣.

(٣) القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٧٣.

(٤) تفسير الرازي ٧٠/٢٠.

(٥) الصحاح (نحل).

(٦) ينظر المذكر والمؤنث للفراء ص ٢٠، والمذكر والمؤنث للسجستاني ص ٧٢، وإعراب القرآن للنحاس ٤٠٢/٢، وتفسير الرازي ٧٠/٢٠.

(٧) ص ١٣٢، الأصل الرابع والتسعون.

(٨) نوادر الأصول ص ١٣١، الأصل الرابع والتسعون. وهو عند أبي داود (٥٢٦٧)، وأحمد (٣٠٦٦).

(٩) عند تفسير الآية ١٨ منها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِن أُنْزِلَ مِنْ لَّيَالٍ يُّؤْتَىٰ وَنَ الشَّجَرِ﴾ هذا إذا لم يكن لها مالكٌ. ﴿وَمِمَّا يَرْشُونَ﴾ جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة الأنواع، إمّا في الجبال وكُؤَاهَا، وإمّا في متجوفِ الأشجار، وإمّا فيما يعرّش ابنُ آدم من الأجباح^(١) والخلايا والحيطان وغيرها. وعَرَشَ معناه هنا: هبّا، وأكثر ما يُستعمل فيما يكون من إتقانِ الأغصانِ والخشب وترتيبِ ظلالها، ومنه العريشُ الذي صنّع لرسولِ الله ﷺ يومَ بدر، ومن هذا لفظةُ العرش. يقال: عَرَشَ يَعْرِشُ ويعرّش بكسرِ الراء وضمها، وقُرئ بهما. قرأ ابنُ عامر بالضمّ، وسائرهم بالكسر، واختلف في ذلك عن عاصم^(٢).

الثالثة: قال ابنُ العربي^(٣): ومن عجيبِ ما خلقَ الله في النحل أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مُسدّسة، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشكالَ من المثلث إلى المُعشّر إذا جُمع كلُّ واحدٍ منها إلى أمثاله لم يتصل، وجاءت بينهما فُرَجٌ، إلا الشكلَ المسدّس؛ فإنه إذا جُمع إلى أمثاله، اتصل كأنه كالقطعة الواحدة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وذلك أنها إنما تأكل النوّارَ من الأشجار. ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي: طرقَ ربك. والسُّبُلُ: الطرقُ، وأضافها إليه؛ لأنه خالقها. أي: ادخلي طرقَ ربك؛ لطلبِ الرزق في الجبالِ وخلالِ الشجر. ﴿ذُلُلًا﴾ جمعُ ذُلُولٍ، وهو المنقاد، أي: مطيعة مسخرة. فـ «ذُلُلًا» حالٌ من النحل، أي: تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها؛ لأنها تتبعُ أصحابها حيث ذهبوا؛ قاله ابنُ زيد. وقيل: المراد بقوله: «ذُلُلًا» السُّبُلُ. يقول: مذلّل طرقها سهلةً للسلوكِ عليها؛ واختاره الطبري،

(١) جمع الجَنَج، وهي خلية العسل. القاموس المحيط (جيج).

(٢) التيسير ص ١١٣، والسبعة ص ٣٧٤، والمحرم الوجيز ٤٠٦/٣، والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن ١١٤٤/٣.

و«ذُلًّا» حالٌ من السُّبُل. واليَعْسُوبُ سيدُ النحل، إذا وقفَ وَقَفْتُ، وإذا سارَ سارت^(١).
 قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ فيه تسعُ مسائل:
 الأولى: قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ رجعَ الخطابُ إلى الخبرِ على جهةِ تعديدِ
 النعمة، والتنبيهِ على العبرة فقال: «يخرج من بطونها شراب» يعني: العسل. وجمهورُ
 الناسِ على أنَّ العسلَ يخرجُ من أفواهِ النحل، ووردَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ عليه السلام أنه قالَ
 في تحقيرهِ للدنيا: أشرفَ لباسٍ ابنُ آدمَ فيها لعابُ دودة، وأشرفُ شرابه رَجِيعُ نحلة.
 فظاهرُ هذا أنه من غيرِ الفم^(٢). وبالجملَةِ فإنَّه يخرج ولا يُدرى من فيها أو أسفلها،
 ولكن لا يتمُّ صلاحُه إلا بحمى أنفاسِها. وقد صنعَ أرسطو طاليس بيتاً من زجاجٍ لينظرَ
 إلى كيفية ما تصنع، فأبَتْ أن تعملَ حتى لطختَ باطنَ الزجاجِ بالطين؛ ذكره الغزنويُّ.
 وقال: «من بطونها»؛ لأنَّ استحالةَ الأطعمة لا تكونُ إلا في البطن^(٣).

الثانية: قوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ يريدُ أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر،
 والجامد والسائل، والأمُّ واحدةٌ والأولاد مختلفون دليلٌ على أن القدرةَ نوعه بحسبِ
 تنوعِ الغذاء، كما يختلفُ طعمه بحسبِ اختلافِ المراعي، ومن هذا المعنى قولُ
 زينب للنبيِّ ﷺ: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُط. حينَ شَبَّهَتْ رائحتهِ برائحةِ المغافير^(٤).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ الضميرُ للعسل؛ قاله الجمهورُ^(٥). أي:
 في العسلِ شفاءٌ للناس. وروى عن ابنِ عباسٍ والحسن، ومجاهدٍ والضحاك، والفراءِ

(١) تفسير الطبري ٢٨٨/١٤ - ٢٨٩، ومعاني القرآن للفراء ١٠٩/٢، والنكت والعيون ١٩٩/٣،
 والمحزر الوجيز ٤٠٦/٣، وتفسير السمرقندي ٢٤١/٢، والصالح (عسب).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢١٠/٣ - ٢١١، والمحزر الوجيز ٤٠٦/٣.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢١٠/٣.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١١٤٥/٣، والمحزر الوجيز ٤٠٦/٣. وقول السيدة زينب رضي الله عنها
 أخرجه البخاري (٦٩٧٢)، ومسلم (١٤٧٤) (٢١)، وأحمد (٢٤٣١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وجَرَسَتْ، أي: أكلت. والعُرْفُط: شجرٌ. اللسان (جرس) و(عرفط).

(٥) المحزر الوجيز ٤٠٦/٣.

وابن كيسان: الضمير للقرآن، أي: في القرآن شفاء^(١). النحاس^(٢): وهذا قول حسن؛ أي^(٣): فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس. وقيل: العسل فيه شفاء، وهذا القول بين أيضاً؛ لأن أكثر الأشربة والمعجونات التي يُتعالج بها أصلها من العسل.

قال القاضي أبو بكر بن العربي^(٤): مَنْ قال إنه القرآن بعيد، ما أراه يصح عنهم، ولو صح نقلاً لم يصح عقلاً؛ فإن مساق الكلام كله للعسل، ليس للقرآن فيه ذكر.

قال ابن عطية^(٥): وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يُراد بها أهل البيت وبنو هاشم، وأنهم النحل، وأن الشراب القرآن والحكمة، وقد ذكر هذا بعضهم في مجلس المنصور أبي جعفر العباسي، فقال له رجل مَن حضر: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم، فأضحك الحاضرين، وبُهِت الآخر، وظهرت سخافة قوله^(٦).

الرابعة: اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ هل هو على عمومه أم لا؟ فقالت طائفة: هو على العموم في كلِّ حال ولكلِّ أحد، فروي عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلاً، حتى الدَّمَل إذا خرج عليه طلى عليه عسلاً. وحكى النقَّاش عن أبي وجرة أنه كان يكتحل بالعسل، ويستمشي بالعسل، ويتداوى بالعسل. وروى أن عوف بن مالك الأشجعي مرضَ فقيلاً له: ألا

(١) النكت والعيون ٣/ ١٩٩ - ٢٠٠، والمفهم ٥/ ٦١٠، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٩، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٦، وأخرج أثر مجاهد ابن أبي شيبه ١٠/ ٤٨٦، والطبري في التفسير ١٤/ ٢٨٩.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٨٤ - ٨٥.

(٣) في (م): أو، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس، والكلام منه.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١٤٦.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٧، وينظر الكشف للزمخشري ٢/ ٤١٨.

(٦) المفهم ٥/ ٦١٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٥ - ١١٤٦، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٢.

نعالجك؟ فقال: ائتوني بالماء، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق: ٩] ثم قال: ائتوني بعسل، فإن الله تعالى يقول: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، وائتوني بزيت، فإن الله تعالى يقول: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥]، فجاؤوه بذلك كله فخلطه جميعاً ثم شربه فبرئ. ومنهم مَنْ قال: إنه على العموم إذا خُلِطَ بالخل ويطبخ^(١)، فيأتي شراباً يُنْتَفَعُ به في كل حالةٍ من كل داء.

وتحالت طائفة: إن ذلك على الخصوص، ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل إنسان، بل إنه خبرٌ عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعض، وعلى حالٍ دون حال؛ ففائدة الآية إخبارٌ منه في أنه دواءٌ، كما^(٢) كثر الشفاء به، وصار خليطاً ومُعِيناً للأدوية في الأشربة والمعاجين. وليس هذا بأول لفظ خُصَّص، فالقرآن مملوء منه، ولغة العرب يأتي فيها العامُّ كثيراً بمعنى الخاص، والخاصُّ بمعنى العام. وممَّا يدل على أنه ليس على العموم أنَّ «شفاء» نكرةٌ في سياقِ الإثبات، ولا عمومٌ فيها باتفاق أهل اللسان، ومحققي أهل العلم، ومختلفي أهل الأصول. لكن قد حملته طائفةٌ من أهل الصدق والعزم على العموم، فكانوا يستشفون بالعسل من كلِّ الأوجاع والأمراض، وكانوا يُشَفِّون من عِلَلهم ببركة القرآن، وبصحَّة التصديق والإيقان. ابنُ العربي: وَمَنْ ضَعُفَتْ نَيْتُهُ، وَغَلَبَتْهُ عَلَى الدِّينِ عَادَتُهُ، أَخَذَهُ مَفْهُوماً عَلَى قَوْلِ الْأَطْبَاءِ، وَالْكُلُّ مِنْ حِكْمِ الْفَعَّالِ لِمَا يَشَاءُ^(٣).

الخامسة: إنَّ قال قائل: قد رأينا مَنْ يَنْفَعُهُ الْعَسَلُ وَمَنْ يَضُرُّهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ شِفَاءً لِلنَّاسِ؟ قِيلَ لَهُ: الْمَاءُ حَيَاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ يَقْتُلُهُ الْمَاءُ إِذَا أَخَذَهُ عَلَى مَا يُضَادُّهُ مِنْ عِلَّةٍ فِي الْبَدَنِ، وَقَدْ رَأَيْنَا شِفَاءَ الْعَسَلِ فِي أَكْثَرِ هَذِهِ الْأَشْرِبَةِ؛ قَالَ مَعْنَاهُ الرَّجَاجُ^(٤).

(١) في (ظ): يصبح.

(٢) في النسخ: لما، والمثبت من المحرر الوجيز ٤٠٦/٣، والكلام منه، وينظر الكشف ٤١٨/٢، وتفسير الرازي ٧٢/٢٠ - ٧٣.

(٣) المفهم ٦١٠/٥، وأحكام القرآن ١١٤٦/٣.

(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٢١١/٣.

وقد اتفق الأطباء عن بركة أبيهم على مدح عموم منفعة السكنجين^(١) في كل مرض، وأصله العسل، وكذلك سائر المعجونات. على أن النبي ﷺ قد حسم ذا^(٢) الإشكال، وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذي يشتكي بطنه بشرب العسل، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزد إلا استطلاقاً، أمره بعود الشراب له فبرئ؛ وقال: «صدق الله، وكذب بطن أخيك»^(٣).

السادسة^(٤): اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال: قد أجمعت الأطباء على أن العسل يُسهل، فكيف يُوصف لمن به الإسهال؟ فالجواب: أن ذلك القول حق في نفسه لمن حصل له التصديق بنبيّه عليه الصلاة والسلام، فيستعمله على الوجه الذي عينه، وفي المحل الذي أمره، بعقد نية وحسن طوية، فإنه يرى منفعته ويدرك بركته، كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره كما تقدّم. وأمّا ما حكى من الإجماع، فدليل على جهله بالنقل حيث لم يقيد وأطلق. قال الإمام أبو عبد الله المازري: ينبغي أن يُعلم أن الإسهال يعرض من ضروب كثيرة؛ منها: الإسهال الحادث عن التخم والهَيْضات^(٥)؛ والأطباء مجمعون في مثل هذا على أن علاجه بأن يُترك للطبيعة وفعلها، وإن احتاجت إلى مُعين على الإسهال، أُعِينت ما دامت القوة باقية، فأما حبسها فضرر، فإذا وضّح هذا قلنا: فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء وهَيْضَة، فأمره النبي ﷺ بشرب العسل، فزاده إلى أن قُيّت المادة، فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل. فإذا خرج هذا عن صناعة الطب، أذن ذلك بجهل المعترض بتلك الصناعة. قال: ولسنا نستظهر على قول نبينا بأن يصدق الأطباء

(١) شرابٌ يُتخذ من خل وعسل. معرب سركنكين. معجم متن اللغة (سكنجيين).

(٢) في (د) و(ز) و(م): داء، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ١١٤٦/٣، والكلام منه.

(٣) أخرجه أحمد (١١١٤٦)، والبخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧) عن أبي سعيد الخدري ؓ.

(٤) المفهم ٦٠٨/٥ - ٦٠٩.

(٥) الهَيْضَة: مرض من أعراضه القيء الشديد والإسهال والهزال، (الكولرا). المعجم الوسيط (هَيْض).

بل لو كذبوه، لكذبناهم وكفرناهم^(١) وصدَّقناه ﷺ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدةِ صحة ما قالوه، فنفتقر حينئذٍ إلى تأويل كلام رسول الله ﷺ وتخريجه على ما يصحُّ؛ إذ قامت الدلالة على أنه لا يكذب.

السابعة: في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ دليلٌ على جوازِ العلاجِ بشرب الدواء وغير ذلك خلافاً لمن كره ذلك من جِلَّةِ العلماء^(٢)، وهو يردُّ على الصوفية الذين يزعمون أنَّ الولاية لا تتمُّ إلا إذا رضي بجميع ما نزل به من البلاء، ولا يجوزُ له مداواة. ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيحُ عن جابرٍ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكلِّ داءٍ دواء، فإذا أصيب دواءُ الداءِ؛ برأ بإذن الله»^(٣).

وروى أبو داود، والترمذيُّ عن أسامة بن شريك قال: قالتِ الأعرابُ: ألا نتداوى يا رسولَ الله؟ قال: «نعم. يا عبادَ الله تداووا؛ فإنَّ الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً أو دواءً إلا داءً واحداً» قالوا: يا رسولَ الله وما هو؟ قال: «الهرَمَ» لفظ الترمذي^(٤)، وقال: حديثٌ حسن صحيح. وروى عن أبي خزيمة، عن أبيه قال: سألت رسولَ الله ﷺ فقلت: يا رسولَ الله، أرايت رُقَى نسترقِها، ودواءً نتداوى به، وتُقااة تنقيها، هل تُردُّ من قَدَرِ الله شيئاً؟ قال: «هي من قدرِ الله»^(٥) قال: حديثٌ حسن، ولا يُعرف لأبي خزيمة غيرُ هذا الحديثِ.

وقال ﷺ: «إن كان في شيء من أدويتكم خيرٌ، ففي شرطةٍ محجَم، أو شربةٍ من عسل، أو لذعةٍ بنار، وما أحبُّ أن أكتوي» أخرجه الصحيحُ^(٦).

(١) في (م): ولكفرناهم، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في المفهم ٦٠٩/٥.

(٢) القبس ١١٢٩/٣.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٤).

(٤) سنن أبي داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وهو عند أحمد (١٨٤٥٤).

(٥) سنن الترمذي (٢٠٦٥)، وهو عند أحمد (١٥٤٧٢).

(٦) البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تُحصى، وعلى إباحة التداوي والاسترقاء جمهور العلماء. روي أن ابن عمر اكتوى من اللقوة، ورقي من العقرب^(١). وعن ابن سيرين، أن ابن عمر كان يسقي ولده الثرياق^(٢). وقال مالك: لا بأس بذلك^(٣).

وقد احتج من كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت أمة بقضها وقضيضها الجنة؛ كانوا لا يسترقون، ولا يكتون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»^(٤). قالوا: فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاماً بالله، وتوكلاً عليه، وثقة به، وانقطاعاً إليه^(٥)؛ فإن الله تعالى قد علم أيام المرض، وأيام الصحة، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك، أو زيادته ما قدروا، قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]. وممن ذهب إلى هذا جماعة من أهل الفضل والأثر، وهو قول ابن مسعود، وأبي الدرداء رضوان الله عليهما.

دخل عثمان بن عفان على ابن مسعود في مرضه الذي قبض فيه، فقال له عثمان: ما تشكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: ألا أدعوك طيباً؟ قال: الطيب أمرضني... وذكر الحديث^(٦). وسيأتي بكماله في فضل الواقعة إن شاء الله تعالى.

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٩٤٤/٢، وعبد الرزاق في المصنف (١٩٧٧٤)، من طريق أيوب، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣٢٣/٤، من طريق أبي حنيفة، وابن أبي شيبة ٦٤/٧، والبيهقي ٣٤٣/٩، من طريق عبيد الله بن عمر، كلهم عن نافع، أن ابن عمر... واللقوة: داء في الوجه. القاموس (لقو).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٧/٥، بهذا اللفظ. وأخرجه ابن أبي شيبة ٧٧/٧، بنحوه. والثرياق: دواء مركب، وهو معرب من اليونانية. القاموس (ترق).

(٣) التمهيد ٢٧٧/٥.

(٤) أخرجه ابن حبان (٧٢٦)، وإسناده ضعيف من أجل محمد بن عيسى بن حبان المدائني. ويغني عنه ما أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، من حديث ابن عباس ؓ. وذكر فيه رسول الله ﷺ سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وهم الذين لا يتطيرون ولا يكتون ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون.

(٥) ينظر القبس ١١٢٧/٣.

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٩٧)، وابن عبد البر في التمهيد ٢٦٩/٥.

وذكر وكيع قال: حَدَّثَنَا أَبُو هَلَالٍ، عَنْ معاويةَ بْنِ قُرَّةَ قَالَ: مَرِضَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَعَادُوهُ وَقَالُوا: أَلَا نَدْعُو لَكَ طَبِيباً؟ قَالَ: الطَّبِيبُ أَضْجَعُنِي^(١). وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الرِّيعُ ابْنُ خُثَيْمٍ^(٢). وَكَرِهَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ الرَّقَى^(٣)، وَكَانَ الْحَسَنُ يَكْرَهُ شَرْبَ الْأَدْوِيَةِ كُلِّهَا إِلَّا اللَّبْنَ وَالْعَسَلَ^(٤).

وَأَجَابَ الْأَوَّلُونَ عَنِ الْحَدِيثِ بِأَنَّهُ لَا حُجَّةَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَصْدَ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْكَيْ مَكْرُوهٍ؛ بِدَلِيلِ كَيْ النَّبِيِّ ﷺ أَيْباً يَوْمَ الْأَحْزَابِ عَلَى أَكْحَلِهِ لَمَّا رُمِيَ^(٥). وَقَالَ: «الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةِ» كَمَا تَقَدَّمَ^(٦). وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَصْدُ إِلَى الرَّقَى بِمَا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ. وَرَقَى أَصْحَابُهُ، وَأَمَرَهُمُ بِالرُّقِيَّةِ^(٧)، عَلَى مَا يَأْتِي بَيَانُهُ.

الثامنة: ذَهَبَ مَالِكٌ وَجَمَاعَةُ أَصْحَابِهِ إِلَى أَنَّ لَا زَكَاةَ فِي الْعَسَلِ وَإِنْ كَانَ مَطْعوماً مُقْتَنَاتاً^(٨). وَاخْتَلَفَ فِيهِ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ، وَالَّذِي قَطَعَ بِهِ فِي قَوْلِهِ الْجَدِيدِ: أَنَّهُ لَا زَكَاةَ فِيهِ^(٩). وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ بِوُجُوبِ زَكَاةِ الْعَسَلِ فِي قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ؛ لِأَنَّ النَّصَابَ عِنْدَهُ فِيهِ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ٦/٨ ، وَ ٣٠٩/١٣ ، وَأَحْمَدُ فِي الزَّهْدِ ص ١٦٨ ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيقَةِ ٢١٨/١ .

(٢) أَخْرَجَهُ عَنْهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ٥/٨ ، وَ ٣٩٩/١٣ - ٤٠٠ .

(٣) التَّمْهِيدُ ٥/٢٧٠ .

(٤) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ٤/٨ .

(٥) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٢٠٧) ، مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ ، وَالْأَكْهَلُ عَرَّقَ فِي الْيَدِ يُقْصَدُ الصَّحَّاحُ (كَحَلِّ).

(٦) أَخْرَجَهُ بِهَذَا اللَّفْظَ الْبُخَارِيُّ (٥٦٨٠) وَ (٥٦٨١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ مِنْ قَبْلِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ ﷺ .

(٧) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٤٤) ، وَمُسْلِمٌ (٢١٩١) ، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَرْقِي يَقُولُ: «امْسَحِ الْبَاسَ رَبِّ النَّاسِ، بِيَدِكَ الشِّفَاءُ، لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا أَنْتَ» .

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ أَيْضاً (٥٧٣٨) ، وَمُسْلِمٌ (٢١٩٥) ، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، أَوْ: أَمَرَ أَنْ يُسْتَرْقَى مِنَ الْعَيْنِ .

(٨) النُّوَادِرُ وَالزِّيَادَاتُ ٢/١٠٩ ، وَأَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٣/١١٤٧ .

(٩) مُخْتَصَرُ اخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ لِلْجِصَّاصِ ١/٤٥٦ ، وَبِدَائِعُ الصَّنَائِعِ ٢/٥١٢ .

ليس بشرط. وقال محمد بن الحسن: لا شيء فيه حتى يبلغ خمسة^(١) أفرق، والفرق ستة وثلاثون رطلاً من أرطال العراق. وقال أبو يوسف: في كل عشرة أزقاق زق^(٢)؛ متمسكاً بما رواه الترمذي^(٣) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «في العسل في كل عشرة أزقاق زق» قال أبو عيسى: في إسناده مقال، ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شيء، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم: ليس في العسل شيء.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يعتبرون؛ ومن العبرة في النحل بإنصاف النظر والطاق الفكر في عجيب أمرها، فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحذقها باحتيالها في تفاوت أحوالها، هو الله سبحانه وتعالى؛ كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾ الآية. ثم إنها تأكل الحامض والمر، والحلو والمالح والحشائش الضارة، فيجعله الله تعالى عسلاً حلواً وشفاءً، وفي هذا دليل على قدرته^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ لِقَاءَهُمْ﴾^(٥) بعد عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ﴾ بَيْنَ مَعْنَاهُ. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِدُّ إِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني أردأه وأضعفه. وقيل: الذي يُنْقِصُ قُوَّتَهُ وَعَقْلَهُ وَيُصَيِّرُهُ إِلَى الْخَرَفِ وَنَحْوِهِ. وقال ابن عباس: يعني إلى أسفل العمر، يصير كالصبي الذي لا عقل له^(٥)، والمعنى

(١) في (د) و(ز) و(م): ثمانية، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في بدائع الصنائع ٥١١/٢، وينظر مختصر الطحاوي ص ٤٧، والمبسوط ١٥/٣ - ١٦.

(٢) المبسوط للسرخسي ١٦/٣.

(٣) في سننه (٦٢٩). والزق: السقاء. الصحاح (زق).

(٤) ينظر تفسير الطبري ٢٩١/١٤، وتفسير الرازي ٧٣/٢٠.

(٥) الوسيط ٧٣/٣، وزاد المسير ٤٦٧/٤.

متقارب. وفي «صحيح البخاري»^(١) عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَخْلِ». وفي حديث سعد بن أبي وقاص: «وأعوذُ بك أن أُرَدَّ إلى أُرْدِلِ العمر» الحديث. خرَّجه البخاري^(٢).

﴿لَكِنَّكَ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور؛ لفرط الكبر^(٣). وقد قيل: هذا لا يكون للمؤمن؛ لأن المؤمن لا يُنزع عنه علمه^(٤). وقيل: المعنى: لكيلا يعمل بعد علم شيئاً؛ فعبر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه؛ لأن تأثير الكبر في عمله أبلغ من تأثيره في علمه^(٥). والمعنى المقصود الاحتجاج على منكري البعث، أي: الذي رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه^(٦).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَدْوٍ يَجْحَدُونَ﴾ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي: جعل منكم غنياً وفقيراً، وحرراً وعبدًا^(٧). ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ أي: في الرزق. ﴿بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق شيئاً حتى يستوي المملوك والمالك في المال. وهذا مثل ضربته الله لعبدة الأصنام، أي: إذا لم يكن عبيدكم

(١) برقم (٦٣٧١)، وهو عند مسلم (٢٧٠٦).

(٢) برقم (٢٨٢٢).

(٣) تفسير الطبري ٢٩٢/١٤، وزاد المسير ٤٦٧/٤.

(٤) تفسير الوسيط ٧٣/٣، وتفسير الرازي ٧٧/٢٠.

(٥) النكت والعيون ٢٠٠/٣ - ٢٠١.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢١١/٣، وتفسير الرازي ٧٧/٢٠، وزاد المسير ٤٦٨/٤.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢١٢/٣، وزاد المسير ٤٦٨/٤.

معكم سواء، فكيف تجعلون عبيدي معي سواء؟ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم في أموالهم؛ لم يَجْزُ لهم أن يشاركوا الله تعالى في عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عُبِدَ؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخَلَقَهُ. حكى معناه الطبري^(١)، وقاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم^(٢). وعن ابن عباس أيضاً: أنها نزلت في نصارى نَجْرَانَ حين قالوا: عيسى ابن الله. فقال الله لهم: ﴿فَمَا الَّذِي قُضِلُوا بِرَأْيِي يَرْفَهُمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: لا يردُّ المولى على ما ملكت يمينه مما رُزِقَ حتى يكون المولى والعبد في المال شَرعاً سواء، فكيف تَرْضَوْنَ لي ما لا تَرْضَوْنَ لأنفسكم فتجعلون لي ولداً من عبيدي^(٣). ونظيرها: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم: ٢٨] على ما يأتي. ودلَّ هذا على أنَّ العبد لا يملك، على ما يأتي آنفاً^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧١)

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ جعل بمعنى خلق؛ وقد تقدم. ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعني: آدم خُلِقَ منه حواء. وقيل: المعنى: جعل لكم من أنفسكم، أي: من جنسكم ونوعكم وعلى خلقتكم، كما قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي: من الآدميين^(٥). وفي هذا ردُّ على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تَزَوِّجُ الجنَّ وتُبَاذِعُهَا، حتى روي أنَّ عمرو بن هند^(٦)

(١) في التفسير ٢٩٢/١٤ - ٢٩٣، وينظر الوسيط ٧٣/٣، وزاد المسير ٤٦٨/٤.

(٢) أخرجه عنهم الطبري في التفسير ٢٩٣/١٤ - ٢٩٥.

(٣) تفسير الرازي ٧٩/٢٠، وزاد المسير ٤٦٨/٤.

(٤) كذا قال، وسيرد في تفسير الآية الآتية برقم (٧٥).

(٥) المحرر الوجيز ٤٠٨/٣، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢١٢/٣، وبحر العلوم ٢٤٢/٢، والنكت والعيون ٢٠٢/٣.

(٦) كذا في النسخ وأحكام القرآن لابن العربي ١١٤٨/٣، وجاء في النوار ص ١٤٦ - ١٤٧، والجمهرة =

تزوج منهم غولاً، وكان يَخْبَوْها عن البرق، لئلا تراه فتنفّر، فلما كان في بعض الليالي لمح^(١) البرق وعابنته السّعلاة^(٢)، فقالت: عمرو! ونفّرت، فلم يرها أبداً. وهذا من أكاذيبها، وإن كان جائزاً في حكم الله وحكمته، فهو ردّ على الفلاسفة الذين يُنكرون وجود الجنّ، ويحيلون طعامهم^(٣). ﴿أَزْوَاجًا﴾ زوج الرجل هي ثانيته، فإنه فردّ، فإذا انضافت إليه، كانا زوجين، وإنما جُعِلت الإضافة إليه دونها؛ لأنّه أصلها في الوجود كما تقدّم^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَيْنَ وَحَفَّةٍ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَيْنَ وَحَفَّةٍ﴾ ظاهر في تعديد النعمة في الأبناء، ووجود الأبناء يكون منهما معاً، ولكنه لما كان خلق المولود فيها وانفصاله عنها؛ أضيف إليها، ولذلك تبعها في الرّق والحرية، وصار مثلها في المالية. قال ابن العربي: سمعتُ إمامَ الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء عليّ بن عقيل يقول: إنّما تبع الولد الأم في المالية، وصار بحكمها في الرّق والحرية؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له، ولا مالية فيه ولا منفعة، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها، فلاجل ذلك تبعها، كما لو أكل رجل تمرأ في أرض رجل، وسقطت منه نواة في الأرض من يد الأكل، فصارت نخلة، فإنها ملك صاحب الأرض دون الأكل بإجماع من الأمة؛ لأنها انفصلت عن الأكل ولا قيمة لها^(٥).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَحَفَّةٍ﴾ روى ابنُ القاسم عن مالك قال: وسألته عن

= ١٥٢/٣ ، وسط اللآلي ٧٠٣/٢ ، والفصول والغايات ص ٢١٠ ، ورسالة الصاهل والشاحج ص ٢٩٤ ، عمرو بن يربوع بن حنظلة .

(١) في (م): لمح، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ١١٤٨/٣ .

(٢) السّعلاة: أخبث الغيلان. الصحاح (سعل).

(٣) كذا في النسخ وأحكام القرآن لابن العربي، ولعلها: طاعتهم، وينظر الفهرست لابن النديم ص ٣٧٠ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١١٤٨/٣ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١١٤٨/٣ - ١١٤٩ .

قوله تعالى: «بَنِينَ وَحَفَدَةً» قال: الحَفَدَةُ: الخدمُ والأعوانُ في رأيي. ورُوي عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَحَفَدَةً» قال: هم الأعوانُ، مَنْ أعانَكَ فقد حَفَدَكَ. قيل له: فهل تعرفُ العربُ ذلك؟ قال: نعم وتقولهُ، أو ما سمعت قولَ الشاعر:

حَفَدَ الْوَلائدُ حَوْلَهُنَّ وَأَسْلِمَتْ بِأَكْفُهُنَّ أَزِمَةً الْأَجْمالِ^(١)

أي: أسرعنَ الخدمةَ. والولائدُ: الخدمُ، الواحدةُ وليدة؛ قال الأعشى:

كَلَّفْتُ مَجْهولَهَا نُوقاً يَمَانِيَةً إِذَا الْحُدَاةُ عَلَى أَكْسَائِهَا حَفَدُوا^(٢)

أي: أسرعوا. وقال ابنُ عرفة: الحَفَدَةُ عندَ العربِ الأعوانُ، فكلُّ مَنْ عملَ عملاً أطاع فيه وسارعَ فهو حافِدٌ، قال: ومنه قولُهُم: «إليك نسعى ونحفِدُ»^(٣)، والحَفَدَانُ: السرعةُ. قال أبو عبيد^(٤): الحَفَدُ: العملُ والخدمةُ. وقال الخليل بن أحمد^(٥): الحَفَدَةُ عند العرب الخدمُ. وقاله مجاهد^(٦). وقال الأزهري^(٧): قيل: الحَفَدَةُ أولادُ الأولادِ. ورُوي عن ابنِ عباس^(٨). وقيل: الأخْتان؛ قاله ابنُ مسعود، وعلقمة، وأبو الضحّا،

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٠ - ١١٥١، وينظر القيس ٣/ ١٠٧٢. والبيت نسبهُ ابن دريد في الجمهرة ٢/ ١٢٣ إلى الفرزدق، ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٦٤ والطبري في تفسيره ١٤/ ٣٠٢، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٠٢ إلى جميل، ونسبه أبو عبيد الهروي في غريب الحديث ٣/ ٣٧٤ إلى الأخطل، وسيأتي قريباً عند المصنف منسوباً إلى كثير، ولم نقف عليه في دواوين هؤلاء الشعراء، وهو عند الطبراني في الكبير (١٠٥٩٧) ١٠/ ٢٥٠ في سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس، ونسبه لامية ابن أبي الصلت، ولم نقف عليه في ديوانه، وهو عند الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٨ دون نسبة.

(٢) لم نقف عليه للأعشى، والبيت للراعي النميري وهو في ديوانه ص ٥٨، ونسبه إليه أيضاً الطبري في التفسير ١٤/ ٣٠٣، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣، ومحمد بن المبارك في منتهى الطلب ٦/ ٣٧، والأكساء جمع الكسبي، وهو مؤخر العَجَزِ وكلُّ شيء. القاموس (كسي).

(٣) قطعة من حديث دعاء القنوت، وسلف ٥/ ٣١٠، وينظر اللسان (حفد).

(٤) في غريب الحديث ٣/ ٣٧٤.

(٥) في العين ٣/ ١٨٥، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥١.

(٦) في تفسيره ١/ ٣٤٩، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٩.

(٧) في تهذيب اللغة ٤/ ٤٢٨.

(٨) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٠١.

وسعيد بن جبير، وإبراهيم^(١)؛ ومنه قول الشاعر:

فلو أنَّ نفسي طاوعتني لأصباحُ لها حَفْدٌ مما يُعَدُّ كثيرُ
ولكنها نفسٌ عليَّ أبيَّةٌ عيوفٌ لإصهارِ اللئامِ قذورُ^(٢)

وَرَوَى زُرٌّ، عن عبدِ الله قال: الحَفْدَةُ الأصهارُ. وقاله إبراهيم^(٣)، والمعنى متقارب. قال الأصمعي^(٤): الحَتْنُ مَنْ كان من قِبَلِ المرأة، مثل أبيها وأخيها وما أشبههما؛ والأصهارُ منهما جميعاً. يقال: أصهرَ فلانٌ إلى بني فلانٍ وصاهرَ. وقولُ عبدِ الله: همُ الأختانُ، يحتملُ المعنيين جميعاً. يحتملُ أن يكونَ أبا المرأة وما أشبهه من أقربائها، ويحتملُ أن يكونَ أرادَ: وجعلَ لكم من أزواجكم بنين وبناتٍ تزوجونهنَّ، فيكونَ لكم بسببهنَّ أختان. وقال عكرمة: الحَفْدَةُ مَنْ نفعَ الرجلَ من ولده^(٥). وأصله من: حَفَدَ يحفدُ، بفتحِ العين في الماضي، وكسرها في المستقبل، إذا أسرَعَ في سيره^(٦)؛ كما قال كُثَيِّرُ:

حفَدَ الولائدُ بينهنَّ... البيت^(٧).

ويقال: حَفَدْتُ وأحفَدْتُ، لغتان: إذا حَدَمْتَ. ويقال: حافدٌ وحَفْدٌ؛ مثل: خادمٌ وَحَدَمٌ، وحافدٌ وحَفْدَةٌ مثل: كافرٌ وكفرة^(٨). قال المهدوي: وَمَنْ جعلَ الحَفْدَةَ

(١) أخرجه عنهم إلا علقمة الطبري في التفسير ٢٩٦/١٤ - ٢٩٨ ، وينظر النكت والعيون ٢٠٢/٣ ، والمحرم الوجيز ٤٠٨/٣ .

(٢) البيتان للصحابي الجليل النعمان بن بشير الأنصاري، كما في ديوانه ص ١٠٢ ، وهما في النكت والعيون ٢٠٢/٣ ، وزاد المسير ٤٦٩/٤ دون نسبة.

(٣) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ٢٩٧/١٤ - ٢٩٨ .

(٤) تهذيب اللغة ٣٠٠/٧ .

(٥) أخرجه عنه الطبري في التفسير ٢٩٨/١٤ - ٢٩٩ .

(٦) ينظر الصحاح (حفد).

(٧) سلف آنفاً.

(٨) ينظر الصحاح (حفد)، ومعاني القرآن للقرآء ١١٠/٢ .

الخدم؛ جعله منقطعاً مما قبله ينوي به التقديم؛ كأنه قال: جعل لكم حفدة، وجعل لكم من أزواجكم بنين.

قلت: ما قاله الأزهرى من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن، بل نصه؛ ألا ترى أنه قال: «وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة» فجعل الحفدة والبنين منهن. وقال ابن العربي: الأظهر عندي في قوله «بنين وحفدة» أن البنين أولاد الرجل لضلبيه والحفدة أولاد ولده، وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا، ويكون تقدير الآية على هذا: وجعل لكم من أزواجكم بنين ومن البنين حفدة^(١). وقال معناه الحسن^(٢).

الثالثة: إذا قرعنا على قول مجاهد وابن عباس، ومالك وعلماء اللغة في قولهم: إن الحفدة الخدم والأعوان، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان؛ قاله ابن العربي^(٣). روى البخاري^(٤) وغيره، عن سهل بن سعد، أن أبا أسيد الساعدي دعا النبي ﷺ لعريسه، فكانت امرأته خادمهم... الحديث، وقد تقدم في سورة هود^(٥). وفي «الصحيح» عن عائشة قالت: أنا قتلت فلاتد بذن النبي ﷺ بيدي^(٦). الحديث. ولهذا قال علماؤنا: عليها أن تفرش الفراش، وتطبخ القدر، وتقم الدار، بحسب حالها وعادة مثلها؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِسَكَنٍ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فكأنه جمع لنا فيها السكن والاستمتاع وضرباً من الخدمة بحسب جري العادة.

الرابعة: ويخدم الرجل زوجته فيما خف من الخدمة، ويعينها؛ لما روته عائشة

(١) أحكام القرآن ٣/ ١١٥٠.

(٢) أخرجه عنه الطبري في التفسير ٢٩٩/١٤.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١٥١.

(٤) في صحيحه (٥١٧٦)، ومسلم (٢٠٠٦).

(٥) ١١/ ١٦٦.

(٦) أخرجه البخاري (١٧٠٠)، ومسلم (١٣٢١).

أن النبي ﷺ كَانَ يَكُونُ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ خَرَجَ^(١). وهذا قول مالك: وَيُعِينُهَا^(٢). وفي أخلاق النبي ﷺ أنه كَانَ يَخْصِفُ النَعْلَ، وَيَقُمُّ الْبَيْتَ، وَيَخِيطُ الثَّوبَ^(٣). وقالت عائشةُ وَقَدْ قِيلَ لَهَا: مَا كَانَ يَعْمَلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ بَشْرًا مِنَ الْبَشَرِ يُقْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ^(٤).

الخامسة: وَيَنْفِقُ عَلَى خَادِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقِيلَ: عَلَى أَكْثَرٍ، عَلَى قَدْرِ الثَّرْوَةِ وَالْمَنْزِلَةِ. وهذا أمرٌ دَائِرٌ عَلَى الْعَرَفِ الَّذِي هُوَ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ الشَّرِيعَةِ، فَإِنَّ نِسَاءَ الْأَعْرَابِ وَسَكَانِ الْبُوَادِي يَخْدُمْنَ أَزْوَاجَهُنَّ فِي اسْتِعْذَابِ الْمَاءِ وَسِيَاسَةِ الدَّوَابِّ، وَنِسَاءَ الْحَوَاضِرِ يَخْدُمُ الْمُقِلُّ مِنْهُنَّ زَوْجَتَهُ فِيمَا خَفَّ وَيُعِينُهَا، وَأَمَّا أَهْلُ الثَّرْوَةِ فَيَخْدُمُونَ^(٥) أَزْوَاجَهُنَّ وَيَتَرَفَّهْنَ مَعَهُمْ إِذَا كَانَ لَهُمْ مَنْصَبٌ ذَلِكَ؛ فَإِنْ كَانَ أَمْرًا مُشْكَلاً شَرَطَتْ عَلَيْهِ الزَّوْجَةُ ذَلِكَ، فَتَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ عَرَفَ أَنَّهَا مَمَّنْ لَا تَخْدُمُ نَفْسَهَا، فَالْتَزَمَ^(٦) إِخْدَامَهَا، فَيَنْفِذُ ذَلِكَ، وَتَنْقُطُ الدَّعْوَى فِيهِ^(٧).

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: مِنَ الثَّمَارِ وَالْحَبُوبِ وَالْحَيَوَانِ. ﴿أَفَيَا بَطُلٍ﴾ يعني: الْأَصْنَامَ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(٨). ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ بِالْيَاءِ، وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِالتَّاءِ^(٩). ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: بِالْإِسْلَامِ. ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾^(١٠).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٧٦).

(٢) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٣/ ١١٥١.

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو الشَّيْخِ فِي أَخْلَاقِ النَّبِيِّ ص ٢٠ - ٢١ وَ ٦٢، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ.

(٤) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الشَّمَائِلِ (٣٣٦).

(٥) فِي النُّسخِ الْخَطِيئَةِ: فَيَخْدُمْنَ، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (م)، وَأَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٣/ ١١٥٠.

(٦) فِي (ظ): فَلِلْقَوْمِ.

(٧) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٣/ ١١٥٠.

(٨) النَّكْتُ وَالْعَيُونُ ٣/ ٢٠٣، وَتَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ٢٠/ ٨١، وَزَادَ الْمَسِيرُ ٤/ ٤٧٠.

(٩) الْمَحْرُورُ الْوَجِيزُ ٣/ ٤٠٨.

(١٠) الْوَسِيطُ ٣/ ٧٤، وَالنَّكْتُ وَالْعَيُونُ ٣/ ٢٠٣، وَزَادَ الْمَسِيرُ ٤/ ٤٧٠.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ يعني: المطر. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ يعني: النبات^(١). ﴿شَيْئًا﴾ قال الأخفش^(٢): هو بدلٌ من الرزق. وقال الفراء^(٣): هو منصوبٌ بإيقاع الرزق عليه، أي: يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئاً. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: لا يقدرُونَ على شيء، يعني: الأصنام. ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تُشَبِّهُوا به هذه الجمادات؛ لأنه واحدٌ قادر لا مثل له^(٤). وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِنْ رِزْقِنَا مِثْلًا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُفِيقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ نَبَّه تعالى على ضلالة المشركين، وهو مُتَنَزِّهٌ بما قبله من ذكرِ نِعَمِ الله عليهم، وعدمِ مثلِ ذلك من آلهتهم. «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا» أي: بَيَّنَّ شَبَهًا، ثم ذكر ذلك فقال: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ أي: كما لا يستوي عندكم عبدٌ مملوك لا يقدرُ من أمره على شيء، ورجلٌ حرٌّ قد رُزِقَ رِزْقًا حَسَنًا، فكذلك أنا وهذه^(٥) الأصنام. فالذي هو مثالٌ في هذه الآية هو عبدٌ بهذه الصفة مملوكٌ لا يقدرُ على شيءٍ من المال، ولا من أمرٍ نفسه، وإنَّما هو مسخَّرٌ بإرادة سيده^(٦). ولا يلزمُ من

(١) تفسير أبي الليث ٢/٢٤٣.

(٢) في معاني القرآن له ٢/٦٠٧.

(٣) في معاني القرآن له ٢/١١٠، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/٤٠٣.

(٤) تفسير الطبري ١٤/٣٠٥، والوسيط ٣/٧٤، والمحزر ٣/٤٠٩، وزاد المسير ٤/٤٧١.

(٥) في (ظ): وعبد.

(٦) تفسير الطبري ١٤/٣٠٧ و ٣٠٩ و ٣١١، وزاد المسير ٤/٤٧٢.

الآية أَنَّ العبيدَ كُلَّهُم بهذه الصفة؛ فَإِنَّ النكرةَ في الإثباتِ لا تقتضي الشمولَ عندَ أهلِ اللسانِ كما تقدَّم، وإنما تفيدُ واحداً^(١)، فإذا كانت بعدَ أمرٍ أو نهْيٍ أو مضافةً إلى مصدرٍ، كانت للعمومِ الشيعي^(٢)، كقوله: أعتقَ رجلاً، ولا تُهنِ رجلاً، والمصدر كإعتاق رقية، فأَيُّ رجلٍ أعتقَ فقد خرجَ عن عهدِ الخطاب، ويصحُّ منه الاستثناء.

وقال قتادة^(٣): هذا المثلُ للمؤمنِ والكافرِ. فذهبَ قتادةُ إلى أَنَّ العبدَ المملوكَ هو الكافرُ؛ لأنَّه لا ينتفعُ في الآخرةَ بشيءٍ من عبادته، وإلى أَنَّ معنى «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» المؤمنُ. والأولُ عليه الجمهورُ من أهلِ التأويل. قال الأصمُّ^(٤): المرادُ بالعبدِ المملوكُ الذي ربَّما يكون أشدَّ من مولاه أسراً^(٥)، وأنصرَ وجهاً، وهو لسيده ذليلٌ لا يقدرُ إلا على ما أُذنَ له فيه؛ فقال الله تعالى ضرباً للمثال: أي: فإذا كان هذا شأنُكم وشأنَ عبيدِكم، فكيفَ جعلتم أحجاراً أمواتاً^(٦) شركاءَ لله تعالى في خلقه وعبادته، وهي لا تعقلُ ولا تسمعُ؟!.

الثانية: فَهَمَّ المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصانَ رتبةِ العبدِ عن الحرِّ في المِلْك، وأنه لا يملكُ شيئاً وإنْ مِلَّكَ. قال أهلُ العراق: الرِّقُّ ينافي المِلْكَ^(٧)، فلا يملكُ شيئاً البتَّةَ بحال، وهو قولُ الشافعيِّ في الجديد، وبه قال الحسنُ وابنُ سيرين. ومنهم مَنْ قال: يملكُ؛ إلا أنه ناقصُ المِلْك؛ لأنَّ لسيده أن ينتزعه منه أيَّ وقتٍ شاء، وهو قولُ مالكٍ ومَنْ اتبعه، وبه قال الشافعيُّ في القديم، وهو قولُ أهلِ

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٣.

(٢) في النسخ الخطية: الشرعي، والمثبت من (م).

(٣) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ٣٠٧/١٤ - ٣٠٨.

(٤) نقله عنه الكيا الهراسي في أحكام القرآن ٤/ ٢٤٤.

(٥) الأسر: الخلق. الصحاح (أسر).

(٦) في (م): مواتاً، والمثبت من النسخ الخطية، وأحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٤٤.

(٧) المبسوط ٤/ ١٥٠.

الظاهر، ولهذا قال أصحابنا: لا تجب عليه عبادة الأموال من زكاة وكفارات، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سيده؛ كالحج والجهاد وغير ذلك.

وفائدة هذه المسألة أن سيده لو ملكه جارية، جاز له أن يطأها بملك اليمين، ولو ملكه أربعين من الغنم، فحال عليها الحول، لم تجب على السيد زكاتها؛ لأنها ملك غيره، ولا على العبد؛ لأن ملكه غير مستقر. والعراقي يقول: لا يجوز له أن يطأ الجارية، والزكاة في النصاب واجبة على السيد كما كانت^(١). ودلائل هذه المسألة للفريقين في كتب الخلاف.

وأدل دليل لنا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] فسوى بين العبد والحر في الرزق والخلق. وقال عليه الصلاة والسلام: «من أعتق عبداً وله مال...»^(٢) فأضاف المال إليه. وكان ابن عمر يرى عبده يتسرى في ماله فلا يعيب عليه ذلك^(٣). وزوي عن ابن عباس أن عبداً له طلق امرأته طلقتين، فأمره أن يرتجعهما بملك اليمين^(٤)؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده، ويفعل فيه ما يفعل المالك في ملكه ما لم يتزعه سيده. والله أعلم.

الثالثة: وقد استدلل بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده، وعلى أن بيع الأمة طلاقها، معولاً على قوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾. قال: فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلاً، لا على الملك ولا على غيره، فهو على عمومته، إلا أن يدل دليل على خلافه. وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص^(٥). والله تعالى أعلم.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٣ - ١١٥٤، والإشراف على مذاهب العلماء ٤/ ١٣٠ - ١٣١.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٩٢)، ومسلم (١٥٠٣)، من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٢٨٣٦)، والبيهقي ٧/ ١٥٢.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٢٨٤٣).

(٥) ينظر الاستذكار ١٧/ ٢٩٢ - ٢٩٣.

الرابعة: قال أبو منصور^(١) في عقيدته: الرزق ما وقع الاغتذاء به. وهذه الآية ترد هذا التخصيص، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. و﴿أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وغير ذلك من قول النبي ﷺ: «جُعِلَ رزقي تحت ظل رُمحي»^(٢) وقوله: «أرزاق أمتي في سنابك خيلها، وأسنة رماحها»^(٣). فالغنيمة كلها رزق، وكل ما صحَّ به الانتفاع فهو رزق، وهو مراتب: أعلاها ما يُغذي. وقد حصر رسول الله ﷺ وجوه الانتفاع في قوله: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالِك إلا ما أكلت فأفنيته، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»^(٤). وفي معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك^(٥). وفي السنة المحدثين: السماع رزق^(٦)، يعنون سماع الحديث، وهو صحيح.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾: هو المؤمن؛ يطيع الله في نفسه وماله. والكافر لما لم ينفق في الطاعة؛ صار كالعبد الذي لا يملك شيئاً. ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أي: لا يستوون^(٧)، ولم يقل: يستويان؛ لمكان «من»؛ لأنه اسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع، والمذكر والمؤنث. وقيل: «إنَّ عبداً مملوكاً»، «ومن رزقناه» أريد بهما الشيوع في الجنس.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هو مستحق للحمد دون ما يعبدون من

(١) محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، كان من كبار العلماء، له كتاب التوحيد، والمقالات، وتأويلات القرآن، وغيرها (ت ٣٣٣هـ). الجواهر المضية ٣/ ٣٦٠ - ٣٦١.

(٢) سلف ١٠/ ١٦٠، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه يحيى بن آدم في الخراج (٢٥٥)، وابن أبي شيبة في المصنف ٥/ ٣٣٥، عن مكحول، مرسل.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٣٠٥) و(١٦٣٠٦)، ومسلم (٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشخير.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩ - ٣١٠.

(٦) المجاز والمجيز لأبي طاهر السلفي ١/ ٧٥ و ٨٠.

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

دونه؛ إذ لا نعمة للأصنام عليهم من يد ولا معروف، فتُحمد عليه، إنما الحمدُ الكامل لله؛ لأنه المنعمُ الخالق. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثر المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الحمد لي، وجميع النعمة مني. وذكر الأكثر وهو يريد الجميع^(١)، فهو خاصُّ أريد به التعميم. وقيل: أي: بل أكثر الخلق لا يعلمون، وذلك أن أكثرهم المشركون.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦)

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ هذا مثلٌ آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن^(٢)، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى؛ قاله قتادة وغيره^(٣). وقال ابن عباس: الأبكم عبد كان لعثمان ؓ، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى، ويأمر بالعدل عثمان^(٤). وعنه أيضاً: أنه مثلٌ لأبي بكر الصديق ومولاه كافر. وقيل: الأبكم أبو جهل، والذي يأمر بالعدل عمار بن ياسر العنسي^(٥)، وعنس، بالنون: حيٌّ من مذحج، وكان حليفاً لبني مخزوم رهط أبي جهل، وكان أبو جهل يُعذِّبه على الإسلام، ويعذب أمه سُمَيَّة، وكانت مولاةً لأبي جهل، وقال لها ذات يوم: إنما آمنتِ بمحمد؛ لأنك تُحبِّينه لجمالِه، ثم طعنها بالرمح في قُبُلِها فماتت، فهي أول شهيد مات في الإسلام^(٦)، رحمها الله. من كتاب النقاش وغيره. وسيأتي هذا في آية الإكراه^(٧) مبيناً إن شاء الله تعالى.

(١) الوسيط ٧٥/٣.

(٢) تفسير الطبري ٣٠٩/١٤، والنكت والعيون ٢٠٤/٣.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٣١٠/١٤ عن قتادة، و ٣١١/١٤ عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٣١١/١٤ - ٣١٢، والواحي في الوسيط ٧٥/٣.

(٥) ينظر البحر المحيط ٥١٩/٥ - ٥٢٠.

(٦) السيرة الحلبية ٤٨٣/١، والأوائل للعسكري ٣١٢/١.

(٧) الآية ١٠٦ من هذه السورة.

وقال عطاء: الأَبْكُمُ أَبِيُّ بْنُ خَلْفٍ، كان لا ينطقُ بخير. ﴿وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَانَهُ﴾ أي: قومه؛ لأنه كان يُؤذِيهم ويؤذي عثمانَ بْنَ مَطْعُونٍ^(١). وقال مقاتل: نزلت في هاشم^(٢) بن عمرو بن الحارث، كان كافراً قليلاً الخير يعادي النبي ﷺ. وقيل: إنّ الأَبْكُمُ الكافرُ، والذي يأمرُ بالعدلِ المؤمنُ جملةً بجملة؛ روي عن ابن عباس^(٣)، وهو حَسَنٌ؛ لأنه يَعُمُّ.

والأَبْكُمُ: الذي لا نطقَ له. وقيل: الذي لا يعقل. وقيل: الذي لا يسمعُ ولا يبصر^(٤). وفي التفسير: إنّ الأَبْكُمَ هاهنا الوثنُ. بيّن أنه لا قدرةَ له ولا أمر، وأنَّ غيره ينقله وَيَنْجِتُهُ، فهو كُلٌّ عليه. واللهُ الأمرُ بالعدل، الغالبُ على كل شيء. وقيل: المعنى «وهو كُلٌّ على مولاه» أي: يُقْلُ على وَلِيَّه وقرايته، ووبالٍ على صاحبه وابنِ عمه^(٥). وقد يُسمَّى اليتيمُ كَلًّا؛ لثقله على مَنْ يَكْفُلُهُ؛ ومنه قولُ الشاعر:

أَكُوْلُ لِمَالِ الْكَلِّ قَبْلَ شَبَابِهِ إذا كان عَظْمُ الْكَلِّ غَيْرَ شَدِيدٍ^(٦)

والكَلُّ أيضاً: الذي لا ولدَ له ولا والد^(٧). والكَلُّ: العيَالُ، والجمع الكُلُولُ^(٨)؛ يقال منه: كُلُّ السَّكِينِ يَكِلُّ كَلًّا، أي: غَلَطَتْ شَفْرَتُهُ فلم يَقْطَعْ.

(١) زاد المسير ٤/٤٧٣ - ٤٧٤.

(٢) كذا في النسخ وتفسير البغوي ٣/٧٨ والخبر فيه، ولعله هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث القرشي العامري، ذكره ابن إسحاق في المؤلفات ممن أعطاه النبي ﷺ دون المئة من غنائم حنين. الإصابة ٢٥٠/١٠.

(٣) النكت والعيون ٣/٢٠٤.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/٢١٣.

(٥) مجاز القرآن ١/٣٦٤، وتفسير السمرقندي ٢/٢٤٣.

(٦) المحرر الوجيز ٣/٤١١، والبيت في العين ٥/٢٧٩، وتهذيب اللغة ٩/٤٤٦، واللسان (كلل) دون نسبة.

(٧) تهذيب اللغة ٩/٤٤٦.

(٨) العين ٥/٢٧٩.

﴿أَيْنَمَا يُوجَّهْ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ قرأ الجمهور: «يُوجَّهْ»، وهو خطُّ المصحف؛ أي: أينما يرسله صاحبه لا يأتِ بخير؛ لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له، ولا يفهم عنه. وقرأ يحيى بن وثاب: «أينما يُوجَّهْ» على الفعل المجهول. وروي عن ابن مسعود^(١) أيضاً: «تُوجَّهْ»^(٢) على الخطاب.

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: هل يستوي هذا الأَبَكُم، وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ عَلَى الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؟!

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدَّم معناه. وهذا متصل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: شرع التحليل والتحريم إنما يحسن مِمَّنْ يُحِيطُ بِالْعَوَاقِبِ والمصالح، وأنتم أيُّها المشركون لا تحيطون بها؛ فَلِمَ تتحكَّمون؟!

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ وتُجَازُونَ فيها بأعمالكم. والساعةُ هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة؛ سُمِّيت ساعة؛ لأنها تفجأ الناس في ساعة، فيموت الخلقُ بصيحة. واللَّمْحُ: النظرُ بسرعة؛ يقال: لَمَحَ لَمَحًا وَلَمَحَانًا^(٣). ووجه التأويل أن الساعة لما كانت آتيةً ولا بدَّ، جُعِلَتْ من القربِ كلمح البصر^(٤). وقال الزَّجَّاجُ^(٥): لم يُرَدَّ أن الساعة تأتي في لمحِ البصر، وإنما وصفت سرعة القدرة على الإتيان بها؛ أي: يقول للشيء: كن، فيكون. وقيل: إنما مثَّل بلمح البصر؛ لأنه يلمح السماء مع

(١) بعدها في (ز): وعن ابن مسعود.

(٢) في النسخ: توجه، والمثبت من المحرر الوجيز ٤١١/٣، والكلام منه، وقد نصَّ على أنها بهاءين أبو حيان في البحر المحيط ٥٢٠/٥. وينظر القراءات الشاذة ص ٧٣، والمحاسب ١١/٢.

(٣) تفسير الرازي ٨٨/٢٠، والوسيط ٧٥/٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤١١/٣، وزاد المسير ٤٧٤/٤.

(٥) في معاني القرآن له ٢١٤/٣، ونقله المصنف عنه بواسطة تفسير أبي الليث السمرقندي ٢٤٤/٢.

ما هي عليه من البعد من الأرض. وقيل: هو تمثيل للقرب؛ كما يقول القائل: ما السنة إلا لحظة، وشبهه. وقيل: المعنى: هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين؛ دليله قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَزَرَّهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧].

﴿أَرَأَيْتُمْ أَقْرَبَ﴾ ليس «أو» للشك بل، للتمثيل بأيهما أراد الممثل^(١). وقيل: دخلت لشك المخاطب. وقيل: «أو» بمنزلة بل^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء. وفيه ثلاثة أقاويل: أحدها: لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم. الثاني: لا تعلمون شيئا مما قضى عليكم من السعادة والشقاء^(٣).

الثالث: لا تعلمون شيئا من منافعكم. وتم الكلام، ثم ابتداء فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: التي تعلمون بها وتدركون؛ لأن الله جعل^(٤) ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطن، وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم^(٥)، أي: وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته.

(١) في (ظ): المثل.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٤٤، والمحرم الوجيز ٣/ ٤١١.

(٣) في (د) و(ظ): الشقاوة.

(٤) في (ز) و(ف): لا أن الله جعل، وفي (ظ): لا أن جعل ذلك، والمثبت من (د) و(م)، وهو الصواب.

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٣١٥، ومعنى قوله: وإنما أعطاهم ذلك...، أي: أعطاهم العلم والعقل بعدما أخرجهم من بطون أمهاتهم، وينظر تفسير البغوي ٣/ ٧٩.

والأفئدة: جمع الفؤاد؛ نحو غراب وأغربة^(١).

وقد قيل: في ضمن قوله: «وجعل لكم السَّمْعَ»: إثبات النطق؛ لأن من لم يسمع لم يتكلم، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق.

وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة: «إمّهاتكم» هنا وفي النور والزمر والنجم^(٢)، بكسر الهمزة والميم. وأمّا الكسائي فكسر الهمزة وفتح الميم؛ وإنما كان هذا للإتباع. الباقون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل^(٣).

وأصل الأمّهات: أمّات، فزيدت الهاء تأكيداً، كما زادوا هاءً في أهرقت الماء؛ وأصله: أرت^(٤). وقد تقدّم هذا المعنى في «الفاتحة»^(٥).

﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: تشكرون نعمه. الثاني: يعني تبصرون آثار^(٦) صنّعه؛ لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن عامر وحمزة ويعقوب: «تروا» بالتاء على الخطاب، واختاره أبو عبيد. الباقون: بالياء؛ على الخبر^(٧).

(١) معاني القرآن للزجاج ٢١٤/٣.

(٢) الآية (٦١) من سورة النور. والآية (٦) من سورة الزمر، والآية (٣٢) من سورة النجم.

(٣) السبعة ص ٢٢٨، والتيسير ص ٩٤، غير أن قراءتي حمزة والكسائي المذكورتين هما في حالة الوصل؛ لإتباع الكسرة الكسرة. وأمّا قراءة الأعمش؛ فهي بحذف الهمزة مع كسر الميم المشددة كما قيدها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤١١/٣.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢١٤/٣.

(٥) ١٧٣/١، وينظر ١٧٧/٦.

(٦) في (ظ): آيات.

(٧) القراءة عن ابن عامر وحمزة في التيسير ص ١٣٨، وعن يعقوب في النشر ٣٠٤/٢، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤١١/٣ إلى طلحة بن مصرف والأعمش وابن هرمز.

﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾: مُذَلَّلَاتٍ لأمر الله تعالى؛ قاله الكلبي. وقيل: «مسخرات»: مُذَلَّلَاتٍ لمنافعكم.

﴿فِ جَوِّ السَّمَاءِ﴾ الجوُّ: ما بين السماء والأرض، وأضاف الجَوِّ إلى السماء؛ لارتفاعه عن الأرض. وفي قوله: «مسخرات» دليلٌ على مُسَخَّرِ سَخَّرَهَا، ومُدَبَّرٍ مَكَّنَهَا من التصرف.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف، بيّن لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: علاماتٍ وعبراً ودلالات. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبما جاءت به رسلهم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ يُؤْتِيَكُم سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَاتًا إِلَىٰ بَيْنِ ٨٥﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿جَعَلَ﴾ معناه: صَيَّرَ. وكلُّ ما علاك فأظلك؛ فهو سقف وسماء، وكلُّ ما أفلك فهو أرض، وكلُّ ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار؛ فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت^(١). وهذه الآية فيها تعديدٌ نِعَمِ الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر أولاً بيوت المدن، وهي التي للإقامة الطويلة^(٢).

وقوله: ﴿سَكَنًا﴾ أي: تسكنون فيها، وتهداً جوارحكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره؛ إلا أن القولَ خُرَجَ على الغالب، وعدَّ هذا في جملة النعم؛ فإنه لو شاء خلق العبد مضطرباً أبداً كالأفلاك، لكان ذلك كما خلق وأراد، ولو خلقه ساكناً كالأرض، لكان كما خلق وأراد، ولكنه أوجده خلقاً يتصرّف للوجهين،

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢.

ويختلف حاله بين الحالتين ، وردّده كيف وأين.

والسكن مصدرٌ يوصفُ به الواحد والجمع.

ثم ذكر تعالى بيوت الثقله والرحله^(١) وهي:

الثانية: فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: من الأنطاع

والأدم^(٢). ﴿بُيُوتًا﴾ يعني الخيام والقياب يخفُّ عليكم حملها في الأسفار^(٣).

﴿يَوْمَ ظَعَنَ لَكُمْ﴾ الظعن: سير البادية في الانتجاع^(٤) والتحول من موضع إلى

موضع^(٥)؛ ومنه قول عترة^(٦):

ظعنَ الذين فراقهم أتوقَّعُ وجرى بينهم الغرابُ الأبقعُ

والظعن: الهودج أيضاً^(٧)؛ قال:

ألا هل هاجك الأظعانُ إذ بانوا وإذ جادت بوشك البينِ غريانُ^(٨)

وقرئ بإسكان العين وفتحها^(٩) كالشعر والشعر.

وقيل: يحتمل أن يعمَّ به^(١٠) بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف؛ لأنَّ هذه

(١) المحرر الوجيز ٤١٢/٣ ، وذكر الألوسي في روح المعاني ٢٠٥/١٤ أن «سكن» بمعنى مسكون وأنه ليس بمصدر كما ذهب إليه ابن عطية، والثقله: الاسم من الانتقال من موضع إلى موضع.

(٢) الأنطاع جمع نطع، وهو بساط من أديم، والأدم جمع أديم، وهو الجلد.

(٣) الوسيط للواحد ٧٦/٣ ، وتفسير البغوي ٧٩/٣ .

(٤) أي: طلب الكلا في موضعه.

(٥) مجمع البيان ١٠٨/١٤ .

(٦) ديوانه ص ٤٨ .

(٧) الذي في المعاجم: الظعينة: الهودج، تهذيب اللغة ٣٠٠/٢ ، والصحاح ولسان العرب (ظعن).

(٨) ذكره ابن رشيق في العمدة ٣٠٣/٢ . بلفظ: وإذ صاحت بشطّ البين. بدل: وإذ جادت بوشك البين.

(٩) قرأ بإسكان العين: عاصم وحزمة والكسائي وابن عامر، وفتحها نافع، وابن كثير، وأبو عمرو. السبعة ص ٣٧٥ ، والتيسير ص ١٣٨ .

(١٠) في (د): يحتمل أنهم بيوت، وفي (م): يحتمل أن يعم بيوت، وفي (ظ): يحتمل أن تعم به بيوت، والمثبت من (ز) و(ف)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ٤١٢/٣ ، والكلام منه.

من الجلود؛ لكونها نابذة^(١) فيها؛ نحا إلى ذلك ابن سلام. وهو احتمال حسن، ويكون قوله «ومن أوصافها» ابتداءً كلام^(٢)، كأنه قال: جعل أثاثاً؛ يريد الملابس والوطاء، وغير ذلك؛ قال الشاعر:

أهاجثك الظعائنُ يوم بانوا بذى الرِّيِّ الجميل من الأثاث^(٣)
ويحتمل أن يريد بقوله: «من جلود الأنعام» بيوت آدم فقط كما قدمناه أولاً. ويكون قوله: «ومن أوصافها» عطفاً على قوله: «من جلود الأنعام»؛ أي: جعل بيوتاً أيضاً.

قال ابن العربي^(٤): وهذا أمرٌ انتشر في تلك الديار، وعزبت^(٥) عنه بلادنا، فلا تُضرب الأخيصة عندنا إلا من الكتان والصوف، وقد كان للنبي ﷺ قُبَّةٌ من آدم^(٦)، وناهيك من آدم الطائف غلاءً في القيمة^(٧)، واعتلاءً في الصفة^(٨)، وحُسناً في البشرة، ولم يعد ذلك ﷺ ترفاً، ولا رآه سرفاً؛ لأنه مما امتنَّ الله سبحانه من نعمته، وأذن فيه من متاعه، وظهرت وجوه منفعة في الاكتنان والاستغلال الذي لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان.

(١) في النسخ: ثابتة، والمثبت من المحرر الوجيز ٤١٢/٣، والكلام منه.

(٢) في المحرر الوجيز: عطف على قوله: «من جلود الأنعام»، وسيذكر المصنف هذا الإعراب عندما يفسر جلود الأنعام ببيوت آدم فقط، وينظر الدر المصون ٢٧٣/٧ - ٢٧٤.

(٣) البيت لمحمد بن نمير الثقفي كما في مجاز القرآن ٣٦٥/١، والكامل ٧٨٦/٢، والأغاني ١٩٦/٦، وهو في المجاز بلفظ: بذى الرِّيِّ. وذكر هذه الرواية الطبري في تفسيره ٣١٨/١٤. والرِّي: المظهر. اللسان (رأي).

(٤) في أحكام القرآن ١١٥٥/٣.

(٥) في (د) و(ز) و(ف) وأحكام القرآن: وعريت، والمثبت من (م) و(ظ) ونسخة كما في حاشية أحكام القرآن.

(٦) أخرج البخاري (٣١٧٦) عن عوف بن مالك قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبة من آدم فقال: اعدد ستاً... الحديث.

(٧) قوله: في القيمة، من (م) وأحكام القرآن.

(٨) في (م): الصنعة. والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لأحكام القرآن.

ومن غريب ما جرى أني زُرت بعض المتزهدين من الغافلين مع بعض المحدثين، فدخلنا عليه في خباء كَتَّان، فعرضَ عليه صاحبي المحدث أن يحمله إلى منزله ضيفاً، وقال: إنَّ هذا موضعٌ يكثُر فيه الحرُّ، والبيتُ أرقق بك، وأطيب لنفسي فيك؛ فقال: هذا الخِباءُ لنا كثير، وكان في صنعنا^(١) من الحقيق؛ فقلت: ليس كما زعمت! فقد كان لرسول الله ﷺ - وهو رئيسُ الزُّهاد - قُبَّةٌ من آدمٍ طائفيٍّ، يسافرُ معها، ويستظلُّ بها؛ فُبِهُت، ورأيتُه على منزلة من العبيِّ، فتركته مع صاحبي وخرجت عنه^(٢).

الثالثة^(٣): قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْنَافِهَا أَزْوَاجُهَا وَأَشْعَارُهَا﴾ أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز، كما أذن في الأعظم، وهو ذبحها وأكل لحومها^(٤)، ولم يذكر القطن والكَتَّان؛ لأنَّه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنَّما عدَّد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا فيما عَرَفُوا بما فهموا. وما قام مقام هذه، ونابَ منابها؛ فيدخلُ في الاستعمال والنعمة مدخلها؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]، فخاطبهم بالبرَد لأنَّهم كانوا يعرفون نزوله كثيراً عندهم، وسكتَ عن ذكر الثلج؛ لأنَّه لم يكن في بلادهم، وهو مثله في الصِّفة والمنفعة، وقد ذكرهما النبي ﷺ معاً في التطهير فقال: «اللَّهُمَّ اغسِلني بماءٍ وثلجٍ وبرَدٍ»^(٥).

قال ابن عباس: الثلجُ: شيءٌ أبيضُ ينزل من السماء، وما رأيتُه قطُّ. وقيل: إنَّ تَرَكَ ذكر القطن والكَتَّان؛ إنَّما كان إعراضاً عن السَّرَف^(٦)؛ إذ مَلْبَسُ

(١) في (د): صنفنا، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٦: صنفها. والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف) و(م).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٥ - ١١٥٦.

(٣) في (ز): الرابعة.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٦.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٨، وسلف الحديث بنحوه ١/ ١٨٠، وهو في الصحيحين.

(٦) في (م): الترف.

عباد الله الصالحين إنما هو الصُوف. وهذا فيه نظر، فإنه سبحانه يقول: ﴿يَبَيِّنْ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ لِكَا يَوْمِي سَوَاءً تَكُمُ﴾ [الأعراف: ٢٦] حسبما تقدّم بيانه في «الأعراف»^(١). وقال هنا: ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ﴾، فأشار إلى القطن والكثان في لفظة «سرايل». والله أعلم^(٢).

و﴿أَنثَا﴾ قال الخليل: متاعاً منضماً بعضه إلى بعض؛ من أنث: إذا كثر^(٣). قال: وَفَرِحَ يَزِيدُ الْمَثَنُ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَثِيثٌ كَقَنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثِكِلِ^(٤) ابن عباس: «أَنثَا»: ثياباً. وقد تقدّم^(٥).

وتضمنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال، ولذلك قال أصحابنا: صوف الميتة وشعرها طاهرٌ يجوز الانتفاع به على كل حال، ويُغسل مخافة أن يكون علق به وسخٌ، وكذلك روت أم سلمة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا بأس بمسك^(٦) الميتة إذا دُبغ، وصوفها وشعرها إذا غُسل»^(٧)؛ لأنه مما لا يحلّه الموت، وسواء كان شعر ما يؤكل لحمه أو لا، كشعر ابن آدم والخنزير، فإنه طاهرٌ كله؛ وبه قال أبو حنيفة^(٨)، ولكنه زاد علينا فقال: القرن والسنُّ والعظم مثل الشعر؛

(١) ١٨٦/٩.

(٢) المحرر الوجيز ٤١٢/٣.

(٣) ينظر مجمل اللغة ٧٨/١، وتفسير الطبري ٣١٨/١٤، وزاد المسير ٤٧٧/٤، وتفسير الرازي ٩٢/٢٠.

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ١٦ بلفظ: يُعْشِي المتن. قال شارحه: الفرع: الشعر الطويل. والفاحم: شديد السواد كالفتح. والأثيث: الكثير النبات. والقنو: العذق. والمتعكل: المتداخل لكثرتة.

(٥) أورده الواحدي في الوسيط ٧٦/٣ بنحوه. وسيرد قولُ ثان لابن عباس في المسألة العاشرة. والقول أن الأثاث بمعنى الثياب. سلف في المسألة الثانية.

(٦) في (د) و(م): بجلد، والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف) وهما بمعنى.

(٧) سلف ٢٧/٣، وينظر أحكام القرآن للجصاص ١٢١/١، والأوسط ٢٧٢/٢ - ٢٧٣، والمنتقى للباي ١٣٧/٣.

(٨) ينظر الأوسط لابن المنذر ٢٨٠/٢، والمبسوط ٢٠٢/١ - ٢٠٤.

قال: لأنَّ هذه الأشياءَ كُلُّها لا روحَ فيها، فلا تَنجسُ بموتِ الحيوان. وقال الحسن البصريُّ والليثُ بنُ سعد والأوزاعيُّ: إنَّ الشعورَ كُلُّها نجسةٌ، ولكنها تَطهرُ بالغسل. وعن الشافعي ثلاثُ روايات: الأولى: طاهرةٌ لا تنجسُ بالموت. الثانية: تنجس. الثالثة: الفرق بين شعرِ ابنِ آدم وغيره، فشعرُ ابنِ آدم طاهر، وما عداه نجس^(١).

ودليلاً عموم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَمْوَالِهَا﴾ الآية. فَمَنْ عَلَيْنَا بِأَنْ جَعَلَ لَنَا الْإِنْفَاعَ بها، ولم يَخْصَّ شعر الميتة من المَذَكَّاة، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل. وأيضاً فإنَّ الأصلَ كونُها طاهرةٌ قبل الموت بإجماع، فمن زعم أنَّه انتقل إلى نجاسة، فعليه الدليل.

فإن قيل قوله^(٢): ﴿حَرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْبَاسَهُ﴾ [المائدة: ٣]، وذلك عبارة عن الجملة. قلنا: نخضُّه^(٣) بما ذكرنا؛ فإنَّه منصوصٌ عليه في ذكر الصوف، وليس في آيتكم ذكره صريحاً، فكان دليلاً أولى. والله أعلم^(٤).

وقد عوَّل الشيخُ الإمام أبو إسحاق إمامُ الشافعية ببغداد على أنَّ الشعرَ جزءٌ متصلٌ بالحيوان خِلْقَةً، فهو يَنْمِي بنمائه، ويتنَجَّسُ بموته كسائر الأجزاء.

وأجيبُ بأنَّ النَّماء ليس بدليلٍ على الحياة؛ لأنَّ النباتَ يَنْمِي، وليس بحَيٍّ. وإذا عوَّلوا على النماء المتصلٍ لِمَا على الحيوان؛ عوَّلنا نحن على الإبانة التي تدلُّ على عدم الإحساس الذي يدلُّ على عدم الحياة^(٥).

وأما ما ذكره الحنفِيُّونَ في العظم والسنِّ والقَرْنِ أنَّه مثل الشعر، فالمشهور عندنا أنَّ ذلك نجس كاللحم. وقال ابنُ وهبٍ مثل قول أبي حنيفة.

(١) المفهم ٤/٤٦٢، وينظر المجموع ١/٢٨٩ - ٢٩١.

(٢) لفظة: قوله. من (م).

(٣) في (د) و(ز): خصه.

(٤) ينظر أحكام القرآن للجصاص ١/١٢١. والمتنقى للباقي ١/١٣٧.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٥٨.

ولنا قول ثالث: هل تُلحق أطراف القرون والأظلاف بأصولها أو بالشعر؟ قولان. وكذلك الشَّعْرِيُّ من الريش؛ حكمه حكم الشعر، والعظيُّ منه حكمه حكمه^(١).

ودليلنا قوله ﷺ: «لا تنتفعوا من الميتة بشيء»^(٢). وهذا عامٌ فيها وفي كل جزءٍ منها، إلَّا ما قامَ دليلُه؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُغْنِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، وقال: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْإِطَارِ كَيْفَ تُنْشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقال: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقال: ﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا تَخِرَّةً﴾ [النازعات: ١١]، فالأصلُ هي العظام، والروح والحياة فيها كما في اللحم والجلد. وفي حديث عبد الله بن عُكَيْمٍ: «لا تنتفعوا من الميتة بإهابٍ ولا عَصَبٍ»^(٣).

فإن قيل: قد ثبت في الصحيح أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال في شاةٍ ميمونة: «ألا انتفعتم بجلدها؟»، فقالوا: يا رسول الله، إنها ميتةٌ! فقال: «إنما حُرِّمَ أكلها»^(٤). والعظم لا يؤكل.

قلنا: العظمُ يؤكل، وخاصَّةً عظم الجمل الرضيع والجذِّي والطير، وعظمُ الكبير يُشوى ويؤكل. وما ذكرناه قبلُ يدلُّ على وجود الحياة فيه، وما كان طاهرًا بالحياة ويستباح بالذَّكاة؛ ينجس بالموت، والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿مَنْ جُلِدَ أَلْفَظَرٍ﴾ عامٌ في جلد الحيِّ والميت، فيجوز

(١) ينظر المفهم ٤/٤٦٢.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/٤٦٨، وابن حبان في صحيحه (١٢٧٩)، والبيهقي في السنن الكبرى ١/٢٥، وهو أحد روايات حديث عبد الله بن عُكَيْمٍ الذي سيذكره المصنف بعده.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٨٧٨٠)، وأبو داود (٤١٢٧)، والترمذي (١٧٢٩)، والنسائي ٧/١٧٥، وابن ماجه (٣٦١٣) وابن حبان (١٢٧٨). قال الترمذي: هذا حديث حسن. غير أن الحديث مضطرب كما ذكر ابن عبد البر في التمهيد ٤/١٦٤، والحازمي في الاعتبار ص ٣٩، وعبد الله بن عُكَيْمٍ لا يُعرف له سماع من النبي ﷺ كما في التاريخ الكبير للبخاري ٥/٣٩.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٩٢)، ومسلم (٣٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند أحمد (٢٣٦٩).

الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ؛ وبه قال ابنُ شهاب الزهريُّ والليثُ بن سعد. قال الطحاوي^(١): لم نجد عن^(٢) أحدٍ من الفقهاء جوازَ بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلا عن الليث. قال أبو عمر^(٣): يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين، وأمّا ابن شهاب فذلك عنه صحيح، وهو قول أباه جمهورُ أهل العلم. وقد رُوِيَ عنهما خلافُ هذا القول، والأوّلُ أشهر.

قلت: قد ذكر الدارقطنيُّ في «سننه» حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعُقيل عن الزهري^(٤)، وحديثُ بقية عن الزُّبيدي، وحديث محمد بن كثير العبدِي وأبي سلمة المُنقري عن سليمان بن كثير عن الزهري^(٥)، وقال في آخرها: هذه أسانيد صحاح.

السادسة^(٦): اختلف العلماء في جلد الميتة إذا دُبغ هل يطهر أم لا؛ فذكر ابنُ عبد الحكم عن مالك ما يُشبه مذهب ابن شهاب في ذلك. وذكره ابن خُوَيزَمَنَداد في كتابه عن ابن عبد الحكم أيضاً. قال ابن خُوَيزَمَنَداد: وهو قول الزهريِّ والليث. قال: والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبد الحكم، وهو أنَّ الدَّبَاغَ لا يُطهِّر جلد الميتة، ولكن يُبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة، ولا يُصلَّى عليه ولا يؤكل فيه^(٧).

وفي «المدونة»^(٨) لابن القاسم: من اغتصب جلدَ ميتةٍ غيرَ مدبوغٍ فأتلفه؛ كان

(١) في مختصر اختلاف العلماء ١/١٦٠ - ١٦١، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ١٥٦/٤.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): عند، والمثبت من (ف) و(م) وهو الموافق للتمهيد.

(٣) في التمهيد ١٥٦/٤.

(٤) سنن الدارقطني (٩٨)، وهو حديث ابن عباس في الصحيحين الذي ذكره المصنف آخر المسألة الثالثة عن شاة ميمونة.

(٥) سنن الدارقطني (١٠١) (١٠٢) بنحو ما قبله.

(٦) كذا في النسخ، ولم يرد فيها: الخامسة.

(٧) التمهيد ١٥٦/٤ - ١٥٧.

(٨) ٣٦٦/١٤. ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ١٥٧/٤.

عليه قيمته. وحكى أن ذلك قول مالك. وذكر أبو الفرج أن مالكا قال: من اغتصب لرجلٍ جلدَ ميتةٍ غير مدبوغ؛ فلا شيء عليه. قال إسماعيل: إلا أن يكون لمجوسيّ^(١). وروى ابن وهب وابن عبد الحكم عن مالك جواز بيعه، وهذا في جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده؛ لأنّ الذكاة لا تعمل فيه، فالذبأغ أولى^(٢).

قال أبو عمر^(٣): وكلُّ جلدٍ ذكّي؛ فجائز استعماله للوضوء وغيره. وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدبأغ على اختلاف من قوله، ومرة قال: إنّه لم يكرهه إلا في خاصّة نفسه، ويكره الصلاة عليه وبيعّه، وتابعه على ذلك جماعة من أصحابه. وأمّا أكثر المدنيين فعلى إباحة ذلك وإجازته؛ لقول رسول الله ﷺ: «أيّما إهابٍ دبغ فقد طهر»^(٤). وعلى هذا أكثر أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث، وهو اختيار ابن وهب^(٥).

السابعة: ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنّه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء وإن دبغت؛ لأنّها كلحم الميتة. والأخبار بالانتفاع بعد الدبأغ تردّ قوله. واحتجّ بحديث عبد الله بن عكيم - رواه أبو داود^(٦) - قال: قرئ علينا كتاب رسول الله ﷺ بأرض جهينة، وأنا غلام شاب: «ألا تستمتعوا من الميتة بإهابٍ ولا عصب». وفي رواية: «قبل موته بشهر»^(٧).

رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عكيم، قال: حدثنا مَشِيخَةُ لَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(١) التمهيد ٤/ ١٥٧، والاستذكار ١٥/ ٣٤١ وأبو الفرج هو عمرو بن محمد، وإسماعيل هو ابن إسحاق.

(٢) ينظر الاستذكار ١٥/ ٣٤٠ و ٣٤٩، وعقد الجواهر الثمينة لابن شاس ١/ ٣١، والمفهم ٤/ ٤٦٣.

(٣) في الكافي ١/ ١٦٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٨٩٥)، ومسلم (٣٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسلف ٣/ ٢٦.

(٥) التمهيد ٤/ ١٧٢، والكافي ١/ ١٦٣.

(٦) في سننه (٤١٢٧)، وسلف ص ٣٩٧ من هذا الجزء.

(٧) سنن أبي داود (٤١٢٨).

كتب إليهم^(١).

قال داود بن علي: سألت يحيى بن معين عن هذا الحديث فضعّفه، وقال: ليس بشيء، إنما يقول: حدثني الأشياخ.

قال أبو عمر^(٢): ولو كان ثابتاً لاحتَمَل أن يكون مخالفاً للأحاديث المروية عن ابن عباس، وعائشة، وسلمة بن المُحَبِّق، وغيرهم^(٣)، لأنّه جائز أن يكون معنى حديث ابن عُكَيْم أن لا تنتفعوا من الميتة بإهابٍ قبل الدِّبَاغ؛ وإذا احتَمَل ألا يكون مخالفاً فليس لنا أن نجعله مخالفاً، وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبي ﷺ بشهر كما جاء في الخبر؛ فيمكن أن تكونَ قصّة ميمونة وسماعُ ابن عباس منه: «أيّما إهابٍ دبغ فقد طهر» قبل موته بجمعة، أو دون جمعة، والله أعلم^(٤).

الثامنة: المشهورُ عندنا أن جلدَ الخنزير لا يدخل في الحديث، ولا يتناوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعي.

وعند الأوزاعي وأبي ثور: لا يطهر بالدِّبَاغ إلا جلد ما يؤكل لحمه^(٥).

(١) هي إحدى روايات حديث عبد الله بن عُكَيْم السالف، وقد أخرج هذه الرواية الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٢٤١)، وابن حبان (١٢٧٩)، وذكره المصنف آخر المسألة الثالثة، ونقلنا ثمة عن ابن عبد البر أنه حديث مضطرب.

(٢) في التمهيد ٤/١٦٤ - ١٦٥ وما قبله منه.

(٣) حديث ابن عباس هو في شاة ميمونة، وسلف آخر المسألة الثالثة، وهو في الصحيحين، وحديث عائشة أخرجه أبو داود (٤١٢٤) والنسائي في المجتبى ٧/١٧٤، والكبرى (٤٥٥٦)، وابن ماجه (٣٦١٢) ولفظه عند النسائي: مثل النبي ﷺ عن جلود الميتة فقال: «دباغها طهورها». وحديث سلمة بن المحبق أخرجه أبو داود (٤١٢٥)، والنسائي في المجتبى ٧/١٧٣، والكبرى (٤٥٥٥) ولفظه عند أبي داود أن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أتى على بيت فإذا قرية معلقة، فسأل الماء، فقالوا: يا رسول الله إنها ميتة فقال: «دباغها طهورها». وسلمة بن المحبق يكنى أبا سنان، له رواية، وسكن البصرة. الإصابة ٤/٢٣٥.

(٤) التمهيد ٤/١٦٤ - ١٦٥، والاستذكار ١٥/٣٤٦.

(٥) التمهيد ٤/١٧٦. وينظر المفهم ٤/٤٦٣، ومختصر اختلاف العلماء للطحاوي ١/١٦١.

وروى مَعْنُ بن عيسى عن مالك أَنَّهُ سُئِلَ عن جلد الخنزير إذا دبغ، فكرهه. قال ابن وَصَّاح: وسمعت سُخْنُونًا يقول: لا بأس به؛ وكذلك قال محمد بن عبد الحكم وداود بن علي وأصحابه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أَيُّمَا مَسْكِ دُبُغٍ؛ فقد طهر»^(١).

قال أبو عمر^(٢): يَحْتَمَلُ أَنْ يكون أراد بهذا القول عمومَ الجلود المعهود الانتفاع بها، فأَمَّا الخنزير فلم يدخل في المعنى؛ لأنَّه غير معهود الانتفاع بجلده، إذ لا تعمل فيه الذِّكَاة. ودليل آخر: وهو ما قاله النَّضْرُ بن شُمَيْل: إِنَّ الإِهَابَ جلدُ البقر والغنم والإبل، وما عداه فإِنَّمَا يُقَالُ له: جلدٌ، لا إهابٌ.

قلت: وجلدُ الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضاً غيرُ معهود الانتفاع به فلا يطهر؛ وقد قال ﷺ: «أَكُلْ كُلَّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ حَرَامٌ»^(٣) فليست الذِّكَاةُ فيها ذكَاةً، كما أَنَّها ليست في الخنزير ذكَاة. وروى النَّسَائِيُّ عن المقدمِ بن معدٍ يكرب قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن الحرير والذهب ومِثَالِ النُّمُورِ^(٤).

التاسعة: اختلف الفقهاء في الدِّبَاغ التي تطهر به جلودُ الميتة ما هو؟ فقال أصحاب مالك - وهو المشهور من مذهبه -: كُلُّ شَيْءٍ دَبَغَ الْجِلْدَ مِنْ مِلْحٍ، أَوْ قَرَطَ، أَوْ شَبَّ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؛ فقد جاز الانتفاع به. وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول داود^(٥).

(١) أخرجه بهذا اللفظ عن ابن عباس الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/٤٧٠، وابن عبد البر في التمهيد ١٧٨/٤. وسلف تخريجه ٢٦/٣ بلفظ: أيما إهاب، والكلام السابق في الاستذكار ١٥/٣٤٧ - ٣٤٨.

(٢) في التمهيد ١٧٨/٤.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٣٣) عن أبي هريرة، وسلف ٧/٢٥١.

(٤) سنن النسائي الكبرى (٤٥٦٦)، والمجتبى ٧/١٧٦. والمياثر جمع مِثْثَرَة: وهو السرج. المصباح المنير (وثر).

(٥) الاستذكار ١٥/٣٤٩، وينظر المبسوط ١/٢٠٢، والقَرَط: وَزَقَ السَّلَمَ يُدْبِغُ به الأديم. المصباح المنير (قرط). والشَّبُّ: حجارة الزَّاج. القاموس (شبيب)، وينظر المغرب للمطرزي ص ٤٣٢، والمصباح المنير (شبيب).

وللشافعي في هذه المسألة قولان؛ أحدهما: هذا، والآخر: أنه لا يُطَهَّر إلا الشَّبُّ والقَرَطُ؛ لأنَّه الدِّبَاغُ المعهود على عهد النبي ﷺ، وعليه خرج الخطاب^(١)، والله أعلم.

النَّسائي: عن ميمونة زوج النبي ﷺ أنَّه مرَّ برسول الله ﷺ رجالٌ من قريش يجزؤون شاةً لهم مثل الحصان؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «لو أخذتم إهابها». قالوا: إنَّها ميتة. فقال رسول الله ﷺ: «يُطَهَّرُها الماءُ والقَرَطُ»^(٢).

العاشرة: قوله تعالى: ﴿أَثَاثٌ﴾؛ الأثاث: متاع البيت، واحدها أثاثة؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري^(٣).

وقال الأمويُّ: الأثاث: متاع البيت، وجمعه أثَّة وأُثٌّ^(٤).

وقال غيرهما: الأثاث: جميع أنواع المال، ولا واحد له من لفظه^(٥).

وقال الخليل: أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر، ومنه: شعر أثيث، أي: كثير. وأثَّ شعرُ فلانٍ يَثُّ أثًا: إذا كثر والتفت^(٦)؛ قال امرؤ القيس^(٧):

(١) في (د) و(م): خرَّج الخطابي - والله أعلم - ما رواه النسائي...، والمثبت من (ظ) و(ف). وهو الموافق لما في التمهيد ١٨٣/٤ - ١٨٤ ، والاستذكار ٣٤٩/١٥ - ٣٥٠ ، والكلام منه

(٢) المجتبى ١٧٤/٧ - ١٧٥ ، والكبرى (٤٥٦٠)، وأخرجه أحمد (٢٦٨٣٣)، وأبو داود (٤١٢٦).

(٣) المحرر الوجيز ٤١٢/٣ . وذكر الطبري في تفسيره ٣١٨/١٤ أن الأثاث مثل المتاع؛ لم يسمع له بواحد، وقال: حُكي عن بعض النحويين أنه كان يقول: واحد الأثاث أثاثة، ولم أر أهل العلم بكلام العرب يعرفون ذلك.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٦٦/١٥ ، وتفسير الرازي ٩٢/٢٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٤١٢/٣ .

(٦) تفسير الطبري ٣١/١٤ ، وينظر زاد المسير ٤٧٧/٤ .

(٧) في ديوانه ص ١٦ ، وسلف البيت ص ٣٩٥ من هذا الجزء.

وَفَرَعٍ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَفِّكِلِ
وقيل: الأثاث: ما يلبس ويفترش^(١). وقد تأثت: إذا اتخذت أثاثاً. وعن ابن
عباس ؓ: «أثاثاً»: مالا^(٢).

وقد تقدّم القول في الحين^(٣)، وهو هنا وقتٌ غير معيّن بحسب كلِّ إنسان، إمّا
بموته، وإمّا بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث. ومن هذه اللفظة قول الشاعر:
أهاجثك الطعائنُ يومَ بانوا بذِي الرِّيّ الجميلِ من الأثاث^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظُلُمًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ
أَكْنَنًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَفِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَفِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ
يُنِيرُ نِعَمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾
فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ظُلُمًا﴾ الظلال: كلُّ ما يُسْتَظَلُّ به من البيوت والشجر.
وقوله: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ يعُمُّ جميع الأشخاص المظلة^(٥).

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَكْنَنًا﴾ الأكنان: جمع كِنٌّ، وهو الحافظ من المطر
والريح وغير ذلك^(٦)؛ وهي هنا الغيران في الجبال^(٧)، جعلها الله عدّةً للخلق يأوون
إليها، ويتحصّنون بها، ويعتزلون عن الخلق فيها. وفي «الصحيح»^(٨) أنه عليه الصلاة

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٤٦.

(٢) أخرجه الطبري ٣١٩/١٤.

(٣) ٤٧٧/١ - ٤٧٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤١٢/٣، والبيت لمحمد بن نمير الثقفي وسلف ص ٣٩٣ من هذا الجزء.

(٥) ينظر زاد المسير ٤٧٧/٤.

(٦) المحرر الوجيز ٤١٢/٣.

(٧) تفسير الطبري ٣٢١/١٤ وعزا إلى قتادة. والغيران جمع الغار. القاموس (غور).

(٨) صحيح البخاري (٣)، وصحيح مسلم (١٦٠)، وهو عند أحمد (٢٥٩٥٩) عن عائشة رضي الله عنها،
والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٥٨ - ١١٥٩.

والسلام كان في أول أمره يتعبد بغار جرّاء ويمكث فيه الليالي... الحديث.

وفي «صحيح البخاري»^(١) قال: خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً هارباً من قومه؛ فأراً بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقاً بغار في جبل ثور، فكمنّا^(٢) فيه ثلاث ليال يبيت عندهما فيه عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف لقين^(٣)، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة^(٤) كبائت؛ فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين^(٥) تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما^(٦) - حتى ينق بهما عامر بن فهيرة بغلس^(٧)، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث... وذكر الحديث. انفرد بإخراجه البخاري.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُم سِرَابِيلَ تَفِيكُمُ الْحَرَّ﴾ يعني: القميص، واحدها سربال^(٨). ﴿وَسَرَابِيلٌ تَفِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ يعني: الدروع التي تقي الناس في

(١) برقم (٣٩٠٥).

(٢) في (ز) و(ظ): فمكث، وفي (د) و(ف): فمكثا. والمثبت من (م)، وهو موافق لما في صحيح البخاري.

(٣) قوله: ثقف، بفتح المثناة وكسر القاف، ويجوز إسكانها وفتحها، ويعدها فاء، أي: الحاذق، تقول: نفقت الشيء: إذا أقمت عوجه، وقوله: لقين، بفتح اللام وكسر القاف بعدها نون، أي: السريع الفهم. فتح الباري ٢٣٧/٧. ووقع في (ظ): لقف، بدل: لقين. ومعناه: خفيف حاذق، يقال: فلان ثقف لقف. القاموس (لقف).

(٤) لفظة: بمكة. من (م) وصحيح البخاري.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): حتى، والمثبت من (ف) و(م) وهو الموافق لصحيح البخاري.

(٦) لفظة: ورضيفهما. من (م) وصحيح البخاري. والرضيف؛ هو اللبن المروض، أي: التي وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخواوته. فتح الباري ٢٣٧/٧.

(٧) قوله: ينق بهما، بالثنية، هي لأبي ذر، أحد رواة صحيح البخاري، أي: يُسمعهما صوته إذا زجر غنمه. ورواية الآخرين: ينق بها، أي: يصيح بغنمه، والنعيق صوت الراعي إذا زجر الغنم. فتح الباري. وقوله: الغلس، أي: ظلمة آخر الليل.

(٨) الوسيط للواحد ٧٦/٣.

الحرب، ومنه قول كعب بن زهير:

شُمِّ العَرَانِينَ أَبْطَالًا لَبُوسُهُمْ من نَسَجَ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ^(١)

الرابعة: إنَّ قال قائل: كيف قال ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا﴾ ولم يذكر السهل، وقال: ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ ولم يذكر البَرْد؟ فالجواب أنَّ القوم كانوا أصحابَ جبال، ولم يكونوا أصحابَ سهل، وكانوا أهلَ حَرٍّ، ولم يكونوا أهلَ بَرْد، فذكر لهم نعمه التي تختصُّ بهم^(٢)؛ كما خصَّهم بذكر الصوف وغيره، ولم يذكر القطن والكَتَان ولا الثلج؛ كما تقدم^(٣)، فإنَّه لم يكن ببلادهم؛ قال معناه عطاء الخراساني^(٤) وغيره. وأيضاً: فذكرُ أحدهما يدلُّ على الآخر، ومنه قول الشاعر^(٥):

وما أدري إذا يَمَّمْتُ أرضاً أريدُ الخيرَ أيُّهما يَلِينِي
أَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أمِ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي

الخامسة: قال العلماء: في قوله تعالى: ﴿وَسَرَّيِلُ تَقِيكُمْ بِأَسْكُتُمْ﴾ دليلٌ على اتخاذ العباد عُدَّةَ الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء، وقد لبسها النبي ﷺ ثِقَاءَ الجراحة وإنَّ كان يطلبُ الشهادة، وليس على العبد أن يطلبها بأن يستسلم للحتوف، وللطعن بالسَّنان، وللضرب بالسيوف، ولكنَّه يلبسُ لَأَمَةٍ^(٦) حربٍ؛ لتكون له قوَّةٌ على قتال عدوِّه، ويقاقلُ لتكون كلمةُ الله هي العليا، ويفعلُ الله بعدُ ما يشاء.

(١) ديوان كعب ص ٩١. وشُمِّ جمع أشَمَّ؛ وهو الذي في قصبة أنفه علوٌّ مع استواء أعلاه، والعَرَانِينَ: جمع عَرْنين وهو الأنف. واللُّبوس بفتح اللام: اللباس. والمراد به هنا ما يلبس من السلاح والنسج المنسوج. شرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام ص ٨٥.

(٢) النكت والعيون ٢٠٦/٣.

(٣) ص ٣٩٤ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه الطبري ٣٢٣/١٤ - ٣٢٤.

(٥) هو المثقب العبدى، والبيتان في ديوانه ص ٢١٢ - ٢١٣. وينظر المحرر الوجيز ٤١٣/٣. وأحكام القرآن لابن العربي ١١٥٩/٣.

(٦) اللَّأَمَةُ: الدرع. المصباح المنير (لوم).

السادسة: قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ قرأ ابن مُحَيِّصٍ وحميد: «تَيْمٌ» بتاءين، «نعمته»: رفعاً على أنها الفاعل^(١). الباقون: «يُتَمُّ» بضم الياء؛ على أن الله هو يُتَمُّها.

و«تُسَلِّمون»؛ قراءة ابن عباس وعكرمة: «تَسْلَمون» بفتح التاء واللام، أي: تَسْلَمون من الجراح، وإسناده ضعيف؛ رواه عَبَادُ بْنُ الْعَوَّامِ، عن حنظلة، عن شهر، عن ابن عباس^(٢). الباقون: بضم التاء، ومعناه: تستسلمون وتنفادون إلى معرفة الله وطاعته؛ شكراً على نعمه^(٣).

قال أبو عبيد: والاختيارُ قراءةُ العامَّةِ؛ لأنَّ ما أنعم الله به علينا من الإسلام أفضل مما أنعم به من السلامة من الجراح.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أي: ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فإلينا.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ قال السُّدِّيُّ: يعني: محمداً ﷺ، أي: يعرفون نبوته ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ويكذبونه. وقال مجاهد: يريد ما عدَّد الله عليهم في هذه السورة من النعم، أي: يعرفون أنها من عند الله ويُنْكِرُونَهَا بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم^(٤). ويمثله قال قتادة^(٥).

(١) ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٢/٤٠٥، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٤١٣. ونسبها لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/٣٢٢ من طريقين عن حنظلة، به. وحنظلة - وهو السدوسي - وشهر - وهو ابن حوشب - ضعيفان، وقد ردَّ الطبري أيضاً هذه القراءة.

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٥٩ - ١١٦٠.

(٤) النكت والميون ٣/٢٠٧، وأخرج قوليهما الطبري ١٤/٣٢٥ - ٣٢٦.

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٣/٨٠.

وقال عَوْنُ بن عبد الله: هو قول الرجل: لولا فلانٌ لكان كذا، ولولا فلانٌ ما أصبْتُ كذا، وهو يعرف أن^(١) النفع والضرر من عند الله.

وقال الكلبي: هو أن رسول الله ﷺ لَمَّا عَرَفَهُمْ بهذه النعم كلها، عرفوها وقالوا: نعم، هي كلها نِعَمٌ من الله، ولكنها بشفاعة آلهتنا^(٢).

وقيل: يعرفون نعمة الله بتقبلهم فيها، وينكرونها بترك الشكر عليها. ويحتمل سادساً: يعرفونها في الشدة، وينكرونها في الرخاء. ويحتمل سابعاً: يعرفونها بأقوالهم، وينكرونها بأفعالهم^(٣). ويحتمل ثامناً: يعرفونها بقلوبهم، ويجحدونها بالسنتهم؛ نظيرها: ﴿وَحَمِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعني: جميعهم^(٤)؛ حسبما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثَرَّ لَا يُوْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ نظيره: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ وقد تقدم^(٥) [النساء: ٤١].

﴿ثَرَّ لَا يُوْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في الاعتذار والكلام، كقوله: ﴿وَلَا يُوْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]. وذلك حين تُطبق عليهم جهنم، كما تقدم في أول «الحجر»، ويأتي.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يعني: يُسترضون، أي: لا يُكلّفون أن يُرضوا ربهم؛ لأنَّ

(١) في (د) و(م): وهم يعرفون، بدل: وهو يعرف أن، ومن هذا الموضع إلى آخر الكلام ليس من قول عون، وقد أخرجه الطبري ٣٢٦/١٤، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٢٠٧/٣.

(٢) تفسير البغوي ٨٠/٣.

(٣) النكت والعيون ٢٠٧/٣.

(٤) زاد المسير ٤٧٩/٤ وعزاه إلى الحسن.

(٥) ٣٢٥/٦.

الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يُتركون إلى رجوع الدنيا فيَتوبون^(١).

وأصل الكلمة من العَثْب، وهي المَوْجدة؛ يقال: عَثَبَ عليه يَعْتَبُ: إذا وَجَدَ عليه، فإذا فاوضه ما عَثَبَ عليه فيه، قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرَّتكَ فقد أَعْتَبَ، والاسم: العُتْبَى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب؛ قاله الهروي^(٢). وقال النابغة:

فإن كنتَ مظلوماً فعبداً ظلمته وإن تك^(٣) ذا عُتْبَى فمثلك يُعْتَبُ^(٤)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا. ﴿الْعَذَابَ﴾ أي: عذاب جهنم بالدخول فيها. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهلون؛ إذ لا توبة لهم ثم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي: أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها، وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يُوردوهم النَّارَ. وفي «صحيح مسلم»: «من كان يعبد شيئاً فليَتَّبِعْهُ، فيتَّبِعْ مَنْ كان يعبدُ الشمسَ الشمسَ، ويتَّبِعْ مَنْ كان يعبدُ القمرَ القمرَ، ويتَّبِعْ مَنْ كان يعبدُ الطواغيتِ الطواغيتَ». الحديث، خرَّجه من حديث أنس^(٥)، والترمذي من حديث أبي هريرة، وفيه: «فَيُمَثِّلُ لصاحبِ الصليبِ

(١) تفسير البغوي ٨٠/٣.

(٢) نسبة الطبرسي للزجاج في مجمع البيان ١٠٩/١٤.

(٣) في (د) و(ز) و(م): كنت، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في الديوان.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص ١٨، وفيه: فإن ألك مظلوماً فعبد ظلمته...

(٥) صحيح مسلم (١٨٢). وهو قطعة من حديث أبي هريرة، وليس من حديث أنس.

صليبه، ولصاحبِ التصاویرِ تصاویرُهُ، ولصاحبِ النارِ نارُهُ، فَيَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ» وذكر الحديث^(١).

﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ أي: الذين جعلناهم لك شركاء. ﴿قَالَ قَوْأُ إِلَيْهِمْ أَلْقَوْلَ إِيَّاكُمْ لَكِذِبُونَ﴾ أي: ألقى إليهم الآلهة القول، أي: نَطَقَتْ بتكذيبِ مَنْ عَبَدَهَا؛ بأنها لم تكن آلهة، ولا أَمَرَتَهُمْ بعبادتها، فَيُنْطِقُ اللَّهُ الأصنامَ حتى تَظْهَر عند ذلك فُضِيحَةُ الكُفَّار. وقيل: المرادُ بذلك الملائكةُ الذين عبدوهم.

﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَٰطَ﴾ يعني: المشركين، أي: استسلموا لعذابه، وخضعوا لعزّه. وقيل: استسلم العابدُ والمعبودُ، وانقادوا لحكمه فيهم. ﴿وَمَسَدَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْرَءُونَ﴾ أي: زال عنهم ما زَيَّنَ لهم الشيطانُ، وما كانوا يؤملون من شفاعَةِ آلهتهم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال ابنُ مسعود: عقارب أنيابها كالنخل الطوال؛ وحيات مثلُ أعناق الإبل؛ وأفاعي كأنها البَحَّاتِي تَضْرِبُهُمْ، فتلك الزيادة، وقيل: المعنى: يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ إِلَى الزُّمْهَرِيرِ، فيبادرونَ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهِ إِلَى النَّارِ. وقيل: المعنى: زِدْنَا الْقَادَةَ عَذَابًا فَوْقَ السَّفَلَةِ؛ فَأَحْدُ الْعَذَابَيْنِ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَالْعَذَابُ الْآخَرُ عَلَى صَدِّهِمْ^(٢).

﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ في الدنيا مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ.

(١) سنن الترمذي (٢٥٥٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٣٠ - ٣٣١، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٦، والوسيط ٢/ ٢٤٦، وتفسير البغوي ٣/ ٨١، والزمخشري ٢/ ٤٢٤.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وهم الأنبياء، شهداء على أممهم يوم القيامة، بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعَوْهم إلى الإيمان، وفي كلِّ زمانٍ شهيدٌ وإن لم يكن نبيًّا، وفيهم قولان:

أحدهما: أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء.

الثاني: أنهم العلماء الذين حَفِظَ اللهُ بهم شرائع أنبيائه^(١).

قلت: فعلى هذا لم تكن فترةٌ إلا وفيها مَنْ يوحدُ الله؛ كعُثْمُ بنِ ساعدة، وزيد بن عمرو بن نُفَيْل الذي قال فيه النبي ﷺ: «يُبْعَثُ أُمَّةٌ وَحْدَهُ»^(٢)، وسَطِيطِج^(٣)، ووَرقَةُ بنِ نُوْفَلٍ الذي قال فيه النبي ﷺ: «رَأَيْتُهُ يَنْغَمِسُ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»^(٤). فهؤلاء ومَنْ كان مثْلهم حُجَّةً على أهل زمانهم وشهيدٌ عليهم. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ تقدَّم في البقرة والنساء^(٥).

(١) النكت والعيون ٢٠٨/٣.

(٢) سلف ٣٩٧/٢.

(٣) هو ربيع بن ربيعة الكاهن، من بني مازن بن الأزد، كان يتكلم بكل أعجوبة في الكهانة. ثمار القلوب للثعالبي ص ١٢٥ - ١٢٦، وجمهرة أنساب العرب ص ٣٧٤ - ٣٧٥.

(٤) أخرجه ابن السكن كما في الإصابة ٣٠٦/١٠ بلفظ: رأيت ورقة على نهر من أنهار الجنة، وأخرج أبو يعلى ٤١/٤ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سئل النبي ﷺ عن أبي طالب: هل تنفعه نبوتك؟ قال: نعم... وفيه: وسئل عن خديجة - لأنها ماتت قبل الفرائض وأحكام القرآن - فقال: أبصرتها على نهر من أنهار الجنة... وسئل عن ورقة بن نوفل قال: أبصرته في بطنان الجنة عليه سندس.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤١٦/٩: رواه أبو يعلى، وفيه مجالد، وهذا مما مدح من حديث مجالد، وبقي رجاله رجال الصحيح. اهـ والبُطنان: الوسط. النهاية (بطن).

(٥) ٤٣٥ - ٤٣٧ و ٣٢٥/٦ - ٣٢٦.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ نظيره: ﴿مَا قَرَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقد تقدّم، فلينظر هناك^(١). وقال مجاهد: تبياناً للحلال والحرام^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ روي عن عثمان بن مظعون أنه قال: لما نزلت هذه الآية؛ قرأتها على علي بن أبي طالب ؓ، فتعجب، فقال: يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق^(٣). وفي حديث: إن أبا طالب لما قيل له: إن ابن أخيك زعم أن الله أنزل عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، قال: اتبعوا ابن أخي، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق. وقال عكرمة: قرأ النبي ﷺ على الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ إلى آخرها، فقال: يا ابن أخي أعذا فأعاد عليه، فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر^(٤)! وذكر العزّزوي أن عثمان بن مظعون هو القارئ. قال عثمان: ما أسلمت ابتداء إلا حياة من رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده، فاستقرّ الإيمان في قلبي، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: يا ابن أخي أعذا فأعدت، فقال: والله إن له لحلاوة، ... وذكر تمام الخبر^(٥).

(١) ٣٧١/٨.

(٢) أخرجه عنه الطبري ٣٣٣/١٤ - ٣٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤١٦/٣، وينظر تفسير السمرقندي ٢٤٧/٢، وتفسير الرازي ١٠٠/٢٠.

(٤) تفسير البغوي ٨٢/٣، والرازي ١٠١/٢٠.

(٥) أخرجه السمرقندي في التفسير ٢٤٧/٢، وينظر تفسير الرازي ١٠٠/٢٠.

وقال ابن مسعود: هذه أجمعُ آية في القرآن لخيرٍ يُمثَّل، ولشرٍ يُجتَنَّب^(١). وحكى النقَّاشُ قال: يُقال: زكاةُ العدلِ: الإحسانُ، وزكاةُ القُدرة: العفو، وزكاةُ الغنى: المعروف، وزكاةُ الجاه: كَتَبُ الرَّجُلِ إلى إخوانه^(٢).

الثانية: اختلف العلماء في تأويلِ العدلِ والإحسانِ، فقال ابنُ عباس: العدلُ: لا إله إلا الله، والإحسانُ: أداءُ الفرائض. وقيل: العدلُ: الفرضُ، والإحسانُ: النافلة. وقال سفيانُ بنُ عُيينة: العدلُ هاهنا: استواءُ السريرة، والإحسانُ: أن تكون السريرةُ أفضلَ مِنَ العلانية^(٣). عليُّ بن أبي طالب: العدلُ: الإنصافُ، والإحسانُ: التفضلُ.

قال ابنُ عطية^(٤): العدلُ: هو كلُّ مفروض من عقائدٍ وشرائعٍ؛ في أداء الأمانات، وتركِ الظلم، والإنصافِ، وإعطاءِ الحقِّ. والإحسانُ: هو فعلُ كلِّ مندوبٍ إليه، فمن الأشياء ما هو كَلُّه مندوبٌ إليه، ومنها ما هو فرضٌ، إلا أنَّ حَدَّ الإجزاء منه داخلٌ في العدل، والتكميلُ الزائدُ على الإجزاء داخلٌ في الإحسان. وأما قولُ ابنِ عباس ففيه نظر؛ لأنَّ أداءَ الفرائضِ هي الإسلامُ حسبما فسَّره رسولُ الله ﷺ في حديث سؤال جبريلَ، وذلك هو العدلُ، وإنَّما الإحسانُ التكميلاتُ والمندوبُ إليه حسبما يقتضيه تفسيرُ النبي ﷺ في حديث سؤال جبريلَ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ». فَإِنْ صَحَّ هذا عن ابنِ عباس فإنَّما أراد الفرائضَ مكملة.

وقال ابنُ العربي^(٥): العدلُ بين العبد وبين ربِّه إثَارُ حَقِّه تعالى على حِطِّ نَفْسِهِ،

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٣٣٧/١٤، وهو عند البخاري في الأدب المفرد (٤٨٩) بنحوه، وينظر الوسيط ٧٩/٣، وتفسير الرازي ١٠٠/٢٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤١٦/٣.

(٣) ينظر تفسير الطبري ٣٣٥/١٤ - ٣٣٧، والنكت والعيون ٢٠٩/٣، وزاد المسير ٤٨٣/٤، وتفسير الرازي ١٠١/٢٠.

(٤) في المحرر الوجيز ٤١٦/٣.

(٥) في أحكام القرآن ١١٦٠/٣.

وتقديمُ رضاه على هواه، والاجتنابُ للزواجِر، والامتنثالُ للأوامر. وأما العدلُ بينه وبين نفسه فَمَنَعُهَا مما فيه هلاكُها؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] وعُزُوبُ الأَطْمَاعِ عن الاتباع، ولزومُ القناعةِ في كلِّ حالٍ ومعنى. وأما العدلُ بينه وبين الخَلْق؛ فبَذْلُ النصيحة، وتركُ الخيانةِ فيما قَلَّ وكَثُرَ، والإنصافُ مِن نَفْسِكَ لَهُمْ بِكُلِّ وجه، ولا يكونُ منك إِساءَةٌ إلى أَحَدٍ بقولٍ ولا فعلٍ، لا في سِرٍّ ولا في عَلَنٍ، والصَبْرُ على ما يُصِيبُكَ مِنْهُمْ مِنَ البَلَوَى، وأقلُّ ذلكِ الإنصافُ وتركُ الأذى. قلت: هذا التفصيلُ في العدلِ حَسَنٌ وعدلٌ. وأما الإحسانُ فقد قال علماؤنا: الإحسانُ مصدرٌ أَحْسَنَ يُحْسِنُ إحساناً. ويقال على معنيين:

أحدهما متعديٌّ بنفسِه؛ كقولك: أحسنتُ كذا، أي: حَسَنْتَهُ وكَمَلْتَهُ، وهو منقولٌ بالهمزة، مِنْ حَسَنَ الشَّيْءِ.

وثانيهما: متعديٌّ بحرفٍ جرٍّ، كقولك: أحسنتُ إلى فلان، أي: أوصلتُ إليه ما يَنْتَفِعُ بِهِ^(١).

قلت: وهو في هذه الآية مرادٌ بالمعنيين معاً، فَإِنَّهُ تعالى يُحِبُّ مِنْ خَلْقِهِ إِحْسَانَ بَعْضِهِمْ إلى بَعْضٍ، حتى إن الطائرَ في سجنك، والسَّنورَ في دارك، لا ينبغي أن تَقْصُرَ تَعَهُدُهُ بِإِحْسَانِكَ؛ وهو تعالى غنيٌّ عن إحسانهم، ومنه الإحسانُ والنَّعمُ والفَضْلُ والمِنْنُ^(٢). وهو في حديث جبريلَ بالمعنى الأول لا بالثاني؛ فَإِنَّ المعنى الأولَ راجعٌ إلى إتقانِ العبادَةِ ومراعاتِها؛ بِأَدَابِهَا المصحَّحة والمكمَّلة، ومراقبةِ الحقِّ فيها، واستحضارِ عَظَمَتِهِ وجلالِهِ حالةَ الشُّروعِ وحالةِ الاستمرار. وهو المراد بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٣).

(١) المفهم ١٤٢/١ - ١٤٣.

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦٠ - ١١٦١.

(٣) المفهم ١٤٣/١.

وأربابُ القلوبِ في هذه المراقبة على حالين: أحدهما غالبٌ عليه مشاهدَةُ الحقِّ، فكأنَّه يراه، ولعلَّ النبي ﷺ أشار إلى هذه الحالة بقوله: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١). وثانيهما: لا ينتهي إلى هذا، لكن يَغْلِبُ عليه أَنَّ الحقَّ سبحانه مُطَّلِعٌ عليه ومشاهدٌ له، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ [الشعراء: ٢١٨]، وقوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]^(٢).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي إِذَى الْقُرْبَى﴾ أي: القربة؛ يقول: يُعْطِيهِم المَالُ، كما قال: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَى حَقًّا﴾ [الإسراء: ٢٦] يعني: صَلَّته. وهذا من بابِ عطف المندوبِ على الواجب، وبه استدلالُ الشافعي في إيجاب إتياء المُكَاتَّبِ؛ على ما يأتي بيانه.

وإنما حَصَّ ذَا الْقُرْبَى؛ لأنَّ حقوقَهُم أَوْكَدُ، وصلَّتهُم أَوْجِبُ؛ لتأكيدِ حقِّ الرَّجَمِ التي اشتقَّ الله اسمَها مِنْ اسمِهِ، وجَعَلَ صَلَّتهَا مِنْ صَلَّتهِ. فقال في «الصحيح»: «أما تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ، وأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ»^(٣). ولا سِيَّما إذا كانوا فقراء.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَتَخَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ الفحشاء: الفُحْشُ، وهو كُلُّ قَبِيحٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ. ابنُ عباس: هو الزنى. والمنكر: ما أنكره الشرعُ بالنهي عنه، وهو يَعْمُ جميعَ المعاصي والردائل والدناءاتِ على اختلافِ أنواعِها. وقيل: هو الشُّرْكُ. والبغْيُ: هو الكِبَرُ وَالظُّلْمُ وَالْجَفْدُ والتَّعَدِّي؛ وحقيقته: تجاوز الحدِّ، وهو داخلٌ تحت المنكر، لكنه تعالى خَصَّه بالذكر؛ اهتماماً به؛ لشدَّةِ ضَرَرِهِ^(٤).

(١) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي في المجتبى ٦١/٧ - ٦٢ من حديث أنس ؓ.

(٢) المفهم ١٤٣/١.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٣٠)، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٤١٦/٣، وأحكام القرآن لابن العربي ١١٦١/٣، وأثر ابن عباس أخرجه الطبري في التفسير ٣٣٦/١٤.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لَا ذَنْبَ أَسْرَعُ عِقَابَهُ مِنْ بَغْيٍ»^(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «الباغِي مَصْرُوعٌ»^(٢). وقد وَعَدَ اللهُ مَنْ يُبْغِي عَلَيْهِ بِالتَّضَرُّ. وفي بعضِ الكتبِ المُنَزَّلَةِ: لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ، لَجُعِلَ الْبَاغِي مِنْهُمَا دَكًّا^(٣).

الخامسة: ترجم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في «صحيحه» فقال: باب قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ﴾، «ثُمَّ يُبْغِي عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ»، وترك إثارة الشرِّ على مسلم أو كافر. ثم ذكر حديث عائشة في سحر لبيد بن الأعصم النبي ﷺ^(٤). قال ابن بطال^(٥): فتأول هذه الآيات ترك إثارة الشرِّ على مسلم أو كافر؛ كما دلَّ عليه حديث عائشة حيث قال عليه الصلاة والسلام: «أما الله فقد شفاني، وأما أنا فأكره أن أُبْغِيَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا»^(٦). ووجه ذلك - والله أعلم - أنه تأول في قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الندبَ بالإحسانِ إلى المُسِيءِ، وترك معاقبته على إساءته.

فإن قيل: كيف يصحُّ هذا التأويلُ في آياتِ البغي؟

قيل: وجه ذلك - والله أعلم - أنه لما أعلم الله عباده بأنَّ ضَرَرَ البغي ينصرفُ

(١) هكذا أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤١٦/٣، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٢١٥) عن علي بن عاصم بنحوه. وفي الباب عن أبي بكره قال: قال رسول الله ﷺ: ما من ذنبٍ أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا - مع ما يدخر له في الآخرة - من قطيعة الرحم والبغي. أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٩)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (١٥١٣)، وابن ماجه (٤٢١١).

(٢) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤١٦/٣.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٨٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣٢٢/١ موقوفاً على ابن عباس، وأخرجه وكيع في الزهد (٤٢٦)، وهناد في الزهد (١٣٩٥) عن مجاهد مرسلًا. قال ابن أبي حاتم في علل الحديث ٢٣٤/٢: والموقوف أصح. اهـ. والكلام من المحرر الوجيز ٤١٦/٣.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٦٨) و(٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩)، وسلف ٢٧٦/٢.

(٥) في شرحه لصحيح البخاري ٢٥٧/٩.

(٦) هو الحديث السالف الذكر.

على الباغي بقوله: ﴿إِنَّمَا بِقَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، وَضَمِنَ تَعَالَى نُصْرَةً مِنْ بُغْيٍ عَلَيْهِ، كَانَ الْأُولَى بِمَنْ بُغِيَ عَلَيْهِ شُكْرُ اللَّهِ عَلَى مَا ضَمِنَ مِنْ نُصْرِهِ، وَمُقَابَلَةٌ ذَلِكَ بِالْعَفْوِ عَمَّنْ بَغَى عَلَيْهِ؛ وَكَذَلِكَ فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْيَهُودِي الَّذِي سَحَرَهُ، وَقَدْ كَانَ لَهُ الْإِنْتِقَامُ مِنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَيْنَ عَاقِبَتُهُ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. وَلَكِنْ أَثَرُ الصَّفْحِ؛ أَخْذًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْ وَعَفِّرْ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

السادسة: تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِيهِمَا^(١). رُويَ أَنَّ جَمَاعَةً رَفَعَتْ عَامِلَهَا إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ الْعَبَّاسِيِّ، فَحَاجَّهَا الْعَامِلُ وَعَلَبَهَا، بِأَنَّهُمْ لَمْ يُثْبِتُوا عَلَيْهِ كَبِيرَ ظُلْمٍ وَلَا جَوْرَ فِي شَيْءٍ؛ فَقَامَ فَتَى مِنَ الْقَوْمِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَإِنَّهُ عَدَلٌ وَلَمْ يُحْسِنِ. قَالَ: فَعَجِبَ أَبُو جَعْفَرٍ مِنْ إِصَابَتِهِ، وَعَزَلَ الْعَامِلَ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٩١﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ لَفْظٌ عَامٌّ لِجَمِيعِ مَا يُعْقَدُ بِاللِّسَانِ وَيَلْتَزِمُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ بَيْعٍ، أَوْ صِلَةٍ، أَوْ مَوَاقِفَةٍ فِي أَمْرِ مُوَافِقٍ لِلدِّيَانَةِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ مُضَمَّنٌ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ لِأَنَّ الْمَعْنَى فِيهَا: افْعَلُوا كَذَا، وَانْتَهَوْا عَنْ كَذَا؛ فَعُطِفَ عَلَى ذَلِكَ التَّقْدِيرُ.

وقد قيل: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي بَيْعَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي التَّزَامِ الْجَلْفِ الَّذِي كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَجَاءَ الْإِسْلَامُ بِالْوَفَاءِ بِهِ؛ قَالَهُ قِتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ^(٣). وَالْعُمُومُ يَتَنَاوَلُ كُلَّ ذَلِكَ كَمَا يَبَيَّنُّهُ.

(١) ٧٣/٥ - ٧٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤١٧/٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤١٧/٣، وينظر تفسير الطبري ٣٣٨/١٤ - ٣٣٩، والنكت والعيون ٢١٠/٣.

روى «الصحيح» عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»^(١) يَعْنِي فِي نُصْرَةِ الْحَقِّ وَالْقِيَامِ بِهِ وَالْمَوَاسَاةِ.

وهذا كَنَحْوِ حِلْفِ الْفُضُولِ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ^(٢)، قَالَ: اجْتَمَعَتْ قِبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ؛ لَشَرَفِهِ وَنَسَبِهِ، فَتَعَاقدُوا وَتَعَاهَدُوا عَلَى أَلَّا يَجِدُوا بِمَكَّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا أَوْ غَيْرِهِمْ إِلَّا قَامُوا مَعَهُ حَتَّى تُرَدَّ عَلَيْهِ مَظْلَمَتُهُ؛ فَسَمَّتْ قُرَيْشُ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ. أَي: حِلْفَ الْفَضَائِلِ. وَالْفُضُولُ هُنَا: جَمْعُ فَضْلٍ^(٣)، لِلْكَثْرَةِ، كَفُلْسٍ وَفُلُوسٍ. رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، لَوْ أَدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لِأَجَبْتُ»^(٤).

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ^(٥): تَحَامَلَ الْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ عَلَى حُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ فِي مَالٍ لَهُ، لِسُلْطَانِ الْوَلِيدِ فَإِنَّهُ كَانَ أَمِيرًا عَلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ: أَخْلِفْ بِاللَّهِ لَتُنَصِّفَنِي مِنْ حَقِّي، أَوْ لَأَخْذَنَّ سَيْفِي، ثُمَّ لَأَقُومَنَّ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ لَأَدْعُونَ بِحِلْفِ الْفُضُولِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ: وَأَنَا أَخْلِفْتُ وَاللَّهِ لَثْنُ دَعَانَا لَأَخْذَنَّ سَيْفِي، ثُمَّ لَأَقُومَنَّ مَعَهُ حَتَّى يَنْتَصِفَ مِنْ حَقِّهِ، أَوْ نَمُوتَ جَمِيعًا. وَبَلَغَتِ الْمِسُورَةُ بَنَ مَخْرَمَةٍ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ. وَبَلَغَتْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ التَّيْمِي، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْوَلِيدُ أَنْصَفَهُ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: فَهَذَا الْحِلْفُ الَّذِي كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ هُوَ الَّذِي شَدَّه الْإِسْلَامُ، وَخَصَّه

(١) سلف ٢٤٨/٧ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٣٣/١ - ١٣٤ .

(٣) سلف ٢٤٨/٧ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١٣٤/١ ، وسلف ٢٤٧/٧ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١٣٥/١ .

النبي عليه الصلاة والسلام من عموم قوله: «لا حِلْفَ في الإسلام». والحكمة في ذلك أنَّ الشرع جاء بالانتصار من الظالم، وأخذ الحق منه، وإيصاله إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجاباً عاماً على مَنْ قَدَرَ مِنَ المَكْلُفِينَ، وجعل لهم السبيلَ على الظالمين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢]. وفي «الصحیح»: «أُنْصُرَ أَخَاكَ ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يا رسول الله، هذا ننصُرُهُ مظلوماً، فكيف ننصُرُهُ ظالماً؟ قال: «تَأْخُذْ عَلَى يَدَيْهِ» - في رواية: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ» - «فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»^(١). وقد تقدّم قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»^(٢).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَضُوا الْآيَتِينَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يقول: بعد تشديدها وتغليظها^(٣)، يقال: توكيد وتأکید، وَوَكَّدَ وَأَكَّدَ، وهما لغتان^(٤).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ يعني: شهيداً. ويقال: حافظاً، ويقال: ضامناً. وإنما قال: «بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» فرقاً بين اليمين المؤكدة بالعزم، وبين لَعْنِ اليمين.

وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك: التوكيدُ هو حَلِفُ الإنسانِ في الشيء الواحدٍ مراراً، يُرَدَّدُ فيه الأيمانُ ثلاثاً أو أكثرَ من ذلك، كقوله: والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا. قال: فكفارة ذلك واحدةٌ مثل كفارة اليمين.

وقال يحيى بن سعيد: هي العهودُ، والعهدُ يمينٌ، ولكنَّ الفرقَ بينهما أنَّ العهدَ لا

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٣) وسلف ٢٤٩/٣.

(٢) سلف ٣٨٦/٣.

(٣) عزاه الطبري في تفسيره ٣٤٠/١٤ إلى قتادة.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢١٧/٣، والمحور الوجيز ٤١٧/٣.

يُكْفَر. قال النبي ﷺ: «يُنْصَبُ لكلٌ غادرٍ لواءٌ يومَ القيامة عند استه بقَدْرِ غَدْرته، يقال: هذه غدرَةُ فلانٍ»^(١). وأما اليمينُ بالله فقد شرَّع الله سبحانه فيها الكفَّارة بخصلَةٍ واحدة، وحلٌّ ما انعقدت عليه اليمينُ. وقال ابنُ عمر: التوكيدُ هو أن يَحْلِفَ مرَّتين، فإن حَلَفَ واحدةً، فلا كفَّارة فيه. وقد تقدَّم في المائدة^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آمِنَتَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ﴾^(٣)

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ النَّقْضُ والنَّكْتُ واحدٌ، والاسمُ النَّكْتُ والنَّقْضُ، والجمعُ الأنكاثُ. فشَبَّهت هذه الآيةُ الذي يَحْلِفُ ويُعَاهِدُ ويُرِمُّ عَهْدَهُ ثم يَنْقُضُهُ، بالمرأةِ تَغْزُلُ غَزْلَهَا وتَفْتِلُهُ مُحْكَمًا ثم تُحْلَهُ^(٤).

ويُروى أنَّ امرأةَ حمقاء كانت بمكة تُسَمَّى رَيْطَةَ بنتَ عمرو بنِ كعب بنِ سعد بنِ تميم بنِ مُرَّة كانت تفعلُ ذلك، فيها وَقَع التشبيهُ، قاله الفراء^(٥)، وحكاه عبدُ الله بنُ كثير، والسُّدِّي، ولم يسميَا المرأةَ. وقال مجاهد وقتادة: وذلك صَرْبٌ مَثَلٌ، لا على امرأةٍ معيَّنة^(٥).

و«أنكاثًا» نصبٌ على الحال^(٦). والدَّخَلُ: الدَّغْلُ والخديعةُ والغِشُّ. قال أبو عبيدة^(٧): كلُّ أمرٍ لم يكن صحيحاً، فهو دَخَلٌ^(٨).

(١) المحرر الوجيز ٥٣٦/١، وسلف ٣٩٠/٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١١٦٢/٣، وينظر ما سلف ١٢١/٨ وما بعدها.

(٣) المحرر الوجيز ٤١٧/٣.

(٤) في معاني القرآن ١١٢/٢ - ١١٣.

(٥) المحرر الوجيز ٤١٧/٣ - ٤١٨، وأخرج أثر مجاهد وقتادة الطبري في التفسير ٣٤٢/١٤ - ٣٤٣.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢١٧/٣، والمحرر الوجيز ٤١٨/٣.

(٧) معاني القرآن للفراء ١١٣/٢، والنكت والعيون ٢١١/٣، والمحرر الوجيز ٤١٨/٣، وتهذيب اللغة ٢٧١/٧.

(٨) في مجاز القرآن ٣٦٧/١.

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها، غدرت الأولى، ونقضت عهدها، ورجعت إلى هذه الكبرى - قاله مجاهد - فقال الله تعالى: لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى، أو أكثر أموالاً، فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة في الدنيا لأعدائكم المشركين^(١).

والمقصود النهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم. وقال الفراء: المعنى: لا تغدروا بقوم لقللتهم وكثرتكم، أو لقللتكم وكثرتهم، وقد غررتموهم بالآيمان^(٢).

﴿أَرْبَىٰ﴾ أي: أكثر؛ من ربا الشيء يزبؤ: إذا كثر^(٣).

والضمير في «به» يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به، ويحتمل أن يعود على الرباء، أي: إن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد، وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك ليري من يجاهد نفسه فيخالفها، ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها^(٤)، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيَبَيِّنَ لَكُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من البعث وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على ملّة واحدة.

(١) تفسير مجاهد ٣٥١/١، والمحمر الوجيز ٤١٨/٣، وأخرجه الطبري ٣٤٥/١٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ١١٣/٢، ووقع في (د) و(ظ): عززتموهم، وفي (م): عززتموهم، والمثبت من (ز)، ومصدر النقل.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤٠٧/٢.

(٤) المحمر الوجيز ٤١٨/٣.

﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ بخذلانه إياهم؛ عذلاً منه فيهم. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بتوفيقه إياهم؛ فضلاً منه عليهم^(١)، ولا يُسأل عما يفعل، بل تُسألون أنتم. والآية تردُّ على أهل القدر كما تقدم. واللام في «وليبينن» و«لتسألن» مع النون المشددة يدلان على قَسَم مضمَر، أي: والله لُيُبينَنَّ لكم ولتُسألَنَّ^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا نَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوهُ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ٤٤

قوله تعالى: ﴿وَلَا نَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ كرَّر ذلك تأكيداً. ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ مبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدين، وتردُّده في معاشرات الناس، أي: لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد؛ فتزِلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها، أي: عن الإيمان بعد المعرفة بالله. وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شرٍّ عظيم ويسقط فيه؛ لأنَّ القَدَم إذا زَلَّتْ نقلت الإنسان من حالٍ خيرٍ إلى حالٍ شرٍّ، ومن هذا المعنى قول كثير:

فلما توافينا ثَبَتَ وَزَلَّتِ^(٣)

والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقطٍ في ورطة: زَلَّتْ قَدَمُهُ^(٤)؛ كقول الشاعر:

سَيُمنَعُ مِنْكَ السَّبْقُ إِنْ كُنْتَ سَابِقاً وَتُقَلَّلُ إِنْ زَلَّتْ بِكَ الْقَدَمَانِ^(٥)
ويقال لمن أخطأ في شيء: زَلَّ فيه.

(١) تفسير البغوي ٨٣/٣.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/٢٤٨، والوسيط ٣/٨٠، والمحرم الوجيز ٣/٤١٨.

(٣) ديوان كثير ص ٧٩، وصدرة: وكثاً سلكتنا في صعود من الهوى، والكلام من المحرم الوجيز ٣/٤١٩.

(٤) مجاز القرآن ١/٣٦٧.

(٥) البيت لبشر بن أبي بن حمام العبسي، وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/٤٥٣.

ثم توعدّ تعالى بعدُ بعذاب في الدنيا وعذابٍ عظيم في الآخرة^(١). وهذا الوعيدُ إنما هو فيمن نقض عهدَ رسولِ الله ﷺ، فإنَّ من عاهدَه ثم نقضَ عهده؛ خرج عن الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَتَذُقُوا السَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: بصدّكم. وذوقُ السَّوْءِ في الدنيا هو ما يحلُّ بهم من المكروه^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ نهى عن الرِّشَا وأخذ الأموال على نقضِ العهد، أي: لا تنقضوا عهودكم لعرض قليل من الدنيا. وإنما كان قليلاً - وإن كثر - لأنه ممّا يزول، فهو على التحقيق قليل، وهو المراد بقوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ فبينَ الفرقِ بين حالِ الدنيا وحالِ الآخرة؛ بأنَّ هذه تنفد وتحوّل، وما عند الله من مواهبٍ فضله ونعيم جنّته ثابت لا يزول لمن وفى بالعهد، وثبتت على العقد^(٣). ولقد أحسن من قال:

المالُ ينفدُ جلّه وحرامه يوماً وتبقى في غدٍ آثامه
ليس التقيُّ بمثقي لإلهه حتى يطيبَ شرابه وطعامه^(٤)

آخر:

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أليس مصيرُ ذاكِ إلى انتقالٍ
وما دنياكَ إلا مِثْلُ قَيْءٍ أظْلُك ثم آذنَ بالزوالِ^(٥)

(١) المحرر الوجيز ٤١٩/٣ .

(٢) ينظر زاد المسير ٤٨٧/٤ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٤١٩/٣ .

(٤) البيتان في بهجة المجالس ٨٠/٣ ، ووفيات الأعيان ١٤١/٦ .

(٥) البيتان لأبي العتاهية، وهما في ديوانه ص ٢٩٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على الإسلام والطاعات وعن المعاصي. ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من الطاعات، وجعلها أحسن؛ لأنَّ ما عداها من الحسن مباح، والجزاء إنَّما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله.

وقرأ عاصم وابن كثير: «ولنجزين» بالنون؛ على التعظيم. الباقر: بالياء^(١).
وقيل: إنَّ هذه الآية: «ولا تشتروا» إلى هنا، نزلت في امرئ القيس بن عباس الكندي وخصمه ابن أسوع، اختصما في أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف، فلما سمع هذه الآية، نكل وأقر له بحقه، والله أعلم^(٢).

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٧﴾
قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ شرط وجوابه. وفي الحياة الطيبة خمسة أقوال:
الأول: أنه الرزق الحلال؛ قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضحاك^(٣).

الثاني: القناعة؛ قاله الحسن البصري، وزيد بن وهب، وهب بن منبه. ورواه الحَكَم، عن عكرمة، عن ابن عباس، وهو قول علي بن أبي طالب^(٤).

(١) السبعة ص ٣٧٥، والتيسير ص ١٣٨. ولاين ذكوان الوجهان.

(٢) هكذا أورده السمرقندي في التفسير ٢/٢٤٩، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/٤٨٧ - ٤٨٨ في سبب نزول هذه الآية، وأورده الواحدي في أسباب النزول ص ٤٧ في سورة البقرة، في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ الآية ١٨٨، والخبر عند مسلم (١٣٩) من حديث وائل بن حجر، وفيه أن الخصم اسمه ربيعة بن عبدان.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/٣٥٠ - ٣٥٢ عن ابن عباس والضحاك، وأورده البغوي في التفسير ٣/٨٣ عن سعيد بن جبير وعطاء.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/٣٥٢ عن الحسن البصري وعلي بن أبي طالب، وأورده ابن الجوزي =

الثالث: توفيقه إلى الطاعات، فإنها تؤدّيه إلى رضوانِ الله؛ قال معناه الضحّاك^(١). وقال أيضاً: من عمل صالحاً وهو مؤمنٌ في فاقةٍ وميسرة، فحياته طيبة، ومن أعرض عن ذكرِ الله ولم يؤمن برّبه، ولا عمِلَ صالحاً، فمعيشتُه ضنكٌ لا خيرَ فيها^(٢). وقال مجاهد وقتادة وابنُ زيد: هي الجنة، وقاله الحسن^(٣)، وقال: لا تطيبُ الحياةَ لأحدٍ إلا في الجنة^(٤). وقيل: هي السعادة، روي عن ابنِ عباس أيضاً^(٥). وقال أبو بكر الورّاق: هي حلاوةُ الطاعة^(٦).

وقال سهلُ بنُ عبد الله التّستريّ: هي أن ينزعَ عن العبدِ تدبيره، ويردّ تدبيره إلى الحقّ. وقال جعفرُ الصادقُ: هي المعرفةُ بالله، وصِدْقُ المَقامِ بين يدي الله. وقيل: الاستغناء عن المخلوق، والافتقارُ إلى الحقّ. وقيل: الرّضا بالقضاء^(٧).

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: في الآخرة. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقال: «فلنحييّه»، ثم قال: «ولنجزّيهم»؛ لأنَّ «مَنْ» يصلح للواحد والجمع^(٨)، فأعاد مرّةً على اللفظ، ومرّةً على المعنى؛ وقد تقدّم. وقال أبو صالح: جلس ناسٌ من أهلِ التوراة، وناسٌ من أهل الإنجيل، وناسٌ من أهل الأوثان، فقال هؤلاء: نحن أفضلُ، وقال هؤلاء: نحن أفضلُ؛ فنزلت^(٩).

= في زاد المسير ٤/٤٨٨ - ٤٨٩ عن الحسن ووهب بن منبه، والنحاس في معاني القرآن ٤/١٠٤ عن ابن عباس.

(١) النكت والعيون ٣/٢١٢، وزاد المسير ٤/٤٨٩.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/٣٥٢.

(٣) أخرجه عنهم الطبري في التفسير ١٤/٣٥٣ - ٣٥٤، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/٢١٢ عن مجاهد وقتادة.

(٤) الوسيط للواحد ٣/٨٢.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/٣٥٣، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/٢١٢.

(٦) زاد المسير ٤/٤٨٩.

(٧) النكت والعيون ٣/٢١٢.

(٨) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٦٨.

(٩) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/٣٥٦ - ٣٥٧، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٤١٩.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿٨٨﴾

فيه مسألة واحدة: وهي أن هذه الآية متصلة بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾. فإذا أخذت في قراءته، فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان؛ فيصدك عن تدبره والعمل بما فيه. وليس يريد استعذ بعد القراءة؛ بل هو كقولك: إذا أكلت فقل: بسم الله، أي إذا أردت أن تأكل^(١).

وقد روى [ابن] جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ حين افتتح الصلاة قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه»^(٢). وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة^(٣).

قال الكيا الطبري: ونقل عن بعض السلف التعوذ بعد القراءة مطلقاً، احتجاجاً بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضي أن تكون الاستعاذة بعد القراءة؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَنُعُودًا﴾ [النساء: ١٠٣]. إلا أن غيره محتيل، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]؛ وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم. ومثله قول القائل: إذا قلت فاضدق، وإذا أحرمت فاغتسل؛ يعني: قبل الإحرام. والمعنى في جميع ذلك: إذا أردت ذلك؛ فكذلك الاستعاذة^(٤). وقد تقدم هذا المعنى، وتقدم القول في الاستعاذة مستوفى^(٥).

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢١٨/٣.

(٢) سنن أبي داود (٧٦٤) وما بين حاصرتين منه، وسلف ١٣٦/١.

(٣) سنن أبي داود (٧٧٥)، وسلف ١٣٦/١.

(٤) أحكام القرآن للکيا الطبري ٢٤٥/٤ - ٢٤٦.

(٥) ١٣٥/١ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١)
 ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُم وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بالإغواء والكفر، أي: ليس لك قدرة على أن تحملهم على ذنب لا يُغفر؛ قاله سفيان. وقال مجاهد: لا حجة له على ما يدعوهم إليه من المعاصي. وقيل: إنه ليس له عليهم سلطان بحال؛ لأن الله تعالى صرّف سلطانه عليهم حين قال عَدُوُّ الله إبليس لعنه الله: ﴿وَلَا غَوِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [الحجر: ٣٩-٤٠] قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(١) [الحجر: ٤٢].

قلت: قد بيّنا أنّ هذا عامٌ يدخله التخصيص، وقد أغوى آدم وحواء عليهما السلام بسلطانه، وقد شوّش على الفضلاء أوقاتهم بقوله: «مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟» حسبما تقدّم في آخر الأعراف بيانه^(٢).

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُم﴾ أي: يطيعونه. يقال: تولّيته، أي: أطعته، وتولّيت عنه، أي: أغرضت عنه^(٣).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: بالله؛ قاله مجاهد والضحاك^(٤). وقيل: يرجع «به» إلى الشيطان؛ قاله الربيع بن أنس^(٥) والقشيري^(٦). والمعنى: والذين هم من أجله مشركون. يقال: كفرْتُ بهذه الكلمة، أي: من أجلها. وصار فلانُ بك عالماً، أي:

(١) النكت والعيون ٢١٣/٣، وأثر سفيان أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل (٢٥)، والطبري في التفسير ٣٥٨/١٤ - ٣٥٩. وأثر مجاهد في تفسيره ٣٥٢/١، وأخرجه عنه الطبري ٣٥٨/١٤ بنحوه، وينظر زاد المسير ٤٩٠/٤.

(٢) ٤٢٣/٩، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٣) تفسير الرازي ١١٥/٢٠.

(٤) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ٣٦٠/١٤ - ٣٦١، وينظر تفسير مجاهد ٣٥١/٤.

(٥) أخرجه عنه الطبري في التفسير ٣٦١/١٤.

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

من أجلك. أي: والذي تولى الشيطان مشركون بالله^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ﴾ قيل: المعنى: بدلنا شريعةً متقدمة بشريعةً مستأنفة؛ قاله ابنُ بحر^(٢). مجاهد: أي: رفعنا آيةً وجعلنا موضعها غيرها^(٣). وقال الجمهور: نَسَخْنَا آيَةً بآيَةٍ أَشَدَّ مِنْهَا عَلَيْهِمْ^(٤). والنسخُ والتبديلُ: رَفْعُ الشَّيْءِ مَعَ وَضْعِ غَيْرِهِ مَكَانَهُ. وقد تقدَّم الكلامُ في النَّسخِ في البقرة مستوفى^(٥).

﴿قَالُوا﴾ يريد كفار قريش. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: كاذبٌ مختلق؛ وذلك لما رَأَوْا مِنْ تَبْدِيلِ الْحُكْمِ. فقال الله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ اللَّهَ سَرَعَ الْأَحْكَامَ وَتَبْدِيلَ الْبَعْضِ بِالْبَعْضِ.

وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني: جبريل، نَزَلَ بِالْقُرْآنِ كُلَّهُ نَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ^(٦). ورُوي بإسنادٍ صحيحٍ عن عامر الشَّعْبِيِّ قال: وَكُلَّ إِسْرَافِيلُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ثَلَاثَ سِنِينَ، فَكَانَ يَأْتِيهِ بِالْكَلِمَةِ وَالْكَلِمَةِ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ بِالْقُرْآنِ^(٧). وفي «صحيح مسلم» أيضاً أنه نَزَلَ عَلَيْهِ بِسُورَةِ الْحَمْدِ مَلَكٌ لَمْ يَنْزِلْ إِلَى الْأَرْضِ قَطُّ. كما

(١) زاد المسير ٤/ ٤٩١.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢١٤.

(٣) تفسير مجاهد ١/ ٣٥٢، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦٣.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢١٤، دون قوله: أَشَدَّ مِنْهَا عَلَيْهِمْ.

(٥) ٣٠٠/٢ وما بعدها.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢١.

(٧) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ١٣٢، وابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٧٠ - ٧١.

تقدّم في الفاتحة بيانه^(١).

﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: من كلام ربك. ﴿لِيُنَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بما فيه من الحُجج والآيات. ﴿وَهْدًى﴾ أي: وهو هدى ﴿وَيُثْرِي لِلْمُسْلِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ اختلف في اسم هذا الذي قالوا إنمّا يعلمه؛ ف قيل: هو غلامُ الفاكه بن المغيرة، واسمه جبر، كان نصرانياً فأسلم؛ وكانوا إذا سمعوا من النبي ﷺ ما مضى وما هو آتٍ - مع أنّه أمّي لم يقرأ - قالوا: إنمّا يعلمه جبر وهو أعجمي؛ فقال الله تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: كيف يعلمه جبر - وهو أعجمي - هذا الكلام الذي لا يستطيعُ الإنسُ والجنُّ أن يُعارضوا منه سورةً واحدةً فما فوقها. وذكر النقاشُ أنّ مولى جبر كان يضربه ويقول له: أنت تعلمُ محمداً، فيقول: لا والله، بل هو يعلمني ويهديني.

وقال ابنُ إسحاق: كان النبي ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلسُ عند المروة إلى غلامٍ نصرانيٍّ يقال له: جبر، عبدُ بني الحَضْرَمي، وكان يقرأ الكُتُبَ، فقال المشركون: والله ما يُعلّمُ محمداً ما يأتي به إلا جبرُ النصراني^(٢).

وقال عكرمة: اسمه يعيش، عبدُ لبني الحَضْرَمي، كان رسولُ الله ﷺ يلقّنه القرآن؛ ذكره الماوردي^(٣).

(١) ١٧٨/١ - ١٧٩ ، والحديث في صحيح مسلم (٨٠٦). وقد ذكر المصنف ثمة أن جبريل عليه السلام نزل بالفاتحة، بمكة، وأن المَلَك نزل بشوابها بالمدينة.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٩٣ ، وأخرجه عنه أيضاً الطبري في التفسير ١٤/٣٦٦ .

(٣) التكت والعيون ٣/٢١٤ - ٢١٥ ، وأخرجه الطبري في التفسير ١٤/٣٦٥ .

وذكر الثعلبي عن عكرمة وقتادة أنه غلام لبني المغيرة، اسمه يعيش، وكان يقرأ الكُتُبَ الأعجمية، فقالت قريش: إنما يعلمه بشر، فنزلت^(١). المهدوي عن عكرمة: هو غلام لبني عامر بن لؤي، واسمه يعيش^(٢).

وقال عبد الله بن مسلم الحَضْرَمِيُّ: كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار، واسم الآخر جبر. كذا ذكر الماوردي والقشيري والثعلبي؛ إلا أن الثعلبي قال: يقال لأحدهما: نبت، ويكنى أبا فُكَيْهَة، والآخر: جبر، وكانا صَيِّقَلَيْنِ يعملان السيوف؛ وكانا يقرأان كتاباً لهما. الثعلبي: يقرأان التوراة والإنجيل. الماوردي والمهدوي: التوراة. فكان رسول الله ﷺ يمرُّ بهما ويسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون: يتعلم منهما. فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم^(٣).
وقيل: عنوا سلمان الفارسي ﷺ؛ قاله الضحاك^(٤).

وقيل: نصرانياً بمكة اسمه بلعام، وكان غلاماً يقرأ التوراة؛ قاله ابن عباس. وكان المشركون يَرَوْنَ رسول الله ﷺ حين يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام^(٥).

وقال القُتَيْبِيُّ: كان بمكة رجل نصراني يقال له: أبو ميسرة، يتكلم بالرومية، فربما قعد إليه رسول الله ﷺ، فقال الكفار: إنما يتعلم محمد منه، فنزلت. وفي رواية: أنه عداس غلام عتبة بن ربيعة^(٦).

(١) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ٣٦٥/١٤ - ٣٦٦، وينظر الوسيط ٨٤/٣، وتفسير الرازي ١١٧/٢٠.

(٢) تفسير الرازي ١١٧/٢٠.

(٣) أخرجه الطبري ٣٦٧/١٤ - ٣٦٨، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٧ - ٢٨٨. وينظر النكت والعيون ٢١٥/٣.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٣٦٨/١٤، وينظر تفسير ابن أبي حاتم ٢٣٠٣/٧، وزاد المسير ٤٩٣/٤.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ٣٦٥/١٤، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٢١٤/٣ ونسبه إلى مجاهد.

(٦) تفسير الرازي ١١٧/٢٠.

وقيل: عابسٌ غلامٌ حُوَيْطِب بن عبد العُزَّى، ويسارٌ أبو فُكَيْهَة مولى ابن الحَضْرَمي، وكانا قد أسلما^(١). والله أعلم.

قلت: والكلُّ مُحْتَمِل؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رُبَّمَا جَلَسَ إِلَيْهِمْ فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ لِيَعْلَمَهُمْ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ ذَلِكَ بِمَكَّةَ.

وقال النُّحَّاسُ^(٢): وهذه الأقوالُ ليست بمتناقضةٍ لَأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا أَوْمَرُوا إِلَى هَؤُلَاءِ جَمِيعاً، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَهُ.

قلت: وأما ما ذكره الضَّحَّاكُ مِنْ أَنَّهُ سَلَمَانٌ، فَفِيهِ بُغْذٌ؛ لِأَنَّ سَلَمَانَ إِنَّمَا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَكِّيَّةٌ^(٣).

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ الإِلْحَادُ: المِيلُ؛ يُقَالُ: لَحَدَ وَالْحَدَّ، أَي: مَالَ عَنِ الْقَصْدِ^(٤). وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْأَعْرَافِ^(٥).

وَقَرَأَ حَمْزَةً: «يَلْحَدُونَ» بَفَتْحِ الْيَاءِ وَالْحَاءِ^(٦)، أَي: لِسَانُ الَّذِي يَمِيلُونَ إِلَيْهِ وَيَشِيرُونَ أَعْجَمِيٌّ. وَالْعُجْمَةُ: الْإِخْفَاءُ وَضُدُّ الْبَيَانِ. وَرَجُلٌ أَعْجَمٌ وَامْرَأَةٌ عَجْمَاءُ، أَي: لَا يُفْصِحُ، وَمِنْهُ: عُجْمُ الذَّنْبِ، لَا سِتَارَهُ. وَالْعَجْمَاءُ: الْبَهِيمَةُ؛ لِأَنَّهَا لَا تُوَضِّحُ عَنْ نَفْسِهَا. وَأَعْجَمْتُ الْكِتَابَ، أَي: أَزَلْتُ عُجْمَتَهُ. وَالْعَرَبُ تُسَمَّى كُلٌّ مَنِ لَا يَعْرِفُ لُغَتَهُمْ وَلَا يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِهِمْ أَعْجَمِيًّا. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْأَعْجَمُ: الَّذِي فِي لِسَانِهِ عُجْمَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْأَعْجَمِيُّ أَوْ الْعَجْمِيُّ: الَّذِي أَصْلُهُ مِنَ الْعَجَمِ. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: الْأَعْجَمِيُّ الَّذِي لَا يُفْصِحُ، سِوَاءَ كَانَ مِنَ الْعَرَبِ أَوْ مِنَ الْعَجَمِ، وَكَذَلِكَ الْأَعْجَمُ وَالْأَعْجَمِيُّ:

(١) معاني القرآن للفراء ١١٣/٢ وللزجاج ٢١٩/٣، وتفسير البغوي ٨٦/٣، وزاد المسير ٤٩٣/٤.

(٢) في معاني القرآن ١٠٧/٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤٢١/٣، وزاد المسير ٤٩٣/٤.

(٤) الوسيط ٨٥/٣، وينظر غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٤٩.

(٥) ٣٩٥/٩.

(٦) وقرأ بها أيضاً من السبعة الكسائي. السبعة لابن مجاهد ص ٣٧٥، والتيسير ص ١٣٨.

المنسوبُ إلى العَجَم، وإن كان فصيحاً^(١).

وأراد باللسان القرآن؛ لأنَّ العرب تقول للقصيدَة والبيت: لسان؛ قال الشاعر:
 لسانُ الشرِّ تُهْدِيها إلينا وُخِنْتَ وما حَسِبْتَكَ أنْ تُخُونا
 يعني باللسان: القصيدة^(٢).

﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَكَبْتُ مُيَيْتٌ﴾ أي: أفصحُ ما يكون من العربية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١٤)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١٥)

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هذا جوابُ وَضَفِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ بالافتراء. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هذا مبالغةٌ في وَضَفِهِمُ بِالْكَذْبِ؛ أي: كلُّ كذبٍ قليلٌ بالنسبة إلى كذبهم. ويقال: كذب فلان، ولا يقال: إنه كاذب؛ لأنَّ الفعل قد يكون لازماً، وقد لا يكون لازماً. فأما النعتُ فيكون لازماً، ولهذا يقال: عصي آدم ربَّه فَعَوَى، ولا يقال: إنه عاصٍ غاوي. فإذا قيل: كذب فلان، فهو كاذبٌ، كان مبالغةً في الوصف بالكذب؛ قاله القشيري^(٣).

(١) تفسير الرازي ١١٨/٢٠ .

(٢) النكت والعيون ٣/٢١٥ ، والبيت في تفسير الطبري ١٤/٣٧٠ ، والمححر الوجيز ٣/٤٢١ .

(٣) ينظر زاد المسير ٤/٤٩٤ ، وتفسير الرازي ٢٠/١١٩ - ١٢٠ . وقال ابن الجوزي: أي إنَّ الكذب نعتٌ لازمٌ لهم، وعادةٌ من عاداتهم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَئِنْ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ هذا متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] فكان مبالغة في الوصف بالكذب؛ لأنَّ معناه: لا ترتدوا عن بيعة الرسول ﷺ، أي: مَنْ كَفَرَ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ وارتدَّ، فعليه غضبُ الله.

قال الكلبي: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومقيس بن صُبابَة، وعبد الله بن حَظَل، وقيس بن الوليد بن المغيرة، كفروا بعد إيمانهم. ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾^(١).

وقال الزجاج: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ» بدلٌ ممن يفترى الكذب، أي: إنَّما يفترى الكذب مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ^(٢). لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام، فعلقه بما قبله.

وقال الأخفش: «مَنْ» ابتداءً وخبره محذوف، اكتُفِيَ منه بخبر «مَنْ» الثانية، كقولك: مَنْ يَأْتِنَا مَنْ يُحْسِنُ نَكْرَمُهُ^(٣).

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ هذه الآية نزلت في عَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ، في قول أهل التفسير؛ لأنه قاربَ بعض ما نَدَّبُوهُ إِلَيْهِ؛ قال ابنُ عباس: أَخَذَهُ الْمُشْرِكُونَ، وَأَخَذُوا أَبَاهُ وَأُمَّهُ سُمَيَّةَ، وَصُهْبِيًّا وَبِلَالًا وَخَبَّابًا وَسَلَامًا، فَعَذَّبُوهُمْ، وَرُبِطَتْ سُمَيَّةُ بَيْنَ بَعِيرَيْنِ، وَوُجِئَ قُبُلُهَا بِحَرَبَةٍ، وَقِيلَ لَهَا: إِنَّكَ أَسْلَمْتِ مِنْ أَجْلِ الرِّجَالِ، فَقُتِلَتْ وَقُتِلَ

(١) النكت والعيون ٣/٢١٥ - ٢١٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/٢١٩.

(٣) معاني القرآن للأخفش ٢/٦٠٨ بمعناه، وذكره الطبري ١٤/٣٧٢ عن بعض نحوي الكوفة، وفيه: مَنْ يَأْتِنَا، فَمَنْ يُحْسِنُ نَكْرَمُهُ، بمعنى: مَنْ يُحْسِنُ مَعَّنَ يَأْتِنَا نَكْرَمُهُ.

زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام. وأمّا عمّارٌ، فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكرّهاً، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان. فقال رسول الله ﷺ: «فإن عادوا فعد»^(١).

وروى منصور بن المُعْتَمِر، عن مجاهد قال: أول شهيد في الإسلام أمّ عمار، قتلها أبو جهل^(٢). وأول شهيد من الرجال مهجع مولى عمر^(٣). وروى منصور أيضاً عن مجاهد قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وبلال، وخبّاب، وصهيب، وعمّار، وسُمَيّة أمّ عمار. فأما رسول الله ﷺ فمنعه أبو طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأخذوا الآخرين فلبسوه أدرع الحديد، ثم صهروهم في الشمس حتى بلغ منهم الجهد كلّ مبلغ من حرّ الحديد والشمس، فلما كان من العشيّ أتاهم أبو جهل ومعه حربّة، فجعل يسبّهم ويوبّخهم، وأتى سُمَيّة فجعل يسبّها ويرفّث، ثم طعن فرجها حتى خرجت الحربة من فمها فقتلها رضي الله عنها. قال: وقال الآخرون ما سألو^(٤) إلا بلالاً، فإنّه هانت عليه نفسه في الله، فجعلوا يُعذّبونه ويقولون له: ارجع عن دينك، وهو يقول: أحذّ أحد، حتى ملّوه، ثم كتّفوه وجعلوا في عُنقه حبلاً من ليف، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخشبيّ مكة، حتى ملّوه

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٢٨٨، وأخرجه الطبري ٣٧٣/١٤ - ٣٧٤ بنحوه من طريق عطية العوفي عن ابن عباس. قال الحافظ في الفتح ٣١٢/١٢: وفي سنده ضعف. اهـ. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٣٦٠/١، والطبري ٣٧٤/١٤ عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر. قال الحافظ في الفتح ٣١٢/١٢: وهذا مرسل ورجاله ثقات، وأخرجه البيهقي [السنن الكبرى ٢٠٨/٨ - ٢٠٩] من هذا الوجه، فزاد في السند فقال: عن أبي عبيدة عن أبيه، وهو مرسل أيضاً. اهـ. وقال في الدراية ١٩٧/٢: وإسناده صحيح إن كان محمد بن عمار سمعه من أبيه.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢٣٣/٣، وابن أبي شيبة ٧٦/١٤.

(٣) أخرجه ابن سعد ٣٩١/٣ - ٣٩٢، وابن أبي شيبة ٧٧/١٤ عن القاسم بن عبد الرحمن. وأخرجه عبد الرزاق (٩٧٢٧) مطولاً عن عكرمة ومهجع العكّي هو مولى عمر بن الخطاب، أصابه سبلة، فمُنّ عليه عمر فأعتقه، وكان من السابقين إلى الإسلام، وشهد بدرّاً، واستشهد بها. الإصابة ٢٩٧/٩.

(٤) في (م): ستلوا.

وتركوه. قال: فقال عمار: كلُّنا تكلمَ بالذي قالوا، لولا أنَّ الله تدارَكنا، غيرَ بلال؛ فإنه هانت عليه نفسه في الله، فهان على قومه حتى ملَّوه وتركوه. والصحيحُ أن أبا بكرٍ اشترى بلالاً فأعتقه^(١).

وروى ابنُ أبي نجيج، عن مجاهد، أنَّ ناساً من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعضُ أصحاب محمد ﷺ بالمدينة: أن هاجروا إلينا، فإننا لا نراكم منّا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدونَ المدينةَ حتى أدركتهم قريشٌ بالطريق، ففتنواهم فكفروا مُكرهين، ففيهم نزلت هذه الآية^(٢). ذكر الروایتين عن مجاهد إسماعيلُ بن إسحاق.

وروى الترمذي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خَيْرَ عَمَّارٍ بين أمرين إلا اختار أَرشدهما» هذا حديثٌ حسنٌ غريب^(٣).

وروى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْجَنَّةَ تَشْتَأِقُ إِلَى ثَلَاثَةٍ: عَلِيٍّ وَعَمَارٍ وَسَلْمَانَ بْنِ رَبِيعَةَ». قال الترمذي: هذا حديثٌ [حسن] غريب لا نعرفه إلا من حديثِ الحسن بن صالح^(٤).

الثالثة: لَمَّا سَمَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالكفر به - وهو أصلُ الشريعة - عندَ الإكراه، ولم يؤاخذْ به، حملَ العلماءُ عليه فروغَ الشريعة كُلِّها، فإذا وقع الإكراهُ عليها لم يؤاخذْ به، ولم يَتَرَتَّبْ عليه حكمٌ، وبه جاء الأثرُ المشهور عن النبي ﷺ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»^(٥) الحديث. والخبرُ وإن لم يصحَّ سنده، فإنَّ

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦٨، وأخرجه عن مجاهد ابن سعد ٣/ ٢٣٣ دون قول عمار ؓ، وأخرجه مع قول عمار ابن عساكر في تاريخه ٤٣/ ٣٦٧. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ١٤٩ و ١٤/ ٣١٣، وابن ماجه (١٥٠)، وأحمد (٣٨٣٢) من حديث ابن مسعود ؓ.

(٢) تفسير مجاهد ١/ ٣٥٣، وأسباب النزول للواحدي ص ٢٨٨، وتفسير البغوي ٣/ ٨٦.

(٣) سنن الترمذي (٣٧٩٩)، ومسنند أحمد (٢٤٨٢٠). ووقع عند الترمذي: أسدُّهما، بدل: أَرشدهما.

(٤) سنن الترمذي (٣٧٩٧)، وما بين حاصرتين منه، ومن التحفة ١/ ١٦٦.

(٥) سلف ٤/ ٥٠١، وذكر هناك أن النوويَّ حسَّنه في الأربعين، وأعلَّه أبو حاتم كما نقله ابنه في العلل ١/ ٤٣١، لكن قال الحافظ في الفتح ٥/ ١٦١: أعل بعلو غير قاذحة.

معناه صحيحٌ باتفاقٍ من العلماء؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي^(١). وذكر أبو محمد عبدُ الحق أنَّ إسناده صحيحٌ، قال: وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في «الفوائد»، وابنُ المنذر في كتاب «الإقناع»^(٢).

الرابعة: أجمع أهل العلم على أنَّ مَنْ أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته ولا يحكمُ عليه بحكم الكفر، هذا قولُ مالك والكوفيين والشافعي، غيرَ محمد بن الحسن فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتدًّا في الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلماً^(٣). وهذا قولُ يرده الكتابُ والسنة، قال الله تعالى: «إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ» الآية. وقال: «إِلَّا أَنْ تَكْفُوا مِنْهُمْ نَفْسَهُ» [آل عمران: ٢٨]. وقال: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ» [النساء: ٩٧] الآية. وقال: «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ» [النساء: ٩٨] الآية. فعذر الله المستضعفين الذين لا^(٤) يمتنعون من ترك ما أمر الله به^(٥)، والمكره لا يكون إلا مُستضعفاً غيرَ ممتنعٍ من فعلٍ ما أمر به؛ قاله البخاريُّ.

الخامسة: ذهب طائفة من العلماء إلى أنَّ الرخصة إنما جاءت في القول، وأما في الفعل؛ فلا رخصة فيه، مثل أن يُكرهوا على السجود لغير الله أو الصلاة لغير القبلة، أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا؛ يروى هذا عن الحسن البصريؒ. وهو قول الأوزاعي وسُخْنُون^(٦) من علمائنا.

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١١٦٨ - ١١٦٩.

(٢) ٥٨٤/٢.

(٣) الإشراف ٢/ ٢٤٥.

(٤) قوله: لا، ليس في (ف) و(م)، والمثبت من (د) و(ز) و(ظ) وصحيح البخاري قبل الحديث (٦٩٤٠).

(٥) قال الحافظ في الفتح ٣١٣/١٢ في شرح هذه العبارة: يعني إلا إذا غلبوا.

(٦) ينظر فتح الباري ١٢/ ٣١٤.

وقال محمد بن الحسن: إذا قيل للأسير: اسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك. فقال: إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد وتكون نيته لله تعالى، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه^(١). والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة، وما أحراه بالسجود حينئذ. ففي الصحيح عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت ﴿فَأَيُّنَا تُوَلُّوا فَنَمَّ وَجْهُهُ﴾^(٢) [البقرة: ١١٥] في رواية^(٣): ويوتر عليها، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة. فإذا كان هذا مباحاً في السفر في حالة الأمن لتعقب النزول عن الدابة للتنقل، فكيف بهذا؟

واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود: ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلماً به^(٤). فقصر الرخصة على القول ولم يذكر الفعل، وهذا لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل أن يجعل للكلام مثلاً وهو يريد أن الفعل في حكمه.

وقالت طائفة: الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسر الإيمان. روي ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق. روى ابن القاسم عن مالك: أن من أكره على شرب الخمر أو ترك الصلاة أو الإفطار في رمضان، أن الإثم عنه مرفوع^(٥).

السادسة: أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام

(١) النوادر والزيادات ١٠/٢٤٧.

(٢) صحيح مسلم (٧٠٠) (٣٣)، وسلف ٢/٣٢٦ و ٤٥٥.

(٣) عند مسلم (٧٠٠) (٣٩).

(٤) أخرجه ابن حزم في المحلى ١١/١٤٢.

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٣/٤٢٣، وفتح الباري ١٢/٣١٤، وأورد العيني في عمدة القاري ٢٤/٩٨ أثر عمر ومكحول.

على قتله ولا انتهاك حُرْمَتِهِ بِجَلْدٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَيَصْبِرُ عَلَى الْبَلَاءِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَقْدِيَ نَفْسَهُ بِغَيْرِهِ، وَيَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(١).

وَاخْتَلَفَ فِي الزَّانِي، فَقَالَ مُطَرِّفٌ وَأَصْبَغُ وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ وَابْنُ الْمَاجِشُونِ: لَا يَفْعَلُ أَحَدٌ ذَلِكَ، وَإِنْ قُتِلَ لَمْ يَفْعَلْهُ، فَإِنْ فَعَلَهُ فَهُوَ أَثَمٌ وَيَلْزَمُهُ الْحَدُّ^(٢)؛ وَبِهِ قَالَ أَبُو ثَوْرٍ وَالْحَسَنُ^(٣). قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ^(٤): الصَّحِيحُ أَنَّهُ يَجُوزُ الْإِقْدَامُ عَلَى الزَّانِي، وَلَا حَدٌّ عَلَيْهِ، خِلَافًا لِمَنْ أَلَزَمَهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّهَا شَهْوَةٌ خُلْقِيَّةٌ لَا يُتَصَوَّرُ الْإِكْرَاهُ عَلَيْهَا، وَغَفَلَ عَنِ السَّبَبِ فِي بَاعِثِ الشَّهْوَةِ وَهُوَ الْإِلْجَاءُ إِلَى ذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي أَسْقَطَ حُكْمَهُ، وَإِنَّمَا يَجِبُ الْحَدُّ عَلَى شَهْوَةٍ بَعَثَ عَلَيْهَا سَبَبٌ اخْتِيَارِيٌّ، فَقَاسَ الشَّيْءَ عَلَى ضِدِّهِ، فَلَمْ يَحِلَّ^(٥) بِصَوَابٍ مِنْ عِنْدِهِ.

وَقَالَ ابْنُ خُوَيْرِزْمَنَدَادٍ فِي أَحْكَامِهِ: اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا مَتَى أَكْرَهَ الرَّجُلُ عَلَى الزَّانِي، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَلَيْهِ الْحَدُّ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ بِاخْتِيَارِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا حَدٌّ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ خُوَيْرِزْمَنَدَادٍ: وَهُوَ الصَّحِيحُ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: إِنْ أَكْرَهَهُ غَيْرُ السُّلْطَانِ حَدٌّ، وَإِنْ أَكْرَهَهُ السُّلْطَانُ؛ فَالْقِيَاسُ أَنْ يُحَدَّ، وَلَكِنْ أَسْتَحْسِنُ أَلَّا يُحَدَّ. وَخَالَفَهُ صَاحِبَاهُ فَقَالَا: لَا حَدٌّ عَلَيْهِ فِي الْوَجْهَيْنِ، وَلَمْ يُرَاعُوا الْإِنْتِشَارَ وَقَالُوا: مَتَى عَلِمَ أَنَّهُ يَتَخَلَّصُ مِنَ الْقَتْلِ بِفَعْلِ الزَّانِي، جَازَ أَنْ يَنْتَشَرَ^(٦). قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ^(٧): لَا حَدٌّ عَلَيْهِ، وَلَا فَرْقٌ بَيْنَ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ وَغَيْرِ السُّلْطَانِ.

(١) أَحْكَامُ الْقُرْآنِ لِابْنِ الْعَرَبِيِّ ٣/ ١١٦٥.

(٢) الْمَحْرَرُ الْوَجِيزُ ٣/ ٤٢٤، وَلَمْ يَذْكُرْ ابْنُ الْمَاجِشُونِ.

(٣) الْإِشْرَافُ ٤٣/ ٢.

(٤) فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ ٣/ ١١٦٥ - ١١٦٦.

(٥) قَالَ الْأَزْهَرِيُّ فِي تَهْذِيبِ اللُّغَةِ ٥/ ٢٣٧: وَيَقَالُ: مَا حَلَيْتُ مِنْ شَيْءٍ حَلْيًا، أَيُّ: مَا أَصَبْتُ.

(٦) الْمَبْسُوطُ ٩/ ٥٩.

(٧) فِي الْإِشْرَافِ ٤٣/ ٢.

السابعة: اختلف العلماء في طلاق المكره وعتاقه؛ فقال الشافعي وأصحابه: لا يلزمه شيء^(١). وذكر ابن وهب عن عمر وعلي وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئاً^(٢). وذكره ابن المنذر^(٣) عن ابن الزبير وابن عمر، وابن عباس وعطاء، وطاوس والحسن، وشريح والقاسم، وسالم ومالك، والأوزاعي وأحمد، وإسحاق وأبي ثور. وأجازت طائفة طلاقه، روي ذلك عن الشعبي والنخعي وأبي قلابه والزهري وقتادة، وهو قول الكوفيين. قال أبو حنيفة: طلاق المكره يلزم^(٤)؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا، وليس وجوده بشرط في الطلاق كالهازل. وهذا قياس باطل؛ فإن الهازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راض به، والمكره غير راض، ولا نية له في الطلاق، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات»^(٥). وفي البخاري: وقال ابن عباس فيمن يكرهه للصوص فيطلق: ليس بشيء، وبه قال ابن عمر وابن الزبير، والشعبي والحسن^(٦).

وقال الشعبي: إن أكرهه للصوص؛ فليس بطلاق، وإن أكرهه السلطان؛ فهو طلاق. وفسره ابن عينة فقال: إن اللص يقدم على قتله، والسلطان لا يقتله^(٧).

الثامنة: وأما بيع المكره والمضغوط؛ فله حالتان:

الأولى: أن يبيع ماله في حق وجب عليه، فذلك ماض سائغ لا رجوع فيه عند

(١) الأم ٣/٢١٠، والإشراف ٤/١٩٢، والاستذكار ١٨/١٥٢.

(٢) النوادر والزيادات ١٠/٢٥٣، وأخرج الآثار عنهم عبد الرزاق في المصنف ٦/٤٠٦ - ٤٠٩، وابن أبي شيبة ٥/٤٨ - ٤٩.

(٣) في الإشراف ٤/١٩٢.

(٤) تحفة الفقهاء ٢/١٩٥.

(٥) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) (١٥٥)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسلف ٣/٢٧٠.

(٦) صحيح البخاري قبل حديث (٦٩٤٠).

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١١٤٢٢).

الفقهاء؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى ربه من غير المبيع، فلمّا لم يفعل ذلك، كان بيعه اختياراً منه فلزمه.

وأما بيع المكره ظلماً أو قهراً؛ فذلك بيع لا يجوز عليه، وهو أولى بمتاعه، يأخذه بلا ثمن، ويتبع المشتري بالثمن ذلك الظالم، فإن فات المتاع، رجّع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه. قال مُطَرَفُ: ومن كان من المشتريين يعلم حال المكره؛ فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب، وكل ما^(١) أحدث المبتاع في ذلك من عتق أو تدبير أو تحييس، فلا يلزم المكره، وله أخذ متاعه.

قال سُخْنُونُ: أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكره على الظلم والجور لا يجوز. وقال الأبهري: إنه إجماع^(٢).

التاسعة: وأما نكاح المكره، فقال سُخْنُونُ: أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهه، وقالوا: لا يجوز المقام عليه؛ لأنه لم ينعقد. قال محمد بن سُخْنُونُ: وأجاز أهل العراق نكاح المكره، وقالوا: لو أكره على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم، وصدّق مثلها ألف درهم: إن النكاح جائز وتلزمه الألف ويبطل الفضل. قال محمد: فكما أبطلوا الزائد على الألف، فكذلك يلزمهم إبطال النكاح بالإكراه^(٣). وقولهم خلاف السنة الثابتة في حديث خنساء بنت خدام الأنصارية^(٤)، ولأمره ﷺ بالاستثمار في أبضاعهن، وقد تقدّم^(٥)، فلا معنى لقولهم.

(١) في (د) و(ز) و(م): كلّمّا، والمثبت من (ف) ومن المحرر الوجيز ٤٢٣/٣، والكلام منه.

(٢) النوار والزيادات ٢٧٤/١٠.

(٣) النوار والزيادات ٢٥٧/١٠ - ٢٥٨.

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٧٨٦ زيادات عبد الله)، والبخاري (٥١٣٨) بلفظ: عن خنساء بنت خدام أن أباهما زوّجها وهي كارهة، وكانت ثيباً، فردّ النبي ﷺ نكاحه.

(٥) ٣٨١/٥.

العاشرة: فَإِنْ وَطَّئَهَا الْمُكْرَهُ عَلَى النِّكَاحِ غَيْرَ مُكْرَهُ عَلَى الْوُطْءِ وَالرِّضَا بِالنِّكَاحِ، لَزِمَهُ النِّكَاحُ عِنْدَنَا عَلَى الْمَسْمَى مِنَ الصَّدَاقِ، وَدُرِيَ عَنْهُ الْحَدُّ. وَإِنْ قَالَ: وَطَّئْتُهَا عَلَى غَيْرِ رِضَا مِنِّي بِالنِّكَاحِ؛ فَعَلَيْهِ الْحَدُّ وَالصَّدَاقُ الْمَسْمَى؛ لِأَنَّهُ مَدَّعٍ لِإِبْطَالِ الصَّدَاقِ الْمَسْمَى، وَتُحَدُّ الْمَرْأَةُ إِنْ تَقَدَّمَتْ^(١) وَهِيَ عَالِمَةٌ أَنَّهُ مُكْرَهُ عَلَى النِّكَاحِ. وَأَمَّا الْمَكْرَهُةُ عَلَى النِّكَاحِ وَعَلَى الْوُطْءِ، فَلَا حَدَّ عَلَيْهَا، وَلَهَا الصَّدَاقُ، وَيُحَدُّ الْوَاطِئُ، فَاعْلَمْهُ. قَالَه سَحْنُون.

الحادية عشرة: إِذَا اسْتُكْرِهَتْ الْمَرْأَةُ عَلَى الزَّوْنِ؛ فَلَا حَدَّ عَلَيْهَا؛ لِقَوْلِهِ: «إِلَّا مِنْ أَكْرَهٍ»، وَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»^(٢)، وَلِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣] يَرِيدُ الْفَتَيَاتِ. وَبِهَذَا الْمَعْنَى حَكَّمَ عَمْرُ فِي الْوَلِيدَةِ الَّتِي اسْتُكْرِهَهَا الْعَبْدُ، فَلَمْ يُحَدِّهَا^(٣). وَالْعُلَمَاءُ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا حَدَّ عَلَى امْرَأَةٍ مُسْتُكْرَهَةٍ^(٤).

وَقَالَ مَالِكٌ^(٥): إِذَا وُجِدَتِ الْمَرْأَةُ حَامِلًا وَلَيْسَ لَهَا زَوْجٌ، فَقَالَتْ: اسْتُكْرِهْتُ، فَلَا يُقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهَا وَعَلَيْهَا الْحَدُّ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ لَهَا بَيِّنَةٌ، أَوْ جَاءَتْ تَدْمَى عَلَى أَنَّهَا أُتِيَتْ^(٦)، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَاحْتَجَّ بِحَدِيثِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: الرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا أَحْصَيْنَ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبْلُ

(١) فِي (ز) وَ(م): أَقْدَمْتُ، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ (ظ) وَ(د) وَ(ف)، وَهُوَ الْمَوَافِقُ لِمَا فِي النَّوَادِرِ وَالزِّيَادَاتِ ٢٥٨/١٠ - ٢٥٩، وَالْكَلَامُ مِنْهُ.

(٢) سَلَفُ ٥٠١/٤.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٩٤٦)، وَمَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» ٨٢٧/٢.

(٤) يَنْظُرُ الْإِسْتِذْكَارُ ١١٣/٢٤، وَالْمَنْتَقَى ٢٧١/٥، وَنَقَلَهُ الْمُصَنِّفُ عَنْهُ بِوَسْطَةِ ابْنِ الْمُنْذَرِ فِي الْإِشْرَافِ ٤١/٢.

(٥) فِي الْمَوْطَأِ ٨٢٧/٢ - ٨٢٨.

(٦) فِي النِّسْخِ: أُوتِيَتْ، وَالْمَثْبُوتُ مِنَ الْمَوْطَأِ ٨٢٨/٢، وَالْإِشْرَافُ ٤١/٢.

أو الاعتراف^(١). قال ابن المنذر^(٢): وبالقول الأول أقول.

الثانية عشرة: واختلفوا في وجوب الصداق للمستكرهة، فقال عطاء والزُّهري: لها صداقٌ مثلها؛ وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور. وقال الثوري: إذا أُقيمَ الحدُّ على الذي زنى بها بطلَ الصداق. ورُوي ذلك عن الشعبي، وبه قال أصحابُ مالك وأصحابُ الرأي. قال ابن المنذر: القول الأول صحيح^(٣).

الثالثة عشرة: إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لِمَا لم يحلَّ، أسلمها ولم يقتل نفسه دونها، ولا احتمل أذيةً في تخليصها. والأصل في ذلك ما خرَّجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة، ودخل بها قرية فيها ملكٌ من الملوك أو جبارٌ من الجبابرة، فأرسلَ إليه أن أُرسلَ بها إليّ، فأرسلَ بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلّي، فقالت: اللهم إن كنتُ آمنْتُ بك وبرسولك فلا تسلطْ عليّ هذا الكافر، فغَطَّ حتى رَكَضَ برجله»^(٤). ودلَّ هذا الحديثُ أيضاً على أنَّ سارةَ لَمَّا لم يكنْ عليها ملامَةٌ، فكذلك لا يكونُ على المستكرهة ملامَةٌ، ولا حدٌّ فيما هو أكبرُ من الخلوة. والله أعلم.

الرابعة عشرة: وأمَّا يمينُ المكْرهِ فغيرُ لازمةٍ عند مالك والشافعي وأبي ثور وأكثر العلماء. قال ابن الماجشون: وسواءٌ حَلَفَ فيما هو طاعةٌ لله أو فيما هو معصيةٌ إذا أكره على اليمين؛ وقاله أضْبَغ. وقال مطرّف: إن أكره على اليمين فيما هو لله معصيةٌ أو ليس في فعله طاعةٌ ولا معصيةٌ فاليمينُ فيه ساقطة، وإن أكره على اليمين فيما هو طاعةٌ مثلُ أن يأخذَ الوالي رجلاً فاسقاً فيُكرِّهه أن يحلِفَ بالطلاق [أن] لا يشرب

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦)، والبخاري (٦٨٢٩)، ومسلم (١٦٩١) (١٥).

(٢) في الإشراف ٤١/٢.

(٣) الإشراف ٤٢/٢.

(٤) أخرجه البخاري (٦٩٥٠)، ومسلم (٢٣٧١) (١٥٤)، والكلام نقله المصنف من أحكام القرآن لابن العربي ١١٦٩/٣ - ١١٧٠.

خمرًا، أو لا يفسق ولا يَعْشُ في عمله، أو الوالدُ يحلِّفُ ولده تأديباً له فإن اليمينَ تَلَزُّمٌ، وإن كان المكره قد أخطأ فيما يكلف من ذلك. وقال به ابن حبيب^(١). وقال أبو حنيفة ومن اتبعه من الكوفيين: إنه إن حَلَفَ ألا يفعلَ ففعلَ حِنْثٌ^(٢)، قالوا: لأن المكره له أن يورِّي في يمينه كلُّها، فلمَّا لم يورِّ، ولا ذهبَ نِيَّتُهُ إلى خلاف ما أكره عليه، فقد قَصَدَ إلى اليمين. احتج الأولون بأن قالوا: إذا أكره عليها فنيته مخالفة لقوله؛ لأنه كارهٌ لِمَا حلفَ عليه.

الخامسة عشرة: قال ابن العربي^(٣): ومن غريب الأمر أن علماءنا اختلفوا في الإكراه على الحِنْث هل يقعُ به أم لا؟ وهذه مسألة عراقية سَرَتْ لنا منهم، لا كانت هذه المسألة ولا كانوا! وأيُّ فَرْقٍ يا معشر أصحابنا بين الإكراه على اليمين في أنها لا تَلَزُّمٌ، وبين الحِنْث في أنه لا يقع؟ فاتقوا الله وراجعوا بصائرکم، ولا تغتروا بهذه الرواية فإنها وصمةٌ في الدراية.

السادسة عشرة: إذا أكره الرجلُ على أن يحلِفَ وإلا أُخِذَ له مالٌ، كأصحابِ المَكْسِ^(٤) وظَلَمَةِ السَّعَةِ وأهل الاعتداء، فقال مطرف^(٥): لا تَقِيَّةٌ له في ذلك، وإنما يدرأ المرءُ بيمينه عن بدنه لا ماله. وقال ابن الماجشون: لا يحنثُ وإن درأ عن ماله ولم يخفَ على بدنه. وقال ابن القاسم بقول مطرف، ورواه عن مالك، وقاله ابن عبد الحكم وأصْبَحَ^(٦).

قلت: قولُ ابنِ الماجشون صحيحٌ؛ لأنَّ المدافعةَ عن المال كالمدافعة عن

(١) النوادر والزيادات ٣٠٦/١٠، والمحرم الوجيز ٤٢٤/٣.

(٢) تحفة الفقهاء ٢٩١/٢.

(٣) في أحكام القرآن ١١٦٩/٣.

(٤) المكس: الضريبة التي يأخذها الماكس، وأصله الجباية. اللسان (مكس).

(٥) في النسخ: مالك، والمثبت من المحرم الوجيز ٤٢٤/٣، والكلام منه.

(٦) المحرم الوجيز ٤٢٤/٣، وينظر النوادر والزيادات ٣٠٧/١٠.

النفس؛ وهو قول الحسن وقتادة وسيأتي. وقال رسول الله ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»^(١) وقال: «كلُّ المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه»^(٢). وروى أبو هريرة قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أَرَأَيْتَ إن جاء رجلٌ يريد أخذَ مالي؟ قال: «فلا تُعطه مالك». قال: أَرَأَيْتَ إن قاتلني؟ قال: «قاتله» قال: أَرَأَيْتَ إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أَرَأَيْتَ إن قتلته؟ قال: «هو في النار». خرَّجه مسلم. وقد مضى الكلام فيه^(٣).

وقال مطرف وابن الماجشون: وإن بدَرَ الحالفُ بيمينه للوالي الظالم قبل أن يُسألها؛ لِيَذُبَّ بها عما خافَ عليه من ماله وبدنه، فحَلَفَ له فإنها تَلْزِمُهُ. وقاله ابنُ عبد الحكم وأصبغ. وقال أيضاً ابن الماجشون فيمن أخذَه ظالمٌ فحَلَفَ له بالطلاق البتَّةَ من غير أن يُحْلِفَهُ وتَرَكَه وهو كاذبٌ، وإنما حَلَفَ خوفاً من ضَرْبِهِ وَقَتْلِهِ وأخذَ ماله: فإن كان إنَّما تبرَّع باليمين غلبةً خوفٍ ورجاءِ النجاةِ من ظُلْمِهِ، فقد دخل في الإكراه ولا شيءَ عليه، وإن لم يحلِفَ على رجاءِ النجاةِ فهو حائثٌ^(٤).

السابعة عشرة: قال المحققون من العلماء: إذا تَلَفَّظَ المُكْرَهُ بالكفر؛ فلا يجوزُ له أن يُجْزِيَهُ على لسانه إلا مُجْزَى المعارِضِ، «فإنَّ في المعارِضِ لمندوحةً عن الكذب»^(٥). ومتى لم يكن كذلك كان كافراً؛ لأنَّ المعارِضَ لا سلطانَ للإكراه عليها. مثاله: أن يقال له: اكفر بالله، فيقول: باللاهي، فيزيدُ الياء. وكذلك إذا قيل له: اكفر بالنبی، فيقول: هو كافر بالنبی، مشدداً وهو المكان المرتفعُ من الأرض. ويُطْلَقُ على ما يُعْمَلُ من الخُوصِ^(٦) شبه المائدة، فيقصِدُ أحدهما بقلبه، ويبرأ من الكفر، ويبرأ

(١) أخرجه البخاري (١٧٣٩) ومسلم (١٦٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسلف ٢٢٨/٣.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٢٢)، ومسلم (٢٥٦٤) (٣٢)، من حديث أبي هريرة.

(٣) ٤٤٤/٧، وهو عند مسلم (١٤٠).

(٤) المحرر الوجيز ٤٢٤/٣، والنوادر والزيادات ٣٠٧/١٠ - ٣٠٨.

(٥) سلف ٤٤٠/١١.

(٦) الخوص: ورق النخل. القاموس المحيط (خوص).

من إثمه. فإن قيل له: اكفر بالنبوء مهموزاً فيقول: هو كافرٌ بالنبوء، يريد بالمُخبر. أيّ مخبرٍ كان، كطليحة^(١) ومُسَيْلَمَةَ الكذاب. أو يريد به النبيّ الذي قال فيه الشاعر:

فأصبح رثماً دُقاق الحَصَى مكانَ النبيّ من الكائب^(٢)

الثامنة عشرة: أجمع العلماء على أنَّ مَنْ أكره على الكفر فاختر القتل، أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرُّخصة^(٣).

واختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعلٍ ما لا يحِلُّ له؛ فقال أصحاب مالك: الأخذ بالشَّدة في ذلك واختيارُ القتل والضرب أفضلُ عند الله من الأخذ بالرخصة، ذكره ابنُ حبيب وسُحنون.

وذكر ابنُ سُحنون عن أهل العراق أنه إذا تهَدَّد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف، فله أن يفعل ما أكره عليه من شربِ خمرٍ أو أكلِ خنزير؛ فإن لم يفعل حتى قُتل، خِفنا أن يكونَ آثماً؛ لأنه كالمضطر^(٤).

وروى حَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِّ قَالَ: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ

(١) هو: طليحة بن خويلد الأسدي، ارتدَّ وادعى النبوة، ثم هرب إلى الشام، وأسلم إسلاماً صحيحاً، وشهد القادسية ونهاوند مع المسلمين، ويقال إنه استشهد بنهاوند. الإصابة ٢٤٤/٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١١٦٦/٣، والبيت لأوس بن حجر من قصيدة يرثي بها فضالة بن كعدة الأسدي وهو شاعر أيضاً وكان صديقاً لأوس بن حجر، والبيت في ديوانه ص ١١، والاشتقاق ص ٤٦٢، والمعاني الكبير ١٢٣٠/٣، والتعازي والمراثي ص ٣٣. والرواية في الديوان والمعاني والتعازي: لأصبح بدل فأصبح، ووقع في الديوان والتعازي: كمتن النبي، وفي المعاني الكبير: كظهر النبي.

قال المبرد في التعازي والمراثي ص ٣٥: لو دافع الجبل العظيم متحاملاً عليه، لأصبح الجبل رثماً كظهر النبي، وهو رمل بعينه، من الكائب، أي: كمكان هذا من هذا. ومثله أبو عبيدة فقال: كقولك: كظهر المريد من البصرة. والمرثوم: المحطوم المدقوق، يقال: رَثَمَ أنفه، أي: دقه. وقوله: دُقاق الحصى، أي: دقيق، مثل قولك: رجل طَوَال وطويل.

(٣) النوادر والزيادات ٢٤٨/١٠.

(٤) ينظر النوادر والزيادات ٢٤٧/١٠.

الرجلُ فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيجاء بالمشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصُدُّه ذلك عن دينه. والله ليَتَمَنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١).

فَوَضَّهٖ ﷺ هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم، والصبر على المكروه في ذات الله تعالى، وأنهم لم يكفروا في الظاهر ويُبَيِّنُوا الإيمانَ ليدفعوا العذابَ عن أنفسهم. وهذه حجةٌ من أثر الضرب والقتل والهوان^(٢) على الرخصة، والمقام بدار الجنان. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة الأخدود^(٣) إن شاء الله تعالى.

وذكر أبو بكر محمد^(٤) بن الفرّج البغدادي قال: حدَّثنا سُريج^(٥) بن يونس، عن إسماعيل بن إبراهيم، عن يونس بن عُبيد، عن الحسن: أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من أصحاب النبي ﷺ فذهبوا بهما إلى مسيلمة، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسولُ الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسولُ الله؟ قال: نعم. فخلَّى عنه. وقال للآخر: أتشهد أن محمداً رسولُ الله؟ قال: نعم. قال: وتشهد أني رسولُ الله؟ قال: أنا أصمُّ لا أسمع، فقدَّمه فضرب عنقه. فجاء هذا إلى النبي ﷺ فقال: هلكنا! قال: «وما أهلكك؟» فذكر الحديث، قال: «أما صاحبك فأخذ بالثقة، وأما أنت فأخذت بالرخصة. علام أنت عليه الساعة؟» قال: أشهد أنك رسولُ الله. قال: «أنت على ما أنت عليه»^(٦).

(١) أخرجه أحمد (٢١٠٥٧)، والبخاري (٣٦١٢).

(٢) قوله: والهوان، ليس في (د) و(ز) و(ظ).

(٣) عند تفسير الآيات (٤ - ٧) منها.

(٤) في (ظ): وذكر أبو محمد، وفي باقي النسخ: وذكر أبو بكر محمد بن محمد، والمثبت هو الصواب، وهو محمد بن الفرّج البغدادي الأزرق، توفي سنة (٢٨١هـ) السير ٣٩٤/١٣.

(٥) في (ف): شريح، وفي باقي النسخ: شريح، وهما تصحيف.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ٣٥٧/١٢ - ٣٥٨ عن إسماعيل بن إبراهيم، به. وأخرجه أبو داود في المراسيل (٣٢٦) من طريق خالد، عن يونس، به.

الرخصة فيمن حلفه سلطانٌ ظالم على نفسه، أو على أن يدله على رجل أو مالٍ رجل؛ فقال الحسن: إذا خاف عليه وعلى ماله؛ فليحلف ولا يكفر يمينه، وهو قول قتادة إذا حلف على نفسه أو مالٍ نفسه. وقد تقدّم ما للعلماء في هذا^(١).

وذكر موسى بن معاوية^(٢) أنَّ أبا سعيد بن أشرسَ صاحبَ مالكٍ استحلفه السلطانُ بتونسَ على رجلٍ أراد السلطانُ قتله أنه ما آواه، ولا يعلمُ له موضعاً، قال: فحلف له ابنُ أشرس، وابنُ أشرس يومئذٍ قد علم موضعه وآواه، فحلفه بالطلاق ثلاثاً، فحلف له ابنُ أشرس، ثم قال لامرأته: اعتزلي، فاعتزلته، ثم ركب ابنُ أشرس حتى قديم على البهلُول بنِ راشد^(٣) القيروانَ، فأخبره بالخبر، فقال له البهلُول: قال مالك: إنك حانث. فقال ابنُ أشرس: وأنا سمعت مالكا يقول ذلك، وإنما أردت الرخصة - أو كلامٌ هذا معناه - فقال له البهلُول بنُ راشد: قال الحسن البصريُّ: إنه لا حنثَ عليك. قال: فرجع ابنُ أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن.

وذكر عبد الملك بنُ حبيب قال: حدّثني [علي بن] معبد، عن المسيب بنِ شريك، عن أبي شيبه قال: سألت أنس بنَ مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل، هل ترى أن يحلفَ ليقبّه بيمينه؟ فقال: نعم؛ ولأنَّ أحلفَ سبعين يميناً وأحنثَ أحبُّ إليَّ أن أدلَّ على مسلم^(٤).

وقال إدريس بنُ يحيى: كان الوليد بنُ عبد الملك يأمر جواسيسَ يتجسّسون

(١) في المسألة الرابعة عشرة.

(٢) أبو جعفر الصّمّاخي، المغربي الإفريقي، الإمام المفتي. كان ثقة مأموناً، عالماً بالحديث والفقهِ صالحاً. السير ١٠٨/١٢.

(٣) أبو عمر، كان ثقة مجتهداً ورعاً مستجاب الدعوة. مات سنة (٢٨٣) هـ. ترتيب المدارك ١/ ٣٣٠. والقصة فيه بنحوها.

(٤) النوادر والزيادات ٣٠٩/١٠، وما سلف بين حاصرتين منه. والمسيب بن شريك وأبو شيبه - وهو يوسف بن إبراهيم الجوهري - ضعيفان. ميزان الاعتدال ٤/ ١١٤ و ٤٦١.

الخلق يأتونه بالأخبار، قال: فجلس رجلٌ منهم في حَلَقَةٍ رجاء بنِ حَيوة، فسمع بعضهم يقع في الوليد، فرفع ذلك إليه، فقال: يا رجاء، أذكُرُ بالسوء في مجلسك ولم تغَيِّر! فقال: ما كان ذلك يا أمير المؤمنين! فقال له الوليد: قل: أَلله الذي لا إله إلا هو، قال: أَلله الذي لا إله إلا هو؛ فأمر الوليدُ بالجاسوس فضربه سبعين سَوْطاً، فكان يَلْقَى رجاء فيقول: يا رجاء، بك يُستقى المطر، وسبعون سوطاً في ظهري! فيقول رجاء: سبعون سوطاً في ظهرك خيرٌ لك من أن يُقتلَ رجلٌ مسلم^(١).

التاسعة عشرة: واختلف العلماء في حَدِّ الإكراه؛ فروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ليس الرجل آمناً على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته^(٢). وقال ابن مسعود: ما كلامٌ يدرأ عني سَوَطين إلا كُنْتُ متكلِّماً به. وقال الحسن: التَّقِيَّةُ جائزةٌ لمؤمن إلى يوم القيامة^(٣). إِلَّا أَنَّ الله تبارك وتعالى ليس يجعل في القتل تَقِيَّةً. وقال النَّخَعِيُّ: القيد إكراه، والسَّجْنُ إكراه، والوعيد إكراه^(٤). وهذا قولُ مالك، إلا أنه قال: والوعيد المخوف إكراهٌ وإن لم يقع، إذا تحقَّق ظلمُ ذلك المتعدِّي وإنفاذه لما يتوعَّد به^(٥)، وليس عند مالكٍ وأصحابه في الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضَّرب، وما كان من سجن يدخل منه الضَّيْقُ على المكره. وإكراهُ السلطان وغيره عند مالكٍ إكراه^(٦).

(١) ذكر هذه القصة ابن عساكر في تاريخ دمشق ١١٣/١٨ - ١١٤، والذهبي في السير ٥٦١/٤ عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١٤٢٤) و(١٨٧٩٢) وفيه: أجعته بدل أخفته. والبيهقي ٣٥٨-٣٥٩/٧ بلفظ: إذا جُوعت. وأورده ابن عبد البر في الاستذكار ١٥٥/١٨ بلفظ: إذا أخيف أو ضرب أو أوثق.

(٣) النوادر والزيادات ٢٤٦/١٠، ٢٥١، وكلام ابن مسعود في المحرر الوجيز ٤٢٣/٣ أيضاً، وتقدم في المسألة الخامسة.

(٤) النوادر والزيادات ٣٠٦/١٠ عن النخعي وشريح، وفيه: والوعيد المخوف كره. وقوله: والوعيد إكراه، ليس في (م). وأخرجه عن شريح عبد الرزاق (١١٤٢٣)، والبيهقي ٣٥٩/٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤٢٤/٣، وينظر النوادر والزيادات ٢٥١/١٠.

(٦) النوادر والزيادات ٢٤٩/١٠.

وتَنَاقَضَ الكُوفِيُّونَ فلم يجعلوا السَّجْنَ والقيْدَ إكْرَاهاً على شرب الخمر وأكل الميتة؛ لأنه لا يُخَافُ منهما التَّلَفُ. وجعلوهما إكْرَاهاً في إقراره: لفلانٍ عندي ألفُ درهم^(١).

قال ابن سحنون: وفي إجماعهم على أَنَّ الألم والوجع الشديد إكْرَاهٌ ما يدلُّ على أَنَّ الإكْرَاهَ يكون مِن غير تَلَفٍ نفس [أو عضواً]^(٢).

وذهب مالكٌ إلى أَنَّ مَنْ أَكْرَهَ على يمينٍ بوعيدٍ أو سجنٍ أو ضربٍ أنه يَحْلِفُ ولا حِنْثٌ عليه؛ وهو قول الشافعي وأحمد وأبي ثورٍ وأكثر العلماء^(٣).

الموفية عشرين: ومن هذا الباب ما ثبت: «إِنَّ مِنَ المعارِضِ لمندوحةٍ عن الكَذِبِ»^(٤). وروى الأعمش، عن إبراهيم النَّخَعِيِّ أنه قال: لا بأس إذا بَلَغَ الرجلُ عنكَ شيءً أن تقول: واللَّهِ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما قُلْتُ فيكَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شيءٍ^(٥). قال عبد الملك بن حبيب: معناه: إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ الذي^(٦) قُلْتُ، وهو في ظاهره انتفاءٌ من القول، ولا حِنْثٌ على مَنْ قال ذلك في يمينه، ولا كَذِبٌ عليه في كلامه.

وقال النخعي: كان لهم كلامٌ مِنَ الْغَازِ الأَيْمَانِ يَدْرَوْنَ به عن أنفسهم، لا يرون ذلك من الكذب، ولا يخشون فيه الحِنْث. قال عبد الملك: وكانوا يَسْمُونُ ذلك: المعارِضَ من الكلام، إذا كان ذلك في غير مكرٍ ولا خديعةٍ في حقٍّ.

وقال الأعمش: كان إبراهيم النَّخَعِيُّ إذا أتاه أحدٌ يكره الخروجَ إليه، جلس في مسجد بيته، وقال لجاريته: قلِّي له: هو واللَّهِ في المسجد^(٧).

(١) ينظر النوادر والزيادات ٢٥٠/١٠.

(٢) النوادر والزيادات ٢٤٩/١٠، وما بين حاصرتين منه.

(٣) ينظر النوادر والزيادات ٣٠٦/١٠، والإشراف ٤٦٥/١.

(٤) سلف ٤٤٠/١١، وص ٤٤٣ من هذا الجزء.

(٥) ينظر النوادر والزيادات ٩/٤.

(٦) في (ظ) و(ف) و(م): أن الذي، وهو خطأ.

(٧) ينظر النوادر والزيادات ٩/٤.

وروى مغيرة، عن إبراهيم، أنه كان يُجيز للرجل من البعث إذا غرضوا على أميرهم أن يقول: واللّه ما أمتدي إلا ما سدّد لي غيري، ولا أركب إلا ما حملني غيري، ونحو هذا من الكلام.

قال عبد الملك: يعني بقوله: غيري، الله تعالى، هو مسدّده وهو يحمله؛ فلم يكونوا يرون على الرجل في هذا جنثاً في يمينه، ولا كذباً في كلامه، وكانوا يكرهون أن يقال هذا في خديعة وظلم وجحاد حق، فمن اجتراً وفعل أئيم في خديعته، ولم تجب عليه كفارة في يمينه^(١).

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾ أي: وسّعه لقبول الكفر، ولا يقدّر أحدٌ على ذلك إلا الله؛ فهو يرُدُّ على القدرية. و«صدراً» نصبٌ على المفعول^(٢). ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب جهنم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الدُّنْيَا﴾ أي: اختاروها على الآخرة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ «أن» في موضع خفضٍ عطفاً على «بأنهم». ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: عن فهم المواعظ. ﴿وَسَمِعِهِمْ﴾ عن كلام الله تعالى. ﴿وَأَبْصَرِهِمْ﴾ عن النظر في الآيات. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ عمّا يراد بهم. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تقدّم^(٣).

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) تفسير الرازي ١٢٣/٢٠.

(٣) ٩٤/١١ - ٩٥.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا﴾ هذا كله في عمَّار. والمعنى: وصبروا على الجهاد؛ ذكره النحاس^(١).

وقال قتادة: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذبوهم، وقد تقدّم ذكرهم في هذه السورة^(٢).

وقيل: نزلت في ابن أبي سرح، وكان قد ارتدّ ولحقّ بالمشرّكين، فأمر النبي ﷺ بقتله يوم فتح مكة، فاستجار بعثمان، فأجاره النبي ﷺ؛ ذكره النسائي عن عكرمة، عن ابن عباس قال في سورة النحل: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان على مصر، كان يكتب لرسول الله ﷺ، فأزله الشيطان فالحق بالكفار، فأمر به أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان بن عفان، فأجاره رسول الله ﷺ^(٣).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي: إنّ الله غفور رحيم في ذلك^(٤)، أو ذكرهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي: تُخاصم وتُحاج عن نفسها.

(١) في معاني القرآن ١٠٨/٤، وينظر ص ٤٣٢-٤٣٤ من هذا الجزء.

(٢) ص ٤٣٢-٤٣٤ من هذا الجزء، وينظر أسباب النزول للواحدي ص ٢٨٩.

(٣) المجتبى ١٠٧/٧، والكبرى (٣٥١٨)، وأخرج أبو داود (٤٣٥٨) القطعة الأخيرة منه.

(٤) يعني التقدير: غفور رحيم يوم تأتي كل نفس... إعراب القرآن للنحاس ١٠/٢.

جاء في الخبر: إِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: نَفْسِي نَفْسِي، مِنْ شِدَّةِ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، سِوَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُ يَسْأَلُ فِي أَمَتِهِ^(١).

وفي حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار: يا كعب، خَوْفُنَا، هَيْجُنَا، حَدَّثْنَا، نَبَّهْنَا. فقال له كعب: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، والذي نفسي بيده، لو وَاثَيْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَثَلِ عَمَلِ سَبْعِينَ نَبِيًّا، لَأَتَتْ عَلَيْكَ تَارَاتُ^(٢) لَا يُهْمُكَ إِلَّا نَفْسُكَ، وَإِنَّ لِحَبْنِهِمْ زَفْرَةً لَا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُتَخَبِّ إِلَّا وَقَعَ جَائِيًّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، حَتَّى إِنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ لَيَذُلِّي بِالْخُلَّةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا خَلِيلُكَ إِبْرَاهِيمَ، لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ إِلَّا نَفْسِي! قَالَ: يَا كَعْبُ، أَيْنَ تَجِدُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٣).

وقال ابن عباس في هذه الآية: مَا تَزَالُ الْخُصُومَةُ بِالنَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى تُخَاصِمَ الرُّوحُ الْجَسَدَ، فَتَقُولُ الرُّوحُ: رَبِّ، الرُّوحُ مِنْكَ أَنْتَ خَلَقْتَهُ، لِمَ تَكُنْ لِي يَدٌ أَبْطِشُ بِهَا، وَلَا رِجْلٌ أَمْشِي بِهَا، وَلَا عَيْنٌ أَبْصِرُ بِهَا، وَلَا أُذُنٌ أَسْمَعُ بِهَا، وَلَا عَقْلٌ أَعْقِلُ بِهِ، حَتَّى جِئْتُ فَدَخَلْتُ فِي هَذَا الْجَسَدِ، فَضَعَّفَ عَلَيْهِ أَنْوَاعَ الْعَذَابِ وَنَجَّنِي، فَيَقُولُ الْجَسَدُ: رَبِّ، أَنْتَ خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ، فَكُنْتُ كَالْخَشْبَةِ، لَيْسَ لِي يَدٌ أَبْطِشُ بِهَا، وَلَا قَدَمٌ أَسْعَى بِهِ، وَلَا بَصَرٌ أَبْصِرُ بِهِ، وَلَا سَمْعٌ أَسْمَعُ بِهِ، فَجَاءَ هَذَا كَشْعَاعُ النُّورِ، فِيهِ نَطَقَ لِسَانِي، وَبِهِ أَبْصَرْتُ عَيْنِي، وَبِهِ مَشَتْ رِجْلِي، وَبِهِ سَمِعْتُ أُذُنِي، فَضَعَّفَ عَلَيْهِ أَنْوَاعَ الْعَذَابِ وَنَجَّنِي مِنْهُ. قَالَ: فَيَضْرِبُ اللَّهُ لَهُمَا مَثَلًا: أَعْمَى وَمُقْعَدًا دَخَلَ بَسْتَانًا فِيهِ ثَمَارٌ، فَلَا أَعْمَى لَا يُبْصِرُ الثَّمَرَةَ، وَالْمُقْعَدُ لَا يَنْأَلُهَا، فَنَادَى الْمُقْعَدُ الْأَعْمَى: إِيْتِنِي

(١) أخرجه مطولاً أحمد (٩٦٢٣)، والبخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ؓ. وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تنظر في مسند أحمد.

(٢) جمع تارة.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/١٥٤ - ١٥٥، وأحمد في الزهد ص ١٥١، وأبو نعيم في الحلية ٣٦٨/٥ - ٣٦٩ بنحوه.

فاحملني أكل وأطعمك، فدنا منه فحمله، فأصابوا من الثمرة، فعلى من يكون العذاب؟! قال: عليكما جميعاً العذاب؛ ذكره الثعلبي^(١).

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ هذا متصلٌ بذكر المشركين. وكان رسول الله ﷺ دعا على مشركي قريش وقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وطأتك على مُضَرٍّ، واجعلها عليهم سنينَ كَسَنِي يوسفَ»، فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام^(٢)، ووجه إليهم رسول الله ﷺ طعاماً ففُرق فيهم^(٣).

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ لا يُهاج أهلها ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البرِّ والبحر، نظيره: ﴿يُجِبُّ إِلَيْهِ تَمَرَّتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] الآية^(٤). ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ الأنعم: جمع النعمة؛ كالأشد: جمع الشدة^(٥). وقيل: جمع نُعمى، مثل: بُؤسى وأبؤس^(٦). وهذا الكفران تكذيبٌ بمحمد ﷺ.

﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ﴾ أي: أذاق أهلها. ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ سمَّاه لباساً؛ لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس^(٧). ﴿بِمَا كَانُوا

(١) وذكره أيضاً البغوي في تفسيره ٨٧/٣.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦١٣)، والبخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود ؓ، وفي الباب عن أبي هريرة ؓ عند أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥)، وقد سلف ٣٠٤/٤.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٨٨/٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٥٠١/٤، والرازي في تفسيره ١٣٠/٢٠.

(٤) تفسير البغوي ٨٨/٣.

(٥) هذا قول سيويوه كما في إعراب القرآن للنحاس ٤١٠/٢، والمحزر الوجيز ٤٢٦/٣. وقال قطرب وأبو عبيدة في مجاز القرآن ٣٦٩/١: واحد الأنعم: نُعم. وينظر معاني القرآن للزجاج ٢٢١/٣.

(٦) لم نقف على من ذكر هذا الجمع، وفي معاجم اللغة: أَبُؤْس جمع بُؤس، وَأَنْعُم جمع نُعم. وقال الطبري في تفسيره ٣٨٥/١٤: وكان بعض أهل الكوفة يقول: أنعم جمع نعماء، مثل: بأسه وأبؤس.

(٧) النكت والعيون ٢١٧/٣.

يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ أي: من الكفر والمعاصي.

وقراه حفص بن غياث ونصر بن عاصم وابن أبي إسحاق والحسن، وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث وعبيد وعباس: «والخوف» نصباً بإيقاع «أذاقها» عليه^(١)، عطفاً على «لباس الجوع»، أي: أذاقها الله لباس الجوع^(٢) وأذاقها الخوف. وهو بعث النبي ﷺ سراياه التي كانت تطيف بهم^(٣). وأصل الذوق بالقم، ثم يُستعار فيوضع موضع الابتلاء^(٤).

وضرب مكة مثلاً لغيرها من البلاد، أي: إنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده، لمّا كفر أهلها؛ أصابهم القحط، فكيف بغيرها من القرى. وقد قيل: إنها المدينة، آمنت برسول الله ﷺ، ثم كفرت بأنعم الله بقتل عثمان بن عفان، وما حدث بها بعد رسول الله ﷺ من الفتن. وهذا قول عائشة وحفصة زوجي النبي ﷺ. وقيل: إنه مثلٌ مضروبٌ بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ

ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ هذا يدلُّ على أنها مكة. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة^(٦). ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة.

(١) ذكر رواية عبد الوارث وعبيد عن أبي عمرو ابن الجوزي في زاد المسير ٥٠٠/٤ وهي غير المشهورة عن أبي عمرو، والقراءة المشهورة عنه كقراءة الجماعة. وعبيد: هو ابن عقيل بن صبيح أبو عمرو الهلالي البصري. قال البخاري: مات في رمضان سنة ٢٠٧ هـ. وعباس هو ابن الفضل بن عمرو أبو الفضل الواقفي الأنصاري البصري، قاضي الموصل. توفي سنة ١٨٦ هـ غاية النهاية ٤٩٦/١ و ٣٥٣.

(٢) قوله: أي: أذاقها الله لباس الجوع، ليس في (د) و(م).

(٣) تفسير البغوي ٨٨/٣.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١٠٩/٤.

(٥) النكت والعيون ٢١٧/٣، وقول حفصة رضي الله عنها أخرجه الطبري ٣٨٤/١٤.

(٦) أخرجه عنهم الطبري ٣٨٣/١٤.

وقيل: الشدائد، والجوع منها.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: كلوا يا معشر المسلمين من الغنائم. وقيل: الخطاب للمشركين؛ لأن النبي ﷺ بعث إليهم بطعام رقة عليهم، وذلك أنهم لما ابتلوا بالجوع سبع سنين، وقطع العرب عنهم الميرة^(١) بأمر النبي ﷺ أكلوا العظام المحرقة والجيفة والكلاب الميتة والجلود والعلهز، وهو الوبر يعالج بالدم. ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله ﷺ حين جُهدوا، وقالوا: هذا عذاب الرجال، فما بال النساء والصبيان؟ وقال له أبو سفيان: يا محمد، إنك جئت تأمر بصلة الرحم والعفو، وإن قومك قد هلكوا؛ فادع الله لهم. فدعا لهم رسول الله ﷺ، وأذن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَلَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١١٥﴾
تقدم في «البقرة» القول فيها مستوفى^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

فيه مسألتان:

(١) أي: الطعام.

(٢) زاد المسير ٥٠١/٤، وهذا الكلام جزء من الحديث الذي فيه: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» السالف قريباً.

(٣) ٢٢/٤ وما بعدها.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ «ما» هنا مصدرية، أي: لوصف^(١). وقيل: اللام لام سبب وأجل، أي: لا تقولوا لأجل وصفكم «الكذب»^(٢) بنزع الخافض، أي: لما تصف ألسنتكم من الكذب. وقُرى: «الكُذْبُ» بضم الكاف والذال والباء، نعتاً لللسنة، وقد تقدّم^(٣).

وقرأ الحسن هنا خاصةً: «الكذب» بفتح الكاف وخفضِ الذال والباء^(٤)، نعتاً لـ «ما»؛ التقدير: ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب^(٥). وقيل: على البدل من «ما» أي: ولا تقولوا للكذب^(٦) الذي تصفه ألسنتكم: هذا حلالٌ وهذا حرام؛ لتفتروا على الله الكذب.

الآية خطابٌ للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب، وأحلّوا ما في بطون الأنعام وإن كان ميتةً. فقوله: «هذا حلال» إشارة إلى ميتة بطون الأنعام، وكلّ ما أحلّوه. وقوله: «وهذا حرام» إشارة إلى البحائر والسوائب وكلّ ما حرّمه^(٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ * مَتَّعْ قَلِيلٌ أَي: ما هم فيه من نعيم الدنيا يزولٌ عن قريب. وقال الزجاج^(٨): أي: متاعهم متاعٌ قليل. وقيل: لهم متاعٌ قليل^(٩)، ثم يُردّون إلى عذابٍ أليم.

(١) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٠، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٦.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٨٨/ ٣.

(٣) ص ٣٤٧ من هذا الجزء.

(٤) القراءات الشاذة ص ٧٣، والمحتسب ١٢/ ٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٠، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٦، والكشاف ٢/ ٤٣٣. قال أبو حيان في البحر ٥/ ٥٤٥: وهذا عندي لا يجوز؛ وذلك أنهم نصوا على أن «أن» المصدرية لا ينعت المصدر المنسبك منها ومن الفعل... وحكم باقي الحروف المصدرية حكم «أن».

(٦) في (د) و(ز) و(ظ): الكذب، والمثبت من (ف) و(م)، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٠٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٢٩.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٩.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٢، ونقله المصنف عن الوسيط للواحدي ٣/ ٨٩.

(٩) من قوله: وقيل: لهم متاع قليل، ليس في (ظ) و(ف).

الثانية: أسند الدارمي أبو محمد في «مسنده»: أخبرنا هارون، عن حفص، عن الأعمش قال: ما سمعت إبراهيم قط يقول: حلال، ولا: حرام، ولكن كان يقول: كانوا يكرهون، وكانوا يستحبون^(١).

وقال ابن وهب: قال مالك: لم يكن من قُتيا الناس أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولون: إياكم كذا وكذا، ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى هذا: أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يُصرِّح بهذا في عين من الأعيان، إلا أن يكون الباري تعالى يُخبر بذلك عنه. وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول: إني أكره [كذا]. وكذلك كان مالك يفعل اقتداءً بمن تقدّم من أهل الفتوى. فإن قيل: فقد قال فيمن قال لزوجته: أنت عليّ حرام: إنها حرام، ويكون ثلاثاً^(٢). فالجواب أن مالكا لما سمع عليّ بن أبي طالب يقول: إنها حرام، اقتدى به. وقد يقوى الدليل على التحريم عند المجتهد، فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك، كما يقول: إن الربا حرام؛ في غير الأعيان الستة^(٣). وكثيراً ما يطلق مالك رحمه الله: فذلك حرام لا يصلح؛ في الأموال الربويّة، وفيما خالف المصالح وخرج عن طريق المقاصد؛ لقوة الأدلة في ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ بيّن أن الأنعام والحَرث حلال لهذه الأمة، فأما اليهود فحرّمت عليهم منها أشياء. ﴿حَرَمْنَا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في سورة

(١) مسند الدارمي (١٨٤)، وإبراهيم: هو النخعي.

(٢) الموطأ ٢/٥٥٢. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٧١، وما بين حاصرتين منه.

(٣) الأعيان الستة هي: الذهب والفضة، والبرّ والشعير، والتمر والملح. أحكام القرآن لابن العربي

٣/١١٧١، والكلام منه.

الأنعام^(١). ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي: بتحريم ما حرّمنا عليهم، ولكن ظلموا أنفسهم، فحرّمنا عليهم تلك الأشياء عقوبةً لهم، كما تقدّم في «النساء»^(٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ﴾ أي: الشُّرك^(٣)؛ قاله ابنُ عباس. وقد تقدّم في النساء^(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَوْ يَكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ دعا عليه الصلاة والسلام مشركي العرب إلى ملّة إبراهيم، إذ كان أباهم وباني البيت الذي به عزّهم. والأُمَّة: الرجل الجامع للخير^(٥)، وقد تقدّم محامله^(٦).

وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك، قال: بلغني أنّ عبد الله بن مسعود قال: يرحم الله معاذاً، كان أُمَّةً قانتاً. ف قيل له: يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر الله عزّ وجلّ بهذا إبراهيم عليه السلام. فقال ابن مسعود: إنّ الأُمَّة الذي يُعلّم الناس الخير، وإنّ القانت هو المطيع^(٧). وقد تقدّم القنوت في «البقرة»^(٨) و«حنيفاً» في «الأنعام»^(٩).

(١) أخرج هذا القول الطبري ٣٩١/١٤ - ٣٩٢ عن الحسن وعكرمة وقتادة.

(٢) ٢١٥/٧ - ٢١٦.

(٣) الوجيز للواحد ٤٦٨/١ (على هامش مراح لبيد).

(٤) ١٥١/٦، وينظر الوسيط للواحد ٨٩/٣.

(٥) تهذيب اللغة ٦٣٤/١٥.

(٦) ٣٩٧/٢.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ١١٧٢/٣. وأخرجه الطبري ٣٩٤/١٤ - ٣٩٥، و٣٩٦ - ٣٩٧، والطبراني في الكبير (٩٩٤٣)، والحاكم ٣٥٨/٢، وأبو نعيم في الحلية ٢٣٠/١ من غير طريق مالك.

(٨) ٣٣٤/٢ و ١٨٣/٤ - ١٨٥.

(٩) ٤٤٢/٨، لكن ذكر المصنف ثمة معناه مختصراً، وقد بسط معناه في سورة البقرة ٤١٤/٢.

قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمٍ أُجْتَبَنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَمَا يَنْتَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا﴾ أي: كان شاكرًا. ﴿لِأَنْعُمٍ﴾ الأنعم: جمع نعمة، وقد تقدّم^(١). ﴿أُجْتَبَنَهُ﴾ أي: اختاره.

﴿وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ * وَمَا يَنْتَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً قيل: الولد الطيب. وقيل: الشئ الحسن. وقيل: النبوة. وقيل: الصلاة [عليه] مقرونة بالصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام في التشهد. وقيل: إنه ليس أهل دين إلا وهم يتولّونه^(٢). وقيل: بقاء ضيافته وزيارة قبره^(٣). وكل ذلك أعطاه الله، وزاده ﷻ.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. «مِن» بمعنى: مع، أي: مع الصالحين؛ لأنه كان في الدنيا أيضاً مع الصالحين. وقد تقدّم هذا في «البقرة»^(٤).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

قال ابن عمر: أمر باتّباعه في مناسك الحجّ كما علّم إبراهيم جبريل عليهما السلام^(٥). وقال الطبري: أمر باتّباعه في التبرؤ من الأوثان والتدين^(٦) بالإسلام. وقيل: أمر باتّباعه في جميع ملّته إلا ما أمر بتركه؛ قاله بعض أصحاب الشافعي على كل ما حكاه الماوردي^(٧).

(١) ص ٤٥٢ من هذا الجزء.

(٢) وردت هذه الأقوال في زاد المسير ٥٠٤/٤، وما بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٢١٩/٣.

(٤) ٤٠٦/٢.

(٥) الوسيط للواحد ٩١/٣.

(٦) في النسخ: التزين، والمثبت من النكت والعيون ٢١٩/٣ - وعنه نقله المصنف - وزاد المسير ٥٠٤-٥٠٥، وهو بمعناه في تفسير الطبري ٣٩٨/١٤.

(٧) في النكت والعيون ٢١٩/٣.

والصحيح الاتباع في عقائد الشرع دون الفروع؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

مسألة: في هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول لما تقدم إلى الصواب^(١) والعمل به، ولا دَرَك على الفاضل في ذلك^(٢)؛ لأن النبي ﷺ أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد أمر بالاعتداء بهم فقال تعالى: ﴿فَبِهِدْهُمْ أَفْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: لم يكن في شرع إبراهيم ولا من دينه، بل كان سَمْحاً لا تغليظ فيه، وكان السبت تغليظاً على اليهود في رفض الأعمال وترك التبسط في المعاش؛ بسبب اختلافهم فيه^(٣)، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال: تفرغوا للعبادة في كل سبعة أيام يوماً واحداً، فقالوا: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا، فاخترأوا الأحد^(٤).

وقد اختلف العلماء في كيفية ما وقع لهم من الاختلاف، فقالت: طائفة: إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعيَّنه لهم، وأخبرهم بفضيلته على غيره، فناظروه أن السبت أفضل، فقال الله له: دَعُهم وما اختاروا لأنفسهم. وقيل: إن الله تعالى لم يُعيَّنه لهم، وإنما أمرهم بتعظيم يوم في الجمعة^(٥)،

(١) في (د) و(ز): الأصول، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ٤٣١/٣، والكلام منه ومن النكت والعيون ٢١٩/٣. وينظر مجمع البيان ١٣٦/١٤.

(٢) أي: لا تبعه. الصحاح (درك).

(٣) بنحوه المحرر الوجيز ٤٣١/٣.

(٤) تفسير البغوي ٩٠/٣، وتفسير الرازي ١٣٧/٢٠.

(٥) يعني: أمرهم بتعظيم يوم في الأسبوع، ولم يرد في المعاجم الجمعة بمعنى الأسبوع. ووقع في (د) و(ف): يوم الجمعة.

فاختلف اجتهدهم في تعيينه، فعَيَّنَت اليهود السبت؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق. وعَيَّنَت النصارى يومَ الأحد؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق. فألْزِمَ كُلُّ مَنْهُمَ مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ اجتهاده. وعَيَّنَ اللهُ لهذه الأمة يومَ الجمعة من غير أن يَكْلَهُم إلى اجتهدهم؛ فضلاً منه ونعمة^(١)، فكانت خيرَ الأمم أُمَّةً.

روى الصحيحُ عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يومَ القيامة، ونحن أوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، يَبْدَأُهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُنَا وَأَوْتَيْنَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ لَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ - قال: يومَ الجمعة - فالْيَوْمَ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى»^(٢).

فقوله: «فهذا يومُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ» يَقْوِي قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَمْ يُعَيَّنْ لَهُمْ، فَإِنَّهُ لَوْ عُيِّنَ لَهُمْ وَعَانَدُوا لَمَّا قِيلَ: «اخْتَلَفُوا». وَإِنَّمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقَالَ: فَخَالَفُوا فِيهِ وَعَانَدُوا. وَمِمَّا يَقْوِيهِ أَيْضاً قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا»^(٣). وَهَذَا نَصٌّ فِي الْمَعْنَى.

وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ: «فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ»^(٤). وَهُوَ حُجَّةٌ لِلْقَوْلِ الْأَوَّلِ. وَقَدْ رَوَى: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْجُمُعَةَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا»^(٥)، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ وَهَدَانَا اللهُ لَهُ، فَالْنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبِعٌ»^(٦).

قوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يريد: في يوم الجمعة كما بيَّناه؛ اختلفوا

(١) المفهم ٤٩١/٢ - ٤٩٢ .

(٢) أخرجه أحمد (٧٣١٠)، والبخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥): (٢٠)، وسلف ٣٤٦/١٠ .

(٣) المفهم ٤٩٢/٢ ، والحديث أخرجه مسلم (٨٥٦): (٢٢) من حديث حذيفة ؓ مطولاً .

(٤) أخرجه مسلم (٨٥٥): (٢١)، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ١١٧٣/٣ ، والمفهم ٤٩٢/٢ .

(٥) في (د) و(م): كان قبلنا .

(٦) أخرجه أحمد (٧٢١٤) من حديث أبي هريرة ؓ .

على نبيهم موسى وعيسى. ووجه الاتصال بما قبله: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمِيرُ بَاتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَحَذَرُ اللَّهِ الْأُمَّةَ مِنَ الْاِخْتِلَافِ عَلَيْهِ فَيَشْدَدُ عَلَيْهِمْ كَمَا شَدَّدَ عَلَى الْيَهُودِ^(١).

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

فيه مسألة واحدة: هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطّف ولين دون مُخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يُوعَظَ المسلمون إلى يوم القيامة. فهي مُحْكَمَةٌ في جهة العصاة من الموحّدين، ومنسوخة بالقتال في حقّ الكافرين. وقد قيل: إِنَّ مَنْ أَمَكُنْتَ مَعَهُ هَذِهِ الْأَحْوَالُ مِنَ الْكُفَّارِ وَرُجِي إِيْمَانُهُ بِهَا دُونَ قِتَالٍ، فَهِيَ مُحْكَمَةٌ^(٢). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: أطبق جمهور أهل التفسير أَنَّ هذه الآية مدنيّة، نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أُحُد، ووقع ذلك في «صحيح» البخاري وفي كتاب السير^(٣). وذهب النحّاس إلى أنها مكّيّة^(٤)، والمعنى متّصل بما قبلها من المكّي اتّصالاً حسناً؛ لأنها تتدرّج الرّتب من الذي يُدعى ويُووعَظ، إلى الذي يُجادل، إلى الذي يُجَارَى على فعله.

(١) ينظر مجمع البيان ١٣٦/١٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤٣٢/٣.

(٣) في (ظ): كتاب التفسير، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق للمحرر الوجيز (والكلام منه) ولم نقف على أن الآية نزلت بشأن التمثيل بحمزة في صحيح البخاري، وإنما فيه أنه مُثَلُّ بِأَبِي جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَبِأَنَسِ بْنِ النَّضْرِ ﷺ (١٢٩٣) و(٢٨٠٥). وقصة حمزة ﷺ سيذكرها المصنف قريباً.

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحّاس ٤٨٤/٢، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤٣٢/٣.

ولكن ما روى الجمهورُ أثبت^(١).

روى الدارقطني عن ابن عباس قال: لَمَّا انصرف المشركون عن قتلى أحد، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساء، رأى حمزة قد شُقَّ بطنه، واصطُلِمَ أنفه، وجُدِعت أذناه، فقال: «لولا أن يحزن النساء أو تكون سنةٌ بعدي، لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير، لأمثلن مكانه بسبعين رجلاً». ثم دعا بِبُرْدَةٍ وغطى بها وجهه، فخرجت رجلاه، فغطى رسول الله ﷺ وجهه وجعل على رجله من الإذخر، ثم قدّمه فكبر عليه عشراً، ثم جعل يُجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه، حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتل سبعين، فلَمَّا دُفِنوا وُفِرغ منهم، نزلت هذه الآية: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. فصبر رسول الله ﷺ ولم يُمثل بأحد^(٢).

خرّجه إسماعيل بن إسحاق من حديث أبي هريرة^(٣)، وحديث ابن عباس أكمل. وحكى الطبري^(٤) عن فرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآية فيمن أُصيب بظُلامةٍ ألا ينال من ظالمه إذا تمكّن إلا مثل ظلامته لا يتعدّاه إلى غيره. وحكاها الماوردي عن ابن سيرين ومجاهد^(٥).

الثانية: واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجلٌ في أخذ مالٍ، ثم ائتمن الظالمَ المظلومَ على مالٍ، هل يجوز له خيائنه في القدر الذي ظلمه؟ فقالت فرقة: له ذلك، منهم ابن سيرين وإبراهيم النخعي وسفيان ومجاهد؛ واحتجّت بهذه الآية وعموم

(١) المحرر الوجيز ٤٣٢/٣.

(٢) سنن الدارقطني (٤٢٠٩)، وأخرجه من طريقه الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٣) وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٢٩٠، والبيهقي في الدلائل ٢٨٩/٣، وفي إسناده صالح المُرّي، وهو ضعيف، كما في تقريب التهذيب ص ٢١٢.

(٤) في تفسيره ٤٠٥/١٤، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤٣٢/٣.

(٥) النكت والعيون ٢٢١/٣، وأخرجه عنهما الطبري ٤٠٥/١٤ - ٤٠٦.

لفظها. وقال مالك وفرقة معه: لا يجوز له ذلك، واحتجوا بقول رسول الله ﷺ: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تحنّ من خانك». رواه الدارقطني^(١). وقد تقدّم هذا في «البقرة» مستوفى^(٢).

ووقع في مسند ابن إسحاق^(٣) أنّ هذا الحديث إنما ورد في رجل زنى بامرأة آخر، ثم تمكّن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر؛ فاستشار ذلك الرجل رسول الله ﷺ في الأمر، فقال له: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تحنّ من خانك». وعلى هذا يتقوّى قول مالك في أمر المال؛ لأن الخيانة لاحقة في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاك عنها، فينبغي أن يتجنّبها لنفسه؛ فإن تمكّن من الانتصاف من مال لم يأت منه عليه، فيُشبه أنّ ذلك جائز، وكان الله حكّم له؛ كما لو تمكّن الأخذ بالحكم من الحاكم.

وقد قيل: إنّ هذه الآية منسوخة، نسختها: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الآية: ١٢٧]^(٤).

الثالثة: في هذه الآية دليل على جواز التماثل في القصاص؛ فمن قتل بحديدة قُتل بها. ومن قتل بحجر قُتل به^(٥)، ولا يتعدّى قَدْرَ الواجب، وقد تقدّم هذا المعنى في «البقرة» مستوفى^(٦)، والحمد لله.

الرابعة: سمّى الله تعالى الإذيات في هذه الآية عقوبةً، والعقوبة حقيقة إنما

(١) في سننه (٢٩٣٥) و(٢٩٣٦) و(٢٩٣٧) من حديث أبي بن كعب وأبي هريرة وأنس رضي الله عنهم، والكلام في المحرر الوجيز ٤٣٢/٣.

(٢) ٢٤٨/٣ - ٢٤٩.

(٣) كذا في النسخ، وفي المحرر الوجيز ٤٣٣/٣ (والكلام منه): ابن سنجر، وسلفت ترجمته ١٤/٥.

(٤) النكت والعيون ٢٢١/٣.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١١٧٨/٣.

(٦) ٢٥٢/٣ - ٢٥٥.

هي الثانية، وإنما فعل ذلك ليستوي اللفظان، وتتناسب ديباجة^(١) القول، وهذا بعكس قوله: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرِجْمٍ﴾ [البقرة: ١٥] فإنَّ الثاني هنا هو المجاز، والأوَّل هو الحقيقة. قاله ابنُ عطية.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٨﴾

فيه مسألة واحدة: قال ابن زيد: هي منسوخة بالقتال. وجمهورُ الناس على أنها مُحْكَمَةٌ^(٢)، أي: اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المثلثة. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على قتلى أحد؛ فإنهم صاروا إلى رحمة الله^(٣).

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ ضَيْقٌ: جمع ضَيْقَةٍ، قال الشاعر:
كَشَفَ الضَّيْقَةَ عَنَّا وَفَسَخَ^(٤)

وقراءة الجمهور بفتح الضَّاد. وقرأ ابنُ كثير بكسر الضَّاد، ورويت عن نافع، وهو غلطٌ ممن رواه. قال بعض اللغويين: الكسرُ والفتح في الضَّاد لغتان في المصدر^(٥).

قال الأخفش: الضُّيْقُ والضُّيْقُ مصدر: ضاق يضيق^(٦). والمعنى: لا يضيق صدرك من كفرهم. وقال الفراء^(٧): الضُّيْقُ: ما ضاق عنه صدرك، والضُّيْقُ: ما يكون

(١) في (ز) و(ف) و(م): دباجة، وفي (د): وباجة، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤٣٢/٣، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤٣٣/٣.

(٣) الوسيط للواحد ٩١/٣، وزاد المسير ٥٠٨/٤.

(٤) الصحاح (ضيق)، وصدر البيت: فلئن ربك من رحمته. وقائله الأعشى، وهو في ديوانه ص ٢٨٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤٣٣/٣، وقراءة ابن كثير في السبعة ص ٣٧٦، والتيسير ص ١٣٩، والقراءة المشهورة عن نافع كقراءة الجمهور. قال النحاس في إعراب القرآن ٤١١/٢: هذا لا يُعرف عن نافع.

(٦) الوسيط للواحد ٩٢/٣.

(٧) في معاني القرآن ١١٥/٢.

في الذي يَتَّسَع وَيَضِيق؛ مثلُ الدار والثوب. وقال ابن السَّكَيْت: هما سواء؛ يقال: في صدره ضَيْقٌ وضَيْقٌ^(١) الْقُتْبِيُّ^(٢): ضَيْقٌ: مخفَّفٌ ضَيْقٌ، أي: لا تكن في أمرٍ ضَيْقٌ، فَخُفَّفَ، مثل: هَيْئٌ وهَيْنٌ. وقال ابن عرفة: يقال: ضاق الرجل: إذا بخل، وأضاق: إذا افتقر^(٣).

وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: الفواحش والكبائر بالنصر والمعونة والفضل والبرِّ والتأييد^(٤).

وتقدَّم معنى الإحسان^(٥).

وقيل لهَرَمَ بن حَيَّان^(٦) عند موته: أَوْصَنَا، فقال: أَوْصِيَكُمْ بآياتِ اللَّهِ وآخرِ سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى آخرها^(٧).

تم الجزء الثاني عشر من تفسير القرطبي، ويليه الجزء الثالث عشر
وببدأ بسورة الإسراء

(١) تهذيب اللغة ٢١٧/٩.

(٢) في غريب القرآن له ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٣) ينظر الصحاح (ضيق).

(٤) بنحوه الوجيز للواحدي ٤٧٠/١ (على هامش مراح لييد).

(٥) ١٣١/٢.

(٦) في (م): حَيَّان وهو خطأ، وسلفت ترجمته ص ٢٢ من هذا الجزء.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٥٦٢/١٣ - ٥٦٣، وأحمد في الزهد ص ٢٨٢، والطبري في تفسيره ٤٠٩/١٤ - ٤١٠.

فهرس الجزء الثاني عشر

- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ آيَاتِي وَيُخْلِصُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتٍ مُجْرِمٍ لَّنْزِلُ أُولَئِكَ الْخَاصَّةُ وَالْكَافَّةُ ۚ﴾ [١] ٥
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِتَوْنٍ عَمِدٍ تَرْوِيهَا...﴾ [٢] ٦
- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا...﴾ [٣] ٧
- قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قُلُوعٌ مُّتَجَاوِفَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتُونٌ...﴾ [٤] ٩
- قوله تعالى: ﴿... وَإِنْ تَحِبَّ فَحَبِّبْ قَوْلُهُمْ أَمْ ذَا كُنَّا نَرِيكَ لَهَا لَبِي خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾ [٥] ١٤
- قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُكَ بِالسَّيْفَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الثَّلَاثُ...﴾ [٦-٧] ... ١٥
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُ كُلُّ أُنْفٍ وَمَا يَخْفَى الْأَرْكَامُ وَمَا تَرْدَادُ...﴾ [٨-٩] ١٦
- قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ يَنْصُرُكَ مِنْ أَمْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِإِلَيْهِ وَسَارِبٌ بِأَتْبَارِهِ﴾ [١٠] ٢٤
- قوله تعالى: ﴿لَمْ يَمُوتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ...﴾ [١١] ٢٦
- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآيَاتِ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ السَّحَابَ الْبِشَالُ...﴾ [١٢-١٣] ٣٣
- قوله تعالى: ﴿لَمْ دَعُوهُ لِنُفِي وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ...﴾ [١٤] ٤١
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا...﴾ [١٥] ٤٤
- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ...﴾ [١٦] ٤٦
- قوله تعالى: ﴿أَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِعًا وَمِمَّا يُؤْتُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ...﴾ [١٧-١٩] ٤٨
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ...﴾ [٢٠] ٥٣
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْعِقَابِ...﴾ [٢١-٢٤] ٥٧
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ...﴾ [٢٥-٢٦] ٦٣
- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ...﴾ [٢٧-٢٨] ٦٤
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي كِتَابِ...﴾ [٢٩] ٦٦
- قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أُمَمٌ...﴾ [٣٠] ٦٩
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ...﴾ [٣١] ٧٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَفْهَيْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَامْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِمُ آخِذَتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [٣٢-٣٤] ٧٦
- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ [٣٥] ٨٠
- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾ [٣٦] ٨٢
- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكُمْ حَكْمًا عَرَبِيًّا...﴾ [٣٧] ٨٣
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَنْزِلًا...﴾ [٣٨] ٨٤
- قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَبِعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [٣٩] ٨٧

- قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا رُتِبْتَ بِعَظْمٍ أَلَدَىٰ نَعْتِكَ أَوْ تُؤَمِّنُكَ...﴾ [٤١-٤٠]..... ٩٤

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا...﴾ [٤٣-٤٢]..... ٩٧

تفسير سورة إبراهيم.....

قوله تعالى: ﴿الرَّ كُتِبَ أَنْزَلَتْهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [١]..... ١٠٢

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَبِئْسَ لِلْكَافِرِينَ مِن عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [٣-٢]..... ١٠٣

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُم فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٤]..... ١٠٥

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَن أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمَنِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [٥]..... ١٠٦

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أُنجَاكُمْ مِّن مَّالٍ فَرَقَوْكَ يُسْمُوكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَلَيَجْعَلَنَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ [٦-٧]..... ١٠٨

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ﴾ [٨-٩].. ١١٠

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُهُمْ لَئِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَلَا تَلْحَقُوا بِالنَّاصِرِينَ وَلَئِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطَةً فَلَتَأْخُذَنَّهُم مَّوَءَدَّةُ غَيْبِهِمْ وَتَأْخُذَنَّهُم سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [١٠-١١]..... ١١٣

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ [١١-١٢]..... ١١٤

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي بِلَدِنَا...﴾ [١٣-١٤].... ١١٦

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَظِيمٍ﴾ [١٥-١٧]..... ١١٧

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ...﴾ [١٨-٢٠]..... ١٢٣

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فَيَحْبِبُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ...﴾ [٢١-٢٢]..... ١٢٥

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فَيَحْبِبُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ...﴾ [٢٣-٢٥]..... ١٣١

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَذِبَتٍ حَبِيبَةٍ كَتَبَتْ لَهَا مِن قَوْلِ اللَّهِ...﴾ [٢٦]..... ١٣٦

قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَقْدِرُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [٢٧]..... ١٣٨

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا...﴾ [٢٨-٣٠]..... ١٤٠

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُحْسِنُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِجَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [٣١]..... ١٤٢

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ...﴾ [٣٢-٣٤]..... ١٤٤

- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾ [٣٥-٣٦] ١٤٥
- قوله تعالى: ﴿وَرَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ...﴾ [٣٧] ١٤٧
- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيْنَا عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ...﴾ [٣٨-٤١] ١٥٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ أَلَلَّهُ عَنَّا بِمَلِ الظَّالِمُونَ...﴾ [٤٢-٤٣] ١٥٧
- قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْمَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ...﴾ [٤٤] ١٦١
- قوله تعالى: ﴿وَسَكُنْتُمْ فِي مَسْجِدٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّضَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ...﴾ [٤٥-٤٦] ١٦٣
- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْزَنْ أَلَلَّهُ حُفِلَ وَعِدِهِ رُسُلُهُ...﴾ [٤٧] ١٦٧
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْدِلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّعْوَتِ وَرَبُّوْا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ...﴾ [٤٨-٥٢] . ١٦٧
- تفسير سورة الحجر
- قوله تعالى: ﴿الرَّيَّةَ مَائِثَ الْكِنِيبِ وَقَوْمَ إِيثِينَ﴾ [١-٢] ١٧٤
- قوله تعالى: ﴿وَذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيَلْبَسُوا الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَمْلِكُونَ﴾ [٣] ١٧٦
- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا وَلَمَّْا كُنَّا بِمَعْلُومٍ...﴾ [٤-٧] ١٧٨
- قوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَكُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرُونَ﴾ [٨] ١٧٩
- قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [٩] ١٨٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ...﴾ [١٠-١٣] ١٨٢
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُجُونَ...﴾ [١٤-١٥] ١٨٣
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [١٦] ١٨٦
- قوله تعالى: ﴿وَحَافِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَاجٍ...﴾ [١٧-١٨] ١٨٧
- قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ...﴾ [١٩-٢٠] ١٩٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [٢١] ١٩٣
- قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِعَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَفِيحْكُوهُ وَمَا أَنشَدُكُمْ بِمُحْدَرِينَ﴾ [٢٢] ١٩٤
- قوله تعالى: ﴿وَلِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُيِّتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ...﴾ [٢٣-٢٤] ٢٠٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَنْ رَبِّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عِلْمٌ...﴾ [٢٥-٢٦] ٢٠٣
- قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلَ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السُّجُودِ﴾ [٢٧] ٢٠٣
- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْتَوْسِنٍ...﴾ [٢٨-٢٩] ٢٠٨
- قوله تعالى: ﴿وَسَجَدَ الْمَلَكُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ...﴾ [٣٠-٣١] ٢١٠
- قوله تعالى: ﴿قَالَ يٰإِبْرَاهِيمُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ...﴾ [٣٢-٣٥] ٢١٠
- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَمُوتُونَ...﴾ [٣٦-٣٨] ٢١١
- قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ...﴾ [٤٠-٤١] ٢١٢
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ [٤٢] ٢١٣
- قوله تعالى: ﴿وَلَنْ جَهَنَّمَ لَمُوعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ...﴾ [٤٣-٤٤] ٢١٤

- قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْرَافًا عَلَىٰ سُورٍ مُتَقَابِلِينَ...﴾ [٤٧-٤٨] ٢١٩
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ إِنِّي أَنَا الْمَوْفُورُ الرَّحِيمُ...﴾ [٤٩-٥٠] ٢٢٠
- قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ صَبِّ إِزْرِهِمْ﴾ [٥١-٥٤] ٢٢١
- قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ...﴾ [٥٥] ٢٢٣
- قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [٥٦-٦٠] ٢٢٤
- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ...﴾ [٦١-٦٥] ٢٢٦
- قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاهُ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ...﴾ [٦٦-٧١] ٢٢٧
- قوله تعالى: ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّمْ لَنِي سَكَرَيْهِمْ يَمُوهْنَ...﴾ [٧٢] ٢٢٨
- قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّبِيحَةَ مُشْرِقِينَ...﴾ [٧٣-٧٥] ٢٢٨
- قوله تعالى: ﴿وَلَهَا لِيَسْبِلَ مُقِيمٍ...﴾ [٧٦-٧٩] ٢٣٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَجِجِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٨٠] ٢٣٧
- قوله تعالى: ﴿وَأَنبِئْتَهُمْ مَا إِنَّمَا قَالُوا عَنَّا مُرْضِينَ﴾ [٨١] ٢٤٨
- قوله تعالى: ﴿وَكَاوُوا يَتَحَنَّنُ مِنْ لِبَالِ بَنِيكَ مَا يَبِينُ...﴾ [٨٢-٨٦] ٢٤٩
- قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ...﴾ [٨٨] ٢٥٢
- قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ...﴾ [٨٩-٩٠] ٢٥٥
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْفَرَاحَ عِضِينَ﴾ [٩١] ٢٥٦
- قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ لَنَسْفَعْنَهُ أَجْمَعِينَ...﴾ [٩٢-٩٣] ٢٥٨
- قوله تعالى: ﴿فَاصْغُرْ يَا تَوْرُوعُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ...﴾ [٩٤-٩٥] ٢٦٠
- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخِرَ سَوَافٍ يَعْلَمُونَ...﴾ [٩٦-٩٨] ٢٦٣
- قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [٩٩] ٢٦٤
- تفسير سورة النحل
- قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١] ٢٦٦
- قوله تعالى: ﴿يُرِلُّ الْمَلَكُ الْوَرْجِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...﴾ [٢] ٢٦٨
- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ...﴾ [٣-٤] ٢٧٠
- قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْفُسَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٥] ٢٧١
- قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ قُتِرْنَ﴾ [٦] ٢٧٣
- قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِيلُ أَنْفُسِكُمْ إِلَىٰ بَلَاءٍ لَوْ تَكُونُوا بِلَايِهِ إِلَّا يَشِقُ الْآنْفُسُ...﴾ [٧] ٢٧٥
- قوله تعالى: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْبَالَ وَالْحَمِيرَ لَتَرْكَبُونَهَا وَرَبَّنَا...﴾ [٨] ٢٧٨
- قوله تعالى: ﴿وَقُلْ اللَّهُ قَبْضُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَفَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩] ٢٩٠
- قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [١٠] ٢٩١
- قوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ...﴾ [١١] ٢٩٢
- قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجُودُ مَسْحَرَاتٌ بِأَمْرِهِ...﴾ [١٢] ٢٩٣
- قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
- يَذْكُرُونَ﴾ [١٣] ٢٩٤

- ٣٤٤ - قوله تعالى: ﴿لَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى...﴾ [٦٠].....
- ٣٤٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُرِيدُ اللَّهُ الْفَاسِدِينَ لَآتَىٰ كُلَّ مَا شَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ يَرِئُنَا مِنْكُمْ جِثَّةً كَثِيرَةٌ لَّا تُفْقَهُونَ كَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَئِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ فِضَّةٍ يَلْعَنُوا وَلَئِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَارٍ يَلْعَنُوا وَلَئِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ دُخَانٍ يَلْعَنُوا وَلَئِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ دُخَانٍ يَلْعَنُوا وَلَئِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ دُخَانٍ يَلْعَنُوا...﴾ [٦١].....
- ٣٤٦ - قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا يَكْفُرُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى...﴾ [٦٢] ..
- ٣٤٨ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَأَوْهُمُ الشَّيَاطِينُ أَغْنَاهُمْ فَهُمْ وَلِيَهُمُ الْيَوْمَ وَلَكِنَّ عَذَابَ آتٍ...﴾ [٦٣].....
- ٣٤٩ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ...﴾ [٦٤-٦٦].....
- ٣٥٧ - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لِلَّذِينَ احْتَمَدُوا مَعَ سَكَرٍ وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [٦٧].....
- ٣٦٤ - قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّبِيِّ أَنِ اتَّخِذْ مِنَ اللَّيْلِ نِصْفًا وَمِنَ النَّهَارِ نِصْفًا وَمِمَّا يَرْضَىٰ لَكَ الْبَلَاءُ...﴾ [٦٨].....
- ٣٦٦ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاتْلُكِ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٦٩].....
- ٣٧٤ - قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُؤْفِكُكُمْ وَيُنَكِّلُكُمْ مِنْ يَدِهِ إِلَهُ أَوْفَىٰ إِلَهُ لَكُمْ لَا يَمُرُّ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [٧٠].....
- ٣٧٥ - قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي فُضِّلُوا بِرَأْيِهِمْ رَزَقُوهمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَتَعْبَهُوا اللَّهَ بِجَعْدُونَ﴾ [٧١].....
- ٣٧٦ - قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَحْسَبُوا أَنَّكُمْ رَزَقْتُمْ بِهَا وَلَكِنَّ اللَّهَ رَزَقَهُمْ وَلَكِنْ كَفَىٰ غُفْلًا...﴾ [٧٢].....
- ٣٨٢ - قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَلِيمُونَ...﴾ [٧٣-٧٥].....
- ٣٨٦ - قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ذُرِّيَّتَيْنِ امْكُتًا لَمْ يَفْقَهُمَا أَيُّكُمَ آبَاؤُكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ...﴾ [٧٦].....
- ٣٨٨ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ غِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [٧٧].....
- ٣٨٩ - قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا...﴾ [٧٨].....
- ٣٩٠ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْفُجْأَةِ مَسْحَرِينَ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُعْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ...﴾ [٧٩] ..
- ٣٩١ - قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ...﴾ [٨٠].....
- ٤٠١ - قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ...﴾ [٨١].....
- ٤٠٦ - قوله تعالى: ﴿فَإِنْ قُلُوا فَإِنَّمَا عَلَّمَكُمُ الْقَلَمَ...﴾ [٨٢-٨٣].....
- ٤٠٧ - قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَبْيَضُّ بَيْنَ كُلِّ امْتَحِنٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُوَدِّعُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [٨٤] ..
- ٤٠٨ - قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا رَمَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ...﴾ [٨٥-٨٧].....
- ٤٠٩ - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَّابُهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [٨٨].....
- ٤١٠ - قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَبْيَضُّ بَيْنَ كُلِّ امْتَحِنٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُوَدِّعُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ...﴾ [٨٩].....
- ٤١١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ...﴾ [٩٠].....

- قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا...﴾ [٩١] ٤١٦
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقَعَّصْتُمْ عَنْهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبْتُمْ...﴾ [٩٢] ٤١٩
- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُبَيِّنُ لَكُمْ مِنْ بَيْنِ مَنْ يَشَاءُ وَلِيُثَبِّتَ لَكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٩٣] ٤٢٠
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَحَّضُوا مِنْكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثَوْبَةٍ...﴾ [٩٤] ٤٢١
- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ [٩٥-٩٦] ٤٢٢
- قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاتًا طَيِّبَةً﴾ [٩٧] ٤٢٣
- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [٩٨] ٤٢٥
- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ...﴾ [٩٩-١٠٠] ... ٤٢٦
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَأْنَا بِآيَةٍ نَكَاتٍ مَائِدَةً وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي...﴾ [١٠١-١٠٢] ٤٢٧
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَمَكَّمَ اللَّهُ بِقَوْلِهِمْ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِشَرِّ...﴾ [١٠٣] ٤٢٨
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...﴾ [١٠٤-١٠٥] ... ٤٣١
- قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ...﴾ [١٠٦] ... ٤٣٢
- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ...﴾ [١٠٧-١٠٩] ٤٤٩
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُضِيَ...﴾ [١١٠-١١١] ٤٥٠
- قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمٍ كَانَتْ مِثْلَهُ مُطْمَئِنَّةً بِآيَاتِهِا وَذُقُوا رَعْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [١١٢] ٤٥٢
- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [١١٣] ... ٤٥٣
- قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْ رِزْقِكُمْ وَاللَّهُ خَلَقَ طَيِّبًا وَاشْكُرُوا لِنِعْمَتِ اللَّهِ إِنَّ كَثِيرًا مِنْكُمْ لَفَاسِقُونَ...﴾ [١١٤-١١٧] ٤٥٤
- قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [١١٨] ٤٥٦
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوءَ بِجَهْلِ قُلُوبِهِمْ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ...﴾ [١١٩-١٢٠] ٤٥٧
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَرِهَ لَأَتْمِرَ اجْتِنَانَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ...﴾ [١٢١-١٢٣] ٤٥٨
- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾ [١٢٤] ٤٥٩
- قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾ [١٢٥-١٢٦] ٤٦١
- قوله تعالى: ﴿وَأَمْسِرْ وَمَا مَسَرُّكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ...﴾ [١٢٧-١٢٨] ٤٦٤
- الفهرس ٤٦٧